أمل بوشارب

سكرات نجمة

رواية

مكتبة نوميديا

منشورات الشهاب

سَكرات نجمة

© منشورات الشهاب 2015.
10، نهج إبراهيم غرافة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com
ردمك : 978-9947-39-145-7
الإيداع القانوني : 2015-4836

أمل بوشارب

سَكرات نجمة

رواية

منشورات الشهاب

تنويه

جميع المعلومات التاريخية والمنحوتات الفنية والأوصاف المعمارية، وكذا عناوين المؤلّفات الوارد ذكرها في هذا الكتاب والشخصيات التاريخية حقيقية*، إلا أن هذه الرواية خيالية ولا تمت للواقع بصلة، وكل شخوصها والمؤسسات الوارد ذكرها فيها هي من وحي خيال المؤلف، وأي تطابق أو تشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل الصدفة.

* تم تسجيل أسماء العلم الأجنبية الحقيقية الواردة في هذا الكتاب أسفل الصفحات بالأحرف اللاتينية، باستثناء الشخصيات التاريخية أو الميثولوجية المكرّسة بالرسم العربي، وكذا أسماء العلم من غير أصل لاتيني كالهندية والعبرية.

- 1 -

كان النّور الغامض المتسلّل من تلك اللوحة المطعونةِ يغري بالموت... موتٌ لم يكن يبدو أن رائحته تنبعث من الجثة الممدةِ بعناية على « سرير القبّة » العاصمي القديم، والذي كان علو أرجله يتجاوز المتر، ليزيد شكلُ النقوش المتداخلةِ لسمائه النحاسية من ترسيخ الشعور الغرائبي الذي كان يلف تلك الجريمة.

قلّب المحقّق عينيه بتوجس في أرجاء الغرفة بينما كان الفريق العلمي منخرطا في التحفّظ على الأغراض ورفع البصمات.

كان كل شيء في ذلك المكان ينبئ أن الأمر لا يتعلق على الإطلاق بجريمة عادية. وشعر إبراهيم الآن وهو يتأمل وجه القتيل وكأنه يقف أمام جريمة من نوع آخر... موتٌ من نوع آخر ؛ إذ لم تكن تعابير وجه المجني عليه تَشي بأنه كان يشعر في لحظاته الأخيرة بالفزع، ولا حتى وضعية رأسه كانت توحي بأنه عاش لحظاته الأخيرة كأي قتيل عادي، وهو الذي لم يكن مصوّبا نظره إلى الناحية التي كان يُفترض أن القاتل وجّه له طعناته منها. فقد كان يستحيل تقنيا على الجاني توجيه تلك الطعنات إلى صدر القتيل من على الجهة اليسرى للسرير. لم تكن تلك حتما وضعية طبيعية للرأس، فالمقتول يحاول دوما النظر إلى قاتله وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. فكر المحقق وهو لا يزال يطالع وجه القتيل الذي كان من الواضح

أنه لم يعش لحظاته الأخيرة كلحظات ذعر بل كلحظات غدر. مع أنه لم يكن مطعونا في الظهر... بل في وسط الصدر. غمغم إبراهيم وهو ينظر إلى تلك الجثة التي بدت من مكانها الرفيع ذاك وكأنها نحت متقن لكائن سماوي منخرط في صلاة صامتة، بل وكانت تلك الدماء التي تخضّب صدره تشبه دماء مستعارة لا تعرف ذلك البدن، وكأنها قد نفرت منه هربا من الموت لتتركه غارقا في الحياة.

أي جريمة هي هذه ؟

وعاد الآن لتأمّل وجه تلك اللوحة التي لم تكن تنفث سوى البياض... بياض مريب، يشبه لحظات تأمل سرمدية أو ربما مجرد موت دماغي. وخالجته لبضع ثوان الرغبة في الانخراط في شعور الاندماج بالنور الغريب الذي كان يدعوه لولوج ذلك العالم. ولكنه عاد ليرتطم بتلك الطعنات الموجهة إلى بطن اللوحة المسجاة هي الأخرى على ذات السرير إلى جانب القتيل الذي كان مصوبا نظره نحوها، وقد بدت قطرات الدم التي امتزجت بملامحها أنها لم تغير من تعابير وجهها بل صنعت له بعدا آخر.

من الواضح أنها طُعنت بذات اليد التي طَعنت القتيل...

وعاد لينظر إلى تلك الجثة وقد راوده إحساس غريب أنها واللوحة جسم واحد بانعكاسين مختلفين. لتحط عيناه الآن على تلك اليد المسلوخة التي كانت تقبع بهدوء إلى جانب صاحبها، والتي كانت لا تزال متعلقة بذراعها من خلال المعصم بواسطة بعض الأوتار، على الرغم من المحاولة الواضحة لفصلها عن ذلك الجسد والذي بدا أن قوة عظام الرسغ فيها حالت دون اتمام بترها بواسطة سكين عادية.

فكر وقد سرت قشعريرة صامتة في جسده لم يشعر بها يوما وهو من أمضى عمره بين الجثث يحقق في جرائم القتل المتنوعة،

إلى درجة غدا فيها الموت جزءا لا يتجزأ من تفاصيل يومياته، لكنه مع ذلك لم يكن يشعر بالموت في ذلك المكان... وأمام تلك الجثة. وانتابته للحظات مشاعر متضاربة... كان في تلك اللحظة يشعر بالسكينة... كان يشعر بالطمأنينة... كان يشعر بالهول... كان يشعر بالفجيعة...

وأجال ببصره مجددا في أرجاء ذلك المنزل الكولونيالي الذي احتفظ بالكثير من أثاثه العاصمي القديم، وأخذ يقلب عينيه بين تلك اللوحات الملغزة التي كانت تزين جدران الغرفة وقد كانت تحمل جميعها توقيع القتيل : إلياس ماضي. غمغم باضطراب وهو يحوّل بصره إلى اللوحة المطعونة وقد غدا مقتنعا أن كشف سرها قد يكون المفتاح لكشف لغز هذا الموت...

***

دخل إبراهيم مكتبه وصورة ذلك البياض المطعون لا تفارق ذهنه...

« يمّا ماتت...

يمّا ماتت ... »

وقف أمام النافذة وقد شده ذلك الصياح المكبوت الذي غزا على نحو جنائزي مكتبه، محاولا تبيّن مصدره، لترتطم عيناه ببياض العاصمة المخضب بكتابات انتحارية « ياكلني الحوت وما يكلنيش الدود »... « روما ولا انتوما »... « انتخبوا القائمة 45 »... وعاد ليشيح بوجهه عن تلك الجدران بحركة مباغتة متجاهلا ذلك الصوت، واستقر على كرسيه وهو ينظر إلى العلم الذي كان يزين مكتبه، وتناول من أمامه تلك الوثيقة الخضراء الأنيقة.

– هل دخل بجواز سفره الجزائري ؟ ووجّه سؤاله لمساعده وهو يقلب صفحات وثيقة سفر إلياس التي بدت مهجورة سوى من ختم الدخول إلى مطار هواري بومدين بتاريخ 16 جوان 2010.

– نعم. أجاب خير الدين وهو يحاول أن يستشف ما وراء السؤال واستطرد : « لكنه يحمل أيضا جوازا أوروبيا ». وبعد صمت مأتمي لم يتجاوز ثوان معدودة تابع : « هو رسميا يعتبر أنه قُتل كمواطن جزائري ».

– أعلم. تنفّس المحقق الكلمة بهدوء وهو يطلق تنهيدة ارتياح ليستدرك الآن بسعلات مفتعلة تشبه وخزة تأنيب ضمير أو اعتذار عن شعورِ الاطمئنان الذي ربّت على ذهنه في تلك اللحظة. « لا بأس... لا بأس... ». قال وعيناه لا تزالان مدقوقتين في ذلك الجواز كجثةٍ جحظت عيناها في العدم، وقام من على مكتبه لينخرط في لحظة تأمل جديدة من على النافذة التي تطل على بياض العاصمة المخدِّر...

لا بد أن نكتشف القاتل.

- 2 -

- إنها هي
- لكن...
- اعتن بها
- ... لكن هل هي موجودة ؟
- إن كنت تريد حقا إيجادها، فلا تنكر في الأصل وجودها.
- كيف ؟!
- إنها الرابعة...

انسكب على إلياس شعور خاص بالحماس شابه شيء من التوجس وهو يتذكر لقاءه مع الشيخ برهان الدين في ذلك الدير البوذي ببومايا في ضاحية بيزا.

من تكون ؟

فكر محاولا التقاط التفاصيل المستعصية لذلك الوجه الشفاف الذي كان يسعى لرسمه منذ ثلاث سنوات، وقد داخله إحساس غامض بالضيق وهو يقف أمام لوحته العذراء ليقطع عليه جرس الهاتف طنين أفكاره. نظر إلى الرقم بريبة ودقات قلبه تزداد خفقانا. لم يكن يتلقى اتصالات تبدأ بهذا الرمز الهاتفي في هذا الوقت من الليل عادة. التقط الهاتف بحذر وهو يحاول تكذيب حدسه...

لقد كانت هذه المرة كافية للتأكد من أن لا مجال للصدفة فيما يحدث حوله. أنهى المكالمة بهدوء، تناول ريشته وحاول ثانية رسم إطار ذلك الوجه إلا أنه عجز مجددا عن رؤيته. ألقى لوحة الألوان بنفاد صبر، وهمّ بإطفاء المصباح لعله يجد في الظلام ما عجز عن تلمسه في النور. ومن دون أن يشعر وجد نفسه يقوم بترتيب حقيبته.

عليّ إيجادها...

أنهى إجراءات الدفع من على موقع الخطوط الجوية الإيطالية، وطبع سريعا وصل تذكرته الإلكترونية :

Gentile Cliente Ilyes Madhi,
La ringraziamo per aver scelto i nostri servizi. Le inviamo la ricevuta del suo biglietto elettronico.
Buona giornata[1].

تناول جواز سفره الأخضر، وشعر لوهلةٍ أنه يراه للمرة الأولى وقد اصطدمت عيناه بتلك اليد الذهبية المتناظرة التي كانت تستقر وسط شعار الجمهورية الجزائرية... ازدادت دقات قلبه خفقانا، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يصعد على أول طائرة متجهة إلى مطار هواري بومدين.

لابد من أن أكتشف سرها. فكر وهو يتأمل تلك الكفّ وقد داخله شعور غامض بالنشوة.

1. زبوننا الكريم إلياس ماضي نشكرك على اختيارك خدماتنا، وها نحن نرسل لك وصل تذكرتك الإلكترونية. مع خالص التحية.

- 3 -

– إنها يد ميريام أخت موسى وهارون. قال إسحاق وهو يركّز نظره بحركة لا تخلو من صفاقة في سواد عينيّ سي عبد الله وكأنه يبث على رأسه تعويذة. « إنها رمز أسفار موسى ». وواصل بذات النبرة الاستفزازية وهو يرفع كفه اليمنى ليَشرَع بتعداد كتب التوراة على أصابع يده الخمسة : « سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد ، وسفر التّـ.. ».

– اصمت. قاطع سي عبد الله إسحاق بحدة، وكأنه يمنع محدثه من رفع كفه بأصابعه الخمسة في وجهه، بكل ما تحمله تلك الحركة من عدائية مبطّنة، لتبقى يد إسحاق معلقة في الهواء بخنصر مثني مرتعش لم تكتمل معه حركة الخامسة. « بل هي يد فاطمة ابنة رسولنا عليه الصلاة والسلام، ورمز أركان الاسلام الخمسة ». صاح سي عبد الله في وجه إسحاق وقد انتفخت أوداجه من شدة الانفعال. « إنها ملكنا نحن ». وتلفظ بجملته الأخيرة وهو يزمجر في وجه ابن صديقه سي بن هارون دون أن يحاول كتمان سخطه.

– لكنني لم أقل سوى أنهم هم أيضا يعتبرونها ملكهم. رد إسحاق بهدوء مفتعل من دون أن يتفاجأ بردة فعل صديق والده العتيد على كلامه، وهو يدس المقص والشريط اللاصق في الدرج بعد أن لف أول « خامسة » يبيعها في ذلك اليوم. بل واصل كلامه

دون أن يكترث بالحنق الذي تملك سي عبد الله الذي كان يجلس على كرسيه الخشبي الخفيض في زاويته المفضلة من مدخل محل صديقه بن هارون الذي كان منهمكا في تلك اللحظات بترتيب النحاسيات التي اشتهر بها محله الذي كان يطل على أودان أهم ساحة في قلب العاصمة. « إنها موجودة حتى داخل مبنى الأمم المتحدة في نيويورك ». واستطرد إسحاق الآن وهو يحدق في عيني سي عبد الله الضيقتين وكأنه يستعد لإطلاق رصاصة الرحمة على رأسه : « وهل تعلم أين ؟... إلى جوار الشمعدان السباعي ». قال ببطء وقد حوّل عينيه الآن عنه وكأنه يجنبه عناء تفادي الإحراج الذي كان من شأن آخر كلمتين أن تسببا له فيه.

– وإن يكن ؟ رد سي عبد الله بلا مبالاة صادقة ممزوجة بشيء من الزهو وقد مُحيت فجأة آثار الانفعال من على حباله الصوتية.

– لكنها تُعرض في قاعة الهدايا التذكارية للقسم الخاص بإسرائيل. أجاب إسحاق وقد خاب أمله من ردة فعل سي عبد الله الأخيرة وواصل وهو يحاول بث المزيد من الزخم على كلامه بنبرة لا تخلو من تحدّ : « وهناك تباع نماذج مختلفة للخامسة تسوّق باعتبارها جزءًا من التراث اليهودي وهم يسمونها « تشامساه ».

والآن ابتسم سي عبد الله ودكّ عصاه على الأرضية الإسفلتية المتشققة لشارع ديدوش مراد بحركة جانبية، وكان ذلك يعني أن خصمه قد سقط في فخ ما وأنه على وشك بسط سيطرته على النقاش. وبهزّة خفيفة من كتفه ألقى نظرة على سي بن هارون الذي لم يكن منخرطا في هذا الحديث وهو من لم يكن يُعرف عليه كثرة الكلام، بينما كان صديقه يلقن ابنه درسا في التاريخ. فكر سي عبد الله وهو يرد على آخر ما تلفظ به هذا الشاب الذي تجرأ

أن يدخل في سجال تاريخي معه وهو من لم يكن يشق له غبار في هذه المجال الذي أمضى سنوات طوال في البحث فيه، ولم يكن حتما مستعدا أن يترك أحدا ينتصر عليه في سَوق الحجج التاريخية الدامغة، خصوصا إذا تعلق الأمر بأعداء الأمة. غمغم وهو يتأمل بشيء من الاستصغار هذا الشاب الذي لم يتجاوز العشرين من عمره بعد، والذي تجرأ مع ذلك أن يلمّح في حضرته بأن « الخامسة » التي تزين شعار الجمهورية الجزائرية، قد تكون ملكًا لإسرائيل لمجرد أن نماذج منها معروضة في الأمم المتحدة على أساس أنها جزء من التراث العبري...

– بل هذا دليل يا صغيري على أن الخامسة ليست حتما ملكهم وأنهم لم يقوموا سوى بالسطو عليها. قال سي عبد الله وهو يهز رأسه هزة العارف بخبايا الأمور، ثم استأنف بهدوء وهو يلبس ابتسامة أطلت منها سن ذهبية حلت محل الضاحكة في فمه : « وخذ هذا... تشامساه من خامسة، يعني حتى أنهم سرقوا الإسم معها ».

– لكن العبرية لغة ساميّة مثلها مثل العربية، ومن الطبيعي أن تقترب المسميات. أجاب إسحاق وقد طفت على صوته رنة خيبة أمل، وهو من كان يتوقع سماع حجج أكثر جدية من صديق والده المحنك.

– لا، لا، لا... قال سي عبد الله بهدوء وقد رصع اعتراضه هذه المرة بابتسامة نصر تَشي باستخفافه بمنافسه الغض واستعدّ لبدء حِجاجه الفعلي.

وقد كان سي عبد الله كما كان يناديه الجميع موظفا سابقا في شركة الغاز الحكومية، وعلى الرغم من أنه كان يحمل شهادة مهندس مدني، إلا أن ولعه بالتاريخ جعله يتفرّغ بشكل كامل

للقراءة والبحث في أسرار الماضي منذ حصوله على التقاعد قبل اثنتي عشر سنة. وقد كان يَعتبر مرحلة البحث هذه من حياته أروع مراحل عمره على الرغم من الوهن الذي أصاب بدنه والأمراض التي غزت جسده وأضعفت حركته لكنها لم تؤثر مع ذلك على قوة ذاكرته وحضور ذهنه. « لم يولِ اليهود يوما وهم يعيشون في كنفنا اهتماما خاصا بتطوير لغتهم ». قال سي عبد الله وهو يتابع تحركات صديقه بن هارون الذي التقط مقعده الخفيض واستقر قبالته في مدخل المحل. « بل هم دأبوا على استخدام اللغة العربية في كافة شؤونهم فأصبحت اللغة شبه الرسمية لليهود في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد كانوا يستعملونها في التخاطب بينهم ووضع مؤلفاتهم وحتى في أداء صلواتهم، حتى أن الكاتب اليهودي ألبير بن سوسان اعترف في كتابه Mon Algérie أن والده كان يترجم فوريا الصلوات والدعوات المرافقة لمختلف الطقوس الدينية اليهودية إلى العربية حتى تفهم جدته ما يقال، وهذا يؤكد أن حضور اللغة العربية في الأوساط اليهودية أقوى من اللغة العبرية، وهو ما لا يدع مجالا للشك في مدى الأثر الذي ستتركه اللغة الأقوى في المعادلة هنا على اللغة العبرية شبه الغائبة تماما عن الحياة اليهودية ». وصمت سي عبد الله برهة واستأنف حديثه كأنما احتاج لتلك اللحظة حتى يستذكر فيها أمرا ما واستطرد : « هذا عدا أن من يعتبره اليهود أب النحو العبري وهو مروان بن جناح وضع مؤلفاته في النحو العبري باللغة العربية وقد بدا فيها واضحا تأثره بأسلوب معاصريه من النحويين المسلمين ».

– ما تقوله ربما دليل على أن اليهود قد طوروا لغتهم عن طريق اللغة العربية. قال إسحاق وقد وقف الآن إلى جانب والده الذي أسند بعناية طرف صينيةِ النحاس القديمة التي كان يستعد لتلميعها إلى

الأرض وواصل : « ولكنه يعني ضمنا أنهم كانوا معنيين أيضا بتطوير تراثهم، فهم لم يتخلوا عن لغتهم بشكل كامل لأنها كانت تشكل بالنسبة لهم جزءا من إرثهم الثقافي الذي يعتزون به، وقد تكون « الخامسة » جزءا من هذا الإرث الذي حرصوا على عدم تضييعه واقترضوا له إسما عربيا إذا ما سلمنا بفرضية سرقة اسم الخامسة كما تقول طبعا ». وتابع الآن وهو ينفض خرقة القماش التي كانت في يده مقفلا عينيه بحركة غريزية بينما كان والده يقلّب صينيته كأنما كان يبحث داخل نقوشها عن شيء ما قد ضاع منه، واستطرد : « وتماما كما لا يمكن لأحد أن ينكر فضل العربية في تطوير العبرية إذا ما سلمنا بصحة كلامك، فلا أحد أيضا يمكنه أن ينكر أن غالبية اليهود امتهنوا الصناعات الحرفية في الجزائر وكادوا يحتكرونها لأنفسهم بين القرن الـ 8 والـ 15 م، حيث نبغوا بشكل خاص في صناعة المصوغات والذهب والنحاس ». وواصل وهو ينتقي كلماته الآن بحرص بينما كان والده لا يزال يفرك تلك الصينية بعناية : « ولا يمكن أن نتصور أن تزاول جالية بأكملها عملا محددا طيلة قرون دون أن تترك فيه بصمتها، ولنعترف هنا أنها قد تكون الخامسة ».

– لا يا صغيري. قاطع سي عبد الله إسحاق بشيء من الانفعال محاولا إخفاء شعور الدهشة الذي تملّكه وهو يستمع إلى شبه محاضرة متقنة في التاريخ من شاب ضئيل العود كان يعتمر قبعة رياضية، وحوّل عينيه عنه بحركة آلية موجها نظره الآن إلى سي بن هارون وبدا وكأنه يقصد تجاهل الابن وقد عادت نبرة الانفعال لتجلل صوته، « ما تطلق عليه اسم الإرث اليهودي ليس إلا موروثات ثقافية للشعوب نفسها التي عاش معها اليهود، والتي تبنوها بشكل ما مع مرور الزمن وأصبحوا ينسبونها إليهم، أو بالأحرى

سطوا عليها ». قال وهو يراقب سي بن هارون الذي تناول نتفة قطن أخرى من كيس كان ملقى على الأرضية بجانبه وبدأ يفرك قلب صينيته النحاسية الصفراء من دون أن يرشح عن وجهه أي آثار اهتمام بالنقاش الدائر بين صديقه وابنه.

والواقع أن سي بن هارون لم يكن يظهر عليه وكأنه كان معنيا إطلاقا بحجج الطرفين ولاحتى بجدوى هذا الحديث من أصله، وهو من لم يكن يبدو أن فكرة الأثر الثقافي لليهود في الجزائر ترعبه أو تثير شيئا من حفيظته كما كان من الواضح أنها تفعل مع صديقه، وهو من تربى على أغاني محمد الطاهر الفرڤاني، التي كان يعلم مثلما كان يعلم جميع محبي موسيقى المالوف في الجزائر أن صاحب الفضل في تطويرها يعود لليهودي ريمون ليريس الذي كان يحتفظ سي بن هارون بأسطوانات نادرة له تعود للحقبة الاستعمارية حيث كان ليريس يُعرف آنذاك باسم الشيخ ريمون.

نظر سي عبد الله إلى الصينية التي كان بن هارون منهمكا بتلميعها، وبدت نظراته إلى صديقه الآن نظراتٍ شبه تقريعية خصوصا بعد أن لاحظ اندماجه مع نغمات عاصمية عتيقة كانت تصدر من مذياعه القديم مفضلا إياها بشكل واضح على الاستماع لحديثه، وللحظات غاص هو الآخر في الألحان السحرية لتلك الأغنية العجائبية التي كان يبثها المذياع، وأصاخ سمعه قليلا هو الآخر إلى « يا بلّارج » التي كان يصدح بها صوت عاصمي عميق، لكنه لم يكن لفضيلة الدزيرية المغنية التي اشتهرت هذه الأغنية على لسانها في الخمسينيات من القرن الماضي، بل لرجل. وأخذ الآن سي عبد الله نفسا عميقا كمن يحاول الاستفاقة من غيبوبة سرقته للحظات، وحاول استعادة تركيزه بينما استعدّ لاستئناف المناقشة مع هذا الصغير الذي لم يكن ليرضى بأن يُمنى أمامه بهزيمة

« تاريخية ». واستطرد بعد تفكير عميق متعمدا مجددا مخاطبة صديقه الحاضر الغائب عن هذا الحوار.

– خذ هذا يا صديقي. قال وهو يعدّل طربوشه الأحمر القاني الذي لم يكن يجعل من منظره يبدو غريبا على الأقل في تلك اللحظة وهو يجلس في مدخل محل مقتنيات تقليدية حيث بدا شكله متناغما مع ديكور المكان. « ما من مثال أصدق للتدليل على سطو اليهود على أفكار غيرهم أفضل من الزي الإلزامي الذي فرضه عليهم حكام الجزائر في العهد الإسلامي من أجل التمييز بينهم وبين غيرهم حتى تسهل مراقبتهم لكونهم عُرفوا بتجاوزاتهم ». وعدّل جلسته على المقعد وهو يرقب بطرف عينه رد فعل إسحاق الذي انخرط في نفض الغبار بشكل عشوائي عن بعض مقتنيات محل والده الذي كانت تتنوع بين ورود للصحراء ولوحات لشوارع القصبة وبعض الحلي القبائلية ونعال البابوش بل وبعض الزرابي المزابية صغيرة الحجم، وذلك على الرغم من أن محل بن هارون كان مخصصا قبل سنوات مضت كليا للنحاسيات، إلى أن قرر تنويع مقتنياته بسبب تراجع إقبال الناس على شراء النحاس وتفضيلهم التحف الصينية الرخيصة عليها، وهي التحف التي لم يكن محل بن هارون نفسه يخلو من بعضها. كان إسحاق يتابع باهتمام كلام صديق والده وإن كان يحاول في تلك اللحظات الادعاء بعكس ذلك كونه فهم من لغة جسد سي عبد الله أنه كان يعمد إلى التقليل من قيمته، إلا أنه وفي نفس الوقت كان يشعر أنه يأخذ حِجاجه على محمل الجد والدليل متابعته للنقاش معه حتى وإن كان ذلك من خلال التظاهر بتوجيه كلامه لوالده بدلا عن مخاطبته بشكل مباشر. وفي الوقت الذي كان سي عبد الله منخرطا في سَوق حججه أحسّ فجأة بتشتت

في أفكاره ليتوقف عن الحديث ويصيخ السمع إلى كلمات تلك الأغنية الحوزية الملغزة...

أيّما يمّا شوشتي مضفورة
هادو سبع سنين ما صليت

لتسقط عيناه في لحظة شبه سريالية على نجمة كانت تزيّن الصينية العتيقة التي كان سي بن هارون مندمجا في تلميعها منذ الصباح، بينما واصل ذلك الصوت بالهدير بكلمات تلك الأغنية الغامضة...

وكي جيت نصلّي نسيت السورة

.....

وشعر لثوانٍ أنه فقد حسّه بالمكان الذي كان يجلس فيه، وصمت الآن ليصمت كل شيء من حوله وقد جحظت عيناه في تلك النجمة التي بدت نقوش الصينية المتداخلة ببعضها البعض والملتفة بعناية من حولها أشبه بمتاهة تم تصميم خطوطها باتقان لتؤدي إلى تلك النجمة التي زاد انعكاس شمس العاصمة المُحرقة تلك الصبيحة من وضوحها.

إنها نجمة داود السداسية. تمتم سي عبد الله في غير تصديق.

حدج سي بن هارون الآن صديقه بتوجس وكأنه فهم ما كان يدور في خلده ليسدد مباشرة نظرات مبهمة إلى ابنه الذي كان مصرا على الدخول في نقاشات لم يحبذ بن هارون يوما الانخراط فيها، بينما بقي سي عبد الله هامدا في مكانه وبدا الآن وكأن الدم قد تجمد في أوصاله.

- 4 -

احرصوا على عدم نشر هذه التعاليم على نطاق واسع. هذه التعاليم ينبغي أن تبقى حتما سرية وألا يطلع عليها الآثمون، وحانثو اليمين، وكذا المتحذلقون والثرثارون. كما لا يجب أن يتعلمها أيضا المتشككون والنمامون، ولا أن تلقن للمهرطقين غير الصادقين... إبعاد هذه التعاليم المقدسة عن هؤلاء الأشخاص مبدأ لا يجب الحياد عنه.

قرأ المحقق بالكثير من الريبة ترجمة هذا النص من المحادثة المتقطّعة لإلياس قبل يومين من مقتله على شبكة سكايب، ثم عاد لتناول تلك الورقة القديمة المطوية بعناية والمحشورة في زاوية تبدو منسية من محفظة أوراقه الجلدية الأنيقة وقد داخله شعور خاص بالارتياب.

00213216337540

BEN HAROUN

لقد كان ذلك هو رقم الهاتف الوحيد الذي كان يحتفظ به إلياس مسجّلا على ورقةٍ بينما كانت بقية الأرقام محفوظة في هاتفه المحمول، وذلك على الرغم من أن تقرير الوارد والصادر من المكالمات فيه لم يكن يشير إلى أي اتصال قد جرى من أو إلى هذا الرقم منذ دخوله إلى الجزائر.

ما علاقة بن هارون هذا بالقتيل يا ترى ؟ فكّر إبراهيم وهو يتناول الآن أول تقارير التحقيقات بشأن جيران إلياس، آملا بأن تكشف له بعضا من خيوط هذه الجريمة.

- 5 -

« مسلّمين مكتّفين ». تمتمت « يمّا مريم » في سرها وقد تسارعت نبضات قلبها بمجرد أن لمحت طرف حائك تلك العجوز الغامضة يتدلى فوق الدرج المؤدي إلى عمارتها، وهي السلالم التي كانت تربط ساحة أودان بحي تليملي من أمام الوكالة الرئيسية للخطوط الجوية الجزائرية بالعاصمة. لابد أنهم غاضبون. فكرت « يمّا مريم » وهي ترفع قدميها المتثاقلتين على تلك السلالم التي بدت للحظات أن لا منفذ لها، وحاولت أن تشيح بنظراتها عن تلك الكومة البشرية المنحوسة آملة أن تمر من أمامها دون مضايقة« هم ».

لقد كانت جالسة كعادتها في تلك الزاوية القذرة من الدرج هي وحائكها الأبيض الذي تحوّل إلى ما يشبه خرقة رمادية مهلهلة لا تبدو وكأنها كانت في يوم من الأيام رمزا لأناقة شابة عاصمية رشيقة، وقد بدت اليوم عصبية على غير عادتها. لابد أنها كانت تتحدث لـ « هم ». فكرت « يمّا مريم » وهي تراقب حركات صاحبة الحايك تلك، والتي كانت تحرك يديها بنرفزة واضحة مداولة بينهما في ضم طرفي ردائها الأبيض المتسخ الذي كان يخفي كامل وجهها. لم تكن « يما مريم » تتوقع يوما أن ترى صاحبة الحايك في تلك الحالة، وهي التي كانت تقبع دوما من دون حراك كأي كيس قمامة

مرمي بلا مبالاة على ذلك الدرج الاسمنتي الطويل، دون أن ترف لها أبدا ثنية حائك. نظرت « يمّا مريم » إلى تلك العجوز الغريبة التي لم تتمكن يوما من رؤية وجهها منذ قدومها إلى ذلك الحي وقد انتابها في تلك اللحظات شعورٌ خاص بالفزع وهي التي بدأت تؤمن فعلا أن تلك العجوز لم تكن سوى جمادا بحسب تصنيف « لالّة فضّة المسخوطة ». والواقع أن فضة المسخوطة كانت سحّارة حي القصبة القديمة، ويقال أنها أخذت معارفها عن شيخ قبّالة فاسي أو بوسعادي، لكن « يمّا مريم » لم تعد تذكر هذه التفاصيل الصغيرة عن « ڤزانة » القصبة الشهيرة، فقد يكون معلمها أيضا شيخا عراقيا، إلا أنها لم تكن متأكدة. غير أنها تذكر تماما في المقابل أنها لم تفهم أصلا ما الذي كانت تعنيه كلمة قبّالة التي كان يقال أن « لالة فضّة المسخوطة » كانت خبيرة بها، وكل ما كانت « يمّا مريم » على يقين منه هو أن فضّة كانت بصّارة لا يشق لها غبار، وهي التي حصل وأن تسللت إلى عالمها من خلال حلقة عجيبة من طفولتها النائية، والتي لم تشعر بنفسها الآن إلا وهي تسترجع منها تلك اللحظات السريالية...

– اعلمي أن العالم مقسّم إلى خمسة أقسام. قالت وهي تدس الخامسة الفضية بين الثنايا البيضاء لقماط الطفل الذي لم يكن يتجاوز عمره الشهرين. « الجماد، النبات، الحيوان، الناطق، واليهودي ». قالت فضة المسخوطة وهي تمسح وجه الرضيع الذي كان موضوعا أمامها صعودا وهبوطا بكفها من دون لمسه على بعد السنتيمترين لتواصل بعدها بصوت عميق : « هذه الخامسة ستحمي ابنك من عين الناطق، وتحفظه من سمّ النبات، وتبعد عنه ناب الحيوان، وترفع عنه ثقل الجماد ». والآن صمتت للحظات

وأطبقت جفنيها وهي تضع كفها على جبين الطفل، وبنبرة جنائزية أعلنت : « لكن مشّي من اليهودي صاحب الدار ». وكرّرت العبارة المبهمة مرتين. « لكن مشّي من اليهودي صاحب الدار ! ».

وعلى الرغم من مرور أكثر من ستين سنة عن حضور « يمّا مريم » لهذه الطقوس السوداوية في منزل لالّة فضة المسخوطة بالقصبة حيث لم تكن تتجاوز الست سنوات من عمرها إلا أنها لا تزال تتذكر تفاصيل تلك الزيارة حين رافقت والدتها التي حملت رضيعها إلى ذلك البيت المعتم من أجل تحصينه من العين والحسد كون فضة المسخوطة « صاحبة العينين البيضاوين » كانت معروفة بأنها « ڤزانة » تتمتع بقدرات خاصة. ولا تزال « يمّا مريم » إلى اليوم تحتفظ في ذاكرتها بتلك اللحظات التي خضع فيها شقيقها الصغير لتلك الجلسة السحرية الغامضة، حيث غيرت له والدته اسمه على إثرها من محمد إلى خميسي نزولا عند نصيحة فضّة المسخوطة، وذلك حتى لا تفقده مثلما فقدت سابقا أربعة من أشقائه الذكور الذين كانوا يتسابقون على الموت قبل أن يتجاوزوا عامهم الأول، لتبقى بذلك تلك الوالدة المكلومة أمّا لثلاث بنات فقط كانت مريم أكبرهن.

وضعت « يمّا مريم » أكياس الخضار على الأرض، ودست يدها في صدرها مخرجة محفظة نقودها الصغيرة، وأخذت تبحث في داخلها على عشرة دنانير تشتري بها لهذه العجوز شيئا يؤكل من مخبزة الحي الصغيرة التي كانت محشورة في زاوية السلالم، علّ ذلك قد يخفف من غضبها لدى مرورها بها أو يردع عنها أي لعنة قد تصيبها. وأخرجت الآن قطعة نقودٍ من فئة العشرة دنانير وهي تحمد الله على استقرار ثمن الخبز عكس بقية الأطعمة الأساسية التي كان

يزيد سعرها كل سنة، ذلك أن الحكومات الجزائرية المتتابعة كانت تدعم سعر خبز « الباغيت[2] » لمواطنيها، وقد كان ذلك القضيب هو خبز مواطني الجزائر الفرنسية قبل الاستقلال ليبقى من دون أي تغيير يذكر في المقادير الخبز الرسمي اليومي لأبناء الجزائر المستقلة.

سحبت « يمّا مريم » قدميها وهي مثقلة بأكياس الخضار وهي تفكر في المبالغ التي صرفتها في السوق بينما كانت تحكم بإغلاق قبضة يدها التي دست فيها سعر الخبزة، شاكرة موضة اللباس الجديدة في لا وعيها لعدم اضطرارها للبس الحايك مجددا والذي لاتزال هذه العجوز الغامضة تلف نفسها به، كون ارتدائه لم يكن عمليا للتسوق. والحال أن « يمّا مريم » كانت تتلحف الحايك سابقا مثلها مثل غيرها من نساء العاصمة حيث كانت تلف ذلك الرداء الأبيض عند الخصر وتسدله على رأسها لتغطي كامل بدنها، وقد كان يرافقه عادة « العجار » الذي كان يحطّ على بشيش المرأة بغزل متناه، فلم يكن لصاحبة أقبح سحنة إلا أن تتحول إلى كائن حسي مثير من ورائه وهي تخفي بمواربة تفاصيل وجهها، لتظهر بالمقابل عينيها المكحلتين الشرهتين. غير أن قطعة القماش هذه والتي كانت براءتها تلامس حدود الإثارة قد بدأت تنقرض من المدينة البيضاء سنوات السبعينات، ليحل محلها « الحجاب » الذي اجتاح البلد بقوة على نحو جعل الحايك يبدو سريعا وكأنه قطعة أثرية من مخلفات العصر الطباشيري.

تقدمت « يمّا مريم » بحذر إلى عجوز الدرج وهي تمدّ لها قضيب « الباغيت » الذي اشترته لتوها، والذي كانت تشعر بلسعة حرارته على يدها كونه قد خرج للتو من الفرن، لتبقى ذراعها معلقة في

2. Baguette.

الهواء لخمس ثوان وهي ترقب ردة فعل تلك العجوز ،وقد بدا عليها الارتعاش الواضح وهي تلهج في سرها « مسلمين مكتفين... مسلمين مكتفين »، بينما تسمرت صاحبة الحايك في مكانها كالصنم لتمر تلك اللحظات بطيئة خاوية، دون أن تمد يدها لتناول ذلك القضيب الفرنسي الملتهب. ها هي لا تزال تمسك بطرفي الحايك الذي كان يخفي تماما كامل جسمها ، ولم يكن يظهر منها سوى حفرة سوداء غائرة في منتصف وجهها ، لم يتمكن أحد لحد اليوم من سبر أغوارها. من الواضح أنها لم تكن تود إطلاق يديها حتى لا ينفك الحايك فينكشف وجهها أمامها... أمامه ! فكرت « يمّا مريم » وهي تضع قضيب الباغيت بحذر على الأرض، بعد أن انثنى من منتصفه وكاد ينكسر لكونها كانت تمسك به من طرفه حتى تبقي على مسافة أمان بينها وبين تلك العجوز، ولم يفتها أن تقبّله بحركة اعتذارية سريعة حيث لم يكن من اللائق وضع خبزة على الأرض في العرف الشعبي كونه نعمة إلهية، إلا أن « يمّا مريم » كانت مضطرة لذلك في تلك اللحظة. وتابعت طريقها وهي تشعر بالكثير من السخط بينما اختلطت رعشات يدها بشعور الفزع الغامض الذي اجتاحها في تلك اللحظات العبثية أمام تلك المرأة والألم من لسعة الخبزة الحارقة.

تلك العجوز الملعونة.

همهمت « يمّا مريم » وهي تفرك يدها الملتهبة، وقد تذكرت حسرة والدتها على وفاة شقيقها في عامه الأول بعد أن سقط عليه دلو ماء ساخن ليلتحق هكذا بأشقائه الذكور الأربعة، وهي التي لم تنس وجه أمها في اليوم الذي فقدت فيه آخر أبنائها الذكور، وكانت قد اصطحبتها كعادتها لمساعدتها بالقيام بالأعمال المنزلية

في أحد منازل باب الوادي ذات سبتٍ ومعهما خميسي. والواقع أن « يمّا مريم » لم تكن تدري لِمَ كانت رؤية تلك العجوز تستثير خلايا دماغها لاستحضار كل تلك الذكريات البعيدة والنائية. وقد يكون السبب في ذلك الحايك القديم الذي كانت ترتديه وكان يذكّرها كلما نظرت إليه بقصصٍ بالأبيض والأسود من أرشيف حياتها. تنهدت « يمّا مريم » وهي تتلمس الآن الخامسة الذهبية التي كانت تزين بها عنقها، راجية أن تكون قد حفظتها من أي مكروه كان ليصيبها من تلك العجوز الملعونة التي رفضت لتوها « نعمة ربي »، ومسّدت الآن خامستها التي كانت نصبيها من إرث الذهب الذي تركته لها والدتها. والواقع أنه وعلى الرغم من أن وصفات المنجمة العمياء لم تنفع والدة مريم في تحصين ابنها، إلا أن إشاعة خبر أن المنزل الذي مات فيه خميسي في باب الوادي كان منزل يهودي لم تكن زوجته تقوم بأعمال المنزل يوم السبت، زاد من شعبية منجمة حي القصبة، وغدت عبارتها « لكن مشّي من اليهودي صاحب الدار » عبارة مرجعية للتدليل على قدراتها الخارقة للنبش في أخبار المستقبل. لتتحقق بذلك نبوءة فضة المسخوطة التي جعلتها تُعرف كـ « ڤزانة » القصبة التي لا تخفى عنها خافية، وتُنسج حولها من بعد هذه الحادثة مختلف القصص والأخبار. فقد كان يشاع عنها مثلا أنها هي من أحرقت عينيها على سبيل التضحية في إحدى الطقوس الشيطانية، فكانت الصفقة التي تخلت فيها عن نظرها في مقابل الحصول على عينين ينظران إلى عوالم لم يكن يستطيع أحد غيرها رؤيتها، لتصبح عيناها بذلك اللون الأبيض المتسخ والمثير للهلع والذي كانت تتميز بهما... عينان كان يذكرها بهما حايك هذه العجوز الغامضة على نحو مشؤوم. واستغفرت « يمّا مريم » اللّه محاولةً دفع هذه الذكريات المفزعة عن رأسها، بينما

كانت تصعد آخر درجات تلك السلالم الطويلة وهي تلتقط أنفاسها غير مصدقة أنها ستصل أخيرا إلى باب عمارتها. لقد كان ذلك نهارا شاقا بكل تفاصيله، وبكل ذكرياته، السوداء منها والبيضاء. وتنهدت الآن وهي تفكر أن مسلسلها اليومي لم ينته مع ذلك بعد، كونها لا تزال مضطرة للطهي لأبنائها التسعة الذين لابد أنهم كانوا لا يزالون نائمين في هذه الساعة. فكرت بحنان وهي تتأسف على حال أبنائها الذين لم يتمكن أحد منهم من الحصول على عمل لائق لحد الآن وهم في هذه السن، وقد كان ابنها الأكبر يتجاوز الأربعين سنة.

- لا عمل... ولا زواج.

غمغمت وهي تحمد الله في غير اقتناع كونها على الأقل لم تُحرم كوالدتها من الذكور، لكنها كانت مقتنعة في المقابل أن خِلفة الذكور قد جلبت لها العين الحاسدة التي حالت بين أبنائها وبين أسباب الزواج والرزق. ولكنها عادت لتبتسم بفخر وهي تتذكر أنها أنجبت تسعة أسود كما كان يحلو لها تسميتهم. وتوقفت الآن للحظات ووضعت أكياس التسوق على الأرض، وأخرجت منديلا من صدرها لتجفف العرق الذي كان يتصبب من وجهها. كانت الساعة لم تتجاوز العاشرة بعد ودرجة الحرارة بدت وكأنها مسروقة من ساعات الظهيرة، وأما الرطوبة فقد عرفت أعلى مستوياتها ذلك اليوم. كان واضحا أن فصل الصيف هذا العام قد هجم على الجزائر بكل ما أوتي من حرارة. تابعت « يمّا مريم » المسير وأخذت تسحب قدميها متسلقة الشارع المُوصل إلى عمارتها. ودخلت الآن المنزل وهي تشعر بانقباض شديد في صدرها، إذ لم يكن ينقص من ذلك اليوم سوى تضييع نقودها. فكرت وذهنها لا يزال معلقًا في محفظتها والتي انتبهت وأثناء إخراجها للنقود التي اشترت بها الخبزة لتلك

العجوز الغامضة، إلى فقدانها منها لورقة مالية من صنف ألف دينار. هل وقعت عند الخضّار، أم لدى الصيدلي ؟ فكرت وهي تفتح الباب وسرعان ما جال في خاطرها فكرة العودة أدراجها للبحث عن مالها الضائع لكن الحر الشديد ردعها مباشرة عن الفكرة. ربي يخلف. غمغمت وهي تشعر بالغصّة، إذ كان بإمكان تلك الورقة المالية أن تُؤمّن لها ولأبنائها « حليب الشكاير » لمدة أسبوعين، وذلك على الرغم من توصية الطبيب ليمّا مريم منذ سنوات بضرورة تعويض ذلك السائل الملوّن بحليب حقيقي لتفادي إصابتها بترقق العظام، وذلك كون ما يعرف بـ « حليب الشكاير » لم يكن يحتوي على القيمة الغذائية للحليب كما كان يعرف الجميع وذكّرها بذلك طبيبها، إلا أن اقتناء حليبٍ حقيقي قد يصل سعره إلى ثلاثة أضعاف سعر ذلك السائل المُبيَّض والذي كانت تدعم سعره الدولة الجزائرية مثله مثل خبز الباغيت لم يكن مُتاحا لها. وفكرت « يمّا مريم » أنها قد تعمد إلى إضافة بعض الماء للحليب الذي ستشتريه في الأسابيع القادمة، كما هي عادتها لدى قدوم ضيوف مفاجئين لزيارتها، وذلك من أجل تعويض قيمة خسارة تلك العملة الورقية دون الاخلال بميزانية بيتها. ووضعت الآن أكياس الخضار في المطبخ وتناولت قنينة الماء من الثلاجة وهي تستغفر الله بضيق شديد، محاولة ألا تثير أي ضجة حتى لا توقض أبناءها. وقبل أن تهم بفك خمارها الذي أهدته لها جارتها بعد عودتها من الحج، والذي كانت تتيمن به لأنه أتى من البقاع المقدسة على الرغم من أنها كانت تعلم في سرها أن جارتها قد اقتنته من ساحة الشهداء، أخرجت محفظة نقودها لتتأكد من عدم وجود تلك الورقة المالية الضائعة فعلا بداخلها وحرصت هذه المرة على التقليب في ثنيات المحفظة التي كان قماشها الداخلي في الأصل مهترئا، وفتحت الآن الأوراق

المالية الممزقة الموجودة فيها من صنف المائتي دينار والمثنية أربعا، علّها تكتشف أن إحداها ليس سوى ورقة الألف دينار التي تبحث عنها لكن دون جدوى. دست المحفظة في صدرها وتناولت المفاتيح من على طرف صوان السفرة على نحو آلي. وهمت بالخروج ثانية لتسلك ذات الطريق الذي قطعته للسوق غير مبالية بالتعب التي كانت تشعر به وهي عازمة على تفقد جميع الأماكن التي قصدتها آملة في أن تجد تلك الورقة المالية تنتظرها في مكان ما.

خرجت « يمّا مريم » وهي مطرقة بصرها إلى الأرض كما لو أنها بدأت عملية البحث بمجرد دوسها لعتبة الباب، وما إن تذكرت أنها ستعود لتمر على تلك العجوز المشؤومة حتى شعرت بانقباض شديد في صدرها، وهي التي اضطرتها لتوها لوضع نعمة الله على الأرض. لابد أنها عجوز ملعونة. فكرت « يمّا مريم » وهي تتذكر هيئة تلك العجوز التي لم تكن تبدو على ما يرام في ذلك اليوم كما لو أن هناك شيئا ما كان يزعجها، وما الذي من شأنه أن يزعج امرأة غريبة كتلك تنام أمام النفايات ومياه الصرف الصحي إلا أمور تجري في العالم الآخر. تمتمت في سرها وقد ارتعش كامل بدنها للفكرة وواصلت طريقها بحذر حتى قطع صوت أفكارها تحية « البير برنار » لها والذي استطرد مباشرة :

– سمعت أن جارنا عليّ قد توفي منذ يومين ؟ قال الأب برنار وعلامات الأسف مرتسمة على محياه...

– نعم أول أمس. ردت « يمّا مريم » وهي شاردة.

– تمنيت لو أنني حضرت جنازته. قال بنبرة حزن صادقة. « لكنني عدت البارحة فقط ». ثم صمت برهة وواصل بحزن :

« لقد كان فعلا جارا صالحا ». وتنهد الآن الراهب الفرنسي وهو يشعر بالغصة.

وكان الأب بيرنار مديرَ مكتبةٍ للأباء البيض في حي تليملي منذ أكثر من عشرين سنة حيث كان يعرف أبناء الحي واحدا واحدا وهو من ربطته بهم عِشرة عمر طويلة. وقد كانت المكتبة التي يديرها مكتبة صغيرة تحتل فيلا كولونيالية أنيقة في الحي، إلا أنها كانت أشبه بمركز ثقافي جامعي يؤمه طلبة الآداب والتخصصات الإنسانية من جميع كليات العاصمة، وذلك لما كانت تحويه من كتب قيمة بأكثر من خمس لغات تتراوح بين كتب التراث العربية وقصص المغامرات البريطانية ومختلف الموسوعات الدينية، وهي كتب لم تكن متوفرة حتى في مكتبات الجامعة.

– فعلا، المسكين كان يعاني الوحدة أكثر مما كان يعاني المرض. أجابت « يمّا مريم » بلكنة فرنسية متقنة أخذتها عن المعمرين الذين خدمت عمارتهم طيلة استيطانهم ذلك الحي الكولونيالي سنوات الاستعمار.

– أوَ لم يحضر أي أحد من أفراد عائلته ؟ سأل بير برنارد « يمّا مريم » باهتمام وهو من كان يعلم أن جاره عليّ لم يكن قد بقي له أي أقارب سوى حفيده المقيم في إيطاليا...

– في الواقع اتصلت بحفيده الوحيد إلياس أمس فقط، فهو لم يأتِ للجزائر منذ حوالي الخمس سنوات. أجابت يمّا مريم وهي ساهمة. « ولكن يبدو لي أنه قد أجابني على الهاتف أنه قد يأتي، أو ربما لا ». قالت في تشتت وهي تفكر في الورقة المالية التي فقدتها. وبمجرد تلفظ « يمّا مريم » بالجملة الأخيرة حتى عاد شريط اختفاء الألف دينار إلى ذهنها. فتحت على الفور محفظة نقودها

من جديد لتجد الورقة التي تحمل رقم هاتف إلياس في إيطاليا وبدا وكأنها قد عميت عنها أثناء بحثها عن الورقة المالية تلك. تنفست الصعداء وهي تتذكر إجراءها للمكالمة في محل الخدمات الهاتفية لجارهم سليم الموجود في أعلى الشارع ذي النهاية المسدودة. صحيح أن « يمّا مريم » كانت تملك هاتفا في بيتها لكنها قررت قطع الاتصالات من المنزل نحو الخارج وكذا الهاتف النقال منذ أشهر بعد وصول إحدى فواتير الهاتف إلى مبلغ قياسي اضطرت إلى دفعه بالتقسيط لـ « اتصالات الجزائر » من مبلغ التقاعد الذي ورثته عن زوجها. لم تعد تتذكر الآن المبلغ الذي دفعته على المكالمة في تلك الليلة لكنها كانت تعلم أن اتصالا وطنيا بسيطا إلى الهاتف النقال كان على الأقل كفيلا بتفتيت تلك الورقة الحمراء القانية إلى أربع وريقات من فئة المائتي دينار فما بالك باتصالٍ إلى أوروبا. ولكن لم يعد كل ذلك مهما في تلك اللحظة، فهي على الأقل لم تكن مضطرة الآن للمرور مجددا بتلك العجوز الغريبة الذي بدا عليها الاضطراب الشديد صبيحة ذلك اليوم. فكرت « يمّا مريم » وهي تلقي إلى السلالم نظرة ارتياب تخللها شعور عميق بالقلق. ولكن هل قال إلياس أنه قادم أم لا ؟ فكرت « يمّا مريم » وهي تحاول أن تتذكر آخر ما قاله حفيد جارها الراحل على الهاتف قبل أن تقطع معه المكالمة، ودخلت العمارة رقم 6 قاصدة منزلها وهي تستعيذ بالله من الأسرار التي تخفيها تلك العجوز المجهولة التي قررت أن تستقر منذ أشهر قليلة أسفل الدرج في حيها.

- 6 -

كانت كل تلك الطرق الفرعية التي يشاهدها للمرة الأولى، وأسماء المحلات المكرّرة والمزروعة في شوارع لم يرها منَ قبل، كافية لتؤكّد له أن الطريق التي كان متعودا على سلوكها إلى وسط العاصمة غير تلك التي يأخذه عبرها سائق سيارة الأجرة الآن. وعلى الرغم من أن إلياس لم يكن يعرف الجزء الشرقي للمدينة كما يجب إلا أنه شعر بعد عشر دقائق من مغاردتهما المطار بانحراف السائق عن المسلك الصحيح، وذلك بمجرد الخروج من الطريق السريع المؤدي إلى العاصمة، والانغماس في أحياء جديدة لا قبل له بها.

حاول إلياس أخذ قرار إدخال يده في جيبه وإخراج منديل ورقي لتجفيف شكوكه إلا أن يده كانت ترفض أوامره وكأنها انصاعت لرغبات سائق التاكسي الذي كان يراقب عن كثب جميع حركات إلياس من زاوية مائلة إلى يمينه كانت كافية لتثبيته على مقعده الذي لم يكن بالأصل مريحا لكنه لم يتجرأ حتى على التنحنح عليه ونظرات سائق التاكسي تكبّل حواسه. وعلى الرغم من أن إلياس كان يحاول طرد فكرة تعرضه للاختطاف من رأسه، إلا أن تصرفات ذلك السائق المريبة كانت تعمّق وساوسه وتثبّت الأفكار السوداوية التي غزت دماغه منذ أن دخلا شوارع هذه الأحياء التي لم يرها من قبل، وأصبحت هي صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في ذهنه. لتبدأ

الآن حبات العرق تنمو على جبينه، لكنه لم يكن يجرؤ على رفع يده لتجفيف جبهته التي بدأ يشعر وكأن العرق الذي تجمّع عليها وصنع له خنادق من الخطوط الرفيعة التي كانت تغطي الجزء الأعلى من وجهه، قد بدأ يشوش على صفاء أفكاره، خصوصا أن بعض القطرات أخذت تخرج عن مساراتها غير المحفورة بعمق لتفيض على جانبي وجهه، أو تنزلق في ممرات فرعية على جبينه، لتنسكب في حاجبيه الخفيفين وتضيع بين شعراته الكستنائية المتناسقة.

مضت الآن أكثر من نصف ساعة وهو على حالته تلك، وبدا له للحظات أنه يعيش كابوسا لا يريد أن ينتهي. لقد كان سائق التاكسي ذاك صامتا... هادئا... مريبا... وكان يبدو وكأنه يستعد للقيام بأمر جلل ولم يكن يريد لأي شيء أن يقطع عليه خشوعه وهو يقود تلك السيارة إلى حيث كان ينوي تنفيذ مخططه. كان تغييره للسرعات، وهما عالقان في الشوارع المكتظة، من الوضعية الأولى إلى الثانية ومن الثانية إلى الأولى مرورا بالنقطة الميتة، بهدوء وأناة شديدين، أشبه بضبط قنبلة على عقارب ساعة لم يكن يعرف غيره توقيتها، إلا أنه كان يفلت بين الحين والآخر نظرات مكتومة كانت تَشي بأنه مقدم على أمر ما قد خطط له منذ البداية ونفذه بسلاسة شديدة.

بدأ كل شيء عندما اتجه سائق مجهول صوب إلياس في ساحة المطار، وبعد أن مر من جانبه بهدوء وبخّ على سمعه كلمتين سريعتين كانتا بمثابة رشتي مخدر التطمتا بوجهه : « تاكسي ؟ تاكسي ؟ » سحبه إلى عربته ودك حقيبته في صندوق السيارة ثم ثبّته على المقعد الأمامي إلى جانبه لينطلق بهدوء إلى مقصده من دون أن يضيف أي كلمة.

لم يكن علي أن أنصاع له...

فكر إلياس ودقات قلبه تزداد خفقانا وبدا أن الجو الخانق للمدينة والرطوبة التي كانت تسد مسامات جسمه وتمنع جسده من التعامل مع حرارة الطقس الشديدة قد تآمرت كلها عليه لتكبيله على مقعده ذاك وتبليد أحاسيسه من أجل إفشال أي محاولة له للمقاومة وإنجاح عملية اختطافه. بلع ريقه وشعر للحظة بجفاف في حلقه، وبحركة غريزية رفع يده إلى رقبته لتدليك عنقه لعل من شأن ذلك سكب بعض الريق في لوزتيه، لكنه وما إن هم برفع يده التي كان يقبض بها على ركبته وإذ بالسائق ينترها بشدة في الهواء ليعيدها إلى وضعها الأول بواحدة من نظراته الخاطفة التي اتضح الآن بما لا يدع أي مجال للشك أنها متحفزة للتعامل مع أي عمل قد يصدر عنه لإحباط أي محاولة له للخلاص. شعر إلياس للحظات بانقباض في معدته، إلا أن السائق الذي عاد بهدوء إلى وضعه الأول بدا غير مبال بما كان يكابده ذلك المغترب الذي كان يبدو وهو عالق على ذلك المقعد وكأنه مكبل على كرسي الإعدام. وفجأة أحس أنه أضعف من أن يتحمل فكرة كتلك، فأخذ صوت أنفاسه المتلاحقة يؤذن بدخوله حربا معلنة شعر للحظة فيها أنه يتعارك مع رئتيه اللتين كانتا ترفضان رسكلة هواء السيارة المثقل في صدره، ليتحالف معها قلبه الذي تسارعت دقاته أكثر، وبدا من الواضح أنه سيفقد وعيه في لحظات. وبحركة شبه مدروسة سبقتها نظرة متفحصة، ناوله السائق قنينة الماء التي كانت ملقاة على الأرضية الخلفية للسيارة، وهو مثبت نظره على خط الأفق. تناول إلياس القنينة البلاستيكية الباهتة بطاعة وفتح غطاءها ببطء وهو يبلع ما تبقى من ريقه محاولا تجميع شيء من القوة لبل فمه بالقليل

من الماء، وما إن قرّب فتحة القنينة إلى شفتيه حتى هبّت عليه رائحة إنتان لم يتمكن من تفسيرها، وفجأة قفزت إلى ذهنه صورة الأفواه التي سبقته إلى تلك القارورة، فأبعدها بصورة غريزية عنه، ولكنه عاد ليلصقها في فمه ويشفط منها القليل من الماء بصعوبة بعد أن حاصرته مجددا نظرات السائق المريبة الذي لم يرد أن يشعره بما يدور في خلده ويكشف له عن أنه قد اكتشف عملية اختطافه التي تمت بسذاجة منقطعة النظير، ذلك حتى يتمكن من الهرب عندما يحين الوقت دون أن يلفت انتباهه.

مرت شربة الماء في حلقه ثقيلة ساخنة، إلا أنها وعلى الرغم من مرارتها هدّأت قليلا من دقات قلبه، كما أشعرته لوهلة أنها أعادت له بالرغم من عفونتها البعض من صفاء ذهنه. وأرجع الآن القنينة البلاستيكية إلى السائق الذي تناولها منه بحركة آلية وسأله عن حاله بعبارة سريعة لطالما كانت من أكثر ما يسمع في ذلك البلد :

- « سا ڤا » ؟

كان زوج الكلمات ذاك هو كل ما وجهه له من كلام في السيارة بعد أن اقترب منه بكل هدوء وتؤدة ليصطاده بمجرد خروجه من بوابة المطار، ومنذ ذلك الحين لم يكن يخاطبه سوى بالنظرات والإيماءات. كانت أولها إيماءة من رأسه تؤكد له وجهته إلى حيث يشاء، ساحة أودان في قلب العاصمة. ليحاول إلياس بعدها الحديث معه إلا أنه لم يجد أي تجاوب منه، على الرغم من أنه لم يشعر بأي ريبة في البداية وهو يصعد معه في السيارة، وحتى عندما فتح له الباب الأمامي وليس الخلفي ليجلس فيه، كعادة أي سائق أجرة، استحسن إلياس الحركة بل واعتبرها شكلا من أشكال خلق الحميمية بينهما ولم يتصور أنه نوع من أنواع التمويه على أي حاجز شرطة يمران به

على اعتبار أن سيارته لم تكن تحمل أي إشارة تدل على أنها كانت سيارة أجرةٍ فعلية... إنه يتذكر ذلك تماما الآن. وفكر إلياس مباشرة كيف أن « إجباره » على الجلوس في المقعد الأمامي كان أشبه بعملية دفع قسرية له للصعود في تلك العربة ليس إلا. وتنهد الآن وهو لا يكاد يصدق الورطة التي وضع فيها نفسه.

كيف لم أتحقق من هوية سائق الأجرة قبل الصعود معه. لتعود إلى ذهنه صور الأشكال المتداخلة التي طالما حيرته داخل بلده الذي لم يترعرع فيه، وتذكر كيف أنه لم يستطع يوما خلال زياراته السابقة له التفريق بين الطبيب والممرض في المستشفى، ولا بين عاملة التنظيف والمعلمة في مدخل المدرسة، أو الحلاقة وموظفة البنك وراء مقودها.

وها أنا اليوم لم أتمكن من التفريق بين قاتل مأجور وسائق أجرة.

فكر وهو يشعر بانقباض في صدره.

والواقع أنه وعلى الرغم من زيارات إلياس المتواترة نسبيا إلى الجزائر أيام طفولته، إلا أنه لم يتمكن يوما من حل شِفرة غياب منطق يبرر أزياء وتصرفات البشر في مسقط رأسه وموطن والده، إذ لم تكن إيطاليا البلد الذي نشأ فيه يشبه في شيء الجزائر فيما يتعلق بمسرحة شخصيات المجتمع، ذلك أن الجميع في بلد ڤيردي يبدو وكأنهم يلعبون دورهم بإتقان من حيث الالتزام بزي الشخصية وحركاتها، فالمحامي والمعلمة والمومس والنادل والفنان جميعهم يجب أن يلتزموا بما يفترض أنها ثياب وتصرفات المحامي والمعلمة والمومس والنادل والفنان... على الأقل ظاهريا. إلا أن ذلك كان هو تماما عكس الحال في الجزائر، التي كانت الأشكال والمفاهيم فيها

تبدو مركّبة بالمقلوب على نحو ما. وتذكر الآن جدّه وجلسة النصح التي جمعته به في أحد الأيام.

– « اسمع يا بنيّ » قال « عمّي علي » الذي كان يُعرف في حيه بهذا اللقب وهو يخاطب حفيده الوحيد بتجهم « هنا من الممكن جدا أن ترى رئيس جامعة يستخدم ألفاظ الطيّابات لشرح أسباب الاضرابات المتكررة في مؤسسته للصحافة ». قال الجدّ وهو يحاول أن يفك لابن أخيه المغترب بعض ألغاز الحالة الفينومينولوجية الجزائرية. « ومن العادي جدا مشاهدة آنسة تخفي شعرها مثل القديسة تيريزا في الشارع بينما تتلذذ بسحب نفَسٍ من سيجارة مارلبورو في زوايا أحد المطاعم كأنها مارلين مونرو زمانها ». وتابع وهو يشعر الآن بشيء من الاشمئزاز : « كما أنه من الطبيعي ألا تميّز داخل صالون الحلاقة بين شكل موظفة في وزارة التربية والتعليم وبائعة هوى في أحد مراقص اسطاوالي أو زرالدة ». والحال أن إلياس لا يزال يذكر استغرابه من آخر مثال ضربه له جده وهو البعيد كل البعد عن المراقص وعالم المعازف، وما أدراه هو أصلا بعوالم صالونات الحلاقة النسوية ؟ إلا أنه عاد ليعتبر ذلك مثالا حيا آخر عن التناقض القائم بين الشكل والمحتوى في كل شي وأي شيء هنا.

والحقيقة أنه وحتى وإن لم يكن يظهر على « عمي علي » أي تعلق واضح بملذات الحياة فقد كان يُعرف عليه مع ذلك حبه للموسيقى الشعبية بشكل خاص والتي انجذب إلياس نفسه لنغماتها من فرط ما كان يسمعها في زياراته للعاصمة في منزل جده. وقد كان طعم تلك الموسيقى المخدر بالنسبة له يشبه بياض المدينة الناصع المشوب بالرمادي المريب... بياض قد لا تقع في حبه من النظرة الأولى، لكنك

قد تصبح مدمنا عليه إدمانك على سماع تلك النوتات الشعبية المتشابهة حتى إن لم تكن تفهم معاني الكلمات المصاحبة لها. وكذلك كانت العاصمة بكل شوراعها وشرفاتها وسلالمها وساحاتها تبدو جميعها كمشاهد مكررة تكرار نوتات موسيقاها، إلا أنك لن تمل من اكتشاف سلالم وشوارع وساحات وشرفات ومباني أخرى متشابهة في أماكن مختلف من أنحاء المدينة، بل وستراودك في كل مرة الرغبة في التورط أكثر وأكثر في ذات الدوامة التي لا تعرف مخرجها ولم تعد تذكر حتى مدخلها.

– عليك أن تفكر دوما في الوجه الآخر الذي يختفي وراء كل شيء هنا. قال « عمّي علي » محذرا حفيده الذي طالما كان يعتبره مفرط البراءة من السقوط في فخ المظاهر المضللة في هذا العالم متعدد الأوجه. « فلا أحد عمليا يظهر لك وجهه الحقيقي هنا... حتى وإن كان جميلا » قال وهو يضغط على كتف حفيده بحركة حمائية، لكنها لم تخل من قوة... قوة بدت غريبة على ساعد رجل تجاوز السبعين.

– حتى وإن كان جميلا ؟ كرّر إلياس متسائلا باستغراب.

– نعم حتى وإن كان جميلا... وواصل الآن ببطء وكأنه يتلو حكم إعدام : « عندما تعيش في مكان يخجل فيه الجميع من الحقيقة يصبح الجمال حتما مخجلا »...

– لكن كيف ؟ سأل إلياس وهو لا يكاد يفهم شيئا من كلام جده الذي بدا له شبيها بكلمات أغنية شعبية مبهمة...

– خْلاص ما تحوسش تفهم بزاف. قاطع الجد حفيده الآن على نحو مفاجئ، ليتسمّر إلياس في مكانه من وقع العبارة المفاجئة التي ارتأى جده أن يختم بها الجلسة وقد راوده شعور غريب

بالذنب... ذنب أنه حاول أن يفهم، وواصل « عمّي علي » الآن بحزم : « عليك أن تعرف أن الجميع هنا يلعبون لعبة واحدة، ليس لها سوى قانون واحد يحكم حياة الجميع ».

– وما هو هذا القانون ؟ سأل إلياس بصوت خافت وهو يبلع ريقه مخافة أن يُفسر سؤاله هذا مجددا كخرقٍ لقانون النسبة والتناسب بين الكلام والفهم. ليشرّع الآن الجد عينيه وهو يستعد لإطلاق تلك الكلمة وكأنها رصاصة على دماغ إلياس الذي بدا له فارغا على نحو مذهل...

– تايهوديت...

لم يفهم.

ولكن كيف كان لي أن أفهم أنني أتعرض للخطف ؟ وتذكر كلمات جده وهو يضغط بشكل غريزي على جواز سفره وكأنه أراد أن يستمد منه القوة أو ببساطة القدرة على فهم ما كان يحصل له في تلك اللحظة. أي نوع من « التايهوديت » يمارس معي هذا السائق ؟ وسرعان ما قرر التورط هو الآخر في تلك اللعبة التي لم يكن يعرف أصلا قوانينها، وسحب الآن وبحركة شبه عدائية من جيبه جوازه الأخضر في حركة أرادها أن تكون رسالة واضحة لمواطنه الجالس على عرش سيارته المتهالكة. أنا أيضا مثلكم. وبلع ريقه في غير اقتناع، متمنيا أن تكون رسالته قد وصلت للسائق. فكر وهو يحاول أن يرصد بنظرات جانبية ردة فعل مختطفه الذي يبدو أنه لم يكن مهتما بلون وثيقة السفر التي كان يحملها خضراء كانت أم حمراء أو حتى بيضاء. فمن الواضح أنه كان لديه مهمة يريد إتمامها وكفى.

وفي تلك اللحظة لمح إلياس « خامسة » تتدلى من على المرآة العاكسة لتلك السيارة البيضاء موديل بيجو 206، لتذكره بتلك الكف المحفورة هي الأخرى على شعار الجمهورية فوق جوازه. لقد أتيت فقط للبحث عنها. وتذكر نصيحة الشيخ برهان الدين بضرورة العودة إلى بلده لإيجادها.

- إنها هي
- لكن...
- اعتن بها
- ... لكن هل هي موجودة ؟
- إن كنت تريد حقا إيجادها، فلا تنكر في الأصل وجودها.
- كيف ؟!

...

وأطرق الآن بصره إلى جواز سفره وداخله شعور عميق بالحيرة وهو يتأمل ذلك الشعار مجددا بمختلف تفاصيله وقد ساوره الآن شعور عميق بالذعر. ولكن من هؤلاء ؟ فكر وهو يشعر الآن بثقل غريب لذلك الجواز في يده.

- 7 -

لم تكن رؤية تلك النجمة السداسية المريبة، ونماذج مختلفة من الخامسة على حاسوب إلياس والتي نُقش على بعضها حروف عِبرية، جنبا إلى جنب مع صور لشعار الجمهورية وأعلام قديمة لدول حكمت الجزائر، مؤشرا ينذر بأن القضية تحمل أبعادا سوداوية بقدر ما كانت تدل أن قدوم إلياس إلى الجزائر لم يكن فقط بسبب وفاة جده كما تفيد بذلك أقوال « يمّا مريم » والتي اتصلت به بنفسها لإخباره بالواقعة. ليبقى الأغرب من كل ما وُجد على حاسوب إلياس عبارة أُرسلت له في محادثة خاصة على سكايب لم يتمكن أحد من فهمها وعجز المترجمون لحد الآن عن فك شفراتها...

Mene, Mene, Tekel u-Pharsin

فكر الآن وهو يتذكر أقوال سهيلة المريبة...

– لقد سمعته يقول أنه أتى لنشدان الإلهام.

– إلهام ماذا ؟ سأل مساعد المحقق خير الدين باستغراب صادق وهو غير متأكد من صحة صيغة سؤاله هذا.

– لا أعرف. قالت جارة « يمّا مريم » وهي تعضّ على شفتها السفلية بحركة عصبية. « أعتقد أنه كان يبحث عن امرأة ». أجابت سهيلة وهي تشعر بالاضطراب واستطردت برنّة صوتية غامضة لا

تخلو من رعشة : « هذا ما سمعته يقوله »... واستدركت : « ربما، لا أدري... » وعادت للانخراط في عض شفتها.

لاحظ مساعد المحقق خير الدين حركات سهيلة العصبية المريبة، وصمت لبرهة وهو يحاول التقاط اللحظة التي بدأت تشعر معها بالتوتر وسألها الآن وهو يبتسم بحميمية مصطنعة.

– سمعته يقول إذن ؟

وفي هذه اللحظة لم تدرِ سهيلة ما كان عليها قوله وهي تتذكر كل ما حصل في مكتبها في الأيام الثلاثة الأخيرة.

– لا. وقالت مرتعشة : « أقصد أنني سمعت عنه ذلك ». وحوّلت نظرها عن مساعد المحقق الذي كان قريبا من بؤبؤ عينها اليسرى إلى درجة مربكة. « نسيت من قال أمامي هذا الكلام، ربما يمّا مريم، لكنني لم أسمع شيئا منه هو ». قالت وهي تشعر بنهر من العرق البارد يعبر عمودها الفقري. لقد كانت كل ما تتمناه في تلك اللحظة هو عدم ارتباط لسانها بشريط ما حصل في مكتبها في الأيام الثلاثة الماضية. عليّ أن أبقى صامتة. فكرت وهي تستعيد كل شيء الآن في ذهنها... كل شيء حصل بينها وبين :

بن هارون داميا.

- 8 -

– لكن... ألا تعلمين أنها يهودية ؟

قالت سهيلة ببطء وهي تنظر إلى ابنة سي بن هارون بريبة، وكأنها تتوقع الحصول منها على ردة فعل تقوض كلامها.

– وما الضير في ذلك ؟

أجابت داميا متعمدة اللامبالاة وهي تفتح قنينة الماء الصغيرة الموضوعة فوق طاولة الاجتماعات الصغيرة التي كانت تحتل النصف الأيسر من القاعة الغارقة في كابلات الهاتف والحواسيب والتي كانت مخصصة للتحرير في دار نشر أوبتيميديا الواقعة في حي تليملي بالعمارة رقم 6.

– وهل تعتقدين فعلا أنه لا مشكلة في ذلك ؟

صمتت مديرة دار النشر ذات الخبرة المحدودة لبرهة وتابعت بنبرة غير واثقة : « هل تعتقدين أن المسألة ستكون عادية ؟ » سألت بتردد.

– طبعا. بل وأكثر من عادية.

أجابت داميا بثقة وهي ترسم على وجهها ابتسامة وديعة وكأنها تحاول أن تقلل من هول الفكرة التي قذفتها على رأس سهيلة مسيّرة أوبتيميديا ومديرة دار النشر التي كانت في الأصل شركة إعلانات صغيرة لتضيف لسجلها التجاري قبل فترة إمكانية النشر، وذلك

بعد قرار دائرة الكتاب في وزارة الثقافة تقديم الدعم للناشرين ضمن تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

- « لكن... أنت تعلمين... » واستطردت سهيلة للحظة ثم صمتت وأخذت تعض على الطرف الأيمن من شفتها السفلية في حركة لا شعورية كانت تقوم بها كلما شعرت بالاضطراب.

- أعلم ما تفكرين به. وقاطعتها داميا وكأنها تقرأ أفكار مديرتها، ووضعت بهدوء قنينة الماء الصغيرة التي كانت تحملها على الطاولة.

لقد كان من الواضح أن سهيلة التي كانت تقوم بأولى خطواتها في عالم النشر ناشدة دعم السلطات، تبدو متأثرة بالطابع المثير للجدل للشخصية اليهودية التي اقترحت للتو مسؤولة النشر في مؤسستها إصدار كتاب حولها. « لكن هل يمكن لأحد أن ينكر أنها جزء من تاريخنا ؟ » سألت داميا ببراءة وهي تركّز النظر في سهيلة التي بدت شاحبة اللون في تلك اللحظات.

- طبعا لا. وأجابت بطاعة وهي تكاد تلتهم الآن شفتها.

- إذن عليك ألا تقلقي. وتابعت داميا كلامها بثقة : « أنا لا أريدك أن تنسي أن هذه التظاهرة يحتضنها بلدنا، والكاهنة ببساطة شديدة جزء من تاريخنا، كما أن ديانتها لا يمكن لها أن تنفي وطنيتها ». لفظت داميا كلمتها الأخيرة وكأنها تضع تحتها مئة سطر ثم نهضت من مكانها لتجنب المديرة عناء إخفاء ردة فعلها، وقد توّجت النتيجة المنطقية التي وصلت إليها بابتسامة رقيقة لا تخلو من غموض.

والحال أن الكاهنة كانت ملكة أمازيغية ولدت حوالي عام 620، إلا أنها تعد من الشخصيات النسائية النادرة في التاريخ اليهودي

ممن تبوأن الحكم. وقد كانت تحظى بتبجيل أفراد قبيلتها التي قاتلت على رأسها بشراسة ضد حسن بن النعمان الغساني والي مصر ومبعوث الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لفتح شمال إفريقيا لتلحق به خسائر فادحة عام 693، اضطر معها للانسحاب والعودة في حملة ثانية قُتلت الكاهنة خلالها.

– كل ما أخشاه هو وضع فيتو ما على الكتاب... لا أدري... يقال أنها يهودية... تعلمين... لا أعرف. قالت سهيلة كلماتها المبعثرة تلك وهي تمسد عنقها وتتحاشى تركيز النظر على عيني محدثتها.

– لا تبالغي في التركيز على ديانة هذه الشخصية. قالت داميا متعمدة اللامبالاة وواصلت : « ولا تنسي أنه وفي زمنها كان هناك الكثير من البربر الذين يدينون باليهودية مثل قبائل نفوسة، مديونة، فندلوة... يعني المسألة عادية ».

– لا أعرف. ونهضت المديرة من كرسيها. « دعيني أفكر في الأمر ».

قامت سهيلة من مكانها وهمت بالخروج من القاعة متخذة لا قرارها ذاك، بينما بقيت داميا تقف وحدها في قاعة التحرير، وهي الغرفة التي يبدو أنها كانت تُستعمل كصالون في تلك الشقة الكولونيالية الصغيرة الواقعة في الطابق الأرضي في تليملي، والتي نشأت فيها سهيلة مع خمسة من أشقائها قبل أن تنتقل العائلة قبل سنوات قليلة للسكن في ضواحي العاصمة، وذلك بعد أن توفي جدها وترك لوالدتها منزلا في أحد أغلى أحياء المدينة وَضَع يده عليه بعد خروج المعمرين منه، وقد تم بعد وفاته قسمة التركة، فكان نصيب والدتها مبلغا من المال سمح لها بشراء قطعة أرض تمكنت العائلة من بناء منزل عليها في مدينة زرالدة في الناحية

الغربية للعاصمة والتي تبعد حوالي الـ 23 كلم عن تليملي، ليتم بعدها تحويل منزل وسط العاصمة هذا إلى مكتب يمارس فيه الأبناء الخمسة نشاطا تجاريا ما، وقد وقع الاختيار على فتح وكالة إشهار وهو النشاط الذي كان يبدو رائجا جدا في هذه الفترة. وكانت سهيلة الوحيدة الحاصلة على شهادة جامعية بين إخوتها الشباب الأربعة، وكون القرض الذي حصلت عليه العائلة من البنك لإطلاق نشاطها التجاري كان على أساس الشهادة، تم اختيارها هي كمسيرة لشركة العائلة الجديدة. ولم يكن لذلك بالضرورة علاقة بخبرتها أو ذكائها. فكرت داميا وهي تقف أمام العمود المنتصب في منتصف تلك القاعة دون أن تطفو أي ملامح للانزعاج ولا الخيبة على وجهها من فض الاجتماع مع مديرتها بتلك الطريقة غير المعلنة. وتناولت مجددا قارورة الماء الصغيرة من على مكتبها وتجرعت قطرات أخرى منها، في حركة متكررة لها كانت تقوم بها بين الفينة والأخرى كنوع من الفواصل بين أفكارها وقد أصبحت لازمة لا تفارقها. إلا أنها وفي ذلك اليوم كانت تشعر فعلا برغبة لا تتوقف عن شرب الماء، وقد كان الحر ودرجة الرطوبة مرتفعة فيه لدرجة لا تطاق، لتزيد رائحة العفونة المميزة لجميع شقق العاصمة الكولونيالية لا سيما في ذلك المكتب الصغير، من جعل الأجواء تبدو خانقة بشكل أكبر. خلعت داميا علامات الإجهاد عن وجهها ولحقت بمسيّرة الشركة التي التحقت بها منذ فترة قصيرة فقط، وهي مصرة على إقناعها بكل ما أوتيت من دهاء بنشر حياة هذه الشخصية اليهودية المثيرة للجدل في السلسلة النسائية التي كانت تعمل على إصدارها.

كانت سهيلة تجلس الآن إلى مكتبها وقد أسندت رأسها إلى كرسيها وأقفلت عينيها لتبدو للحظات وكأنها غطت في نوم عميق

خصوصا أنها فتحت فمها بحركة لا إرادية في تلك اللحظة ليرتفع صوت أنفاسها، ويبدو لوهلة أنه شخير متسلل من ساعات الليل المتأخرة. لقد كان من الواضح على سهيلة العياء الشديد في تلك الصبيحة الحارة، على الرغم من أن وجهها لم يكن يوحي عادة بنشاط وحيوية خاصين إلا أنها كانت تبدو في ذلك اليوم كجثة هامدة. تأملت داميا باستغراب وجه سهيلة من تلك الزاوية الجديدة عليها حيث ظهر فكها من خلالها منحوتا على غير عادته، بل وبدت عظمتا خديها بارزتين على نحو فني، وهو ما جعل مديرتها تبدو في تلك الهيئة أشبه بتمثال حقيقي، وشعرت داميا لوهلة أن تلك الوضعية كانت الأنسب لسبب أو لآخر بشخصية سهيلة التي كانت تشبه التمثال في تصرفاتها. هكذا فكرت. وما هي إلا لحظات حتى استأنفت داميا محاولتها الأخيرة لإقناع مديرتها المترددة بشأن وضع اسم الكاهنة على قائمة الشخصيات النسائية الجزائرية التي تعتزم إصدارها في سلسلة من الأشرطة المصورة (BD) كأولى ثمار دار نشرها اليافعة وجلست إلى مكتبها بهدوء وفكرت بأسلوب جديد لتحاول من خلاله التأثير على الناشرة.

- أتفهم مخاوفك « مدام »... لكن...

- اسم التظاهرة هو : « الجزائر عاصمة الثقافة العربية » ! وصاحت سهيلة على نحو مفاجئ في وجه داميا مقاطعة إياها بعصبية وقد أطلقت العنان لتوترها. « هذا كل ما عليك تفهّمه ». صمتت داميا للحظات وقد هالتها ردة فعل سهيلة غير المتوقعة، ولم تفهم إن كان سبب ردة الفعل تلك هو القلق بشأن نشر كتابٍ حول تلك الملكة اليهودية أم أنه كان فقط وقع كلمة Madame على صاحبة دار النشر.

جفلت داميا وقد أحست بحجم خطإ كسر أول قاعدة عمل مع سهيلة سمعتها في أول اجتماع لها معها.

« لا أريد من أحد أن يناديني « مدام ». نادوني باسمي لو سمحتم. اعتبروني زميلة لكم، لا ربة عمل ».

والواقع أن لقب « مدام » كان يزعج سهيلة على نحو خاص، على الرغم من أنها تعلم أنه وصف يُعزى لإظهار الاحترام للمتزوجة والعزباء على حد سواء، إلا أن هذا اللقب كان يذكّرها بشكل أو بآخر أنها لا تزال غير متزوجة. كما أنها كانت تشعر أن لقب « مادموزيل » أصبح أيضا لا يليق بها وهي في هذه السن.

شعرت داميا الآن بالارتباك وحاولت تصحيح الموقف بسرعة.

– لكن أين المشكلة في الكاهنة ؟ سألت داميا بحميمية مفتعلة وهي تضع كفها على يد المديرة المبسوطة على طاولة مكتبها. « أين المشكلة يا عزيزتي ؟ ».

– المشكلة في... وصمتت سهيلة لبرهة وعادت للتلعثم، ثم فركت رأسها وكأنها تحاول تجنب إتمام الجملة. كانت تلك إشارة على أنها عادت لحالتها الطبيعية التي تبدو فيها دائما مشتتة أو شبه تائهة، أو ببساطة دون شخصية... غير واثقة... أو ربما غبية. فكرت داميا، وهي تواصل الضغط على يد مديرتها متظاهرة بالسذاجة وكأنها تصر على أخذ الإجابة منها على سؤالها والتي بدا وكأنها تعرفها مسبقا.

– قد تكون المشكلة أن الكاهنة ليست عربية. قالت سهيلة دفعة واحدة من دون اقتناع وهي تنهض الآن من على مكتبها.

– إذا كان هذا هو السبب فعلا فما رأيك في أن تلغي السلسلة من أصلها ! قالت داميا بمكر. « لأنني أذكرك أننا انتهينا من إعداد الكتاب الخاص بفاطمة نسومر وهي على حد علمي ليست

عربية ». قالت متصنعة الغباء. والآن وبحركة غير متوقعة لا تخلو من شراسة عادت سهيلة إلى مكتبها وبسطت كفيها على المكتب، في محاولة لبسط سيطرتها على المناقشة على نحو افتقد نوعا ما للإقناع...

– لكنها مسلمة. وقالت وهي تركّز نظرها في عيني داميا العسليتين لأول مرة في ذلك اليوم.

وبشكل أو بآخر لم تتفاجأ داميا بردة فعل سهيلة وأجابتها بتهكم وهي تعبث بالنجمة المعلقة في رقبتها : « ولكن على حد علمي التظاهرة هي الجزائر عاصمة الثقافة العربية وليس عاصمة الثقافة الاسلامية ». صمتت سهيلة وقد بدا وكأن غيمة سوداء قد مرت فوق رأسها، وأطرقت بصرها للأرض وكأنها تحاول للمرة الأولى النظر في هذين المفهومين وهما منفصلان عن بعضهما البعض، لتتساءل بصوت مرتعش وهي تنظر لداميا بترقب لا يخلو من توجس :« لم أفهم ».

– سأشرح لك. قالت داميا وهي تفتح غطاء قنينتها لتأخذ رشفتي ماء منها واستطردت : « هل تعلمين مثلا أن المعهد العالي للأبحاث في التراث العربي التابع للجامعة العربية سيقوم بمناسبة هذه التظاهرة بإعادة طبع دواوين الشعر الجاهلي كلها هذا العام ؟ » ثم نظرت إلى عيني سهيلة بتركيز لتتأكد من وصول رسالتها وتابعت :« شعراء الجاهلية الوثنيون في أغلبهم... الوثنيون » وكررت الكلمة. ثم صمتت بتراجيدية واضحة لكنها لم تحصل على أي ردة فعل... ولا أية إجابة... ولا حتى رفة عين من سهيلة التي بقيت صامتة للحظات طويلة شعرت فيها داميا بالارتباك ليعود صوت المديرة الخالي من أي مشاعر ليعيد لها توازنها.

– ولكن هل انتهت كل الشخصيات النسائية في تاريخنا ولم تبق لنا سوى هذه اليهودية لنشر كتاب عنها ؟ ردت سهيلة بريبة.

– لا لا ليس تماما. أجابت داميا بانزعاج واضح الآن، وقامت من كرسيها لتتأمل عن قرب عناوين الكتب المحشوة داخل المكتبة القديمة لسهيلة والتي كانت تكسوها طبقة سميكة من الغبار وكأنها تبحث عن شيء ما في داخلها. ثم تناولت أحد الكتب وانبرت : « لا أريدك ببساطة أن تنظري إلى الأمور من زاوية محدودة، هذا كل شيء ». وعادت بهدوء إلى كرسيها وهي تحمل بين يديها كتابا يبدو أنه كان أول ما لفت نظرها في تلك المكتبة وواصلت الحديث من دون أن تنظر إلى وجه سهيلة وكأنها تجنبها عناء التهام شفتها السفلية كاملة وواصلت وهي تقلب باهتمام الصفحات الصفراء لرواية « كانديد » : « كل ما أرمي إلى قوله هو أن تعلم تاريخ غيرنا مكسب، لكنه يستحيل إلى خسارة إذا ما قمنا بتجاهل تاريخنا الوطني على حسابه ». وأنهت كلامها من دون أن يظهر من نبرة صوتها أي شكل من أشكال الانفعال. ثم قامت لإعادة رواية المتفائل الشهيرة لفولتير إلى المكتبة وهي تشعر أنها تخاطب الآن النسخة النسائية المخفّفة من بانغلوس[3] الساذج إلى حد البلاهة والمؤمن بنظرية لايبنتز لل « الانسجام الأزلي » وإن بدت لها سهيلة مؤمنةً بانسجام أزلي من نوع آخر لم يأت كجواب لتساؤل فلسفي وإنما استجابة لغسيل دماغ ممنهج. ووضعت الكتاب الآن بهدوء على ذلك الرف المتسخ.

والواقع أنه لم يكن يبدو أن سهيلة تهتم بشكل خاص بنظافة مكتبها ولا حتى ديكور المكان، الذي كان من الواضح أنه حافظ

---

3. Pangloss : بطل رواية « كانديد » لفولتير.

على الكثير من أثاثه القديم عندما لم يكن سوى منزلا عائليا، حتى أن تلك المكاتب والحواسيب التي صنعت شكله الجديد كانت تبدو وكأنها دخيلة عليه. بينما مديرته نفسها كانت تظهر وكأنها ضائعة بين جدرانه. وجلست داميا مجددا على الكرسي وهي تأمل في أن يكون ذلك آخر مشهد من اجتماع هذا اليوم الحار الذي لا يبدو أنه يقارب على الانتهاء وقد انخرطت الآن في حك طرف أنفها بانزعاج، وقد بدا أن غبار تلك المكتبة قد أثار حساسيتها وبدأت بهز أرنبة أنفها بطرفي سبّابتها وإبهامها بقوة وقد أغمضت عينيها بحركة لا إرادية.

– أنا بصراحة لا أفهم تماما ما ترمين إليه. قالت سهيلة متنحنحة، وهي تقوم من مكانها مستغلة دخول داميا في عراكها ذاك مع غبار المكتب، محاولة قذف جميع ما سمعته خارج ذهنها. لقد كان ذلك هو الحل الوحيد لعدم فهم ما يقال لها عادة. واستطردت وهي تهز رأسها بعصبية : « أنا ببساطة قلت لك أن الكاهنة قد تكون مصدر قلق لأن ديانتها كما تعلمين مرتبطة في الوجدان الشعبي بجرائم إسرائيل، هذا الكيان الصهيوني الغاشم الذي يقتل أطفالنا ». ورصفت كلماتها الأخيرة هذه بعناية بعد أن بحثت عنها مطولا في قاموس مفرداتها وهي تحاول أن تُظهر القليل من الحذاقة ردا على تلك الكلمات المبهمة التي رشقتها للتو على رأسها ما يُفترض أنها مجرد موظفة في مكتبها.

– وما علاقة الكيان الصهيوني بموضوعنا ؟ أجابت داميا بنفاد صبر وهي تفرك عينيها بقوة غير آبهة بما قد يحل الآن بالماسكارا التي كانت تستعملها من حين لآخر، ولكنها لم تعد تذكر إن كانت تضعها في ذلك اليوم أم لا، إذ لم يكن ذهنها مشغولا في تلك

اللحظة سوى بالاستيقاظ من كابوس الحساسية هذا، وواصلت كلامها وقد طفت بعض النرفزة على حبالها الصوتية : « ولمَ لم يرتبط عنترة ابن شداد المسيحي وشعره بجرائم الحملات الصليبية على الدول العربية مثلا ؟ ».

– عفوا... لكن... ماذا ؟؟ قالت سهيلة في غير تصديق وهي تنظر إلى داميا بمسحة لا تخلو من بلادة، « وما دخل عنترة بن شداد... في الكاهنة... في الحروب الصليبية... والدول العربية » ؟؟... وعادت للتلعثم، ليقاطع تشتت أفكارها جواب داميا الذي لم يخل من تهكم، والذي يدل أنها عادت لوضعها الطبيعي. « دخلُ عنترة بالحملات الصليبية أنه كان مسيحيا، تماما مثلما هو دخل الكاهنة بإسرائيل أنها يهودية ».

والآن بدت عينا سهيلة وكأنهما قد جحظتا من محجريهما، واستغلت سهيلة هذه اللحظة المسرحية التي لم يكن عادة سوى سي عبد الله قادرا على خلقها في المكتب، وهو الذي كان يتعاون مع أوبتيميديا بصفته باحثا في التاريخ والذي غالبا ما كان مروره بالمكتب يشبه عرضا مسرحيا يعج بروايات عجيبة ومجهولة كان يستطيع دوما إثباتها بأسانيد تاريخية لا غبار عليها. وهو ما أوحى لداميا في هذه اللحظة أن تُخرج من حقيبتها كتابا أخذت بتقليب صفحاته بخفة وعفوية وكأنها كانت تداعب خصلات شعرها. وبهدوء بدأت بالقراءة وكأنها استشعرت أن هول المعلومة التي بثتها لتوها على رأس مديرتها يستحق حركة استعراضية أشبه بحركات سي عبد الله :

« ويذهب هذا المذهب الأب لويس شيخو وقد اعتبره (عنترة ابن شداد) من شعراء النصرانية مستندا في ذلك إلى ما يلي :

إذا اشتغلت أهل البطالة في الكاس * أو اغتبقوها بين قس وشماس ويعتبر الباحثون هذا البيت من الشعر الصحيح لعنترة دليلا على أنه مسيحي لمعرفته بالمراتب الكهنوتية... ».

نظرت سهيلة بطاعة إلى داميا وهي لا تكاد تفهم كلمة مما تلقيه عليها، إذ كان مجرد إخراج كتاب معنون بـ « عنترة بن شداد » كافيا لجعلها تعتقد أنها لا تفهم شيئا منه، وتشعر أن ذهنها قد انقفل تماما عند تلك الأبيات الشعرية. وأخذت الآن بتأمل داميا بصمت وكأنها كانت تحاول في تلك اللحظات سبر أغوارها. لتسأل موظفتها بهدوء وهي تركز نظرها على عينيها العسليتين اللمّاعتين، وقد أضافت بقايا الماسكارا التي كانت تلطّخ الآن جوانبهما المزيد من الغموض على شخصيتها الطاغية. وبحركة غريزية حوّلت نظرها إلى تلك النجمة البرونزية التي لم تكن تفارق عنق داميا وقد بدا وكأنها لاحظت وجودها الآن لأول مرة : « هل يمكن أن تشرحي لي ببساطة سر إصرارك على هذه اليهودية ؟ » سألت سهيلة وهي مثبتة نظرها على نجمة موظفتها الشابة التي انخرطت الآن في تمسيد عنقها بعصبية وقد تذكرت في تلك اللحظة نصائح والدها الدائمة لها. لتظهر داميا الآن بشفاه مهزوزة على غير عادتها.

- 9 -

فرك سي عبد الله عينيه وهو لا يصدق ما رآه للتو في قلب صينية سي بن هارون النحاسية وقد أعاق انعكاس الشمس فوقها تبيّنه لتفاصيلها. هل كانت تلك فعلا نجمة داود السداسية ؟ فكر وهو يعاود البحث عنها في قلب الصينية، إلا أنه عبثا لم يتمكن من كمشها.

نظر إسحاق إلى صديق والده بريبة وقد داخله الفضول لمعرفة ما كان يدور في خلده وقد بدا وكأنه غاب للحظات عن تلك المناقشة الحامية.

– عمّو ؟ ونادى إسحاق سي عبد الله بحذر لينتفض سي عبد الله وكأنه تلقى لتوه وخزة. « يبدو أنك تهت مع الأغنية ». قال إسحاق بشيء من المكر وواصل : « ما الذي كنت تحاول شرحه منذ قليل ؟ ».

نظر سي عبد الله إلى إسحاق نظرة خاوية وكأنه لا يفهم عما كان يتحدث عنه هذا الصغير، ليستطرد إسحاق بجدية : « كيف يمكن للزي الإلزامي الذي فرضه حكام الجزائر في العهد الإسلامي على اليهود أن يدلل على سطوهم على أفكار غيرهم ؟ » سأل الابن الأصغر لسي بن هارون رفيق والده بفضول صادق بينما كان أبوه الآن يحاول إخفاء حركاته العصبية.

- آه... نعم. قال سي عبد الله وكأنه عاد إلى وعيه، وعدّل طربوشه بينما بقي مثبتا بصره على تلك الصينية. « كنت أقول أنه وعلى الرغم من أن العمل بالزي الإلزامي لليهود في الجزائر قد بدأ عام 1198 في عهد أبي يوسف المنصور كبزة عسكرية تُميزهم عن غيرهم من الجنود ليتحول بعدها إلى زي شنيع فُرض عليهم كإجراء عقابي بسبب تجاوزاتهم وذلك في العهد الموحدي، إلا أن اليهود واصلوا التزامهم بهذا الزي حتى بعد دخول المستعمر الفرنسي حيث كانوا يحرصون على ارتدائه وخصوصا في بعض المناطق الداخلية وذلك خلال المناسبات والأعياد الدينية حتى عشية الاستقلال ».

- لا أفهم ما ترمي إليه ؟ سأل إسحاق سي عبد الله، من دون أن ينظر إليه وهو الذي كان لا يزال يراقب سي بن هارون وهو ينظف صينيته القديمة ساكبا المزيد من المحلول المنظف على نتفة القطن.

- أقصد أنه حتى زي اعتباطي أريد به معاقبتهم حيث أنه قد فُرض عليهم فرضا، قاموا بتحويله إلى موروث يهودي لا تكتمل احتفالاتهم إلا به، وهذا دليل على أنهم غير قادرين على إبداع أي شيء من عندهم. والآن قاطع إسحاق بانفعال سي عبد الله الذي كان يشعر بنوع من الإحباط لكونه لم يعثر مجددا على تلك النجمة، وقد شعر لوهلة أنه لم يكن إلا موهوما ليعود صوت إسحاق ليؤجج غضبه : « وما أدرانا نحن إذا ما كان الزي الذي قرر اليهود تبنيه في احتفالاتهم كما تقول ليس إلا الزي الذي أرادوه هم لأنفسهم ». قال إسحاق بالكثير من الانزعاج ليعود لرفع حرارة الحوار بشكل مفاجئ. « متى ستتوقفون عن القيام بتحليلاتكم غير المنطقية ». واتجه إلى مدخل المحل حيث كان يقعد والده وصديقه ليقف الآن وجها لوجه أمام سي عبد الله وينظر وسط عينيه بصفاقة. « لا

داعي لمحاولة إنكار حقائق التاريخ، فقد يكون اليهود هم من أراد التميز عن غيرهم في اللباس، وأنت تعلم أن ابن قيم الجوزية قد ذكر في كتاب أحكام أهل الذمة أن اليهود ألزموا أنفسهم بعدم التشبه بالمسلمين في لبس لا قلنسوة ولا عمامة... ».

– لا، إطلاقا ! صاح سي عبد الله بعصبية. « الأمر ليس على هذا النحو... ليس حتما على هذا النحو ! ولست أنا من يقوم هنا بتحليلات غير منطقية ». وضرب على الأرض بقوة عصاه المصنوعة من خشب الأبنوس، وكان ذلك يعني أن سي عبد الله قد فقد أعصابه. وعاد ليوجه نظرات توبيخية لبن هارون وكأنه كان يدعوه فيها إلى اسكات ابنه.

لقد كان استغراب سي عبد الله من قيمة البراهين التي كان يأتي بها هذا الصغير للدفاع عن فكرته يوازي استغرابه من دفاعه المستميت عن اليهود والذي بدا له غير منطقي وغير مبرر. يا حسرة على ياماتنا ! لم نكن نستطيع حتى على رفع رأسنا أمام من هو أكبر منا. فكر بأسى. أما الآن فيرفعون صوتهم أمامنا ويدافعون بصافقة عن عدونا...

– لا، بل هو كذلك، وتابع بهدوء بعد أن لاحظ ما بدا له وكأنه استسلام سي عبد الله لحججه، وأخذ يطوي بعناية خرقة القماش المتسخة التي انتهى لتوه من مسح لوحاتٍ لشوارع القصبة بها كانت معروضة داخل المحل، وتابع كلامه الآن بثقة : « فهذا تماما بالمناسبة ما يفعله مغنو الهيب هوب السود في أمريكا اليوم. فارتداؤهم للقمصان العريضة والسراويل الكبيرة المتهاوية، ليس إلا تخليدا لفترة العبودية التي كان يعيشها أجدادهم، حيث كان يضطرهم الأسياد البيض لارتداء ملابسهم القديمة الأكبر بكثير من

قياسهم حتى يصعّبوا عليهم مهمة الهرب إن فكروا في ذلك. كما أن المجوهرات الضخمة التي يلبسونها ليست إلا رمزا للأغلال التي كانت تكبّلهم. إنها فترة لا يريدون محوها من تاريخهم، ولربما كان ذلك هو موقف اليهود من زيهم هذا هنا ».

– لا بأس... لا بأس ! قال سي عبد الله وقد ظهر عليه انزعاج أكبر من جره إلى مجالات لا قبل له بها. مالي أنا وتاريخ أمريكا. فكر باستياء. « وعلى أي حال إن كانت نظريتك هذه صحيحة فقد تنطبق على الخامسة أيضا ». قال بعدم اقتناع. « فلربما ولشدة استخدام المسلمين لها في وجوههم لدرء الحسد عنهم، تبناها اليهود في مرحلة ما لتخليد شرورهم ». وتنحنح عن مقعده وهو يفرك ذراعه بشيء من الانزعاج وبدا وكأنه يستعد للانصراف، بينما بقي سي بن هارون غاطسا في قلب صينيته يصغي بخشوع لتلك الأغنية الحوزية التي لا يعرف أحد لحد الآن دلالة كلماتها، على الرغم من أن الكثيرين يعتقدون أنها أغنية إيروتيكية بالدرجة الأولى وأن عنوانها بالأساس يا بلارج (ملك الحزين) ليس إلا تورية عن العضو الذكري الذي كان يتم التغزل بطوله في الأغنية دون أن يثير الأمر على مدى عقود انتباه مؤسسة الإذاعة والتلفزة الوطنية المعروف عنها فرض رقابة على المواد التي يمكن أن تعتبرها مخلّة والتي يبدو أن هذه الأغنية قد فلتت من مقصها.

– وبالمناسبة. قال إسحاق بخبث واضح وكأنه لم يكتف بالفوز على منافسه بالنقاط، بل أراد هزمه بالضربة القاضية. « إذا كنت تعتقد أن الخامسة مسروقة فما رأيك بهذا... ؟ » قال وهو يشير إلى لوحة معلقة في زاوية بارزة داخل المحل لتارقي منتصب بشموخ

على جمله. « هل يمكن أن تشرح لي طقس « نعل ابن العم » الذي يمارسه الطوارق إلى الآن في أعراسهم ؟ ».

– إنها عادة قديمة لدى طوارق الهقار. قال سي عبد الله في شبه استسلام وهو يشعر بثقل غريب في ذراعه اليمنى.

– وقد أخذوها عن يهود الصحراء. أضاف إسحاق بهدوء محاولا إخفاء ابتسامة النصر عن وجهه رفقا بصديق والده الخبير بارتداء ابتسامات النصر المختلفة على محياه.

– نعم. نعم ! رد سي عبد الله مؤكدا بشفاه تكاد تكون مضمومة. « ولابد أنها عادة انتقلت إلى هناك بواسطة يهود توات أو يهود القرارة ».

– هل عرفنا الآن من أخذ مِن ؟ قال إسحاق دون أن ينتظر الإجابة وهو يرتّب النعال الجلدية التقليدية المعروضة في الخارج فوق بعضها البعض بنبرة لا تخلو من مكر. لينهض في تلك اللحظة سي عبد الله عن مقعده مستعينا بعصاه وهو يتأمل تلك الصينية النحاسية، محاولا طرد صورة النجمة السداسية التي تراءت له من خلالها، وبدت أشبه بسراب من صنع مخيلته، وقد بدأ يشعر الآن بالدوار. إلا أنه عاد لتأمل تلك النقوش المتقنة فوق الصينية التي كان يبدو وكأن سي بن هارون يعانقها وشعر الآن بشيء من الزهو وقد حطت عيناه على نجمات خماسية صغيرة متداخلة كانت تزين أطرافها خالقة على حاشيتها فسيفساء بديعة، وهو يصيخ السمع باهتمام لبقية الأغنية التي كان لا يزال المذياع يبثها...

آه يمّا يمّا في نهار الجمعة
يا يمّا يتسامـحو لـرواح

- على الأقل تركوا لنا النجمة الخماسية ولم يسطوا عليها هي الأخرى. قال سي عبد الله وهو يهم بالرحيل وقد حرص على دكّ كلماته تلك في أذني إسحاق، بينما كان يهز رأسه طربا للأغنية العاصمية العتيقة التي كان لها مفعول تهديئي على الجميع، وكأن سماعها يشبه الخضوع لجلسة تدليك تايلاندية، مع أنه لم يكن يشعر بالارتياح في تلك اللحظة...

خرجت لي وعيونها بالدمعة
قلتـلها الله يسامح أرواح

- ومن قال لك أننا لم نسط نحن عليها هي الأخرى ؟ رد إسحاق الآن بصوت عميق كأنه أتى من عالم آخر.

نظر سي عبد الله بارتياب في بياض عينيّ إسحاق بينما واصل الأخير كلامه دون أن ينظر إلى صديق والده التي تقلصت جميع عضلات وجهه : « وهل تعرف لمن هذا الصوت الرائع الذي يشدو بهذه الأغنية ؟... رونـــي بـــيـــريـــز ».

ولفظ الاسم حرفا حرفا وكأنه يريد له أن يبقى محفورا في رأس سي عبد الله المشتعل شيبا وتابع باستفزاز : « وخذ هذا أيضا، فحتى كلمات هذه الأغنية العاصمية التراثية وضعها شاعر يهودي ».

وفي هذه اللحظة انتفض سي بن هارون من على مقعده بحركة غير متوقعة، وترك الصينية التي كان يربت عليها بأصابعه كالأب الحنون منذ الصباح تتهاوى على الأرض دون اكتراث، ليحط كفه المتورمة من جراء الضغط عليها طيلة اليوم على كتف سي عبد الله اليسرى وشدّه نحوه كأنه يحاول العودة بشكل أو بآخر بالزمن إلى

الوراء لمحو آخر ثلاث لحظات من عمر ذلك اللقاء، وراح يضغط على عظمة التروقة لدى صديقه بشيء من العصبية وهو يوجه كلامه لإسحاق متصنعا الهدوء.

– دع عمك عبد الله يصعد إلى تليملي الآن.

لفظ سي بن هارون كلماته تلك بصوت متهدج وواصل : « أنت تعلم أن لديه درجات سلالم طويلة ليتسلقها ». وقال العبارة الأخيرة ممازحا وهو يحاول التخفيف من وقع آخر كلمات تلفّظ بها ابنه، ثم وجه كلامه لسي عبد الله مذكرا إياه بموعد مع ابنته داميا في دار نشر أوبتيميديا.

لكن الباحث في التاريخ بقي الآن واقفا في مكانه كالصنم وهو يكز على عصاه بتوجس، ونظر إلى صينية النحاس الملقاة على الأرض... إلى الخامسة المعلقة في مدخل المحل... إلى نعل التارقي... إلى المذياع... إلى إسحاق، وغزاه فجأة شعور غامض بالجزع. والتفت الآن بحذر نحو صديق عمره بن هارون وشعر أنه يراه في تلك اللحظة للمرة الأولى.

- 10 -

نظرت داميا بحذر إلى مديرتها التي غيرت على نحو مفاجئ من نبرة صوتها، وحاولت لملمة كلماتها ومن ورائها أفكارها، لتشعر لحظتها أنها لم تعد تعرف ما الذي كان يجوز قوله أو ما لا يجوز. فكرت داميا وهي تستذكر نصائح والدها لها : « انتبهي في معاملاتك مع الآخرين ولا تسلّمي خيوط رأسك لأحد ». بللت داميا شفتيها بتمريرة سريعة من لسانها، وهي تفكر فيما يمكن أن تجيب به على سؤال مديرتها الذي لم يفاجئها بقدر ما أخافتها نظراتها إليها.

قد لا أكون أنسب شخص للإجابة عن هذا السؤال. قالت بشيء من العصبية وهي تحاول رسم ابتسامة على شفتيها المرتعشتين. « ولكن يمكن أن تسألي سي عبد الله إن أردت وسيخبرك عن مدى أهمية هذه الشخصية النسائية في تاريخنا ». وصمتت داميا لبرهة وهي تحاول تفادي النظر إلى سهيلة التي ثبتت عينيها على وجهها بتعبير صنمي كان يشبه لحد كبير وجوه الأموات، وعادت لتحاول استعادة ثقتها، وهي التي شعرت للحظات أنها تعرضت لهزة عنيفة لم تفهم سببها، لكن الأكيد أن نظرات سهيلة لها الآن لم تكن مريحة بأي شكل من الأشكال. إلا أنها قررت مع ذلك متابعة كلامها : « أنا أريد أن تكون هذه السلسلة إضافة حقيقية

للمكتبة العربية بما أني المشرفة عليها، هذا كل شيء ». وقامت من مكانها بشيء من العصبية وأحست لأول مرة أنها تبحث عن شيء ما تقوله وهي من كانت الكلمات تتدفق على نحو طبيعي على شفتيها، لتشعر في هذه اللحظات أن مَعين حروفها قد نضب بشكل ما. لكنها حاولت مع ذلك ضخ الروح فيها من خلال انتهاج أسلوب « رسكلة الحديث » الذي كانت تبرع فيه أيضا عندما كانت تفقد حرارة أفكارها، وهو أسلوب يتمثل في إعادةِ ذكر كل ما سبق قوله على نحو مكثف مع تغيير نبرة الصوت وطريقة الإلقاء لجعل الكلام يبدو جديدا وانطلقت : « الكاهنة امرأة عظيمة وتستحق أن نخصص لها كتابا في دارنا، على الرغم من أنني أعلم أن يهوديتها قد تكون مصدرا لبعض الحساسيات إذا ما تم نشر كتاب عنها في إطار « الجزائر عاصمة الثقافة العربية »، وقد يكون مصدر انتقاد من بعض المتنطعين من هنا أو هناك ». قالت بعقلانية، « لكن هل تعتقدين مثلا أن هؤلاء سيفتحون فمهم إذا ما تم نشر كتاب عن الدولة الفاطمية مثلا ؟ » وفجأة هطلت هذه الفكرة على رأسها. وقد كانت داميا تعلم أن أسلوب إعادة تدوير الكلام قد يكون أيضا أسلوبا مفيدا لانتاج الأفكار، والدليل هو ما حدث للتو. ابتسمت في إشارة إلى أنها قد استعادت ثقتها بنفسها، بينما عادت سهيلة لوضع التائهة مجددا.

– طبعا لا... وما العلاقة بين الفاطميين بالكاهنة ؟ قالت المديرة، وهي تشعر بالاستغراب من طرح هذا المثال من موظفتها، وكأنها لم تتعود بعد على أسلوب داميا الحواري الأشبه بأسلوب لاعب بينغ بونغ نزق ينط في كل الاتجاهات، وكانت أمثلتها حتما أشبه بتلك الكرة البلاستكية المجنونة التي كان لابد من قدرة عالية

من التركيز للتعامل معها، وردود أفعال سريعة للتمكن من اللحاق بها أو إرجاعها.

– ... وكيف لا ؟! قالت داميا وقد بدا وكأن ردة فعل مديرتها شحذتها للذهاب بعيدا في طرحها، وواصلت الكلام وهي تصر الآن على رصد ردة فعل سهيلة عليه : « هل تعلمين أن الدولة الفاطمية قد استعانت بيهود في تسيير شؤونها في الجزائر ؟ » وواصلت بحذر مدعية اللامبالاة وهي تراقب عن كثب حركات سهيلة التي اتسعت عيناها لدى سماعها لجملتها الأخيرة : « نعم، فقد كان اليهودي يعقوب ابن يوسف ابن كلس وزيرا للمعز لدين الله الفاطمي، كما احتل نفس المنصب أيضا أبو سعيد إسحاق الإسرائيلي وهو يهودي ». وصمتت لوهلة وكأنها تسمح لهذه الأسماء أن تُحفر في ذهن مديرتها وهي تنظر لحاجبيها المتناسقين وقد بديا لوهلةٍ عالقين على شكل قوسين وسط جبينها. « هذا عدا أن أبا منصور صدقه بن يوسف الفلاحي اليهودي كان من بين أنجح وأخلص من تقلد الوزارة وأولى المناصب العليا في الدولة الفاطمية ». وتابعت كلامها الذي بدت الآن مستمتعة بإلقائه وكأنها في عرض مسرحي اقتنعت أنها هي فيه البطلة المطلقة : « وعلى فكرة يمكنك التأكد من هذه المعلومة في كتاب يهود الجزائر أو اليهود في المغرب الإسلامي... للأسف أنني لا أحملهما معي ». قالت بصدق وهي تنظر إلى حقيبتها البنية الضخمة واستطردت : « لم يحاول أحد إلغاء معلومة كتلك من تاريخنا إنها موجودة في كتبنا. اذهبي للصفحة 101 من الكتاب الأخير وستجدين ذلك ». ثم صمتت برهة ونظرت إلى الكتاب الذي كانت تحمله في يدها وانفجرت ضاحكة. « يا إلهي من الواضح أنني أصبحت مهووسة

بالمصادر والمراجع والإحالات والهوامش ! لقد أثرت مذكرة تخرجي كثيرا في ! ». قالت وهي تخض قنينتها وكأنها تتأكد من خلوها من الماء، بينما بقيت سهيلة مذهولة تنظر إلى موظفتها بمزيج من الدهشة والإعجاب وهي تستذكر أول لقاء جمعها بها.

« أنا درست الأدب والحضارة العربية عن حب ».

هكذا بدأت داميا بالتعريف عن نفسها للمرة الأولى، وهي تحاول بذكاء إبعاد الصورة النمطية لطلاب الأدب العربي عنها والمتهمين بدخولهم لهذا التخصص قسرا لضعف تحصيلهمْ الدراسي في مختلف الأطوار التعليمية. والواقع أن هذه التهمة كانت تلاحق جميع طلاب مواد التخصصات الإنسانية التي يقضي نظام التعليم في الجزائر بحصر طلابها بذوي أضعف المعدلات في الباكالوريا وقبلها في الثانوية بالطلاب الحاصلين على أقل العلامات في امتحان شهادة التعليم المتوسط. أما داميا فقد بدا حبها بل شغفها واضحا بهذه اللغة وتاريخها وحضارتها منذ اللحظة الأولى لمقابلتها مع سهيلة... أو ربما هذا ما نجحت في إيصاله في بادئ الأمر لربة عملها التي أدركت لاحقا أن ذلك الشغف ليس سوى مهنية واحترافية عالية في التعامل مع أدوات عمل من شابة متقدة الذهن تسعى لولوج عالم كانت تعلم أنها تمسك بمفاتيحه ولكنها لم تكن نفسها متأكدة من ماهيته. وهكذا تحولت داميا من مجرد مدققة لغوية إلى مشرفة على السلسلة التاريخية الأولى لدار نشر أوبتيميديا التي كان من الواضح أنها تعطيها حصة معتبرة من وقتها بقدر ما أعطته لمذكرة تخرجها. وتوقفت داميا الآن وقد وقع بصرها على مخططات الرسم الخاصة بالشريط المصور الأول الخاص بفاطمة نسومر والذي كانت بصدد وضع اللمسات الأخيرة عليه.

– وهل أحضر إسماعيل النسخة النهائية للقرص المدمج الخاص بالرسوم ؟ سألت وهي تدس القارورة في حقيبتها وكانت تلك إشارة

لاستعدادها للرحيل بعد أن ألقت نظرة خاطفة إلى ساعتها. « من الواضح أن سي عبد الله لن يأتي اليوم ».

– ربما قد لا يأتي. فقد تأخر الوقت. ردت سهيلة بأسلوبها الاعتيادي في الحديث والذي لا ترشح عن نبرة صوته أي إحساس آدمي، وهي التي كانت ردود أفعالها الجامدة تجعلها ذات شبه كبير بالروبوهات. فكرت داميا وهي تتذكر مع ذلك التعابير الوجهية وردود الأفعال المختلفة التي تمكنت من رصدها على وجه مديرتها في ذلك اليوم. وعادت لطرح سؤالها الأول على مضض : « وماذا عن إسماعيل ؟ هل أحضر ما طلبت منه ؟ »

– نعم... نعم... أقصد لا... نعم. أجابت سهيلة بنوع من الارتباك وهو الأمر الذي أثار انتباه داميا التي حاولت التظاهر باللامبالاة.

– ألم ينتهِ من عمله بعد ؟

بقيت سهيلة الآن صامتة وقد اكتسى وجهها تعبير غريب، لتستطرد داميا وهي تغلق سحاب حقيبتها بهدوء : « أنا في الأصل لم أتوقع من هذا الشخص أي نوع من أنواع الالتزام والمهنية...

– لا... في الحقيقة ثمة مشكل من نوع آخر. قالت سهيلة بارتباك وهي تمسّد رقبتها بعصبية. حدجت داميا مديرتها بحذر وشعرت للحظات أنها فهمت سر العصبية المفرطة التي كانت تظهر على سهيلة في ذلك اليوم على نحو غير اعتيادي. إذ لم تكن سهيلة عادة تُظهر الكثير من التعابير الجسدية أو ردود الأفعال العاطفية على وجهها. وكانت تفضل الاحتفاظ عادة بتعابير وجهية متبلدة، إلا أنه من الواضح أنها كانت في ذلك اليوم قد فقدت المقدرة على ضبط انفعالاتها.

– ما الأمر ؟ سألت داميا بصدق : « هل الأمر يتعلق بي مجددا ؟ ».

والحال أن داميا لم تكن على وفاق مع الرسام إسماعيل من أول يوم دخل فيه إلى المكتب وهو الذي لم يكن يعجبه أنها كانت تملك صلاحية التدخل في عمله كرسام للشريط المصور، بما أنها كانت هي من يشرف على السيناريو. والحقيقة أن الشريط المصور كان فنا يقضي بأن يكون الرسام هو صاحب السيناريو إلا أن طبيعة السلسلة التي فكرت سهيلة بإصدارها كانت تفرض أن يكون صاحب الرسوم والسيناريو شخصين مختلفين. ولمّا كان صاحب الرسوم شخصا لا علاقة له بشخوص القصة التي يرسمها فكان الأمر يقضي بوجود تناغم تام بين عمل صاحب السيناريو والرسام. إلا أن الانسجام كان من بين أبرز العناصر المفقودة بين داميا وإسماعيل مما جعل مسألة إتمام الشريط المصور الأول الذي خُصص لفاطمة نسومر في غاية الصعوبة، وذلك في ظل الخلافات المتكررة بينهما والتي كانت غالبا ما تبقى سهيلة واقفة على الحياد في مواجهتها راجية ألا تخسر أيا منهما، وهو الأمر الذي أخر كثيرا من إتمام العمل. فكرت سهيلة بقلق بينما أخذت تجمع مخططات الرسم المبعثرة على مكتبها.

– لا، في الواقع لم يعد الأمر يتعلق بك. قالت بصوت خافت.

– بمن إذن ؟ سألت داميا بحذر.

– في الحقيقة إسماعيل... إنه... تعلمين... هو يريد... في الواقع... مالا... تلعثمت سهيلة وقد بدا عليها الإحراج وهي تشيح بنظرها عن موظفتها التي لم تدفع لها هي الأخرى أي دينار منذ بدء العمل معها.

– آه ! ردت داميا ببرود. « أولم تشرحي له أنك ستدفعين له أجره عند البيع ؟ ».

– بلى. أجابت سهيلة وهي تفرك رقبتها وقد غزاها شعور مفاجئ بالضيق وتابعت : « لكن يبدو أنه لم يعد يتحمل الانتظار ».

والآن تعمدت داميا تركيز النظر في عيني مديرتها اللتين كانتا تشبهان عيني اللعبة.

وهل سيأخذ حصولك على الترخيص المطلوب لإصدار السلسلة وقتا أطول ؟ سألت دون أن ترتسم أي مشاعر واضحة فوق بصمة صوتها.

– لا أعرف. ردت سهيلة بآلية وهي تنظف حلقها. وفجأة أحست ببرود في أطرافها، وشعرت للحظة بأن رصاصة ما اخترقت أحشاءها. بلعت ريقها وحاولت إخفاء ارتباكها إلا أنها أخذت تعض على الطرف الأيمن من شفتها. لم تكن تتوقع سهيلة سؤال داميا الأخير ذاك، وهي التي لم تخبرها يوما أنها تواجه مشكلا في الحصول على التراخيص اللازمة لإصدار سلسلتها، بل إنها تذكر أنها لمحت لها أكثر من مرة أن « أمورها كلها مقضية » ولا مشكلة لها في استصدار أي ورقة أو ترخيص من الإدارة. لقد كانت سهيلة تعتقد أن الطمع في علاقاتها من ضمن ما شجع داميا على العمل معها بكل ذلك التفاني، على الرغم من أنها لم توقع معها بعد أي عقد رسمي، ولم تدفع لها أي راتب لحد الآن مستغلة كونها لا تزال طالبة.

– لا بأس ! هزت داميا رأسها مدعية اللامبالاة وكأنها كانت تنتظر تلك اللحظة منذ فترة. وقالت الآن وهي تعلق حقيبتها الثقيلة على كتفها دون أن يختل توازنها : « أعرف شخصا يمكنه مساعدتك ». لفظت جملتها تلك وهي تتوجه نحو الباب بكل هدوء وقد رشحت زاوية فمها اليسرى عن شيء يشبه الابتسامة، أو التحية. لقد كانت تلك الحركة الجانبية الغامضة نادرا ما تتسلل إلى ملامح وجهها واستطردت : « سأرتب لك غدا موعدا مع الدكتور شنيت ».

وخرجت داميا من المكتب تاركة مديرتها فاغرة الفاه وراءها.

الدكتور شنيت بلحمه ودمه.

فكرت سهيلة وهي لا تكاد تصدق أن داميا تعرف شخصية بهذا النفوذ في البلد. بينما أغلقت الأخيرة الباب من ورائها، وانخرطت بمداعبة تلك النجمة البرونزية التي لم تكن تفارق جيدها وهي تشعر بشيء يشبه الشعور بالنصر. لقد بدأ كل شيء يتحقق كما سعت إليه منذ البداية.

- 11 -

قلّب إلياس صفحات جواز سفره بحذر وكأنه يحاول العثور من داخله على حلٍّ لأحجية الختم الذهبي للجمهورية والذي بدا له ملغزا على نحو مربك، ثم عاد ليتأمل غلاف الجواز بهدوء محاولا فك شفرات ذلك الشعار، وقد غاب للحظات عن سيناريو اختطافه.

وقد كان ذلك الختم المحفور على جواز السفر الجزائري هو الشعار الأخير الذي تم اعتماده للجزائر عام 1976، حيث سبقه ختمٌ اعتُمد عام 1971 يُظهر رمز الخامسة محاطة على الجانبين بغصني زيتون، ومن أسفلها ثلاث سنابل ذهبية حيث تبدو السنبلة المركزية فيه وكأنها تشكل ذراعا لذلك الكف المحوري في الختم، أما السنبلتان الجانبيتان فتبدوان وكأنهما ساريتان لعلمين جزائريين منسدلين على نحو يحدّد الشكل الدائري للشعار والذي صنع إطاره النهائي غصن زيتون من على اليسار، وغصن بلوط بثماره الحمراء من على اليمين، لتأتي كل هذه الرمزية النباتية التي يحملها ختم الجمهورية كاحتفاء بالثورة الزراعية التي أقرها الرئيس الثاني للجمهورية الجزائرية هواري بومدين، سنة اعتماده. وقد بقي الموروث النباتي حاضرا بقوة في الشعار الحالي للجمهورية والذي اعتُمد عام 1976 حيث تظهر الكثير من السنابل، وأوراق البلوط، وأغصان الزيتون وسعفة نخيل، لتخلق على غلاف وثيقة السفر الخضراء تلك

احتفالية نباتية مبهجة، تأملها إلياس بريبة دون أن يفهم تماما معانيها وهو من كان يعرف أن بلده في الوقت الحالي كان يعد من أكبر مستوردي القمح في العالم. وعاد الآن ليتأمل تفاصيل بقية الشعار الذي صُمّم في عصر بومدين الرئيس الذي وصل إلى سدة الحكم من خلال انقلاب عسكري قام به ضد زميله السابق في الثورة التحريرية والرئيس الأول للجزائر أحمد بن بلة، حيث كان يطل من الشعار صندوق اقتراع صغير على اليمين بالإضافة إلى سقوف ومداخن مصانع وهيكل للتنقيب عن البترول على اليسار، ليستقر أسفله مثله مثل الشعار السابق رمز النجمة والهلال وتظهر وسطه تلك الخامسة.

حاول إلياس مجددا ترتيب كل تلك الصور التي بدت له مبعثرة على نحو مشتِّت ليبقى في ذهنه في تلك اللحظة : صورة رئيس أتى على ظهر دبّابة وصندوق اقتراع. ومجددا عادت الأمور لتختلط في رأسه، ليتذكر أنه يجلس هو الآخر إلى جانب سائق تاكسي أو قاتل مأجور. ارتعش للفكرة وعادت عضلات بطنه للانقباض، إلا أن رائحة الإنتان التي تجرعها منذ قليل بدا وكأنها عادت مجددا لتقتحم أنفه. حاول الاستدارة ليتأكد من أن قنينة الماء اللعينة التي شرب منها لا تزال في محلها، لكنه وما إن التفت حتى ارتطم ببصره هيكلُ شاحنة خضراء ضخمة كانت تحاول المرور من جانب السيارة في تلك الطريق الضيقة. ليكمّش إلياس كتفيه بحركة آلية، بينما نظر السائق الذي لم يبد عليه الكثير من الانزعاج، باطمئنان إلى يساره، وأدخل بهدوء ذراعه من على حافة النافذة لكيلا يتساقط شيء من القمامة عليها من عربة البلدية المخصصة لنقل النفايات، خصوصا وأنها كانت مترعة على آخرها بمختلف أنواع القمامة.

لقد كان شكل تلك الشاحنة أشبه بمنظر متسولة قذرة تتسكع في الشوارع وهي في أواخر حملها، لكنها على الرغم من ذلك كانت مصرة على متابعة التسول قبل وضع مولودها. فكر إلياس وقد اكفهر وجهه وهو ينظر إلى السائق الذي لم يُظهر أي امتعاض من تلك الصورة النشاز التي دخلت ديكور الشارع من دون أي تمهيد، وحاول إغلاق النافذة من جانبه للتخفيف من حدة الرائحة التي سكنت أنفه دون إذنه، إلا أنه لم يجد أي قفل في ذلك الموديل القديم من سيارة بيجو، كما أن قبضة النافذة من على جهته كانت مكسورة.

- أغلق النوافذ أكاد أختنق من هذه الرائحة ! قال إلياس بعصبية وهو يسد أنفه.

- لكن الحر شديد. رد السائق بهدوء من دون أن يحرك رأسه.

وللحظة شعر إلياس أن حاله أسوأ من المحكوم عليه بالإعدام، فذلك على الأقل تُحترم رغبته الأخيرة. وقبل أن يدخل في أي سجال للدفاع عن حقه في التنفس، أعاد له منظر حاجز الشرطة الذي لاح أمامه من أمام قصر المعارض ولم يكن يبعد عنهما سوى بضع أمتار الأمل في النجاة. وبحركة غير محسوبة استجمع قواه التي كادت أن تخور تحت ضغط الرطوبة والروائح الكريهة، وحاول فك حزام الأمن استعدادا للهبوط، إلا أن القفل أبى أن يفتح وبقي لبرهة غير مصدق بأنه عالق فعلا في ذلك الكرسي لا حول له ولا قوة، وللحظات نسي السائق، ونظرات السائق وردة فعل السائق على ما كان يقوم به ولم يكن مركزا إلا على القفل العالق ورجال الأمن الذين بدوا وكأنهم لم يعبؤوا بالصخب الذي حاول إصداره على الأقل بنظراته لهم وحركاته، وفجأة انتبه إلى أن السائق كان

يقوم بشيء يشبه الصراخ في وجهه، لكنه لم يبال به هذه المرة إذ لم يكن يريد سوى أن يلفت نظر الشرطة ويفلت منه، ولكن هيهات ! يبدو أن الضجيج الذي اعتقد أنه قد أصدره لم يكن أعلى من صوت أي حديث عادي بين جزائريين يتسامران في جلسة صفاء، وللحظةٍ فكر كيف كان يحلو له دوما التندر على برودة صديقه إيرمانو البييمونتي بأن يقول له : « وأنت غاضب تشبهنا ونحن في حالة صفاء ». وفجأة سكن كل بدنه، وسرت قشعريرة صامتة في جسده.

وهل أنا أصلا أشبههم ؟

فكر وهو يشعر بالخيبة من عدم قدرته على لفت انتباه رجال الشرطة له وهو في هذا الوضع اليائس. أم أنهم ربما تعمّدوا تجاهلي ؟ ونظر إلى السائق وهو يحاول قراءة ما يدور في دماغه، ولكنه تفاجأ بنظراته الغريبة وهو يحدجه الآن بالكثير من التوجس، من الواضح أنه استغرب رد فعله ومحاولة فراره من أمام الحاجز. فكر إلياس وهو يضم قبضته في حنق، إذ لطالما شعر بأن ملامحه البريئة التي لم تمح عنها آثار الطفولة بعد، كانت مصدرا لمحاولة استغبائه من طرف الكثيرين في وطنه. إنه لا يزال يذكر ما قامت به موظفة شركة الاتصالات الخاصة به في المطار في آخر رحلة له إلى الجزائر، إذ أكدت له أنها قد عبأت رصيده بمائتي ألف دينار، ليكتشف في ذات الليلة أنها لم تعبئ له سوى مائتي دينار. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يتعرض فيها للاستغفال، لكن هذه المرة قد غطت على جميع المرات. فكر وهو يحاول إيجاد طريقة للخلاص من وضعه. ها هما لا يزالان إلى حد الساعة يسيران في الطرق الفرعية للمدينة حيث كان الاكتظاظ والرطوبة لا يُحتملان لكنه عزم في تلك اللحظة على إيجاد حلّ لأزمته. نظر إلياس يمينا وشمالا، وفجأة قرر

أن يتحدث إلى السائق مجددا. « أريد أن أشرب شيئا ما، أشعر بالعطش ». وما إن هم السائق بمناولته قنينة الماء الشهيرة مجددا من دون أن يكلمه، حتى قاطعه : « أريد شرابا باردا ».

- لا يمكن...

- لكنني هكذا سأموت... سأموت !

نظر السائق من حوله محاولا لملمة الموقف لكنه بدا من الواضح الآن أنه لا يفهم مطلقا ردود أفعال هذا « الإيميغري » ولا يجد لها تفسيرا، ولم يكن يرغب في تصعيد الأمور. ركَن السيارة عند أقرب نقطة ممكنة للتوقف، وهبط مسرعا نحو أحد المحلات.

كان المكان مزدحما، ويبدو وكأنه ملتقى للحافلات. لم يكن يعرف إلياس أين هو الآن، إذ لم يكن هناك أي لافتة تدل على ذلك. إلا أن السائق كان يبدو وكأنه يسلك ذات المسلك الذي تأخذه تلك الحافلات الصفراء الكبيرة التي يبدو هيكلها وكأنه منتشلٌ من القمامة، وذلك منذ أن انعطف عن الطريق السريع بعد خروجهما من المطار، ودخل إلى تلك الأحياء التي كانت محاصرة بمختلف أصناف النفايات على يمينها وسكة ترامواي غير مكتملة على يسارها وقد كانت مسوّرة بحواجز حديدية مصبوغة بالأبيض والأزرق مثبتة كيفما اتفق، وبمجرد نزول السائق من السيارة، مد يده بهدوء إلى حزام الأمن محاولا فكه مجددا إلا أنه لم يستجب. وفجأة تلاشى شعور السعادة الغامر الذي انتشى به قبل لحظات، وأخذت دقات قلبه بالتسارع.

« تبا ! لم يكن لينزل لو لم يعرف بأنني محتجز بشكل جيد هنا ». تمتم وهو يدس يده في جيبه ليتأكد بحركة سريعة من وجود جواز سفره وكل أوراقه معه وهو يراقب السائق، ثم مد يده إلى

رافدة الباب. كان لابد له الآن من الخروج بأي شكل قبل عودة ذلك السائق، لكن الباب كان لا يفتح من الداخل.

حاول بهدوء العبث في محكمات الباب، وهو يراقب من بعيد السائق الذي كان يقف أمام مدخل أحد المحلات. لقد كان ذلك شيئا يشبه المطعم، بينما كان الرصيف من ورائه مزدحما، كان مرور بعض الأشخاص من أمامه يحجب عنه رؤية مختطفه للحظات والذي استغل هبوطه من السيارة للحديث على هاتفه النقال أمام محل يحمل اسم Le Roi du Poulet. نعم إنه أمام Le Roi du Poulet. دقق إلياس النظر وهو يفرك عينيه. وشعر للحظة بأنه أمام مشهد مكرر. لقد رأى مثل هذا المحل ومثل هذه اللافتة في مكان ما قبل قليل. إنه متأكد. بل وحتى نفس ذلك النادل الذي يقف هناك بذات المئزر الأبيض المائل إلى الرمادي والمبقّع بالأصفر والبرتقالي. من غير المعقول أنه كان يدور منذ الصباح في حلقة مفرغة. شعر بالدوار وهو يفكر بكل تلك الالتفافات الدورانية التي عبرها منذ خروجه مع السائق من المطار. هل كان يحاول تدويخي ؟ لم يكن إلياس خبيرا بطرقات المدينة ولم يتمكن حتما طيلة الطريق من معرفة وجهته. والآن شعر بنشفان شديد في حلقه، وتذكر قطرات الماء المتعفنة التي دخلت حنجرته... أم أنه حاول تخديري ؟ وفي هذه اللحظة بدأ يحس بثقل شديد في يده، لكنه حاول مجددا استجماع قواه لفتح الباب، إلا أن كل شيء كان يدور من حوله. وارتطمت عيناه مجددا بتلك العين النافرة من « الخامسة » التي كانت معلقة تحت المرآة العاكسة للسيارة وهي تحدق فيه، انتفض بدنه لوهلة وشعر فجأة بأنه لم يعد يملك أي سيطرة على نفسه. وفقد وعيه...

- 12 -

« لن أدعه يصل إلى مراده ». غمغم بحنق وهو يقرأ مجدّدا سيرته الذاتية بامتعاض.

إلياس ماضي... أستاذ أساليب وتقنيات الرسم المعاصر في أكاديمية ألبيرتينا بتورينو... معارض في باريس... طوكيو... ميلانو... فلورنسا... نيويورك... برشلونة...

« بْلا بْلا بْلا... حسنا... حسنا ! ».

همهم مدير أكاديمية الفنون الجميلة بالعاصمة وهو يفك ربطة عنقه « الجون بول غوتييه » الحريرية، كما لو أنه اختنق من قراءة تلك الصفحات التي حفظها عن ظهر قلب لمراسله، وفكر في أمر هذا الشاب الذي يصر على دخول عالمه بالغصب وهو من لم يتوقف عن مراسلته منذ أكثر من سنتين للالتحاق بالأكاديمية الوطنية للفنون الجميلة التي كان يديرها، والذي لا يبدو أن تجاهل رسائله كان يجدي معه نفعا، فحتى بالرغم من تعمد موسيو أمزيان عدم إنشاء موقع إلكتروني للأكاديمية الفنية العريقة التي ورثتها الجزائر من الحقبة الاستعمارية، لكيلا يجعل من التواصل معه متاحا بسهولة عن طريق البريد الإلكتروني، إلا أن إلياس كان يراسل المدير على البريد العادي بشكل مستمر، وهو ما جعل موسيو أمزيان يضيق به ذرعا.

لابد من أن أتخلص منه.

ألقى بالسيرة الذاتية لمراسله في سلة المهملات وهو يمزقها للمرة الألف. ولوهلة شعر أنه في مواجهة أخطبوط تقطع له رأس ليظهر بمائة رأس. أخطبوط بملامح طفل. فكر وهو يستذكر تفاصيل وجه إلياس الوديعة وصوره التي تعج بها المواقع الفنية الأوربية على الإنترنت، وكز الآن على أسنانه وهو يحث نفسه على عدم الانخداع بتلك الملامح الطفولية لخصمه الجديد، مذكرا نفسه بأن جميع المتسلقين يبدؤون صعودهم بادعاء أدوار البراءة. تمتم وهو يطقطق أصابع يده، وقد غزاه شعور ما بالإحراج حاول تجاهل مصدره. ونظر الآن إلى ساعته الرولكس الأنيقة التي كانت تشير إلى الحادية عشر والربع صباحا وأخذ نفسا عميقا قبل أن يبدأ المكالمة.

- هل كل شيء على ما يرام ؟

- نعم، لكن هناك مشكل بسيط فقط.

- مشكل من أي نوع ؟ سأل باضطراب.

- لا تقلق. سأسوي الأمر...

- لا تتأخر إذن فأنا في انتظارك...

وألقى بعصبية بهاتفه المحمول، وهو يفكر بذلك الشاب الوقح الذي كانت آخر رسالة له يعلمه فيها أنه سيأتي قريبا لزيارته. « يعتقد أنه يستطيع أن يقتحم عالمي بهذه السهولة ». غمغم وهو يضرب قبضته على الطاولة بسخط. لكنني سأعلمه الأدب.

- 13 -

وضع مساعد المحقق تقرير مكتب البريد على طاولة رئيسه وقال بهدوء : « كان يحاول منذ سنتين تقريبا التواصل مع أكاديمية الفنون الجميلة هنا ». ثم صمت للحظات وواصل : « لكنه لم يحصل على أي رد ، على الأقل كتابي ».

نظر المحقق إبراهيم إلى كشف المراسلات من عنوان إلياس في إيطاليا إلى الجزائر، والتي كانت جميعها موجهة باسم أمزيان مدير أكاديمية الفنون الجميلة بالجزائر.

« وأنت تعلم أن موسيو أمزيان حاصل على ليسانس في الأرشيف ليس إلا... و... أقصد... ». قال الضابط خير الدين متلعثما وواصل : « أما إلياس فهو أستاذ فن... يعني... أقصد... أمزيان لا علاقة له... ». والآن أخذ مساعد المحقق بتنظيف حلقه وكأنه يشعر بشيء من الحرج.

نظر المحقق إبراهيم على نحو آلي إلى العلم الذي كان يزين مكتبه ثم عاد لينظر إلى صور مكان الجريمة واللوحات الغريبة التي كانت تزين شقة جد إلياس والتي بدت وكأنها طلاسم أتت من عالم آخر، ثم نهض من مكانه محاولا تفادي سقوط عينيه مجددا على تلك الراية الأنيقة، ووقف أمام النافذة المطلة على وسط الجزائر، والتي لم يكن ازدحام شوارعها ذلك اليوم أقل ازدحاما من الأفكار

التي كانت تدور في خلده. « وهل تعتقد أن موسيو أمزيان بهذه السذاجة ؟ » وعاد للجلوس إلى مكتبه مقلّبا صور تلك الرسومات بالكثير من الاهتمام حيث بدا أنه كان يفكر في اتجاه آخر غير اتجاه مساعده واستطرد : « فقد كان يكفيه تجاهله ».

– قد يكون ذلك صحيحا. أجاب خير الدين. « ولكن ربما مجيء إلياس الفعلي إلى الجزائر قد جعله يفكر فيه كخطر حقيقي يهدد منصبه ».

– موسيو أمزيان أدرى الأشخاص بمعايير الحصول على هكذا مناصب. نفث المحقق جملته دفعة واحدة دون أن يتوقف أمامها كثيرا. « ولا أعتقد أنه كان فعلا يظن أن شابا مثل هذا وحتى وإن كان فنانا عالميا كان يمكن أن يشكل منافسا حقيقيا له ».

– ولكنه ربما لم يكن يعلم ذلك. قال خير الدين وهو متحمس لفكرته. « فمن أين كان له أن يعلم أن إلياس ماضي لا يملك أي شبكة علاقات في الجزائر ؟ والدليل أنه قد أتى حتى دون أن يرد عليه وقد يكون إلياس قد لوّح له بذلك أو أنه قد أبلغه حتى بموعد قدومه في إحدى مراسلاته ». ثم صمت قليلا ليسمح بتحليله أن يقوم بمفعوله في ذهن المحقق. « من الواضح أن أمزيان لم يمكن له أي مصلحة بوجود إلياس في الأكاديمية معه، وقد يكون هو... ».

– قد تكون هذه الفرضية واردة. قاطع المحقق إبراهيم مساعده مجددا. « لكنني بصراحة أستبعد أن يكون أمزيان بهذا الغباء، وفي النهاية ما الذي يجعله يطعن لوحة إلياس ويحاول قطع يده ». وثبّت الآن نظره إلى صورة اللوحة المطعونة التي يبدو وكأنه قد أدمن النظر إليها منذ أن حطت عليها عيناه في موقع الجريمة.

صمت خير الدين قليلا وانتبه أن هذه الجزئية كانت قد غابت فعلا عن ذهنه.

ربما لأنه أراد أن ينتقم.

– لا أدري. غمغم المحقق بعدم اقتناع. « لكنني أشعر أن في المسألة سرا أعمق ». وعاد للنظر إلى صورة تلك اللوحة المطعونة واستطرد : « لابد أن نعرف السبب الحقيقي وراء عودة إلياس، ولماذا انتظر عامين كاملين للقدوم ». ثم صمت برهة وواصل : « وما دلالة قطع يده ؟ » وتناول الآن هاتف إلياس الذكي الذي لم يكن يَظهر في الاتصالات المسجلة عليه منذ قدومه للجزائر في المقابل سوى اسمٌ واحد فقط : إيرمانو بيرغونزي.

- 14 -

لم يكن إيرمانو بيرغونزي، على غير عادته، يشعر بأي متعة وهو يداعب في تلك اللحظات اليد البرونزية القابعة أمامه بصمت، وهو الذي طالما اعتبر نفسه مهووسا بهذا العضو البشري الفريد، بل وبعظامه السبعة والعشرين واحدة واحدة وجميع تفاصيله التشريحية، لدرجة أنه كان يؤمن بأن اليد أهم من العين نفسها في حياة الإنسان، بل والأكثر تعبيرا من الوجه البشري نفسه.

والآن أخذ أستاذ الفن المقدس بأكاديمية ألبيرتينا يتحسس بعناية السلامية القصوى والوسطى في تلك اليد، وهما السلاميتان اللتان كانتا ترمزان بحسب فنون قراءة الكف الصينية إلى الصفات الحيوانية الثلاث : الجشع، الكراهية، والجهل. وضغط على زر الاتصال من جديد، بينما انخرط في تمسيد ذلك الخنصر النافر بحركة غريزية متأملا بإمعان تداخل الوريدين الرأسي والقاعدي البارزين في تلك اليد واللذان كانا يشف عنهما سطحها الأملس.

Il numero selezionato è inesistente o momentaneamente non disponibile, se desidera informazione sui numeri di telefono chiami l'...[4]

---

4. الرقم المطلوب غير موجود أو خارج نطاق الخدمة، للحصول على معلومات حول أرقام الهاتف اتصل بـ..

أقفل الآن الهاتف بنفاد صبر. وعاد لتأمل ذلك العضو الذي بدا من الواضح أنه كان مشغولا أبدا، إذ كان يبرز من هيكله القوي مفاصل كروية عريضة ومشط يد لم تكن تظهر منه سوى عظام الأسناع الأربعة بدل الخمسة بسبب الوضعية التي كان يتخذها. إلا أن ما كان يلفت النظر في اليد الأشهر في تورينو والتي لم يكن لأحد في المدينة أن يقاوم الرغبة في تدليك الإصبع الصغير فيها وهو يمر تحت أقواس البيرفيتورا بساحة كاستيلو، كان لون الخنصر المختلف بشكل واضح عن لون بقية الذراع، بل والنصف العلوي للجسم كاملا وذلك لشدة تمسيده من طرف جميع من كان يرجو أن يحالفه الحظ في امتحان أو مسابقة من سكان المنطقة، لا سيما طلبة كلية الآداب المجاورة لساحة كاستيلو، حيث كانت تقبع تحت أقواسه الميدالية الشهيرة التي ينفر من قلبها تمثال نصفيّ لكريستوفر كولومبوس يصوره وهو يحتضن خريطة للعالم، حيث غدا خنصر يده اليمنى ذاك هو الأشهر على الإطلاق في المدينة بل وفي كامل إيطاليا.

وقد دُشن نحت كولومبوس هذا عام 1923 تخليدا لمشاركة المهاجرين الإيطاليين بأمريكا اللاتينية في الحرب العالمية الأولى، ليتحول على مر السنين، إلى أحد أهم مصادر جلب الحظ في تورينو وكامل أنحاء إقليم بييمونتي، إلى درجة أنه قد تم استبداله قبل سنوات من شدة تمسيده، ليعود ويفقد لونه مجددا، ويصبح شديد النعومة لكثرة الاحتكاك الذي يتعرض له كطقس يوميّ لجلب الحظ والذي إن تواصل لسنوات أخرى، لا يُستبعد أن يخضع فيه هذا الإصبع التاريخي لتدخّل ترميمي آخر.

والواقع أن أسطورة جلب الحظ التي التصقت بتلك اليد قد ساهمت في تغذية تراث مدينة تورينو الملغز. إذ تعد هذه المدينة ذات الجمال الملكي الصامت، مركز السحر الأبيض بامتياز في

أوروبا. ولعل ما رفع من أسهم إصبع كريستوفر كولومبوس فيها بالتحديد مقارنة بغيره من التماثيل الجالبة للحظ في إيطاليا هو وجوده في ساحة كاستيلو بالذات وهي الساحة التي يقال أنها تقع في الجزء « الأبيض » من المدينة، أي الجزء الذي يقع فوق البقعة الأكثر إشعاعا بالطاقة الإيجابية، وهو ما جعل من تورينو مدينةً تُشكل أحد أعمدة ثالوث السحر الأبيض في العالم الغربي جنبا إلى جنب مع مدينتي ليون وبراغ، ذلك أنها قد بُنيت في مكان لم يتم اختياره بشكل اعتباطي، في وقتٍ كان بناء المدن فيه لا يُعزى أمره إلى المعماريين والمهندسين فحسب بل إلى السحرة والكهنة الذين اختاروا لبناء تورينو مكانا يقع بين مجرى نهري بو ودورا وهما نهران يفوران بتيارين مختلفين من الطاقة. فبحسب المعارف القديمة، تتدفق في هذا العالم أنهارُ طاقةٍ تتفجر من أعماق الكون وتسوح فيه، لتعود وتخترق سطح الأرض عابرة المحيطات والسهول وتصل إلى قمم الجبال مشكلة خطوطا متقاطعة تنشأ منها عُقد عجيبة لا يعرف موقعها سوى الكهنة المطلعين على أسرار العالم الخفية، لتصنع في النهاية ما يطلق عليه اسم « نقاط القوة » في العالم، وتعتبر تورينو وهي أول عاصمة لإيطاليا واحدة من المدن المبنية على إحدى هذه النقاط مثلها مثل مدن بابل، مكسيكو سيتي، القدس، أثينا، لندن ومكة وغيرها من المدن المعروفة بتاريخها السحري أو الروحاني الغامض في الأرجاء المختلفة من العالم.

وعلى الرغم من أن إيرمانو لم يكن يؤمن فعليا بقدرة إصبع ساحة كاستيلو على جلب الحظ، ولا بقدرة أي نوريّة على قراءة الطالع فعلا من خطوط اليد، إلا أنه مع ذلك كان غالبا ما يتوقف للسماح للغجريات من الروم، بقراءة كفه في لحظات مميزة كان يعتبرها احتفاءً برمزية اليد في تحديد مصير الإنسان وقدَره، أكثر

من كونها لحظات كان يسعى أصحابها من خلالها للتلصص على المستقبل. وهكذا توقف أستاذ الفن المقدس في أكاديمية ألبيرتينا بتورينو ذلك اليوم على نحو لا شعوري أمام تلك الميدالية ذات القدرة المغناطيسية العجيبة لجلب المارين إليها، ليجري اتصاله الهاتفي بإلياس مستغلا لحظات الانتظار تلك في فرك ذلك الأصبع الذي كان شكله النافر يجعله قابلا للمس على نحو خاص من الجميع، سواء أكانوا من المؤمنين أوغير المؤمنين بقدرته على تغيير مجرى حياتهم إلى الأفضل. ولم تكن أكاديمية ألبيرتنيا تبعد سوى عشر دقائق مشيا على الأقدام عن ساحة كاستيلو التي طالما عبرها إيرمانو مع صديقه الحميم وزميله في المعهد إلياس الذي يبدو أنه حسم فجأة قراره بالسفر إلى ما وراء البحار مع انتهاء العام الدراسي في الأكاديمية، وربما إلى غير رجعة. فكر إيرمانو وهو يحاول تكذيب حدسه، وأعاد الضغط على زر الاتصال، وقد بدأت علامات القلق تتسلل إلى وجهه. ربما لم يصل بعد. فكر من دون اقتناع وهو يدلك الآن بقوة ذلك الإصبع حتى بدا وكأنه يكاد يقتلعه. ومباشرة فكر بالبحث على الإنترت من خلال هاتفه الذكي على معلومات عن تلك الرحلة التي حملت صديقه اليوم إلى مسقط رأسه وقد استبد به شعور قوي بالقلق. لم يكن إيرمانو يعرف رقم رحلة إلياس إلى الجزائر، لكنه كان يعرف على الأقل توقيتها وقد أعلمه إلياس قبل لحظات من سفره برسالة خطية أن طائرته تستعد للاقلاع وأن موعد الوصول إلى مطار هواري بومدين هو العاشرة صباحا بالتوقيت المحلي.

رقن إيرمانو اسم مطار الجزائر الدولي للحصول على معلومات عن آخر الرحلات التي وصلت إليه، علّ ذلك يبث شيئا من الطمأنينة

في نفسه، إلا أنه سرعان ما بدا وكأن تقاسيم وجهه قد تخدّرت بعد أن سقطت عيناه على إحدى الصور التي جاءت مرفوقة بنتائج البحث على محرك غوغل. لقد كانت تلك صور لخرائط جوية تُظهر مطار الجزائر الدولي هواري بومدين من الجو.

فتح إيرمانو مباشرة الصورة الأولى وأخذ يكبّرها متأملا تفاصيلها غير المعهودة بالكثير من الاستغراب الممزوج بشيء يشبه الاعجاب.

لقد كان واضحا من الصورة أن مهندس مطار الجزائر قصد أن يبدو الرسم من الجو على شكل ذلك الرمز الذي ارتبط بحيرام أبيف مهندس هيكل سليمان، والذي يطلق عليه اسم المهندس الأعظم للكون بحسب العرف الماسوني ويُرمز إليه بحرف G، ذلك مع أن الكثيرين يعتقدون أن هذا الحرف يرمز إلى الحرف الأول من اسم الله بالانجليزية God وهو المهندس الأعظم للكون بالمعنى الأوسع. بينما يرى البعض أنه لا يمثل سوى أول حرف من كلمة هندسة Geometry، ويعتقد آخرون أن هذا الرمز لا يشير في الواقع إلا للحرف الأول من كلمة Gematria، وهي القانون المكون من إثنين وثلاثين بندا والذي وضعه أحبار اليهود لتفسير الكتاب المقدس في سنة 200 قبل الميلاد وهو نفس عدد درجات الماسونية.

تأمل إيرمانو الآن الرمز الماسوني الشهير الظاهر في مطار الجزائر الدولي والذي كان يرمز إلى العلاقة المتبادلة بين الأرض والسماء، وهو لا يتخيل مكانا أفضل لإدراجه غير مطارٍ على الأرض لا يمكن كشف تفاصيله بوضوح سوى من خلال صور ملتقطة له من السماء. وابتسم وهو يشاهد الصور وكأنه يثني على ذكاء المهندس الذي قام ببناء مطار هواري بومدين، وحوّل نظره مباشرة إلى يد كولومبوس

الذي كان يحمل فيها من خلال ذلك النحت، الرمز الماسوني ذاته الذي يظهر عليه تصميم المطار : الكوس والمدور. وعاد لينظر إلى تلك الصور مجددا لتحط عيناه الآن في إحداها على شعار ماسوني آخر : النجمة. ولمعت عيناه الآن ببريق غريب. يبدو أن إلياس سيحظى برحلة مثيرة ! غمغم إيرمانو وقد بدأت فكرة اللحاق بصديقه تنقر دماغه، وسرعان ما تذكر لقاء إلياس مع ذلك الشيخ الصوفي الذي حمله على أخذ قراره بالعودة إلى بلده وفكر الآن بريبة. هل يعني هذا أنه سيجد فعلا تلك المرأة ؟

- 15 -

« ورأيت نساء باكيات حزينات ينادين فلا يجبن ويتضرعن فلا يرحمن، فقلت من هؤلاء ؟ قال جبريل : هؤلاء اللواتي... ».

وفجأة فتح إلياس عينيه مرعوبا لتصفعه نظرة من نظرات سائق السيارة مجددا، وشعر أنه كان في كابوس ليستيقظ على كابوس آخر.

« الحمد لله يا ربّ ». قال سائق التاكسي وهو ينظر إليه مجففا جبينه.

بلع إلياس ريقه وهو يحاول أن يفهم ما يدور حوله.

« ورأيت نساءً عليهن سراويل من قطران و في أعناقهن السلاسل والأغلال، فقلت من هؤلاء ؟ قال... ».

« سنصل بعد قليل. لا تقلق. الحمد لله أنك صحوت ».

نظر إلياس من النافذة ليرى أخيرا الجزائر البيضاء تطل على الجانب الآخر من الشاطئ وهو لا يزال يشعر بالغرابة.

« نساء قد احترقت وجوههن وألسنتهن مندلعات على صدورهن، قلت من هؤلاء ؟ ».

« لقد أرادت صاحبة تلك « الماتريكس » أن تتجاوزنا. الحيوانة. لكنني لم أسمح لها. »

واتكأ إلياس برأسه على المقعد وقد فهم أخيرا سر ذلك الصياح الذي أيقظه من غفوته، ولكنه عاد ليشعر لسبب ما بالانزعاج.

« ورأيت نساء معلقات من شعورهن ويغلي دماغهن فقلت من هؤلاء... ».

نظر السائق إلى إلياس وقد استشف من حركاته الضيق الذي كان يكابده، ليرفع الآن صوت المذياع.

« ورأيت نساء معلقات بشعورهن ومكبلات بثديهن بكلاليب من نار ».

« يبدو أنك تعبت كثيرا في السفر، وفقدت وعيك ». قال السائق وهو يحفر أنفه محاولا إيلاج سبابته في أبعد نقطة من خياشيمه. « لكن لا تقلق ! كدنا نصل. وعلى أي حال أنت تبدو في وضع أفضل ». والآن كوّر ما تيسر له نحته من مخاط متحجّر داخل منخاره وقذفه بحركة خاطفة من بين اصبعيه على زجاج السيارة. « من الواضح أن القرآن قد ساعدك ». وعاد السائق لرفع صوت المذياع مجددا...

« ورأيت نساء أرجلهن إلى ألسنتهن وأيديهن إلى نواصيهن فقلت من هؤلاء ؟ قال جبريل : هؤلاء اللاتي لا يحسن العشرة ولا يحسن الوضوء قذرات الثياب والجسد لا يغتسلن من الحيض والجنابة ويتهاون في صلاتهن حتى تفوت ».

شعر إلياس مجددا بالتوهان أو الغثيان... لم يكن متأكدا، وحاول طرد رائحة العرق النفاثة التي كانت تنبعث من تلك الكتلة المخاطية القابعة إلى جانبه لكنه توقف قليلا أمام آخر خمس كلمات نطق بها السائق وهو لا يكاد يستوعب ما كان يجري حوله.

عفوا ؟!

لا تستغرب الأمر ! ردّ السائق بحماس. « فالقرآن يساعد على تحسين النفسية كثيرا ». وواصل مبتسما : « أنا أحتفظ بأشرطة الدين في سيارتي لأنه لا شيء يمكن أن يخفف وطأة هذه الحياة غير ذلك ». وعاد ليرفع صوت المذياع أكثر وأكثر.

« ورأيت نساء صما بكما عميا في تابوت من نار يخرج من دماغهن مثل الدهن من مناخيرهن وأبدانهن منتنة تتقطع من الجذام والبرص قلت من هؤلاء ؟ قال جبريل : هؤلاء اللاتي أولادهن من غير... ».

– خصوصا وأن صوت هذا الشيخ... ماشاء الله !

أشاح إلياس بنظره عن السائق وراح يتأمل زرقة البحر في ذلك اليوم الصيفي الحار، وقد اتضح له أن عملية اختطافه تلك لم تكن سوى هلوسات من جراء الحر الشديد والرطوبة العالية التي لم يكن متعودا عليها. وأما القاتل المأجور الذي خيل له أنه قد تربص به في المطار ليس سوى كائن مركّب من أشياء تشبه الأعضاء البشرية، غير قادر على التفريق بين تلاوة للقرآن وصوتٍ محموم لشيخ يروي « أحاديث دين ». وأدار الآن وجهه نحو سائق سيارة الأجرة غير الشرعية وكأنه يحاول النظر إليه من زاوية أخرى غير تلك التي أصر ذهنه على تبنيها منذ البداية. رد سائق التاكسي على نظرات إلياس الفارغة بابتسامة الخبير الواثقة. وبحلم قال : « صدقني صحيح أنك ربما لا تفهم ما يقال في القرآن الكريم بحكم أنك « إيميغري » ولا تحسن اللغة، ولكن صوت القرآن يدخل إلى القلب حتى من دون أن تفهمه... فمثلا الكلام هنا عن السماء الخامسة وعقاب النساء – حشاك – اللواتي.... ».

والآن قرر إلياس إقفال حواسه الخمسة وبدأ يستمتع بفكرة أنه قد وصل أخيرا وبسلام لأرض الوطن، وأطبق عينيه على تلك

« الخامسة » المعلقة تحت المرآة العاكسة للسيارة وسرعان ما ضاع صوت السائق وصوت المذياع الممزوج بصوت المحرك في ثنايا صوت الشيخ برهان الدين القادم من معبد بومايا...

« وفي رحلة دامت خمسمائة ألف سنة ضوئية، وصل النبي عليه أفضل الصلاة والسلام إلى السماء الخامسة المسماة بجنة النعيم، جنة الجمال والسعادة. وقد كان بابها مصنوعا من مزيج من ذهبٍ وفضة الجنة، طرق جبريل على الباب فسأل صوت من الداخل : من الطارق ؟

جبريل وقد جلبت معي النبي محمد ».

– « ... فأنت تعلم والعياذ بالله ». وعاد مجددا صوت السائق ليقاطعه : « ... أن النساء سيعذبن في السماء الخامسة ». لكن إلياس قرر مجددا الانخراط في غفوته اللذيذة مجددا، وانفصل عن عالم المذياع والسائق وواصلت كلمات الشيخ برهان الدين تتدفق على ذهنه.

« أهلا بك أيها الحبيب في السماء الخامسة ».

وفتح الباب للرسول عليه الصلاة والسلام ورأى خمس نساء تشع منهن الأنوار، وبدون بين خادماتهن وكأنهن محاطات باللؤلؤ والماس. دق قلب رسول الله لرؤيتهن، وسأل جبريل : « من هؤلاء النسوة ؟ » أجاب جبريل : « هذه حواء، أم البشر. وهذه مريم العذراء، أم عيسى. وهذه والدة موسى، يوكابيد. أما هذه فآسية، زوجة فرعون ». وأما المرأة الخامسة فبدت وكأنها شمس بين النجوم. وقد غطى نورها على بقية ساكني السماء الخامسة وكأنها نسمة لطيفة تداعب أوراق شجرة. وقال جبريل : « أما هذا فملك يمثل ابنتك فاطمة، أيها الرسول ».

وسأل الرسول عليه الصلاة والسلام : « ما سر هذه الجنة يا جبريل ؟ ».

للأسف أنك كنت نائما لدى وصف هذه السماء واستطرد السائق : « ففي البداية يا لطيف تبدو جهنم مظلمة ممزوجة بدخان قاتم وإذا بملك عظيم الخلقة، مرهب النظر، ظاهر الغضب، شديد البأس، بين عينيه عقدة لو أشرف بها على الأرض لماتوا، وغارت منه البحار، وتقطرت منه الجبال ». وتابع الحديث الذي كان من الواضح أنه يحفظه عن ظهر قلب لكن لم يكن يسمعه أحد سواه، فإلياس كان لا يزال غارقا في صوت برهان الدين...

« خلق الله هذه الجنة لتعكس جمال وكمال النساء. إن نور هذه الجنة تنبثق عنه الأنوار الملائكية لجميع نساء الأرض. لقد خُلقت النساء من أجل حمل سر الخلق في داخلهن. وقد شرّفهن الله فجعل من بطونهم وعاء لكلمته التي تمثل النفس. تأمل المكان الأكثر قدسية وهنا أنزل رحمته وبركته. وجعل من هذا المكان كاملا فأحاطه بثلاث طبقات لحمايته من أي مكروه. الطبقة الأولى من النور، والطبقة الثانية من الحب، والطبقة الثالثة من الجمال... ».

الله يسخطكم. صاح ونفير السيارة يسانده في زعيقه. « راكم وليتو تزاحمونا في الطريق... دولة النّسا ». نطّ إلياس فزعا من غفوته على صوت سائق التاكسي مجددا والذي كان الآن في قمة غضبه. « والله ما نخليك تفوتي يا وحد... » وامتزج صوته بصوت المذياع...

« ورأيت نساء معلقات من أرجلهن في تنور من نار قلت من هؤلاء ؟ قال جبريل : هؤلاء اللاتي يشتمن أزواجهن، ورأيت نساء سود الوجوه يأكلن أمعاءهن ».

« يا لطيف... يا لطيف... ربي راهو يعذبنا بهاذ الراصة ». قال السائق متأففا. وحاول إلياس العودة إلى عالم الشيخ برهان الدين الذي لم تفارق كلماته ذهنه منذ تلك الليلة.

« لم تخلق النساء أكثر ضعفا، ولكن أشد كرما من الرجال. خُلقن أجمل وأقل ضراوة، لأن الجمال ينأى بنفسه عن جرح الآخرين وإلحاق الضرر بهم. وهو الأمر الذي يجعلهن تبدون ضعيفات في نظر الناس، ولكن الواقع غير ذلك. فالملائكة هم المخلوقات الأكثر قوة. والنساء أقرب للطبيعة الملائكية من الرجال، لذلك فهن أكثر استعدادا من الرجال لحمل النور الإلهي ».

« اسمع، اسمع هذا المقطع... يا سلام ». هتف سائق التاكسي مخاطبا إلياس وهو في قمة النشوة.

« ورأيت امرأة رأسها كرأس الخنزير وبدنها كبدن الحمار وعليها ألف نوع من العذاب قلت من هذه المرأة ؟ ».

حدج إلياس السائق بريبة وقد بدأ القلق يتسرب إلى نفسه وأخذ يتأمله علّه يدرك سر حماسه الزائد لهذا الشريط. « زد، زد هذه ». قال السائق بحماس أكبر وهو يدعوه للإنصات للمزيد.

« ورأيت امرأة على صورة كلب والنار تدخل من فوقها وتخرج من تحتها والملائكة يضربون رأسها بمقامع من حديد قلت من هذه ؟ قال جبريل : هذه المحرشة بين الناس بالبغضاء ».

« إن أعمال الخير وروحانيتهن الفعالة هي ما جعلت منهن أقل حدة من الرجال ».

وعاد إلياس للغوص مجددا في ذهنه محاولا الفرار من عالم السائق الذي بدا وكأنه يحاول حمله إليه قسرا.

« وقد أعطى الله للنساء خمس صفات ملائكية نادرا ما يتمتع بها الرجل. إنهن... ».

– على فكرة. وعاد سائق التاكسي ليقاطع خلوة إلياس مع أفكاره. نكاد نصل.

– جيد. أجاب إلياس بهدوء.

– أقصد هل يمكن أن تحضّر النقود الآن، حتى لا تضبطني الشرطة في أودان تعلم أنني « كلوندستان ».

– طبعا. طبعا. أجاب إلياس بحذر وهو يضع يده في جيبه. كم تريد ؟

– أربع مائة. قال وهو يقوم بمناورة عبر السيارات من أمام البريد المركزي.

أخرج إلياس ألف دينار من محفظته. وقدمها للسائق.

ألقى السائق إليها نظرة سريعة، ونظرة أخرى لإلياس الذي كانت يده لا تزال معلقة في الهواء.

« ورأيت رجالا... ».

– أربعة أربعة. وأخفض الآن صوت المذياع حتى لم يعد يسمع منه شيئا. وعاد ليكرر الحركة بيده : أربعة أربعة.

كان من الواضح أن السائق يطلب أربعمئة ألف سنتيم وليس أربعمئة دينار. نظر إلياس إليه نظرة خاوية، وأحس فجأة أنه فهم أخيرا قانون « التايهوديت » الذي حدثه عنه جده. وتبين له أخيرا أنه يجلس أمام لص محترف وليس قاتلا مأجورا كما خُيل له وهو من كان يعلم أن أجرة رحلة كهذه لا تتجاوز الألف دينار. أخرج ثلاثة ألاف دينار أخرى من محفظته دون أن يخفي علامات

الاستغراب من حجم المبلغ، ومن « أحاديث الدين » التي صمتت فجأة مع أنها كانت منذ دقائق تزعزع أركان المكان.

شد السائق الورقات المالية الأربعة من يد إلياس بسرعة ودسها في جيبه كمن عثر على كنز. « لقد كان الطريق مزدحما ». وقال بلغة المبرر : « كما أنني ذهبت بك إلى المستشفى عندما فقدت وعيك من الحر ». نظف حلقه وللحظة بدا وكأنه سيطلب المزيد. « هذا عدا أنني أخذتك عبر طرق مختصرة بين الأحياء لتجنب الاختناق المروري في الطريق السريع... إنه طريق لا يعرفه سائقو التاكسي أنفسهم ». ثم زاد صوت المذياع وهو يعدل جلسته على الكرسي.

« ورأيت النار وأهوالها وعقابها شديد لا تقوى لها الحجارة ولا الحديد... ».

« صدقني لو أنك أتيت مع سائق أجرة عادي لكنت لا تزال تكابد الأمرين في « الديار الخمسة ». قال من دون اقتناع.

« ورأيت فيها أهوالا فداخلني منها رعب... ».

وعاد صوت المذياع ليلعلع مجددا. « هذا عدا أنني سأعود الآن فارغا من دون زبائن... ».

« ثم انطبق الباب وعاد كما كان ونظرت إلى السماء الخامسة وما فيها من العجائب... ».

ونزل إلياس أودان وهو يهنئ نفسه بالسلامة، وعلى القيام بأول خطوة لإيجاد تلك المرأة وكشف سرها. ليتني أعرف بالأصل ماهيتها. وما إن أدار وجهه متأملا المكان حتى اصطدم مجددا بالخامسة على زجاج محل سي بن هارون وسط ساحة أودان. كانت مجددا هي. وفجأة تذكر شعار الجمهورية وتلك الرحلة الغريبة على

تلك السيارة إلى السماء الخامسة. هل لكل هذا علاقة بما أتى للبحث عنه ؟ فكر وهو يستعد لتسلق « درج الأموات » المؤدي إلى منزل جده في حي تليملي.

- 16 -

جلس على مكتبه الفخم المصنوع من خشب السنديان في الطابق الأخير من مبنى رئاسة أكاديمية الفنون الجميلة الواقع في جادة كريم بلقاسم في حي تليملي بأعالي العاصمة، وأخذ يمسد بعناية ربطة عنقه « السْليم » من ماركة غوتييه ذات الطرف المربع وهو الموديل الرائج لذلك الموسم. لقد كان موسيو أمزيان مدير أكاديمية الفنون الجميلة بالجزائر يهتم بشكل كبير بأناقته التي كان يختصرها في ربطات العنق الحريرية المنتقاة من أفخم الماركات العالمية والتي كان يعتقد أنها حتما تليق به، عدا عن حرصه على تدخين السجائر الأمريكية الغالية التي كانت تناسب وضعيته الاجتماعية.

انتهى من تمسيد ربطة عنقه في حركة شبه روحانية، ثم تناول علبة سجائره الـ « تريجورير » المعدنية اللماعة والتي كان يحرص على التزود منها في رحلاته الدورية إلى إنجلترا بمجرد دخولها إلى السوق البريطانية قبل عشر سنوات. وسحب موسيو أمزيان بحركة استعراضية تلك السيجارة السوداء الأنيقة التي يتم صفها في المصنع الأمريكي بشكل يدوي وبكل عناية للحفاظ على شكلها، وأطبق شفتيه على نهايتها الذهبية التي كانت تعمل على التخفيف من التصاق الشفاه أثناء تدخينها، ولكنها كانت بالنسبة له إضافة فاخرة على السيجارة الأغلى في العالم والتي لم يكن يستحقها

سوى أمثاله. فكر وهو يشعل طرف السيجارة الملفوفة بورقة تحمل الدمغة المائية لاسم العلامة التي كانت تصنع سجائرها من أجود وأنقى أنواع التبغ ذي الصيت العالمي في ولاية فيرجينيا، من دون أي إضافات كيميائية. وعلى الرغم من طعم السيجارة الخفيف ذاك الذي لم يكن يروق تماما موسيو أمزيان إلا أن تدخين ثماني سيجارات منها في اليوم كان يمكن أن يفي بالغرض. وعلى الرغم من أن مدير أكاديمية الفنون الجميلة كان يعلم في سره أن سيجارة محلية واحدة كان يمكنها أن تضخ في رأسه كل ما يحتاجه من دخان، إلا أن متعة التفكير أنه قد يكون الوحيد في كامل القطر ممن يدخن الـ « تريجورير » بشكل منتظم، لا يمكن أن تقدمه له سيجارة غيرها.

جلس على كرسيه الجلدي الضخم، واستعد مجددا لنقر اسم إلياس الكامل على محرك غوغل وقد اختار كعادته خاصية البحث في خانة الصور.

لم يكن أمزيان يحب القراءة بشكل خاص، بل كان يكفيه النظر إلى الأشياء من أجل فهم أصلها وفصلها وتحديد سعرها إذا ما تطلب الأمر ذلك، وهذا كان حاله مع إلياس، فخانة الصور في غوغل كانت مفتاحه للتعرف على مراسله السمج، ودليله للتسلل إلى أعماق فكره وسبر أغوار عقله كما كان يعتقد. والواقع أن ذلك كان هو ديدن موسيو أمزيان منذ أن بدأ إلياس ماضي بمراسلته منذ حوالي السنتين، حتى غدا هذا الاسم يشكل هاجسا حقيقيا بالنسبة له، وقد دأب على نقر اسمه والبحث عن صورٍ له على نحو شبه مَرَضي أقرب للوسواس القهري منذ تلقيه الرسالة السادسة منه، حيث كانت نبرة إلياس تزداد إلحاحا للعمل في الأكاديمية التي

يترأسها في كل رسالة. تبا له ! فكر وهو ينظر الآن باشمئزاز إلى صورةٍ لإلياس تبدو ملتقطة له من أحد المعارض. وتأمل تفاصيل ثيابه بتقزز وهو يكز على أسنانه، مركزا النظر على قميص قطني كان يرتديه، حيث بدا من الواضح أن هذا الفنان لم يكن يشارك أمزيان شغفه في ارتداء ربطات العنق. والآن بدأ مدير معهد الفنون الجميلة يقلب عينيه بلا مبالاة بين صور لوحات إلياس التي كان يحفظها محرك غوغل من عدة مواقع فنية بمختلف اللغات. وعاد يلعن ويشتم من جديد في سره.

أقسم أن أفشل طالب عندي في الأكاديمية قادر على رسم لوحات أفضل من هذه.

والحال أن موسيو أمزيان لم يكن قادرا، على الرغم من تربّعه على أهم هيئة معنية بالفن التشكيلي في الجزائر، على التمييز بين لوحة أصلية أو صورة مطبوعة في إطار فخم، إلا أنه كان مقتنعا أن هذا المدعو إلياس ماضي لا يستحق هذه الشهرة التي يبدو أنه يحظى بها، وأن أعماله لا تعدو كونها هلوسات فنية فاشلة، وهي أشبه بخربشات لطفل في السابعة من عمره، منها لأعمال فنية مكتملة. وشد ربطة عنقه بعصبية وهو يستعد لإقفال تلك النافذة العنكبوتية وقد تملكه الكثير من الغضب. ليعود بعدها مباشرة ويهتدي لنقر حروف اسمه على خانة البحث وقد خامره شعور خاص بالزهو وهو يلغي اسم إلياس ماضي، ليضع بدلا عنه اسمه..وبكل فخر. وما هي إلا لحظات حتى ظهرت بعضٌ من صوره المرتبطة بموقع وكالة الأنباء الوطنية والجرائد المحلية مصحوبة بصور لوحات من معارض أقامتها أكاديمية الفنون الجميلة في السنوات الماضية.

تأمل أمزيان صوره بالكثير من الإعجاب، وتوقف الآن للحظات في جزئيةِ صورةٍ تُظهر بوضوح الخامة الفخمة لإحدى ربطات عنقه الأنيقة. كانت تلك ربطة عنق إيف سان لورون ذات لون أحمر قانٍ اقتناها من السوق الحرة في مطار شارل ديغول. ونظر الآن إليها بشغف وأخذ يمسد مزهوا ربطة عنقه البنية التي كان يرتديها ذلك اليوم، وقد نفخ صدره. وما هي إلا لحظات حتى شعر أنه استعاد ثقته الكاملة بنفسه. إلا أن ملامح وجهه عادت للانغلاق وقد لمح صورةً للوحةٍ سقيمة تظهر منها عيون بنية جاحظة لابد أنها كانت من رسم مدام صفري التي أقام لها معرضا منذ أشهر، وقد ظهرت هذه اللوحة في نتائج البحث أمام صورته. سحقا... ما هذا القبح ! تمتم في سره وهو يتأمل تلك اللوحة التي كانت تظهر صفري فيها تنظر بغنجٍ إلى السماء. نظرات حتما لم تكن تناسب سنها. هكذا فكر. وسرعان ما شعر بمغص في بطنه، وعراك مفاجئ للأمعاء داخل معدته لمجرد عبور فكرة طارئة على ذهنه بخصوص مدام صفري التي كانت مديرة للمعهد العالي للأبحاث في التراث العربي التابع للجامعة العربية.

وقد كانت مدام صفري بالإضافة إلى كونها سكرتيرة سابقة لأحد رؤساء الجامعة قبل حوالي ثلاثين سنة حيث تمكنت فيها بقدرة قادر بحسب تعبير الألسن الطويلة من الحصول على شهادة الليسانس والنجاح في مسابقة الماجستير وبعدها التسجيل في الدكتوراه، وكل ذلك في نفس الجامعة وتحت رئاسة نفس المسؤول، كانت صفري أيضا رسامة هاوية تعشق رسم نفسها... بجميع تفاصيلها. نظر أمزيان بتقزز إلى تلك اللوحة واستذكر لوحات ذلك المعرض القميئة التي تمحورت حولها. فهذه لوحة لوجه صفري الكبير وهي تتأمل

السماء، وتلك لوحة لقدمها الثخينة مغروسة في الرمل، وأخرى لوحة تفصيلية لعينيها الجاحظتين، وأيضا لوحة لأصابع يديها الكبيرتين. ولوحة أخرى تظهر شعرها الأشعث الذي غدا بعد تمليسه أشبه بإبر القنفذ البري. بشعة ! فكر وهو يتناول من أمامه كأسا من الماء ارتشف منه بضع قطرات ليبلّل بها ريقه. وفكر في المعرض القادم الذي قد يقيمه لها. كان لابد أن يبقي على علاقة طيبة معها على أي حال، خصوصا أنه قد أمّن لابنته عملا في معهدها تتقاضى منه راتبا محترما بالعملة الصعبة.

وقد كانت ابنة أمزيان ليندا شغوفة بالسفر وقضاء أوقات ممتعة رفقة الأصدقاء أكثر من العمل أو الدراسة. وهي التي حصلت على شهادتها الجامعية بفضل علاقات والدها الطيبة مع رئيس الجامعة التي كانت تدرس فيها من دون أن تدرس فعلا. والآن فكّر بحسرة وهو يشعل طرف سيجارته التريجيرير الثانية، فقد كان يستطيع أن يحصل لابنته على منحة للدراسة في بريطانيا لولا أنها كانت عنيدة.

« أنا لا أرغب في الدراسة، ولندن هذه أزورها وقتما أشاء للشوبينغ في هارودز لا للذهاب إلى جامعات مملة ».

وعلى الرغم من أن موسيو أمزيان حاول إقناع ابنته بكل السبل أن قبول المنحة لا يعني بالضرورة أن تقتل نفسها بالدراسة، فهذا حتما ليس هو حال أبناء أصدقائه من المسؤولين الذين ينعم أبناؤهم بمنح دراسية في الخارج. إلا أن مجرد فكرة السفر لغرض الدراسة كانت تجرح كبرياءها. غير أن موسيو أمزيان ولحسن الحظ تمكن من إقناع ابنته المدللة على الأقل من حضور الامتحانات في الجامعة حيث سجلها في اختصاص العلوم السياسية على أمل أن يتمكن من ضمان منصب لها في وزارة الخارجية يخولها لاحقا للعمل

الدبلوماسي لتضمن بهذا الحصول على راتب شهري تدفعه لها خزينة الدولة لقاء ممارسة هواية السفر المفضلة لديها.

نفث أمزيان دخان سيجارته السوداء اللذيذة وهو يفكر في المستقبل المهني لابنته الوحيدة وقد ارتسمت ابتسامة السعادة على وجهه وهو يشعر بالرضا من الخطوات الأولى التي قام بها لحد الآن في هذا الصدد.

وقد كان تأمين وظيفة لليندا في المعهد الذي تديره مدام صفري مباشرة بعد تخرجها من الجامعة، من شأنه أن يجعل ابنته تعتمد أخيرا على نفسها وتؤمن حاجياتها للألبسة من راتبها، هذا عدا عن أن عملها في المعهد كان من شأنه إثراء سيرتها الذاتية في انتظار المنصب الذي وعده به أحد أصدقائه في وزارة الخارجية ومنه إلى إحدى سفارات أوروبا. وهو في جميع الأحوال خير من أن تبقى مكتوفة الأيدي من دون عمل تقوم به أثناء انتظار الوظيفة الحقيقية، وذلك حتى وإن لم يكن « عملها » في الواقع يفرض عليها العمل. والحقيقة أنه لم يكن يُطلب من ليندا أمزيان المداومة على الإطلاق في مقر المعهد لأن هذه الوظيفة كانت عربون محبة قدمتها صفري للوالد مقابل إقامة معارض دائمة للمديرة « الفنانة » في أكاديمية الفنون الجميلة بالجزائر والمؤسسات الصديقة لها في ربوع الوطن من أجل الترويج لاسمها كفنانة تشكيلية لامعة. إلا أنه ومع ذلك فقد نصح موسيو أمزيان ابنته بالاستفادة من هذه التجربة وحثها على حضور الحفلات التي يقيمها المعهد على الأقل تماما مثلما لم تكن مضطرة سوى لحضور الامتحانات أيام الدراسة، وذلك من أجل الاعتياد على التصرف في هذه المناسبات، إلا أن ليندا كانت عنيدة.

« لست مضطرة لحضور حفلات الشيوخ والعجائز هذه فأنا لا أزال في مقتبل العمر ». قالت مبررة رفضها لحضور مناسبات المعهد العربي وهي تحمل مفاتيح سيارتها الرانج روفر البيضاء والمخصصة لحضور الحفلات وهي تستعد للخروج. « هذا عدا أن وجه مدام صفري البني اللزج لا يصلح لأن يجلس المرء أمامه لأكثر من ثلاث ثوان ». قالت باشمئزاز وهي تكاد تفرغ ما في بطنها قبل أن تخرج وتصفع الباب من ورائها وهي التي كانت مدعوة تلك الليلة لحفل عيد ميلاد أحد أصدقائها في نادي الصنوبر. وبذلك تفهم موسيو أمزيان موقف ابنته الحساسة لمواطن القبح، وهو نفسه كان يعاني ما يعانيه في هذه الحفلات. وتنهد الآن وهو يتذكر فساتين صفري الضيقة، والمطبّعة بالورود والمصبوغة بمختلف الألوان، والتي لم تكن تناسب سنها ولا حتما حجمها. وهكذا رفضت ليندا طبعا حضور احتفال اختتام نشاطات المعهد الذي أقامته مدام صفري أمس في فندق الأوراسي، بينما كان موعده هو هذه الأمسية في فيلا دار الضياف في سهرة تخصها صفري للاحتفاء مع الأصدقاء المقربين بنجاحاتها، وهي الاحتفالات التي كانت تقدم فيها أفضل أنواع الشراب لضيوفها المميزين. ابتسم موسيو أمزيان وهو يتذكر بار دار الضياف العامر الذي يحوي أغلى أنواع النبيذ. لتعود فجأة ملامح وجهه للانغلاق مجددا وهو يتخيل صفري تقف على حافة البار وهي تطوح برأسها وصوت ضحكتها يملأ المكان. ضحكة لم تكن تشبه شيئا سوى شخير محرك جرارٍ فلاحي صدئ يمارس نشاطه في بقعة مقفرة من الهضاب العليا لكنه يعيش وهْم أنه محرك لسيارة بانتلي وردية ذات صولات وجولات في البيفرلي هيلز. وفي هذه اللحظة رنّ هاتفه المحمول.

– هل من جديد ؟ سأل موسيو أمزيان وهو يحاول أن يحتوي قلقه

– نعم... أردت أن أطمئنك على موضوعنا. قال المتصل بنبرة مبتسمة. كل شيء سيتم مثلما طلبت... نلتقي لاحقا.

توهج وجه موسيو أمزيان بابتسامة عريضة، والتقط الآن من على المكتب مفاتيح سيارته البيجو 407 التي كان يخصصها للعمل، وقام من مكانه مستعدا للخروج من الباب الخلفي لتفادي الالتقاء بأي زوار في يوم الاستقبال ذاك، وذلك على الرغم من أنه كان يثق على أي حال بأن سكرتيرته التي اختارها بعناية كانت قادرة على التخلص ممن كان يطلق عليهم اسم « الصّامطين » المتطفلين على مكتبه، باحترافية عالية. وبينما هو يطفئ سيجارته الأخيرة لذلك اليوم، اتجه نحو خزانة المكتب، وفتحها ليختار في طقس يومي دأب عليه قبل الخروج من الأكاديمية، ربطة عنق أخرى تناسب مزاجه في تلك اللحظة. ليقع اختياره الآن على ربطة بنفسجية من البيير كاردين ذات زاوية مدببة اعتقد أنها الأنسب لحفلة هذه الأمسية. والآن عدل سترته وحرص قبل أن يخرج أن يلقي نظرة على سلة المهملات ليتأكد أن بقايا السيرة الذاتية لإلياس تستقر بهدوء في قاعها. ابتسم ابتسامة كلبية، وأخذ نفسا عميقا، وهو يمني نفسه بأنواع شراب خاصة في احتفالية هذه الأمسية بأعالي حيدرة، وقد خامره شعور خاص بالرضا بعد تلك المكالمة.

« أما أنا فسأحتفل اليوم بالتخلص منك ». وتمتم الآن بشماتة وهو ينظر إلى نتف الأوراق الصغيرة التي ملأت سلة مهملاته. لقد كان متأكدا أن مخططه يسير بهدوء.

- 17 -

قرأ المحقق إبراهيم تلك العبارة مجددا وهو يشعر بالكثير من الريبة...

Mene, Mene, Tekel u-Pharsin

– يقول المترجم أنها عبارة مأخوذة من تناخ. قال خير الدين بنبرة مرتعشة. « أحد الكتب اليهودية المقدسة ». ثم صمت للحظات وتابع الآن بصوت جنائزي : « إنها عبارة تستعمل من أجل إنذار شخص ما بقرب أجله ».

وخيم السكون للحظات على المكتب، ليستطرد الآن خير الدين وكأنه فهم ما كان يدور في رأس رئيسه الذي تناول هاتف إلياس الذكي بهدوء دون أن ينبس بكلمة، وفتح مجددا تقرير المكالمات ليطلع على الصادر والوارد منها طيلة فترة إقامته في الجزائر، والتي كان هناك إسم واحد فقط يهيمن عليها.

– نعم... لقد أُرسلت له من حساب نفس الشخص.

إيرمانو بيرغونزي.

– أريد أن أعرف من هو.

- 18 -

نظر إيرمانو إلى خرائط غوغل الجوية تلك، متأملا باهتمام الرموز الماسونية الواضحة فيها، والمنتشرة في العديد من الأماكن الاستراتيجية في دولة لا يُعرف لها إرث ماسوني كبير في العالم، ذلك أن الماسونية كما هو شائع منظمة ترتبط بشكل مباشر بالمعتقدات الدينية المسيحية اليهودية المتصلة بالتقاليد الغربية، كما أنها بلورت مفاهيمها الحديثة في كنف الحضارة الغربية، وفي العالم الجديد بالتحديد. فعدا عن أن أربعة عشر عضوا من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة كانوا ينتمون رسميا إلى هذه المنظمة كان بنجامين فرانكلين أحد المجددين في الحركة الماسونية الحديثة حيث يعتبر هو من أضاف مرتبة الخبير فيها وهي الدرجة الأهم والتي تلي مرتبة المبتدئ وأهل الصنعة. وعلى الرغم من أن دستور الماسونية الذي تمت كتابته عام 1723 في واشنطن، يشير أن جذور المنظمة هي امتداد للعهد القديم من الكتاب المقدس، إلا أنه وبسبب الغموض الذي يلف طقوس الانتساب لهذه الجمعية وما يراقفها من شعائر وثنية، لم ترض الكنيسة يوما على نشاطات هذه المنظمة التي كانت تعتبرها مريبة. والحقيقة أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية كانت تعارض بشدة هذه الحركة منذ بداية ظهورها، وذلك أنها عُرفت كـ « جمعية سرية » ذات أجندة خفية تحمل معتقدات تتعارض

مع معتقدات الكنيسة لأنها وكما كان يُعتقد تنشد جذب أعضاء الكنيسة الي صفوفها من أجل العبث بقيمها من الداخل. الأمر الذي دفع الكنيسة الكاثوليكية في أوائل القرن العشرين إلى فرض الحرمان الكنسي وطرد كل من تشتبه في انتمائه إلى الماسونية مؤكدة أن جميع الأشخاص الضالعين في هذه الجمعية السرية أو من يتواصل مع أعضائها، يعرّضون روحهم إلى خطر محدق. إلا أنه وفي عام 1980 قام البابا يوحنا الثاني برفع الطرد الكنسي الذي كان مفروضا ضد الكاثوليك الذين شاركوا في الحركة الماسونية، بالرغم من أن أسلافه كانوا من أشد المعارضين لهذه الحركة. ولكنه عاد ليصرح بعد قراره هذا بثلاث سنوات أنه « لا يمكن أن تكون كاثوليكياً وماسونياً في نفس الوقت ». غير أنه ولكون مختلف البلدان الغربية قد تجاوزت عقدة الكنيسة في تحديد ما هو مناسب أو غير مناسب في تشكيل معتقداتها، أخذت الكثير من المدن الأوروبية مؤخرا تستعرض موروثاتها الماسونية دون حرج من تعارضها مع القيم الكاثوليكية، حيث تبرمج الوكالات السياحية في مدينة تورينو زيارات للسائحين ضمن « جولات تورينو الساحرة » تأخذهم فيها لأهم المعالم الماسونية والمنتشرة بشدة في المدينة، ولعل أشهرها نافورة الفصول الأربعة والمعروفة أيضا باسم فونتانا آنجيليكا[5] وهي النافورة التي تم تدشينها في ساحة سولفيرينو[6] عام 1929. ليتذكر إيرمانو الآن لحظة تعرفه لأول مرة على نافورة الفصول الأربعة الماسونية في تورينو والأسرار التي تحملها.

5. Fontana Angelica.
6. Piazza Solferino.

– هذه النافورة كان من المفترض أن يكون محلها في مواجهة كاتدرائية سان جوفاني باتيستا[7]. قال جد إيرمانو، ودليله الأول نحو الرموز الماسونية في تورينو...

– ولِمَ انتهى بها المقام هنا إذن ؟ سأل إيرمانو جده بفضول...

– لأن الكنيسة اكتشفت أمر الرموز الماسونية المخفية في النافورة. قال الجد بصوت عميق. وهي أمور من المعلوم أن الكنيسة لم تكن ترضى عنها.

غاص إيرمانو بتركيز في تفاصيل النافورة محاولا استخراج الرموز الماسونية التي يتحدث عنها جده، لكنه سرعان ما شعر بخيبة أمل تسرب لونها إلى ملامح وجهه. فعدا عن وجود بعض الأمواج العاتية، وميدوسات مخيفة ينفر الماء بقوة من فمها، والتي قد تعد نذير شؤم للبعض، كانت تلك النافورة تبدو عادية بجميع المقاييس. فالأمر لا يتعلق سوى بأربعة تماثيل، لامرأتين ترمزان لفصلي الربيع والصيف، ورجلين يمثلان الخريف والشتاء محاطين بأطفال وفاكهة وورود، ويتموضع كل زوج فيهما على نحو متعاكس. وعدا عن أنه يقال بأن لكل من هذه التماثيل يُنسب لون أو حتى مزاج معين، إلا أن إيرمانو لم يجد أي رموز قد لا ترضاها الكنيسة في كل هذا.

– ولكن عن أية رموز تتحدث ؟ سأل إيرمانو جده بخيبة بعد أن عجز عن تحليل الرمزية الماسونية للنافورة.

– الرموز ليست بهذا الوضوح. وربت الجد على كتف حفيده محاولا طمأنته على ذكائه وقد لمح آثار الإحباط التي ارتسمت على وجهه. « والواقع أن الكنيسة نفسها لم تكتشف ربما أمر تلك الرموز عندما رفضت أن توضع النافورة أمام الكاتدرائية الأهم

7. Cattedrale di San Giovanni Battista.

في تورينو، ولكن يرجّح أنها فعلت ذلك لمجرد أن مصممها كان فنانا معروفا بماسونيته في ذلك الوقت وهو النحات جيوفاني ريفا[8] بالإضافة إلى أن الممول السري للمشروع كان وزير أسرة سافويا المالكة باولو بايوتي[9] الذي أطلق على النافورة اسم آنجيليكا نسبة لأمه، وقد كان يشاع عنه قربة من الأوساط الماسونية ».

– ولكن أين هذه الرموز ؟ سأل إيرمانو مجددا وقد نفد صبره لمعرفة السر الماسوني المخبّأ في هذه النافورة.

ابتسم الجد، وهو يشعر بالسعادة لإثارة كل ذلك الفضول في نفس حفيده. واستطرد الآن وقد ارتسمت علامات الجدية على وجهه : « ثمة تفسيرات كثيرة لفك طلاسم هذه النافورة. انظر إلى تمثالي هذين الرجلين مثلا ؟ » وصمت قليلا ليتيح لحفيده فرصة النظر إلى النافورة من زاوية أخرى وواصل : « يقال أن وضعية كل واحد منهما محسوبة بدقة لتفصل بينهما نفس المسافة التي تفصل بين عمودي هيكل سليمان اللذان ثبتهما بنفسه في مدخل الهيكل وأطلق عليهما اسم ياكين وبوعز ».

– الهيكل الذي صممه حيرام أبيف ؟! قال إيرمانو وهو يشعر بالذهول.

– نعم حيرام أبيف أب الماسونيين والمهندس الأعظم للكون. تلفظ الجد بكلماته تلك وهو ينظر الآن إلى نافورة الفصول الأربعة بشيء من الخشوع.

وأبيف بحسب ما ترويه الأسطورة هو المعماري الذي حاول ثلاثة من حرفيي معبد سليمان أن ينتزعوا منه الأسرار المقدسة لمرتبته المهنية العليا. إلا أنه رفض ذلك، ومع كل رفض له بكشف أي

---

8. Giovanni Riva.
9. Paolo Baiotti.

معلومات عن مهنته التي كانت تعتبر مقدسة في تلك الأزمنة، كان يقوم أحد الأشرار بضربه على رأسه بأحد أدوات البنائين، ليخر على الأرض صريعا مع الضربة الثالثة. وقد أخفى القتلة جثته تحت كومة من الصخور المستخدمة في البناء، ليعودوا بعدها مساءً ويقوموا بدفنه خارج المدينة في قبرٍ غير عميق وضعوا له غصنا من السنط كشاهد، وهو الغصن الذي دل رجال سليمان عليه، عندما أمرهم بالذهاب للبحث عن المعماري المعلم الذي لم يظهر صبيحة اليوم الموالي. وتواصل الأسطورة أن الأسرار المقدسة للعالم قد اختفت مع موت حيرام الذي ضحى بنفسه حفاظا على قدسية مرتبة المعلم. بينما تقول أسطورة أخرى أن الأسرار لم تضِع بل أمر سليمان بإخفائها تحت الهيكل والتي أصبحت تُمرر عبر طقوس سرية من معلم إلى معلم. ويغدو الآن غصن السنط الذي كان شاهدا على قبر حيرام رمز المرتبة الثالثة في الماسونية التي يعتقد البعض أنها تخفي أسرار المعبد.

– وهل ترى هؤلاء الأطفال الثلاثة الذين يقفون خلف النحت الذي يرمز إلى فصل الشتاء ؟ سأل الجد محاولا استثارة فضول حفيده مجددا.

– نعم. أجاب إيرمانو وهو ينظر إلى الطفل الأول الذي كان يحمل حزمة من مخاريط الصنوبر، والطفل الثاني الذي كان يحمل سمكة كبيرة، وتأمل الآن الطفل الثالث وهو الوحيد الذي كان يظهر وجهه وكان ذا شعر غريب أشبه بألسنة النار.

– يقال أن هذا الطفل يرمز إلى سول إنفكتوس إله الشمس الذي لا يُقهر في عهد الامبراطور الروماني إيل جبل، ويمثل الانقلاب الشتوي الذي يرتبط بعودة النور وميلاد أحد أهم الآلهة في 25 من ديسمبر في المعتقدات الوثنية القديمة : الإله ميترا.

– وماذا عن جلد الخروف الذي يحمله الطفل في يده اليسرى ؟
سأل إيرمانو جده بدهشة وهو يتعرف على طلاسم هذه النافورة.
– قد يكون هذا رمز الصوف الذهبي لكبش خيالي تنقالته الأساطير الإغريقية القديمة...

والآن نقر إيرمانو على صور مطار الجزائر بيّن المعالم والذي لم يكن يحتاج لأي تأويل معقد يشبه تأويل نافورة الفصول الأربعة لفهم علاقاته بالماسونية، وقد داخله الفضول لمعرفة ما يربط هذا البلد بتلك المنظمة. لتظهر له صور أخرى لرموز يبدو أن المدينة كانت تزخر بها، وكان أوضحها صورة فندق الشيراتون الواقع في إقامة الدولة الرسمية وقد كان مصمّما هو الآخر على شكل رمز الكوس والمدور الماسوني، والذي كان يعد من أشهر الرموز الماسونية والتي تمثل أبسط أدوات المعماري، إلا أن معانيها تبقى خفية تختلف تفسيراتها من مكان لآخر، لتزيد من الغموض الذي يلف هذه المنظمة العتيقة والمثيرة للجدل.

تأمل إيرمانو الصور باستغراب وعاد لينظر إلى نحت كريستوفر كولومبوس الذي كان يحوي هو الآخر الرمز ذاته، وهو ما لم يكن يثير العجب حيث أن تورينو كانت تحتضن المحفل الماسوني الأهم في إيطاليا وكانت تحوي الكثير من الرموز الخاصة بهذه المنظمة القديمة في مختلف أنحاء المدينة. ليغلق الآن هاتفه الذكي ويطالع المدور الذي كان كريستوفر كولومبوس يلتقطه بين أصابعه وسط تلك الميدالية النحاسية التي صممها دينو سوما[10]، إلا أنه وفي هذه اللحظة بالتحديد لم يكن يشعر بأنه معنيّ بالغوص في رمزية هذه الأداة في التقاليد الماسونية، بل كان مركّزا نظره على وضعيتها في ذلك النحت.

---

10. Dino Somà.

وقد كان كولومبوس يوجه أحد طرفي المدور على مدينة واشنطن شمالا وهي عاصمة الماسونية في العالم، بينما كان الطرف الآخر للمدور مثبتا جنوبا على البيرو. هذا البلد ذي التاريخ الضارب في القدم والذي لا يقل غموضا عن مختلف عواصم السحر في العالم، الأمر الذي جعل مفسري هذا النحت يتجاوزون البعد الماسوني له للجزم بأنه يشير إلى أن كولومبوس اعتمد على المعارف التي كان يستخدمها القدماء في تحديد الخطوط المرجعية للإبحار والتي كانت تربط القارات ببعضها البعض في العصور القديمة، من أجل اكتشاف القارة الأمريكية.

والحقيقة أن اسم كريستوفر كولومبوس طالما أحاطت به القراءات التي تكتنفها الأسرار وهو ما لا يجعل من تواجد تمثال له في مدينة عجيبة تزخر بالموروثات السحرية مثل تورينو أمرا مستغربا، ولا أن يكون الخنصر هو بالذات مركز الجذب في نحت يمثله، كون هذا الإصبع الصغير كان يستعمل في ممارساتٍ مختلفةٍ لأتباع المدارس السحرية عبر العصور، حيث كان يُستخدم في الجلسات الروحية كنقطة تواصل بين المشاركين لتشكيل دوامةٍ من الطاقة. وقد أُطلق على الخنصر أيضا اسم « أصبع الأذن » لأنه كان يملك قوة تنشيط حاسة السمع لدى إيلاجه في قناة الأذن أثناء ممارسة تمارين التخيل، وهو أسلوب كان منتشرا على نحو واسع من طرف الدرويد، وهم كهنة الشعوب السلتية الذين سيطروا على العقول بفضل شعائرهم الدينية التي تقوم على عبادة الشمس والاعتقاد بخلود الروح، وقد أُطلق عليهم اسم جماعة السحرة الأشرار لأنهم عُرفوا بمعارضتهم الشديدة للمسيحية لدى ظهورها.

والواقع أن هناك الكثير من المؤرخين ممن يرجّح أن كولومبوس كان هو الآخر من أتباع السحرة، ودليلهم ما رُوي عنه من ممارساته لطقوسٍ سحرية أشهرها ما قام به قبالة سواحل فنزويلا عندما قامت عاصفة بحرية شديدة، فلبس على إثرها معطفه، وأشهر خنجره، ثم أشعل شموعا مباركة وراح يضرب الهواء في الجهات الأربعة. وقد روى الملاحون الموجودون على سفينته أن كولومبوس يكون قد جنّب بفضل هذا الطقس الغريب الباخرة من التحطم، حيث مرت العاصفة من جانبهم دون أن تلحق بالسفينة أي ضرر. إلا أن ما يؤكد الغموض الذي كان يلف شخص كولومبوس والذي جعل الكثير من الباحثين يعتقد أنه من عبدة الشيطان كان توقيعه الغريب الذي كان يتوسط مثلثا محاطا برموز وكتابات غير مفهومة فسرها البعض أنها ضرب من المعاهدات الشيطانية فيه استحضار للعفريت سامابيل حامي الرحلات، بينما يفسر البعض أن التوقيع ككل ليس إلا تمثيلا لخاتم سليمان، في حين وجد فيه آخرون تفسيرات دينية غامضة معتمدة على قراءة الكبالا تشير إلى كون كولومبوس يحمل إرث فرسان الهيكل الضائع وأنه كان يشير إلى أنه « مناط بمهمة إلهية »، إذ كان التوقيع يعني « المعلم الأكبر » بحسب رموز فرسان الهيكل الذين اتُهموا بالهرطقة وممارسة السحر وحكم عليهم بالإعدام حرقا في عهد البابا كليمنت.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان العامة من المسيحيين يعدون هذا الرحالة الشهير كأحد أبرز وجوه التبشير في التاريخ الحديث، فكانوا يعتبرونه حمامة المسيح إلى العالم نسبة إلى كنيته والتي تعني باللاتينية الحمامة وهي التي تقترن في العرف المسيحي بروح القدس، بل وشبّهه البعض بحمامة نوح التي أعلنت انتهاء الطوفان

لبدء عهد جديد للحياة على الأرض ليكون بذلك هذا الرحالة الجنوي بالنسبة لهم حامل رسالة المسيح إلى العالم الجديد، حيث كان يُنظر إليه كقديس عابر للبحار. كل هذا بالرغم من أن ديانة كريستوفر كولومبوس لم تكن محط اتفاق المؤرخين. فهناك من ذهب للقول أن كولومبوس لم يكن مسيحيا بالأصل ولا حتى جنويا بل سفارديا، أي يهودي إسباني كونه كان يعتمد دوما في الكتابة باللغة الإسبانية وكان يدرج أحيانا كلمات عبرية في كتاباته، بينما يعتقد آخرون أنه كان كونفيرسو أي سيفارديا اعتنق المسيحية، إلا أنه وفي كلتا النظريتين كان يُرجّح أن كولومبوس كان يخفي ديانته الحقيقية خوفا من الاضطهاد الذي كانت تمارسه الكنيسة الكاثوليكية ضد كل من لم يكن كاثوليكيا آنذاك. بل وذهب البعض إلى القول أن كولومبوس اعتمد على خرائط تعتمد على قراءات في كتب يهودية بل وحتى معلومات لملاحين مسلمين تدل على العالم الجديد، وهي قراءات كانت كلها تعد هرطقات لا يجوز الاعتماد عليها بالنسبة للكنيسة التي كان يرجو دعمها ويسعى للحصول على تمويلها لرحلته إلى العالم الجديد الذي كان مقتنعا بوجوده بحسب الدلائل التاريخية التي تؤكد أنه لم يكن أول من وطأت أقدامه تلك الأرض، لتبقى التفاصيل المختلفة لحياة كولومبوس وعلاقاته الغامضة بالمنظمات السرية التي ساعدته على فتح العالم الجديد، وكذا الرموز التي تكتنف توقيعه ملفوفة بالأسرار إلى يومنا هذا.

استرجع إيرمانو شريط حياة كولومبوس المخفي هذا، وهو يفكر برحلة صديقه الاستكشافية إلى وطنه، وقد تذكر ذلك الأسبوع الذي أمضاه مع إلياس قبل أشهر في المعهد البوذي لاما تسونغ كابا ببومايا في ضاحية بيزا وكيف تمكن ذلك الشيخ الصوفي برهان

الدين، من إقناع إلياس بالعودة إلى بلده الأصلي في تلك الجلسة الملغزة التي فسرها إلياس بأنها تأكيد على وجود مصدر إلهامه الضائع في مسقط رأسه، البلد الذي لم يعش فيه أبدا، ولم يزره منذ أكثر من خمس سنوات، أي مباشرة بعد وفاة والده، ولم يكن يبدو أنه ينوي العودة إليه مجددا إلى أن قلب فجأة ذلك الشيخ تفكيره ليقرر السفر من دون سابق إنذار هكذا على نحو مفاجئ بعد صيام دام ثلاث سنوات عن الإلهام، بتصرف لم يكن يليق سوى بفنان مجنون.

ونظر إيرمانو الآن إلى النحت وهو يتذكر بشكل خاص كيف كان كريستوفور كولومبوس نفسه يعد أشبه بفنان مجنون مستذكرا ما قرأه عن راهب يدعى فرا خوان بيريز[11] أكد فيه أن كولومبوس كان قد أخبره أنه قد زار « الهند الغربية » قبل تاريخ الاكتشاف الرسمي لأمريكا، أو أنه تخيل ذلك. وبحسب نفس الوثيقة يُروى أن جميع من عرف كولومبوس كان يطلق عليه اسم « السيد الحالم » حيث كان هذا الرحالة الشهير شخصا غريب الأطوار تتمحور جميع أفكاره حول خلفيات جنسية أو وثنية.

ابتسم إيرمانو الآن وهو يتلمس ذلك الخنصر النافر من النحت والمرتبط بمركز الليبيدو والقوة الجنسية عند المرء، ونظر إلى وجه الرحالة الجنوي الذي يُروى عنه أنه كان مقتنعا بأن جنة الله على الأرض وعكس ما كان شائعا في تلك الحقبة غير موجودة في مكان ما بمصر أو إيرلندا، بل في ما وراء المحيط. وأكثر من ذلك لم يكن كولومبوس مقتنعا أن الأرض كروية الشكل، بل كان يؤمن أنها تشبه الإجاصة مع نتوء جانبي أشبه بثدي المرأة وكان ينتهي طرفه

11. Fra'Juan Perez.

بالمنطقة الاستوائية، لتكون تلك المنطقة من الأرض هي الأقرب إلى السماء بحسب كولومبوس حيث تتواجد جنة الله على الأرض الوارد وصفها في سفر التكوين. وهو المكان الذي لم يكن من الممكن الوصول إليه سوى بمشيئة الله. وقد كان كولومبوس يعتقد أنه هو المصطفى. وفكر إيرمانو الآن بصديقه الذي يعتقد هو الآخر بأنه سيحصل على سر الإلهام من وراء البحار. وسرعان ما راوده شعورٌ بالاضطراب ليعاود الاتصال برقم صديقه الذي لا يزال خارج الخدمة...

« لقد قال أنه سيصل على العاشرة والآن الساعة تشير إلى الحادية عشر ونصف ». تمتم إيرمانو بصوت يكاد يكون مسموعا، ثم صمت برهة وكأنه يستعد للانفجار، ليعود بعدها لتمالك نفسه. كل ذلك بسبب تلك المرأة الغامضة !

- إنها هي
- لكن...
- اعتن بها
- ... وهل هي موجودة ؟
- إن كنت تريد حقا إيجادها، فلا تنكر في الأصل وجودها.

...

تذكر تلك المحادثة وهو يدس هاتفه في جيبه، محاولا كتمان قلقه بل حنقه، ليسير الآن مبتعدا عن النحت الجالب للحظ في بيازا كاستيلو وهو يفكر في سر لوحة إلياس وكلمات ذلك الشيخ التي يبدو أنها ستبعد أحد أهم أساتذة أكاديمية ألبيرتينا عنه إلى أجل غير مسمى، وأدار إيرمانو الآن رأسه وأخذ يتأمل في شبه استسلام وجه كولومبوس الذي بدا وكأنه موجه إلى العدم، ليتخذ مباشرة قراره ذاك. لا بد أن ألحق به !

- 19 -

سحب حقيبة الترولي وقطع الشارع وهو لا يزال يفكر في تلك الكف التي لم تفارق ذهنه منذ أن حسم أمره بالقدوم إلى الجزائر والاستقرار فيها إلى غاية إيجاد ضالته التي غدا مقتنعا بوجودها هنا.

عبر ساحة أودان التي كانت مكتظة كعادتها بالمارة، ولم تغرِه واجهة مكتبة الجامعة المركزية للتوقف أمامها وهو من لم يجد يوما ضالته من الكتب فيها من خلال زياراته السابقة للمدينة، بالرغم من أنه كان يعتبر العلاقة بينه وبين المكتبات تشبه العلاقة بين الحديد والمغناطيس حيث كان لابد أن يقف بشكل يومي أمام واجهة جميع المكتبات التي كانت تتواجد على طول الطريق الذي كان يسلكه كل يوم من أكاديمية ألبيرتينا مقر عمله ومكان دراسته في وقت سابق، إلى شارع روما حيث كان يقطن بوسط تورينو وحيث نشأ وترعرع، دون أن يمل من تسجيل وقفاته شبه التعبدية تلك حتى مع دخول الكتب الإلكترونية على الخط والذي جعل هذه الوقفات تتحول إلى نقرات بين صفحات المواقع الإلكترونية المخصصة لبيع الكتب، إلا أن إلياس مع ذلك بقي مؤمنا بقدسية تلك اللحظات أمام المكتبات. القدسية التي يبدو أن طبقات الغبار التي كانت تكسو أغلفة الكتب في ذلك المكان الشاسع والخالي على عروشه

في قلب العاصمة قد انتهكتها، وجعلتها تبدو كصحراء مقفرة بدا منظر الكتب فيها أشبه بمومياوات محنطة.

والواقع أن إلياس لم يكن يفهم السبب من وراء أن كل شيء في بلده لم يكن يعني تماما ما كان يُكتب عليه، فهذا مستودع مومياءات مهملة كُتب عليه اسم مكتبة، وتلك صناديق في مدخل أحد المحلات لأكياس من الماء الأبيض كان جده مدمنا على شربها كل صباح سُجّلت عليها كلمة « حليب »، وذلك محل لبيع الألبسة الصينية نُقش على واجهته بالفرنسية « الأناقة الباريسية »، وتنهد وهو يتذكر جده المسكين الذي فارق الحياة دون أن يتذوق الطعم الأصلي للمعاني الحقيقية للكثير من الكلمات في هذا المكان. وتوقف الآن في مدخل النفق الجامعي وانتظر توقف السيارات أمام الممهل إلى أن لاحظ عبور المارة للطريق دون حذر، لتُبطئ السيارات من سرعتها بمجرد مشاهدة المارة يقطعون الشارع أو الانتظار لآخر لحظة ليدعسوا على الفرامل في حركة مباغتة أمام الممهل كمن يستمتع باختبار قوة سيارته بتجارب حية على المباشر.

بحث في حركة يائسة عن إشارة ضوئية لكنه لم يجد شيئا. وأطلق شهقة مفاجئة كمن عادت له ذاكرته للتو، وفكر بضرورة ضبط عقله طيلة فترة إقامته هنا على حركة مرور تعتمد على تبادل النظرات والإيماءات بين السائقين والمشاة أكثر مما تعتمد على إشارات المرور. وهو حتما قانون لا يخلو من حالات سوء فهم عادة ما كانت تنتهي بشجارات، أو بوصلات شتم وصياح في أفضل الحالات بين السائقين بشكل شبه يومي.

والحقيقة أن قلة الإشارات الضوئية في مدينة الجزائر المعروفة بطرقها الملتوية والتي تضم أكثر من مليونين من السكان، يعود إلى تخطيط المدينة نفسه الراجع إلى الحقبة الاستعمارية، والمعتمد

بالدرجة الأولى على الالتفافات الدورانية التي لم يكن يُحترم فيها في الوقت الحالي مبدأ الأولوية، بقدر الاعتماد على مبدإ الأكثر جسارة لدخول الدائرة والخروج منها دون إعارة مبدإ عقارب الساعة أي اهتمام، وبالتالي التجرد من خوف التعرض لخدش في السيارة أو اصطدام بسيارة أخرى مجازفة. والنتيجة عادة ما تكون اكتظاظ نقاط الالتفافات الدورانية بسيارات تبدو دوما كأنها عالقة في مصيدة من سيسبق من، لكن بسرعة 20 كلم في الساعة، وذلك في مشهدية تختلف تماما عن حركة المرور في المدينة التي نشأ فيها والمصممة على شكل مربعات تعتمد في طرقها المتقاطعة على الإشارات الضوئية التي تعد لغة ألوانها الثلاثة هي اللغة الوحيدة التي كان يتخاطب بها أهل تورينو في حركة مرورهم، وهكذا لم يكن هناك أحد يضطر لأن ينظر في وجه أحد أو التفرس في انفعالاته.

والآن أخذ إلياس نفسا عميقا وهو يلقي نظرة خاطفة على رجال الشرطة كأنه يود التأكد من جهوزيتهم في حال ما إذا حل به أي مكروه، وهم الذين كانوا في حالة استنفار دائمة يقفون أمام شاحنتهم الكحلية المصفحة وسط ساحة أودان قبالة إير آلجيري، ليستعد في هذه اللحظة لما يشبه عملية انتحارية، وهبّ بسرعة من رصيف لآخر محدّقا في غير تصديق في السيارات المتجهة إليه بسرعة جنونية وهو حابس أنفاسه، إلى أن وصل بسلام إلى الضفة الأخرى وهو يلهث مهنئا نفسه بالسلامة. واستجمع قواه ونظر إلى الشارع الفرعي في مواجهته والذي كان لابد أن يسلكه ليصل إلى تليملي وأخذ نفسا عميقا وانطلق.

كان تسلق شارع « إير آلجيري » الذي كان يربط ساحة أودان بحي تليملي في قلب مدينة العاصمة يُذكّره على نحو يدعو للغرابة

بالطريق المؤدية إلى كنيسة لا ساكرا دي سان ميكيلي[12] المبنية على قمة جبل بيركيريانو[13] في أعالي بييمونتي بضاحية تورينو، ويقال أنها كانت معبدا وثنيا مقدسا منذ أزمنة سحيقة يعود بناؤه إلى ما قبل 2000 سنة.

وصل إلياس الآن إلى سفح الدرج وهو يلتقط أنفاسه، ثم عاد ليستأنف رحلته وقد أخذ نفسا عميقا وكأنه مُقدم على ارتقاء روحي من نوع خاص، واستعد لصعود ذلك الدرج الذي كان يراوده شعور خاص بالارتباط به، وهو الأمر الذي جعله يشعر بضرورة المرور به كل ما زار المدينة. وهكذا كان يصر على سائقي الأجرة في كل مرة يزور فيها الجزائر للتوقف في شارع ديدوش حتى يتسنى له الصعود إلى منزل جده من خلال ذلك الدرج الطويل عبر ساحة أودان، بدل سلوك الطريق الأسهل بالتوقف في تليملي شمالا. لقد كان إلياس يشعر لسبب أو لآخر أن ذلك الدرج يملك ميزة تطهيرية عجيبة للنفس، وهو ما يجعل مسألة المرور به على قساوتها أشبه بعبور الصراط في رحلة النفس مع الحياة بعد الموت والتي كان لابد لكل نفس اختبار عبورها قبل الوصول إلى الجنة، أو السقوط في الجحيم...

وبينما كان يستعد لبدء هذه الرحلة، أحس إلياس لسبب ما بعدم الارتياح، ليلاحظ وجود مجموعة من الشباب في بداية العشرينات من العمر قد استقروا أسفل السلالم، وأخذ بعضهم ينظر إليه وقد ارتسمت على وجوههم ملامح الفضول الممزوجة بشيء يشبه الاحتقار.

نظر إلياس إلى ثيابه على نحو لا إرادي، وبلا مبالاة واصل طريقه دون أن يلقي الآن بالا لمراقبيه الذين كانوا قد وجدوا لأنفسهم

---

12. La sacra di San Michele.
13. Pirchiriano.

متكئا على جدارٍ يطل على كومة من النفايات في ذلك الحي الراقي، والذي يبدو مما فهمه بحسب نظراتهم إليه أن شكل ثيابه غير المرتب لم يكن يليق بمقام ذلك الشارع. لقد كان ذلك شعورًا من الغريب أن يتملّكه في ذلك المكان بالذات، وهو من لم يراوده وهو يمر أمام الواجهات الزجاجية الأنيقة لغوتشي ولويس فويتون في شارع روما وسط تورينو حيث تربى وعاش منذ صغره.

فكر باستغراب وهو يحاول طرد روائح القمامة التي حاصرته وهو يتفادى الاحتكاك بحاويات النفايات الخضراء المقلوبة. والآن حمل إلياس حقيبته وبدأ بتسلق تلك السلالم المجهدة وهو يتذكر أول مرة صعد فيها « درج الأموات » في كنيسة لاساكرا، وهو الدّرج الذي بُني في منتصف القرن الثاني عشر، وكان يُستعمل إلى غاية عام 1936 لحفظ بقايا بعض عظام الرهبان ومن هنا أتت تسميته : « درج الأموات »...

– اعلموا أيها الأحبة أن هذا الدرج يرمز إلى الحياة. قال الدليل السياحي بعد أن توقف الجميع عند نهاية السلالم أمام بوابة الأبراج، داعيا الجميع إلى الجلوس والتقاط أنفاسهم مع بداية الرحلة داخل الكنيسة للارتياح من عناء تسلق تلك السلالم. « وهكذا هي الحياة لابد فيها من الجهد، ونادرا ما نجد فيها مصاعد لتخفّف عنّا عناء الارتقاء على درجاتها ».

وصعد إلياس الدرجات الأولى وهو يفكر في مفارقة أن يكون درج الأموات هو نفسه الدرج الذي يرمز للحياة. ثم تنهد وقد اختلط عليه صوت أنفاسه المتلاحقة مع أفكاره المتناثرة، وسرعان ما لمح على يمينه في زاوية من الدرج، شيئا ملقى على قارعة الطريق يشبه الكفن، وشعر للحظة بالهول وغمغم : وهل يُستعمل هذا الدرج

أيضا لحفظ بقايا الأموات ؟ فكر وقد غاصت عيناه في ذلك الرداء الأبيض، وسرعان ما استيقظ من فكرته بعد أن تحركت العجوز المختفية وراء حايكها على نحو مبهم لكنه كان كافيا لإثبات أن هناك شيئا من الحياة يدب داخلها. وبحركة آلية رفع رأسه ليطالع جدار تلك السلالم التي كانت تتكئ على الجامعة المركزية. وحاول إقناع نفسه بطرد فكرة المقارنة الغريبة التي غزت ذهنه بين درج الأموات في كنيسة ودرج جدار يستند إلى جامعة.

« إنها ليست ميتة ». تمتم وهو يزيح عينيه عن جدار الجامعة الخارجي متأملا العجوز المتلحفة بحائكها والمغروسة في تلك الزاوية من الدرج وكأنه لا يزال مقتنعا بالمقارنة التي عقدها رأسه. ثم أجال عينيه على طول السلالم كأنما كان يبحث عن شيء ما. لابد أن يكون هناك قبور غيرها. فكر وهو يتذكر سلم الأموات والتي كانت بعض القبور التي يستضيفها مزينة بالرخام... رخام بلون هذا الحايك. إلا أنه لم يبق منها اليوم في لا ساكرا سوى خمسة... خمسة. وتعثر بالكلمة وقد حطت عيناه الآن عليها. لم تكن تلك الفتاة تبدو ميتة... فكر بينما كان يبحث عن الأكفان الأربعة المتبقية على طول السلالم وقد رصد الآن شيئا يشبه الابتسامة المرتسمة على وجهها وهي تنزل من على الدرج. وفجأة انفرجت أساريره. إنه فعلا ليس درجا للأموات. ليس بلدا للأموات. هناك من يبتسم. وأخيرا شعر بشيء من السلام منذ أن وطأت قدماه اليوم أرض الوطن. وأدار وجهه بشكل غريزي لتأمل ذلك الوجه الآخر المخفي وراء الحايك. لا بد أنها تبتسم هي الأخرى، والآن مرت من جانبه وقد أقفلت ملامح وجهها. وفجأة شعر أن حِمل تلك الحقيبة التي تؤوي لوحته غير المكتملة قد غدا أثقل، بل ولم يعد يحتمل. وغزاه فجأة شعور

بالوهن. وضع الحقيبة على الدرج على بعد بضع درجات فقط من ذلك القبر... من ذلك الوجه... من ذلك الكفن. ولم يدِر رأسه لصاحبة تلك الابتسامة المسروقة التي بثت فيه لوهلة شعورا غامضا بالحياة وعادت لتختطفه منه في نفس اللحظة.

***

نزلت بسرعة شديدة وكأنها تحاول الفرار من أمر جلل. كيف تجرأ على توجيه نظره إليها. تابعت هروبها وهي تبلع ريقها.

لم تكن داميا تتجرأ يوما على توجيه نظرها إلى زاوية جلوس تلك العجوز الغامضة. لم تتمكن يوما من التفكير في النظر إلى وجهها... لم تفكر يوما في التلصص حتى على ثنايا حائكها. كيف فعل هو ذلك ؟ فكرت وهي تنزل بسرعة الآن من على السلالم. ومن هي صاحبة الحايك هذه التي بدأ وجودها يلف المكان بالغموض منذ قدومها ؟!

- 20 -

– لا لم أكن أعرفها.

أجاب صاحب المخبزة التي كانت محشورة في إحدى الزوايا المخفية من سلم الأموات، سلم تليملي. « لكن هناك من يقول بسم الله الرحمن الرحيم أنها... » واقترب من مساعد المحقق وبصوت خافت همس « أنها... » وبلع ريقه : « أنها... من هادوك العباد... بسم الله الرحمن الرحيم... ».

سدد إليه نظرات جافة لا تنم عن أي تفاعل وبإيماءة بسيطة دعاه للمتابعة...

– ولكنني كنت أراه كل صباح ينزل من السلالم مارا من المحل ليضع الزهور أمامها ويعود أدراجه...

– أمام من ؟ سأل خير الدين وكأنه قد فقد خيط أفكاره...

– تلك العجوز... صاحبة الحايك... بسم الله الرحمن الرحيم...

– حسنا... حسنا ! العجوز... الحايك... ورود ! تمتم خير الدين باضطراب محاولا التظاهر بالفهم.

كان انتفاء دافع السرقة من وراء القتل في هذه القضية يشكّل مصدر تعقيدها، إلا أن ما يزيد هذه الجريمة غموضا تصرفات إلياس الغريبة.

***

مالذي أتى به إلى هنا ؟؟ فكر وهو يسحق سيجارته بشيء من الغضب وهو يعيد قراءة أقوال صاحب المحل، ثم توقف قليلا، وبحزم نفث دخان السيجارة من فمه وقد نهض من مكانه.

- اجلبوا لي تلك العجوز.

- لكن... قال مساعد المحقق وهو يبلع ريقه : « ما الذي قد يكون دافعها ؟ ».

- قلت الآن. وصرخ إبراهيم في وجه مساعده.

خرج خير الدين على الفور ودقات قلبه تتسارع. « الله يستر ».

- 21 -

- « راهم يقولوا عليها يهودية ». قالت وهي تشد طرفي خمارها وقد وضعت خبز الدار الذي حملته معها على مكتب إسماعيل الذي كان فارغا على غير عادته في نهار ذلك اليوم.

نظرت سهيلة إلى « يمّا مريم » التي كانت غارقة في حركات توجسية لم تفهم مصدرها. ولكنها شعرت أن تلك الكلمة كانت ترنرن في أذنها طيلة ذلك اليوم. يهودية. وقد جاء صوت « يمّا مريم » الخافت المعهود محملا هذه المرة بنبرة خوف غير اعتيادية تشبه صفارة إنذار صامتة.

أسندت قبضة يدها اليمنى التي كانت تحمل بها سكينا لقص الخبز الذي حملته معها إلى مكتب سهيلة، على حافة النافذة، بينما بقيت ذراعها اليسرى معلقة في الهواء على نحو دفاعي لم يكن مفهوما في تلك اللحظة. ومدت رأسها من شباك الطابق الأرضي ذاك محاولة التلصص على تلك العجوز صاحبة الحايك على الرغم من أنها كانت تعلم أنه يستحيل من هذه الزاوية من الشارع الضيق الملتوي ذي النهاية المسدودة شمالا والمفضي إلى المدخل العلوي للجامعة المركزية جنوبا رؤية الدرج الرابط بين ساحة أودان وتليملي والذي كانت تربض فيه صاحبة الحايك تلك. تنهدت « يمّا مريم » الآن وهي تعدل خمارها الأبيض ذي الأطراف المكرورة، وبسطت

يدها على القرص الذهبي لـ « خبز الدار » الذي كانت تزينه حبات السانوج بشكل عشوائي ليستقر أكبر عدد منها على أحد جوانبه دون الآخر. تأملت القرص بعمق وقد شعرت بانقباض في صدرها، ثم أدارت الخبزة 180 درجة وكان ذلك يعني أن حبات السانوج أصبح عددها أكبر على الناحية اليمنى، وشرعت في قصها إلى أربعة أقسام بدأت بتقطيعها من فوق إلى تحت ومن اليسار إلى اليمين بكل استكانة وكأنها منخرطة في صلاة سرمدية لترسم شكل الصليب على خبزتها دون وعي منها. وسرعان ما قطعت عليها هذه الفكرة خشوع اللحظة ودفعت خبزتها وهي تشعر بالفزع وقد تذكرت سي عبد الله الذي أطلق على رأسها هذه النظرية قبل أشهر عندما رآها تقص إحدى مطلوعاتها التي صادف حملها لمكتب سهيلة تواجد سي عبد الله فيه...

– هل تعلمين أنك ترسمين شكل الصليب على الخبزة ؟ قال سي عبد الله بانزعاج ممزوج بزهو مسرحي كانت تصطبغ به نبرة صوته كلما شعر أنه يبث معلومة قد يجدها المستمع جديدة أو غير مألوفة عليه ويكون هو نفسه قد التقطها واستقبلها بذات الاستغراب من أحد كتبه القديمة. ليواصل بنبرة جادة دون أن يحفل بردة فعل العجوز المسكينة التي اكتشفت أنها كانت تمارس طقوسا نصرانية طيلة حياتها من دون وعي منها : « لقد كان المسيحيون في القرون الوسطى بأوروبا يقسمون الخبز بهذا الشكل حتى يمنحوه بركة المسيح، ونحن لا يجدر بنا التشبه بهم ».

وقفت « يمّا مريم » فاغرة الفاه وهي لا تدري كيف تدافع عن نفسها من تهمة التشبه بالنصارى التي وجدت نفسها للتو واقعة فيها، وأخذت شفتيها تتلاطم بكلمات متداخلة ببعضها البعض.

- لالا... لالا بسم الله الرحمن الرحيم... بصح... والفنا... لالا... لالا... بسم الله الرحمن الرحيم.

- لا بأس، لا بأس ! قال سي عبد الله متصنعا الحلم وهو يحاول الآن تهدئتها. « لم تكوني على علم بهذا الأمر سابقا على أي حال، لكن من الآن فصاعدا يجب أن تنتبهي إلى هذه الحركة »، واستطرد : « في الواقع علينا جميعا أن نعيد النظر في أبسط تفاصيل حياتنا ». ليقوم من مكانه كممثل مسرحي قدير كان يستعد للانخراط في أهم مشهد له في العرض، ومعه إطلاق معلومة أخرى لا تقل وزنا عن معلومة صليب الخبزة. « وهل تعلمين مثلا أن الكرواسون هذا الذي نتناوله يوميا ليس سوى اختراع مسيحي تمت صناعته لأول مرة في النمسا عام 1683 على هذا الشكل الهلالي، احتفالا بانتهاء حصار فيينا من الجيش العثماني رافع الراية الاسلامية التي كان يتوسطها الهلال، حيث قام الخبازون بإطلاق صفارات الإنذار تحذيرا من العدو الذي قرر مهاجمة المدينة في الليل حتى لا يلاحظه أحد، إلا أنه وبقيام الخبازين قبل الفجر خربوا مخطط العثمانيين بل وقاموا بخبز هلالياتهم للاستعداد لأكلها وأكل الراية الاسلامية معها صبيحة هزيمة المسلمين ».

- يا لطيف... يا لطيف. قالت « يمّا مريم » ساحبة بقوة طرفي خمارها وهي تكاد أن تخنق نفسها من شدة الانفعال. « لالا ما ناكلوش علامنا لالا... ما ناكلوش الكرواسون لالا ». رددت وهي تشعر بالاضطراب بينما كانت تنظر إلى العلم الجزائري الذي كان يزين مكتب سهيلة وقد امتلأ قلبها بالهلع.

والمعلوم أن الجزائر مثلها مثل الكثير من الدول المسلمة اختارت لعلمها رمز النجمة والهلال وهو العلم الذي ظهر بقوة في مظاهرات

11 ديسمبر 1960 ويقال أن ميصالي الحاج كان أول من اقترحه. إلا أن اختيار هذا الرمز للراية العثمانية يعود إلى بداية القرن الحادي عشر وبالتحديد عام 1071 بعد معركة ملاذكرد التي هُزم فيها الجيش البيزنطي أمام الجيش العثماني، حيث يقال أن القائد السلجقي ألب أرسلان وبينما كان يصول ويجول في ميدان المعركة رأى انعكاس الهلال على أحد بحيرات الدم، فقرر أن يجعل منه رمزا لرايته. ليحتفظ العثمانيون بهذا الرمز لاحقا وبعدهم الأتراك كرمز لقوتهم وسيادتهم، على الرغم من التغييرات التي طرأت على شكله.

– لكن ماذا عن « التشاراك » إذن ؟ وتدخلت الآن داميا بنبرة تشكيكية لا تخلو من أدب وهي تترقب رد صديق والدها الذي لم تتعرف عليه عمليا سوى لدى بدئها العمل في أوبتيميديا ذلك بسبب عدم استقبال أهل داميا للأصدقاء في منزلهم. « إن صحت هذه النظرية فماذا عن حلوى التشاراك ؟ » سألت داميا بفضول صادق. « فأنا طالما كنت أعتقد أن هذه الحلوى الجزائرية هلالية الشكل هي من أصل عثماني ؟ فكيف للعثمانيين أن يأكلوا أهلتهم إذن ؟ ».

– نعم... نعم. وامتقع الآن وجه سي عبد الله، ولكنه بكل احترافية حاول مجددا مسك زمام المناقشة. « كلمة تشاراك أصلا كلمة تركية تعني الهلال. وقد يكون أصل الكلمة عربيا مأخوذا من عبارة « شرق الهلال ». ولتعلمي أن العثمانيين قد أثروا في العادات الغذائية للشعب الجزائري، خصوصا في المناطق التي كان التواجد العثماني فيها قويا كالعاصمة والمدية ومليانة وقد تركوا العديد من الأطباق ومختلف أنواع الحلوى... ».

– نعم كالتشاراك مثلا. قاطعت داميا سي عبد الله حتى تعيده إلى موضوعها وهو من كان معروف عنه الانتقال من موضوع لآخر

على نحو سلس دون أن يشعرك بالوقوع في أي مطبات هوائية، الأمر الذي من شأنه أن يفقدك بداية خيط المناقشة، إلا أن داميا كانت مركّزة في تلك اللحظة وهي التي كانت تود الحصول على إجابة لسؤالها : « كيف يمكن أن نحتفل نحن بتحضير التشاراك العريان في آخر أيام رمضان وأكل رمز السيادة الإسلامية صبيحة العيد إذن ؟! ».

– لا لا ! وانتفض سي عبد الله احتجاجا على آخر توصيف للتشاراك وهو نوع من التشاراك لا يتم رشه بالسكر الناعم فأصبح يطلق عليه هذا الاسم. « التشاراك لم يكن يوما عريانا ». قال سي عبد الله بغضب. « وخسئ كل من يلحق بالتشاراك صفة العريان ». لينخرط الباحث الآن في شرح تاريخ أنواع التشاراك وتسمياته المختلفة، وكيف أن التشاراك العريان حاليا لم يكن يوما يحمل هذا الاسم على مدى التاريخ...

وكانت « يمّا مريم » تتابع خطابات سي عبد الله المعرفية هذه كلما قصدت مكتب أوبتيميديا بالكثير من الإعجاب، متسائلة كيف يمكن لشخص أن يتحدث مثل كتاب، في كل مرة تتسنى لها فرصة سماع أحد أحاديثه، وهي الأحاديث التي لم تكن في أحيان كثيرة تفهم أجزاء كبيرة منها إلا أنها كانت حتما معجبة بمواضيعها. وها هو سي عبد الله اليوم يحاضر في أصل تقسيم الخبز الدائري على نحو معين، وتاريخ التشاراك، والكرواسون... بل ها هو يدخل في هذه اللحظات في شرح عبارة « اصحاب القع والبع الخلخال المربع ».

– صح صح نقولوها... صح صح... إيه إيه... شفت شفت ! هكذا كانت « يمّا مريم » تُشارك في هذه الحوارات كنوع من التأثيرات الصوتية التي تشبه التصفيق وهي تهز رأسها باستمرار تأمينا

على كلام سي عبد الله على الرغم من أنها لم تكن تتابع شرحه بالضرورة، إلا أنها كانت في جميع الأحوال معجبة بكلامه. بينما يبدو أن داميا كانت قد تاهت في تلك اللحظات عن سبب تباين أصل التشاراك والكرواسون على الرغم من أن كلاهما يحمل شكل الهلال... الهلال العثماني... الهلال الإسلامي !!

والواقع أن سي عبد الله تفادى ذكر نسخة أخرى لتاريخ صنع الكرواسون والمختلفة تماما عن نسخة قضم الهلال الإسلامي من طرف النصارى احتفالا بهزيمة العثمانيين، وهي النسخة الأكثر أخوية والتي قد تكون أيضا أكثر مصداقية كون الحلوى ذات الأشكال الهلالية كانت منتشرة في فرنسا قبل تاريخ حصار فيينا من طرف العثمانيين، حيث تشير المراجع الفرنسية أنه وفي عام 1549 أقامت ملكة فرنسا ماري أنطوانيت الفرنسية مأدبة في باريس تم فيها تقديم أربعين نوعا من الحلوى على شكل هلال ويُعتقد أن الهدف منها كان للاحتفال بذكرى التحالف الذي مر عليه عقود بين الملك فرنسوا الأول والسلطان سليمان الذي كان يطلق عليه في فرنسا اسم سليمان الرائع.

والحقيقة أنه ولسبب أو لآخر فقد كان سي عبد الله يظهر اهتماما أكبر بالقصص الظلامية المنطوية على فكر مؤامراتي والتي يكتنفها الغموض ويلفها السواد، حيث كانت نظرية الاحتفال بأكل الهلال الاسلامي في معركة حسمها الخبازون تشكل بالنسبة له نسخة أكثر تشويقا من نظرية الاحتفال المملة هذه بالعلاقات الرسمية بين فرنسا والدول العثمانية.

وقد كانت « يمّا مريم » بشكل ما تجد نفسها أيضا منجذبة إلى التفسيرات التاريخية المذهلة التي كان يقدمها سي عبد الله عن كل

شيء، وهو ما كان يغذي على نحو علمي خاص شغفها بالخرافات الذي كانت تشترك فيه معها أغلب العجائز، وهي من كانت تمنع أبناءها مثلا من المرور بعجينة « مقروط المقلى » أثناء تحضيره حتى لا يغضب وينفرط أثناء قليه ! وقد كان من المذهل دوما إيجاد تفسيرات من شخص يتحدث ككتاب مثل سي عبد الله، لطقوسها اليومية. إلا أن رواية الأصل في تقطيع الخبز على شكل صليب كانت من دون منازع أقوى معلومة تلقاه رأس « يمّا مريم » من سي عبد الله، وكانت تجعلها تنتفض من مكانها كلما أقدمت على قصّ مختلف أنواع الخبز المسطح التي كانت تخبزها بداية من الكسرة، مرورا بالمطلوع ووصولا إلى خبز الدار، على هذا النحو.

كانت سهيلة تراقب « يمّا مريم » وهي تتأمل وجه الخبزة بوجل لتعود وتديره إلى الجهة اليمنى بزاوية 180 درجة وتقطعه بيدين مرتعشتين لأربعة أجزاء على النحو المعتاد لتعود وتدفعه عنها بحركة خفيفة مباغتة، كل هذا من دون أن يطفو أي رد فعل على سطح وجهها البارد حدّ التجمد.

وعلى الرغم من برودة مديرة أوبتيميديا المزعجة، فقد كانت « يمّا مريم » تعلم أنها لم تكن مستهدفة من سلوك سهيلة المألوف هذا في عدم التجاوب مع كل ما كانت تقوله وتفعله، ذلك أنها كانت تبدو دائما بذلك المظهر الغائب عن كل ما يدور حولها، حتى أنها لم تكن تتفاعل مع سي عبد الله نفسه في الحديث، ولا تتدخل حتى لإعطاء رأيها عندما يحتدم النقاش بينه وبين داميا أو بين داميا وإسماعيل اللذان لم يكن يبدو أن العلاقة بينهما على ما يرام، وكان يظهر أن سهيلة تؤثر في غالب الأوقات الالتزام بدور العضو المراقب. بينما كانت « يمّا مريم » تفضل إظهار الاهتمام بما يقوله غيرها وحتى إن كان ذلك من خلال تكرار زوجين من

الكلمات تشبهان رشتي ملح تنثرهما على الكلام كما ينثر البهار على الطعام « ... صح صح... إيه إيه... شفت شفت... » وعلى الرغم من أن « يمّا مريم » كانت تعلم أن مساهمتها المحتشمة هذه في الأحاديث التي كانت تحضرها بالصدفة، لم تكن تشكل إضافة معرفية هامة، إلا أنها كانت تدرك أن عدم تخلل أي حوار لها كان من شأنه أن يجعله مفتقدا للنكهة. كما أنها كانت تعرف القدر الكافي الذي لابد من إضافته لكل حوار من هذه المداخلات. وبشكل ما كانت تتمنى أحيانا وهي تتحدث مع سهيلة لو أن هذه الأخيرة تتعلم سر رشتي الملح هاتين التي لا يمكن لأي طبق أن يكتمل طعمه من دونهما، تماما كما لا يمكن لأي حديث أن يحلو دون التأمين عليه بهذه الألفاظ الوجيزة. غير أنه ولسبب ما لم تكن « يمّا مريم » اليوم ترغب في تجاذب أطراف الحديث مع سهيلة، كما لم تكن ترجو منها أي تجواب بقدر ما كانت تود البوح بشكل أو بآخر عن قلقها.

قصت « يمّا مريم » بسكينها الضخم المسنون رغيف الخبز ذاك، وهو الذي كانت تستعمله لتقطيع كل شيء بدءا من اللحم، مرورا بالخضار وانتهاء بالخبز، بل وكانت تستعمله أيضا لقص أكياس الحليب الغضة، وفتح علب المصبرات المتسعصية وتنهدت الآن وهي تجول بنظرها في أرجاء « أوبتيميديا » وما هي إلا لحظات حتى أخذت تحوص في أنحاء المنزل الذي كان يشبه تماما منزلها في العمارة رقم 5 حيث كانت تعمل خادمة للمبنى، والذي تركته أشهرا قليلة بعد وقف إطلاق النار إلى العمارة المجاورة بعد أن علمت بمغادرة السكان الفرنسيين له بلا رجعة.

وقد كانت جميع الشقق الكبيرة في عمارة « يمّا مريم » السابقة قد شغلت بساكنين جدد أتوا من مناطق مختلفة بعد خروج المعمرين من الأقدام السوداء، نازحين من أماكن سكنهم الشعبية في العاصمة، إلى الأحياء الأوروبية التي كان يمنع عليهم دخولها إبان الاستعمار، لتصبح اليوم ملكا للسكان الأصليين للبلد. لقد كان ذلك تغييرًا في الملكية، لم يتم بالسلاسة التي قد يتوقعها المرء. إذ قام عدد كبير من المعمرين المنتمين إلى المنظمة الإرهابية السرية قبل مغادرة منازلهم بتلغيمها، إلا أن « يمّا مريم » قررت هي الأخرى المجازفة بدخول إحدى هذه الشقق الكبيرة، وترك شقة « الكونسييرج » الصغيرة المتكونة من غرفتين فقط حيث كانت تعيش مع زوجها وأبنائها التسعة. فاختارت لها ذلك المنزل المتكون من أربع غرف في الطابق الأخير من العمارة المجاورة والتي كان أقصى ما كان يمكن أن تحلم به. وحتى أن زوجها احتل أيضا الشقة المقابلة وحجزها لصديقه علي الذي كان يعمل في إحدى مؤسسات التبغ ويقطن هو وزوجته وابنه الوحيد في إحدى الأقبية، وكان يعاني من أمراض الصدر والحساسية التي كان ذلك القبو الرطب يزيد من سوئها، وقد بقي مفتاح الشقة على اسم مسعود زوج « يمّا مريم » إلى يومنا هذا. « كانت كاينة النية ». غمغمت « يمّا مريم » وهي تتذكر زوجها المرحوم والذي لحقه صديقه علي منذ يومين فقط واغرورقت عيناها بالدموع على فقدهما. لقد كانت « يمّا مريم » تشتاق إلى تلك الأيام الغابرة، وربما كانت بشكل أو بآخر لا تزال تحن إلى شقتها القديمة التي تشبه مكتب سهيلة هذا في العمارة المجاورة والتي دخلها بعد أشهر من مغادرتها عائلة قادمة من « البلاد »، وهي العائلات التي غيرت كثيرا في شكل هذا الحي.

هكذا فكرت « يمّا مريم » وهي لا تزال تتجول في المكتب التوأم لمنزلها القديم والذي كانت تقطنه صديقتها الزُهرة خادمة هذه العمارة في الفترة الكولونيالية ووالدة سهيلة التي جمعتها بها صداقة دامت لأكثر من ثلاثين سنة منذ أن كانت كلاهما خادمتين لعمارتين متجاورتين، لتجمع بينهما الجيرة بعد انتقال « يمّا مريم » للعيش في ذات العمارة. وقد بقيت الزُهرة مع أولادها ومن بينهم سهيلة يعيشون في شقتهم هذه الضيقة إلى أن فرج عليهم الله الآن بفيلا في زرالدة.

تنهدت « يمّا مريم » التي كانت تستحضر في ذلك المكان الذكريات التي عاشتها ككونسييرج في منزلها القديم الذي أمضت فيه زهرة شبابها في خدمة العمارة التي كانت تعرف منازلها واحدا واحدا وقصص أصحابها فردا فردا، وقد كانت معروفة بمحبتها للجميع واعتنائها بالجميع حتى أصبح كل سكان الحي ينادونها لاحقا باسم « يمّا ».

وكانت « يمّا مريم » عادة ما تزور سهيلة في مكتبها على أمل الالتقاء بصديقتها الزُهرة وهي تحمل لها رغيف خبز تقليدي صنعته بيديها، كون والدة سهيلة كانت تأتي مع ابنتها من حين لآخر لتمضية يوم تطل فيه على جيرانها السابقين ومنه على ذكرياتهم المشتركة.

والواقع أن التقاء الأصدقاء ببعضهم البعض في أماكن العمل لم يكن أمرا مستغربا، فالمنازل في الجزائر كانت مقصورة على الأهل أما الأصدقاء فكانت أماكن لقاءاتهم تقتصر على المقاهي بالنسبة للرجال أو من على شرفات المنازل أو عتبات الأبواب بالنسبة لربات البيوت، ومقرات العمل بالنسبة للموظفات. وهي المقرات التي

تحولت الخاصة منها والحكومية إلى أماكنٍ لالتقاء الصديقات وتبادل أطراف الحديث بينهن، حتى غدا منظر توجيه موظفات الإدارات الحكومية لنظرات شزرة إلى المواطنين أو الصراخ في وجوههم بسبب مقاطعتهم لأحاديث جانبية لهن مع إحدى الرفيقات في مقرات العمل أمرا عاديا، بينما تحولت المكاتب في القطاع الخاص لشيء أشبه بالصالونات منها لأماكن عمل، وكذلك كان مكتب سهيلة.

وعلى الرغم من أن « يمّا مريم » لم تتمكن يوما من فهم ماهية نشاط سهيلة وإخوتها الذين لم تكن تراهم في المكتب كثيرا، إلا أنها استنتجت في الفترة الأخيرة من وجود إسماعيل الرسام ومخططات الرسم المتناثرة في كل مكان أن سهيلة تعمل على شيء يشبه المجلات. لم تكن « يمّا مريم » تطرح الكثير من الأسئلة، فقد كانت بحكم وظيفتها السابقة كخادمة تعرف قواعد التحفظ التي تلزمها عليها مهنتها، كما أنها تعلمت طيلة حياتها أن الملاحظة أفضل وسيلة لتقصي المعلومات لا طرح الأسئلة. وعادت الآن إلى النافذة محاولة التلصص مجددا على تلك العجوز الذي بدأ وجودها على السلالم يقض مضجعها...

- هناك من يقول أنها أتت من قسنطينة. قالت يما مريم وهي تلوي رأسها محاولة الوصول بعينيها إلى أبعد نقطة من الشارع. « وآخرون يقولون أنها تلمسانية ». والآن استدارت وهي تعدل خمارها. « وقد تكون تارقية »، غمغمت وهي تفكر بأنه لم يتسن لها يوما رؤية وجهها. « في الحقيقة لا أحد يعرف شيئا عن هويتها الأصلية ».

نظرت سهيلة إلى « يمّا مريم » بخواء محاولة إظهار شيء من التجاوب مع حديثها، إلا أن عينيها الخضراوين اللتين كانتا تبدوان

مرهقتين ذلك اليوم على نحو خاص، والمحشوتين داخل وجهها الدائري الذي بدأت أطرافه في الترهل وبدا وكأنه كرة بدأت عوامل الزمن في تنفيسها، لم تكونا على نحو غريب قادرتين على التعبير. كانت سهيلة تحمل وجها يعطي غالبا عنها انطباعا بالبلادة، وهو ذات الأمر الذي كان يشكل على نحو عجيب مصدر جذب خاص للذكور إليها، إلا أنها وعلى الرغم من جمالها الخاص وغبائها الظاهري المحبب وبعد قصص خطوبة متعددة بقيت سهيلة لسبب أو لآخر عزباء، وقد تجاوزت الآن الأربعين من عمرها.

- يبدو أنك وحدك اليوم. أجالت « يمّا مريم » بصرها في المكتب بحركة توديعية وهي تهم بالخروج...

- إسماعيل في عطلة، وسي عبد الله لم يأت اليوم كما أن داميا خرجت منذ قليل. ردت سهيلة بآلية.

- وعلى أي حال أنا لا أستبعد أن تكون من يهود العاصمة... قالت « يمّا مريم » وهي تفتح الباب منهية حديثها الذي بدأته عند دخولها وهي تفكر في حائك الحرير العاصمي الذي كانت ترتديه تلك العجوز وقد كان يبدو وكأنه قطعة من جسدها... شيء يشبه جلدها، ولم يكن يبدو أن أحدا قد تصدق به عليها. « قد تكون دزيرية أبا عن جد، لكنها تبقى يهودية ».

وفي هذه اللحظة شعرت سهيلة وكأنها تلقت صفعة على وجهها أيقظتها من غيبوبة بلهاء كانت غارقة فيها لأذنيها، وجحظت عيناها الآن من محجريهما. يهودية. وفكرت تلقائيا بداميا.

- 22 -

لم يكن متأكدا أن رحلته على درج الأموات قد أفضت به إلى دخول الجنة. فكر إلياس وهو يشعر بانقباض في صدره وهو يقطع الشارع الذي أفضى إليه ذلك الدرج الطويل والمؤدي إلى عمارة جده، والذي كان مكتظا بالسيارات المصفوفة من على جانبيه بمختلف الوضعيات، بل وحتى وسط الطريق الذي كان ذا نهاية مسدودة.

كانت تلك سيارات من آخر طراز لم يكن يبخل بها على أنفسهم سكان ذلك الحي في وسط العاصمة، حتى إن لم يكن هناك أماكن لصفها. وحوّل نظره الآن عن الأفق المسدود بمختلف موديلات العام من السيارات الألمانية والفرنسية، ونخّ رأسه ليرتطم بصره بفوطة صحية ملقاة على قارعة الطريق في الفسحة المؤدية إلى باب العمارة رقم 6 قد تكون ألقيت من نافذة حمام أحد المنازل في الحي.

رفع رأسه إلى السماء ووقف قليلا لتدليك عنقه وهو يشعر بالاشمئزاز. لم تكن تلك حتما علامة جيدة، فالدخول إلى الجنة لا يكون بالمرور على دماء فاسدة. تنحنح وهو يحاول أن يتناسى ذلك المشهد وعزم على توجيه أفكاره فقط للبحث عن ملهمته ووضعِها في إطار هذه الزيارة التي كان يعتبرها رحلة روحية بشكل أو بآخر. « لابد أن أجدها هنا ». تمتم وهو يفكر في لوحته، لكن سرعان ما

عادت صورة تلك الفوطة الملطخة لتدنس عليه صفاء أفكاره. وشعر بالتململ وسرعان ما اجتاحه إحساس قوي بالاختناق وقد تخضب ذهنه في هذه اللحظات بصورة لوحته وهي ملطخة بالدماء. فوطة صحية ! هل قطعت كل تلك المسافة لأكتشف أن ملهمتي ليست إلا فوطة صحية ! وتذكر في تلك اللحظة لوحة مداما إليزابيتا في المطعم المفضل لديه في نفق سوبالبينا[14] وسط تورينو حيث كان يقطن فريدريك نيتشه خلال أشهر إقامته الستة في المدينة والتي كتب فيها سيرته الذاتية Ecce homo.

كان نيتشه مستمتعا بإقامته التورينية « الرائعة » كما وصفها لصديقه في رسالة يصف فيها المدينة « التي كان حس الرفاهية يخيم على كل تفاصيلها. » ليواصل : « كم أشعر بمزاج جيد هنا، أنا أكتب طيلة النهار وأنعم بألذ الطعام وكأنني إله ». كان من الواضح أن نيتشه قد وقع في غرام تورينو قبل أن يعود إلى ألمانيا ويصاب بعدها باضطرابات عقلية يعتقد بعض النقاد أن أعراضها قد ظهرت عليه من خلال آخر أعماله الفعلية والتي كتبها في هذه المدينة.

– شخصيا لا أستبعد أن نيتشه قد أصيب بلوثة عقلية في هذا المطعم بالتحديد. قال إيرمانو وهو يتصنع الجدية « بل أجزم أنه فقد عقله تماما وهو ينظر إلى هذه اللوحة ». لينفجر الآن بالضحك داخل المطعم الذي كان يصفه بأنه « المكان الأكثر إثارة للملل في كل بييمونتي » دون أن يعرف سر تعلق إلياس الشديد به.

– هذا المطعم يقدم ببساطة أفضل سوشي في تورينو. قال إلياس بنبرة براغماتية لا تخلو من موضوعية...

---

14. Galleria Subalpina.

- إذا استمريت في الذهاب إلى محلات من هذا النوع فقط لن تخرج على الأغلب سوى بلوحة شبيهة بهذه... وفلتت من إيرمانو مجددا قهقهة مجلجلة وهو يشير إلى لوحة مداما إليزابيتا التي كانت تزين أحد جدران المطعم العتيق، دون مراعاة لجدية المكان الذي لم يكن يؤمه سوى رجال الأعمال في المدينة وعدد من المسنين الأثرياء، وبعض النبلاء في المنطقة.

ابتسم إلياس لحس دعابة إيرمانو وهو يلتقم قطعة ثانية من السوشي ولم يشعر بنفسه إلا وهو يستدير ليتلصص على تلك اللوحة التي كانت تتوسط مصباحين مثبتين على الجدار الزهري للمطعم على نحو احتفالي، والذي ساهم في إضاءة وجه الدوقة العجوز فيه ذلك الإطار الذهبي العتيق الذي سُجنت داخله وعرضت فيه وسط ذلك المطعم الراقي تحت حراسة مصباحين مقتصدين للطاقة.

من كان يدري تحت حراسة أي عدد من الحراس كانت تبقى تلك الدوقة أثناء حياتها. فكر إلياس مبتسما، إلا أن ما كان متأكدا منه هو أن تواجدها في ذلك المكان أو حتى في أي متحف كان لم يكن ليُرضي حتما غرورها، أو غرور أي شخصية تاريخية أرادت أن تخلد صورتها في لوحة لتجد نفسها حبيسة إطار مثبت على أحد الجدران، يمر الناس لمشاهدتها مرور الكرام مثلها مثل أي قطة متشردة أو خروف عادي يعبر الشارع لا يلقي لها أحد بالا، أو يتهافتون بالمقابل على مشاهدتها بفضل صيت رسامها ليس إلا، حالهم حال أي حيوان نادر أو مفترس محبوس داخل حلبة السيرك، لا يدفع الناس لمشاهدته والاستمتاع بعروضه سوى مهارة السائس في ترويضه.

لقد كان ذلك هو رأيه في فن البورتريه بشكله الكلاسيكي والذي ازدهر في عصر النهضة. وكانت تلك اللوحة قد رسمت بتقاليد هذه الحقبة الزمنية التي كانت تركّز على إظهار حلم ودعة المرأة. فكانت النساء في تلك اللوحات يشبهن بشكل أو بآخر الملائكة. ملائكة ترتدي ثيابا فاخرة. أما هو فلم يكن يفضل رسم الثياب على شخصيات لوحاته، لكنه لم يكن يرسمها أيضا عارية من الملابس بل عارية حتى من أعضائها البشرية نفسها. لقد كان يرسم أرواحها... كان يرسم أرواحها فقط. هكذا كان إلياس يعبر دوما عن فنه التجريدي المستعصي على التأويل. إلا أنّ تتبع ضربات ريشته كان من الممكن أن يقود المتفحص الدقيق للوحاته لإعادة تشكيل جسد الشخصية المرسومة كاملا، بل وحتى أدق تفاصيلها. لم تكن لوحات إلياس ماضي موجهة حتما للمتأملين العابرين للجمال، بل كان مهدى لعشاق الروح وفلاسفة الجسد سواء بسواء. كما أن معارضه لم تكن حتما تقام في الأماكن المغلقة تماما بل في قاعات يطلب فيها دوما وجود فتحة في سقفها أو على جوانبها.

من المهم جدا للوحاتي أن تتنفس. هكذا كان يقول. لقد كان يعتقد أنه من غير العدل أن يحبس أرواح شخصياته في أي مكان مغلق. كان لابد لشخصياته أن تبقى حرة طليقة حرية الروح البشرية لدى انفلاتها من سجن الجسد. ولذلك فقد كان يترك إطار لوحاته دوما تتنفس على أطرافها بلون أبيض شفاف، حتى يمنح لشخصياته حرية الفرار من اللوحة والعودة لها متى شاءت. فهو لم يكن يقصد حتما تقييد تلك الأرواح وإنما الاحتفاء بها.

ونظر الآن إلى صحن السوشي الأبيض الفارغ أمامه وانكمش جبينه بحركة لا إرادية وهو يتذكر لوحته الجديدة التي ترفض منذ

ثمانية أشهر تقريبا أن تكشف له عن تفاصيل وجهها، التقم حبة السوشي الأخيرة من طبق اليوم بعودي الأكل الشرقي الذي كان تعامله معهما يشبه تعامله مع ريشة معتبرا كل قطعة سوشي ملونة يلتقطها بهما قطعة فنية تستحق أن نتلذذ بها تلذذنا بأي لوحة فنية كانت، والفرق أن الطباخ كان يسكب من روحه داخل كل لقمة طعام يحضرها، ليغذي بها حرفيا جسد غيره، أما الفنان فكان يضع جزءا من روحه داخل لوحاته ليغذي به أرواحا أخرى. لقد كان ذلك عملا ينطوي حتما على الكثير من الإيثار والمحبة... محبة لن يظهر في أي حال من الأحوال طعمها إذا ما حاولت تشكيلها يد لم تتدرب على الحب. وسرعان ما عاد جبينه إلى وضعه الطبيعي واستحالت الخطوط الرفيعة التي رُسمت عليه إلى وضعها الأملس...

- لا، على الأغلب لن تكون خلفية لوحتي سوداء كهذه اللوحة. قال وهو يبتسم مشيحا بوجهه عن لوحة « مداما إليزابيتا » ليواصل بلكنة جدية. « وقد تكون كذلك لكنني لا أستشعر إلى الآن أي شيء... لا أدري... ربما... لاشيء ». قال بصوت متكسر وهو يدس رأسه من جديد داخل أفكاره...

- برأيي عليك أن تسافر أو أن تذهب في رحلة ما تغير فيها جو الملل هذا الذي تعيش فيه حتى تتمكن من استحضار الإلهام لديك مجددا. قال إيرمانو بالكثير من الجدية وانبرى : « إن واصلت حياتك على هذا النحو لن تخرج برأيي سوى برسم عجوز شمطاء عارية وهي في سن اليأس ». وتابع بنبرته المعتادة وهو يشير إلى الدوقة بحركة لا تخلو من صفاقة بينما واصل التهام ثمار البحر من طبق السباغيتي الذي كان يفضله وقد ملأ صوت ضحكته المكان...

فلتكن إذن في سن اليأس. تمتم إلياس الآن وهو يرجو على نحو غريب أن تكون ملهمته عجوزا هرمة، بدل أن تكون امرأة في سن الخصوبة، كأن تكون صاحبة تلك الفوطة الصحية مثلا ؟ فكر وهو يمسد رقبته وقد عادت صورة تلك الفوطة القذرة إلى ذهنه وهو يمر الآن ببهو العمارة. لا بأس، فقد يكون من الأفضل رمي البويضات غير المخصبة في الشارع بدل رميها بعد تخصيبها. وتذكر الصورة الذهنية لمتسولة الديار الخمس الحبلى التي عبرت رأسه في ذلك اليوم والتي كانت تجرجر وراءها أربعا أو خمسا من أبنائها. لكن ما هو مؤكد أنه لم يكن بإمكان تلك المتسولة اقتناء فوطة كهذه وهي التي كانت تبدو مما تبقى منها أنها بخاصية الامتصاص السريع إذ لم يكن هناك أي بقايا دماء فاسدة على وجهها، وقد كان من الواضح أنها تخبئ كل شيء في قلبها، لابد أنها كانت من ماركة أجنبية غالية. لكنها مع ذلك تبقى مقرفة. رفع رأسه بشكل غريزي إلى نوافذ العمارة وأخذ يتخيل شكل صاحبة هذه المخلفات الدنسة. لابد أنها كانت تشبهها، بكافة تفاصيلها، تدفن هي الأخرى أيضا كل نجاستها وسط روحها.

أوبتيميديا.

قرأ بلا مبالاة اسم الشركة المثبت على الجدار الخارجي للعمارة والذي كان يراه لأول مرة. توقف للحظة. التقط أنفاسه. وواصل طريقه إلى داخل المبنى.

- 23 -

انفكت الآن البعض من أغلاق وجه سهيلة البارد الذي كان يخفي وراءه الكثير من الأفكار المقلقة والتي لم يكن من السهل لمحدثها تبين ماهيتها، وسألت « يمّا مريم » بصوت مضطرب ونبرة مرتعشة.

– عفوا ؟ ولكن من هي اليهودية ؟! سألت وهي تتلعثم وكأنها شعرت على نحو مفاجئ أنها معنية بحديث لم تولي له أي اهتمام خاص منذ البداية. نظرت « يمّا مريم » إلى سهيلة وقد اتضح لها أنها قد فقدت خيط أفكارها وأخذت تمسد الآن غرتها الكستنائية الملساء بقبضة يدها التي كانت تحمل بها السكين الذي قصت به للتو « خبز الدار ».

– « هاديك العجوزة يا بنتي. هاديك العجوزة ». ونظرت إلى سهيلة وهي تشعر بشيء من الرأفة عليها. « يبدو أنك تتعبين جدا في عملك يا بنيتي... » وتأملت بحنو عينيها الخضراوين الممتزجتين على حواف بؤبؤيهما بلون البندق. « خموس وجبريل على بنتي... خموس وجبريل ». وتنهدت الآن وهي تستعد للانصراف : « سلّمي على يمّاك يا بنتي ». قالت يما مريم وهي تتجه نحو الباب متمتمة : « يا حسرة على يامات زمان... ما بقى والو ! ». وبدا وكأنها ستنخرط في حديث جديد بينما كانت تهم بالخروج : « اليوم شفت

بير برنار مسكين... كْبر ». وواصلت وهي تسحب قدميها منصرفة : « وقد تحسر على عدم حضوره جنازة علي الله يرحمو. » وتنهدت الآن وهي تمسك بقبضة الباب : « أنا اتصلت بحفيده إلياس على كل حال، وشعرت بأنه قد يأتي والله أعلم. » وقالت جملتها الأخيرة وهي تفتح باب المكتب : « لكن الآن فات الأوان... ».

– شكرا جزيلا على زيارتك. قالت سهيلة وهي تشد على عضد « يمّا مريم » وقد امتزج شعور الاطمئنان الذي بثه في نفسها وجودها إلى جانبها اليوم مع انقباض غريب في صدرها داخلها من سماع قصة تلك العجوز... من رؤية ذلك السكين... من أخبار داميا واليهود الذين حاصرها وجودهم على نحو لا فكاك منه في تلك الصبيحة...

وخرجت « يمّا مريم » من أوبتيميديا تاركة سهيلة غارقة في أفكارها وهي تستعد لصعود درجات العمارة كون المصعد كان معطلا منذ أسبوع بسبب حمولة زائدة فيه تمثلت في وضع كبش باتجاه إحدى الشقق التي احتفل صاحبها بعقيقة ابنه، فذبح خروفا بالمناسبة. خروف تسبب في تعطيل المصعد من دون أن يكلف صاحبه نفسه عناء تصليحه.

كانت تلك هي العائلات التي تسببت في تغيير الوجه الحضاري للحي. فكرت « يمّا مريم » وهي تتذكر أيام خدمتها للفرنسيين، وكيف تدهور الحي بعد استعماره من العائلات القادمة من « البلاد » بعد الاستقلال. و« البلاد » هي الكلمة المستخدمة للتعبير عن الريف في العاصمة. نزوح ريفي تسبب في شرخ بين سكان العاصمة المتعودين شكليّا على الحضارة ولكنهم لم يكونوا مع ذلك قادرين على عزف البيانو الذي تركه لهم المعمرون في شققهم بعدما نزحوا من أحيائهم

الشعبية على الرغم من المحاولات التي قام بها البعض للحفاظ على النمط الأوروبي في المعيشة، وسكان الأرياف التي كانت سلوكاتهم المعيشية لا تشبه حتما المنازل التي قطنوها وهو ما جعل سكان العاصمة يشعرون دوما بشيء من الاستعلاء على غيرهم من سكان « البلاد ». استعلاء ورثوه من منازل المعمرين ولغتهم التي كانوا يتقنونها ويعرفون جميع المسميات المرتبطة بمختلف أوجه الحياة الاجتماعية فيها، بينما لم يكن أصحاب البلاد غير المتعلمين يحسنون منها سوى بضع كلمات متفرقة كان يرتبط أغلبها بمصطلحات الحرب والسلم وآخرها كان « سيسي لفو ».

تذكرت « يمّا مريم » هذه الكلمة وقد غص حلقها واستأنفت رحلة صعودها إلى المنزل وهي تستعيد ذكريات ما قبل وقف إطلاق النار في حي تليملي. لم تكن « يمّا مريم » تعرف في الواقع إن كانت تعيش الآن في تليملي أم في بقايا تليملي. في الحاضر أم في الماضي. لكن كل ما كانت تعلمه أنها كانت تعيش في عالمين اثنين مختلفين كليا عن بعضهما البعض، وكانت تدرك تماما أنهما متخاصمان إلا أنها كانت تصر على العيش داخلهما سويا. وسرعان ما سمعت حركة غير معهودة في بهو العمارة بينما هي غارقة في أفكارها. بسم الله الرحمن الرحيم. وعادت إلى رأسها صورة تلك العجوز صاحبة الحايك وبدأت دقات قلبها تتسارع...

—

- 24 -

جلست سهيلة على مكتبها بعد أن ودعت « يمّا مريم » بابتسامة معلبة وهي تشعر بالاختناق، وأخذت تمسد الآن عنقها بعصبية، إذ لم يكن مرور داميا اليوم عليها مرورا عاديا.

والحقيقة أن سهيلة لم تكن تهتم فعلا بالكاهنة ولا بمريم ولا بتلك المخلوقة اليهودية التي كان يبدو أنها تقض مضجع جارتها العجوز ولا غيرها، بل كانت الفكرة الوحيدة التي تسيطر على ذهنها في تلك اللحظات هو ضرورة تخلصها من إسماعيل الرسام. لكن بطريقة ذكية. فكرت وهي تعض على الطرف الأيسر من شفتها بعصبية. وتناولت سماعة الهاتف.

- إسماعيل بدأ يشكل خطرا علينا...

- ما الذي حدث ؟

- لقد اكتشف أننا لا نملك التراخيص وقد أخبر داميا بذلك.

- لا بأس. أجاب حمزة وعاد ليمضغ بلا مبالاة ساندويش الشاورما الذي كان منهمكا في التهامه بيدٍ، بينما كان يحاول حشر سيارته باليد الأخرى على أحد الأرصفة من أمام العمارة.

- لا أفهم هدوءك. غمغمت سهيلة بقلق. « لا تنسى أن إسماعيل يستطيع أن يؤذيني إذا خرج من هنا بطريقة غير مناسبة،

أو شعر بأننا كنا نتلاعب فعلا به ». قالت وقد بدأت شفتها السفلى تدمي.

صمت حمزة للحظات وكأنه كان يسمح لنفسه بالتلذذ بالسندويش الذي كان منخرطا في أكله بجميع حواسه، أو ربما لكونه اختنق بلقمة ما.

– ألو ؟ ألو ؟ وبدا الآن وكأن القلق قد استبد كليا بها.

– أنا معك. صاح حمزة بشيء من العصبية وقد علقت عجلة سيارته اليسرى في حفرة من أمام الرصيف. « لا تقلقي بالنسبة لهذا الأمر ». قال محاولا طمأنتها لكن من دون اقتناع. « على أي حال أنا في الحي أقوم بركن السيارة، وسآتي بعد قليل، لكن علي أولا أن أمر على ديدوش لأسوي بعض الأمور ». والآن سحب مفتاح السيارة. « هل هناك شيء آخر تودين إخباري به ؟ » قال وهو يغلق الباب.

– لا شيء إذن. أجابت سهيلة وهي لا تزال مشغولة البال. « بما أنك قادم بعد قليل سنتحدث في المكتب... « يمّا مريم » زارتني اليوم وهي تقول بأن إلياس « الإيميغري » حفيد عمي علي سيعود... ».

– فعلا ؟! سأل حمزة بابتهاج. إلياس البهلول ؟! وصاح بزهو وهو يأخذ قضمة أخرى من سندويش اللحم الذي كان مدمنا على أكله، وقد استحضر ذكريات طفولته التي أمضاها في حي تليملي وكيف كان يستمتع بقدوم إلياس كل صيف لزيارة جده، ومدى تلذذه بضربه كل ما خرج للعب في الحي مع أبناء جيرانه فيتفنن بتعذيبه بينما لم يكن إلياس المسكين يستطيع الدفاع عن نفسه. ضحك حمزة ضحكة مكتومة وهو يسترجع ذكريات طفولته المجيدة. « هذا خبر جيد ». قال مستبشرا بالمعلومة التي حملتها له أخته والتي

يبدو أنها لم تكن تعي أهميتها وواصل : « بالنسبة لإسماعيل لا تقلقي إذن » وتجشأ من قمة رأسه واستطرد باستمتاع. « يبدو أنني وجدت حلا يليق به ». وأقفل الآن الهاتف وهو يتذكر آخر لقاء جمعه بصانع أمجاد طفولته.

كان ذلك في مدخل العمارة رقم 6 حين قطع طريق إلياس الذي كان عائدا بكيس من الحلوى. فلم يكتف حمزة بأخذ الحلوى منه، كما كان يفعل مع جميع أطفال الحي، بل أدخل رأس إلياس في الكيس وحاول ربطه حول عنقه، ولولا أن أكبر أبناء الزّهرة لم يتمالك نفسه من شدة الضحك وهو يشاهد « إلياس البهلول » كما كان يطلق عليه وهو يتخبط على الأرض كالكبش المذبوح صارخا من قمة رأسه : « AIUTO... AIUTO[15] » لكان قد قضى عليه ذلك اليوم.

ضحك حمزة للذكرى وهو يحاول التجشؤ غصبا عنه، وتذكر كيف أن آخر مرة رأى فيها ذلك البهلول كانت وهو يركض مزرقّ الوجه وهو يصعد على السلالم مناديا أمه « الفاورية ». « ماما ماما... أيوتو أيوتو ». بينما هو كان منبطحا على الأرض يتقلب من الضحك.

لو كان قد حصل ذلك مع أحد أبناء « يمّا مريم » لكانت قد اقتلعت رأسه. فكر حمزة مستمتعا بالذكرى وهو يلقي بكيس سندويشه على الأرض بعد أن فرغ من مسح فمه. فقد كانت « يمّا مريم » وعلى الرغم من طيبة قلبها مع الجميع تظهر قدرا لا بأس به من القسوة إذا تعلق الأمر بالدفاع عن أبنائها، وهو من لا يزال يتذكر الصفعات الحارقة التي تلقاها منها بعد أن حاول سرقة كرة

15. النجدة... النجدة.

القدم التي اشترتها لأبنائها، وهو في صغره. وعادت إلى ذهن حمزة الآن صورة والدة إلياس الإيطالية، وهو غير متأكد إن كان قد أخبرها هذا الأخير بما فعله به ذلك اليوم المشهود أم لا، فهو لا يزال يسترجع بالكثير من الاستغراب لحظة مقابلته لمارتينا بعد هذا الحادث بيومين، وقد ربتت على رأسه وكانت تلك هي أيضا آخر مرة يراها فيها لأن إلياس لم يعد مع والدته إلى الجزائر مرة أخرى وذلك بسبب اندلاع الأزمة الأمنية في البلد في بداية التسعينات.

فكر حمزة وهو ينكش بقايا اللحم من أسنانه بظفر خنصره الطويل ليعود لمضغها. وارتأى الآن الذهاب مباشرة إلى المكتب للحصول على المزيد من المعلومات من أخته وهو يمنّي نفسه بلقاء إلياس في الأيام المقبلة، وذلك على الرغم من تفادي حفيد عمّي علي مقابلته في زيارته الأخيرة قبل خمس سنوات إلى الجزائر.

لابد أنه كان لا يزال يعاني من الصدمة. وابتسم ابتسامة كلبية وهو يدفع غاز معدته من فمه.

لكنه لن يفر مني هذه المرة.

\

- 25 -

- أخوك هذا يبدو أنه يريد أن يفضحنا...

قال بصوت منهك مقفلا خلفه الباب، وهو يسند عصاه في مدخل المنزل بيدين مرتعشتين. وعلى الرغم من تلفظه لكلماته تلك بهدوء إلا أن تاجر النحاسيات المسن بدا على نحو غريب أنه انتظر تلك اللحظة طيلة اليوم حتى يعود إلى منزله، وينفجر. وكان ذلك هو سمت سي بن هارون، فحتى في حالات غضبه الشديدة كان يبدو وكأنه منخرط في لحظات تأمل عميقة ليس إلا.

نظرت داميا إلى والدها من دون استغراب وأخذت رشفة أخرى من قنينة الماء الصغيرة التي تعودت على الشرب منها حتى وهي داخل المنزل. وعادت لتطالع الشباك الذي كان يطل على شارع ديدوش مراد في قلب العاصمة متأملة تلك الأقنعة الحجرية الغامضة في البناية المقابلة لمنزلهم والمبنية كغيرها من عمارات شارع ميشلي سابقا على الطراز النيوكلاسيكي والذي ظهر في أوروبا وازدهر في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، وهو النمط المعماري الذي كان يطبع أغلب منازل وسط العاصمة. نظرت داميا بتوجس إلى تلك الوجوه التزيينية التي كانت تستقر على جانبي العتبة العلوية لشرفة العمارة المقابلة وكأنها تشاهدها للمرة الأولى، وهي التي كانت تُظهر وجوها

أشبه بوجوه كلابٍ إلا أنها كانت تحمل شيئا بشريا خاصا في نظراتها التي كانت تبدو تهديدية على نحو يبعث على الريبة.

والواقع أن الأقنعة الحجرية تعد عموما عنصرا تزيينيا رائجا في فن الهندسة المعمارية، وقد كانت وظيفتها الأصلية هو طرد الأرواح الشريرة، حيث تنتشر على أساكفةِ وأحجار عقد المباني القديمة في أوروبا أو في النافورات. أما في الجزائر فلم يكن من الممكن مشاهدة هذه الأقنعة الغامضة سوى في المباني الكولونيالية التي تركها أصحابها ومعها معتقداتهم في وسط العاصمة... في قلب الجزائر حيث كان منزل عائلة داميا، يقبع في الطابق الثالث على إطلالة مقفلة عن أي أفق في ذلك المنزل القديم الذي بقي محتفظا بمسحة من الأناقة على الرغم من عوامل الزمن التي حفرت خطوطا منكسرة على بعض جدرانه وبقعا رمادية مخضرة على سقفه بفعل الرطوبة.

فرغ سي بن هارون من مسح وجهه ورمى بكل ثقله على كرسي السُفرة وهو يلقي بالمنشفة على الطاولة وكأنه يحاول أن يتخلص معها من كل متاعب يومه، وقد أطلق المقعد القديم الذي جلس عليه زفرة تشبه أنة الألم وهو الذي كان جزءا من غرفةٍ لم يتجدد أثاثها منذ أكثر من عشرين سنة، لكنه مع ذلك بقي متماسكا على الرغم من أنه كان يهدد بين الحين والآخر بأنين من كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.

- ومع من كنتما اليوم ؟ سألت داميا وهي تتجه إلى المطبخ.

- مع سي عبد الله.

وسرى الآن صمت غريب في أرجاء المنزل بدا فيه لدقائق أنه فقد وعيه...

عادت داميا وهي تحمل على مهل صحن حساء في يدٍ، ونصف رغيف خبز في اليد الأخرى، وضعتهما بتأن على الطاولة أمام والدها المتعب وهي تشعر بالارتباك.

صحيح أن داميا لم تكن تحسن بروتوكولات تقديم الأكل إلا أن غياب والدتها في بعض أيام العطل كان يضطرها لتقديم الطعام الذي تكون قد حضرته والدتها في وقت سابق بنفسها، ويبدو أن داميا لم تكن مهتمة بتعلّم أصول تقديمه. وقد كانت مدام بن هارون التي أمضت أكثر من ثلاثة أرباع حياتها بين الأطفال كمعلمة في المرحلة الابتدائية تغيب كل ظهيرة ثلاثاء عن المنزل حيث كانت تذهب إلى المكتبة الوطنية لتخصص تلك الساعات من وقتها لقراءة القصص للأطفال أو مساعدتهم على حل واجباتهم المدرسية، وهي التي بالرغم من إحالتها على التقاعد منذ حوالي السنتين، كانت لا تزال تحتفظ بشغف الاحتكاك الدائم بهذه الكائنات الصغيرة.

جالت داميا بعينيها في أنحاء الغرفة وكأنها تبحث عن شيء ما في داخلها وهي تحاول مقاومة شعور القلق الذي غزا نفسها، ثم جربت التظاهر باللامبلاة إلا أنّ وجهها الشاحب بالأصل بدا في تلك اللحظة وكأن آخر ما تبقى فيه من لونٍ قد سُحب عن آخره.

– وهل تعتقد أن سي عبد الله قد شعر بشيء ؟

قالت داميا بهدوء مصطنع وهي لا تكاد تستطيع إخفاء وجلها.

– أوَلم تريه اليوم في المكتب ؟

أجاب الأب بسؤال آخر محاولا التظاهر بعدم الاكتراث، وحمل شيئا من الحساء بالملعقة التي كانت منقوعة في الصحن وأخذ يقرّبها من شفتيه ببطء وهو يراقب حساء الخضار الذي كان يرتعش داخل الملعقة المفلطحة قبل أن تحط حافتها على فمه.

توجهت داميا إلى الشرفة التي كانت مشرّعة في ظهيرة ذلك اليوم على آخرها ووقفت أمام تفاريجها المطلية بالأزرق السماوي وأخذت تعبث بالنجمة التي كانت تعلقها على صدرها بحركة لا تخلو من عصبية، لتنخرط مجددا في تأمل تلك الأقنعة الحجرية التي بدت لها في هذه اللحظة مفزعة على نحو خاص، وقد بدأت دقات قلبها الآن بالخفقان بصوت شبه مسموع.

– لا لم يأت اليوم. وقالت وهي تبلع ريقها. هل تعتقد أنه أحس بشيء ما ؟

– لا أدري. وأخذ سي بن هارون رشفة سريعة من ذلك الحساء الفاتر واستطرد : « أنت تعرفين إسحاق، لا يستطيع ترك فمه مقفلا ».

وكانت داميا قد تعرّفت إلى صديق والدها سي عبد الله في مكتب أوبتيميديا، على الرغم من أنها كانت تعرفه من بعيد مثلها مثل سكان الحي بل وجميع سكان وسط العاصمة، وذلك بعد أن التحقت بدار نشر سهيلة بعد قراءتها لإعلان في مكتبة الآباء البيض التي كانت مسجّلة فيها، حيث كانت تبحث أوبتيميديا على مدققين لغويين لمراجعة السلسلة التاريخية التي كانت تنوي الشركة إصدارها. وبما أنها كانت تدرس الأدب العربي في سنتها الأخيرة بالجامعة المركزية وجدت داميا مكانا لها في أوبتيميديا بهذه الطريقة. لتفرض نفسها لاحقا بقوة، ليس كمدققة لغوية للروايات الشفهية التي كانت تدونها سكرتيرة سهيلة بلغة « الشارابيا » كما كان يطلق عليها سي عبد الله، بل وأيضا كمعين لا ينضب من الأفكار وهو ما جعلها تحصل على منصب مسؤولة النشر لتلك السلسلة. بينما تم اختيار سي عبد الله من طرف سهيلة

ليشرف على المادة التاريخية فيها، بفضل السمعة الكبيرة التي كان يحظى بها في العاصمة كموسوعة تاريخية متنقلة، والتي قد يكون طربوشه الأحمر (الذي لم يكن يتخلى يوما عنه) قد ساهم فيها، وهو الذي قد جعل منه ربما أيضا أشهر شخصية في وسط العاصمة حيث كان مروره بجادة تليملي أو محمد الخامس حيث كان يقطن أو شارع ديدوش وهي الأماكن التي كان يتنقل بينها باستمرار، أشبه بالمرور على السجادة الحمراء إذ كانت تلاحقه أعين المارة على الدوام، إلى درجة أن سكان هذه الأحياء كانوا يعتبرونه « ماسكوت » لمنطقتهم. إلا أنه ولعدم إتقان سي عبد الله للغة العربية الكلاسيكية مثله مثل غالبية أبناء جيله من أهل العاصمة. كان لابد من أحد أن ينقل أفكاره التي لم يكن يحسن التعبير عنها سوى باللغة الفرنسية أو بالجزائرية العامية. ولأن اللغة العربية هي اللغة التي اختارت أوبتيميديا أن تنشر بها أول إصداراتها فكان وجود داميا أكثر من ضروري هناك.

والواقع أنه وعلى الرغم من عدم إتقان سهيلة نفسها للغة العربية الفصحى، مع أنها حاصلة على شهادة في الحقوق، إلا أنها قررت أن تكون العربية لغة السلسلة التي كانت تعتزم نشرها لأنها كانت تنوي الدخول بها لمشروع « الجزائر عاصمة الثقافة العربية ». وقد كانت مديرة أوبتيميديا قد درست مشروع النشر ذاك من جميع الزوايا الممكنة. فأتت فكرة سلسلة الأشرطة المصورة التي عنونتها بـ « نساء من الجزائر » منبثقة أيضا من وحي القانون الجديد للمرأة، وهو ما كان من شأنه أن يضع سلسلتها في أولويات النشر لدى وزارة الثقافة، وهذا كل ما كانت تفكر فيه. لم تكن في الواقع سهيلة بالغباء الذي كانت تنطق به ملامح وجهها والذي

يبدو أن داميا لم تتمكن من فك لغته الخفية بعد، ونظرت ابنة سي بن هارون الآن حولها وكأنها تحاول الهروب من تلك الفكرة التي اجتاحت فجأة ذهنها وتذكرت أول لقاء جمعها بسي عبد الله في مكتب سهيلة...

– هل تعلمين معنى اسم داميا ؟ سأل سي عبد الله ابنة صديقه الشابة وهو يحدجها بترقب في أول يوم التحقت فيه بأوبتيميديا.

صمتت داميا للحظات وكأن سؤال صديق والدها قد فاجأها وهي التي لم تكن قد اعتادت بعد على أسلوب سي عبد الله في الكلام والذي بدا لها استعراضيا على نحو عدائي، وما كادت تستفيق من وقع السؤال حتى استطرد الباحث في التاريخ بصوت عميق : « كثيرون لا يعرفون أنه من غير اللائق التسمية بهذا الاسم على أي حال ». وتابع وهو يهز رأسه بطريقته المعتادة، هزة العارف بخبايا الأمور : « فداميا هو الاسم الأصلي لواحدة من أعدى أعداء الفتوحات الاسلامية في الجزائر ». قال سي عبد الله على نحو تراجيدي : « داميا بن نيفاك كوهين، الملكة اليهودية المعروفة باسم الكاهنة ». جحظت عينا داميا للحظات ولم تدرِ ما الذي كان عليها أن تقوله في تلك اللحظة...

– لكن...

– لا بأس لا بأس. قال سي عبد الله بحلم : « أعلم أن والدك لم يكن يعرف ذلك ». وتابع بجدية « لكن كان يجدر به أن يطلق عليك اسم كهينة مثلا وهو الاسم الذي عرّفها به المؤرخون المسلمون لاحقا، إذ يقال أنها أسلمت قبل وفاتها... لكن لا يصح برأيي التسمية باسمها عندما كانت على يهوديتها ».

– على أي حال يقال أيضا أن داميا اسم آلهة إغريقية. ردت داميا مباشرة محاولة ترطيب الفكرة ثم صمتت فجأة وتمنت لو أنها ابتلعت آخر كلمتين تلفظت بهما وهي تشعر أنها ارتكبت لتوها حماقة لم تفهم ماهيتها وقد حاصرتها نظرات سي عبد الله غير المفهومة، لكنها عرفت بعدها أنه لم يكن يستحسن مخالفة رأي سي عبد الله في أي موضوع يطرحه البتة حتى وإن تعلق الأمر بتاريخ ميلادها.

والآن ها هي تتذكر لسبب أو لآخر هذا « الحوار » الذي دار بينها وبين صديق والدها بشيء من الريبة، وحاولت تغيير الموضوع الذي بدا أنه يخنقها.

– على أي حال... بالنسبة لي مع سهيلة، أموري تتقدم. قالت وهي تحاول تغيير مجرى الحديث وواصلت : « سآخذها غدا عند الدكتور شنيت ».

– جيد. قال سي بن هارون بلا مبالاة وهو يلعق شفتيه مفتشا عبثا عن منديل ورقي لم تحضره له ابنته ليشعر في هذه اللحظة بغياب زوجته، ثم صمت للحظة : « لكن هذا لا يمنع من أن أحذرك من هذا الرجل... إنه انتهازي ».

– لكنه صديقنا. وحاولت داميا رسم ابتسامة على وجهها بدا أن شيئا ما كان يعكر نقاءها.

وفي هذه اللحظة فُتح الباب ودخل إسحاق، وكعادته نظر إلى الجميع، وبلا مبالاة طرح سؤاله الوجيز المكوّن من كلمة واحدة والذي كان يحصل على نحو غير متوقع على ردود منوعة عليه. سؤال يشبه التحية... سؤال يشبه الشتيمة...

– « واش » ؟ ألقى سؤاله في الغرفة ومضى إلى المطبخ دون أن ينتظر الرد.

– هل جلب حليم السلعة ؟ سأل سي بن هارون وهو يقوم من مكانه ليحضر كأس ماء نسيت داميا إحضاره هو الآخر.

– لقد تركته في المحل. قال إسحاق وهو يدخل إلى غرفة المعيشة وقد حمل قنينة كوكا معه، ثم أخذ له مستقرا أمام شاشة الحاسوب.

كان إسحاق هو الابن الأصغر في عائلة بن هارون التي كانت تتكون على نحو لا يشبه العائلات الجزائرية سوى من طفلين اثنين فقط. داميا وإسحاق. وبينما كانت داميا نموذجا للهدوء والرزانة في عائلتها، كان إسحاق شابا نزقا يشبه الزئبق. وعلى الرغم من أن كليهما كان يتسم بالذكاء الحاد إلا أن إسحاق قرر التوقف عن الدراسة قبل انتهاء سنته الثانية من التعليم الثانوي، وقد اتخذ قراره ذاك منذ حوالي الثلاث سنوات تقريبا ولا يبدو أنه نادم عليه، عدا عن شعوره بشيء من الحزن بسبب تخييب أمل والدته، بالإضافة إلى أنه الآن وبسبب عمله مع أبيه فهو مضطر للاحتكاك به بشكل أكبر وهذا ما كان يزعجه كون علاقتهما كان يشوبها نوع من التوتر، خصوصا بعد اللغط الذي تسبب فيه في ثانويته منذ سنوات والذي وصلت تداعياته إلى الحي قبل أن يقرر ترك مقاعد الدراسة.

وقد بدأ كل شيء مع قرار إحالة إسحاق على مجلس التأديب بسبب خلاف مع أستاذة العلوم الشرعية التي كانت تدرّسه، وما اعتبرته في تقريرها « تطاوله على الإسلام من خلال مداخلاته في القسم وأسئلته التي لا تنم عن احترام للدين »، هكذا وصفت أستاذة الشريعة سلوك إسحاق حيال المادة التي تدرسها، وهو ما دفعها إلى رفع أمره إلى مجلس التأديب بعد أن « سكتت كثيرا عن تجاوزاته » (هكذا ورد في التقرير) والواقع أن كل شيء بدأ

في درس مصادر التشريع الاسلامي، بعد أن طرح إسحاق سؤاله مقاطعا شرح الأستاذة للمصدر الثاني للتشريع...

– أستاذة إذا كنا نعتبر أن القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد غير المحرف لأن الله قد حفظه من أي تغيير، فماذا عن كتاب البخاري ؟

– لم أفهم سؤالك.

نظرت الأستاذة لإسحاق باستغراب وقد داخلها شعور خاص بالارتباك.

– أقصد لماذا نأخذ السنة كمصدر للتشريع مع أننا غير متأكدين من عدم تعرضها للتحريف...

اهتز بدن الأستاذة من الفكرة وقد انتابها شعور قوي بالذعر...

– أولا تأدب وأنت تطرح أسئلتك. صاحت الأستاذة التي كان يلقبها الطلبة بـ « الزلومية » كناية عن سبابة يدها اليمنى التي كانت تتحرك مثل لسان الحرباء والتي كانت كثيرا ما تطلقها في وجه طلبتها، وها هي الآن تنقض بها على إسحاق على نحو شبه هستيري. « ثانيا جميع من ينكر نبوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام يكون قد كفر... ».

– لكن...

– « بلّع فمّك. لن أسمح لأحد هنا أن يشكك في رسولنا الكريم... إلا رسول الله ». صاحت الأستاذة بصوت محموم...

وما هي إلا دقائق حتى وجد إسحاق نفسه خارج القسم بعد طرحه لسؤاله الثاني حول الإجماع والذي بدأت أستاذة الشريعة بتعريفه :

« فضّل الله الأمة الاسلامية بالإجماع وميزها به على سائر الأمم، فإجماع علماء هذه الأمة على أمر من أمور دينها معصومٌ

من الزلل والخطأ ليحفظ الله سبحانه وتعالى، بسبب إجماعهم الشريعة من كيد الكائدين، وتحريف الضالين ».

وواصلت وقد عاد الهدوء إلى نبرة صوتها بعد مشادتها تلك مع إسحاق لتشعر الآن أنها كانت تبسط سيطرتها الكاملة على القسم.

« وقد اختلف الأصوليون في تعريف الإجماع اصطلاحًا تبعًا لاختلافهم في كثير من مسائل الإجماع المتعلقة بأركانه وشروطه وأحكامه و... ».

وفجأة عاد صوت ذلك المراهق الأرعن لمقاطعتها...

- أستاذة، إذا لم يجمع العلماء أصلا على تعريف الإجماع فكيف لهم أن يجمعوا على أمور أخرى ؟ وكيف يمكن أن يكون مجموعة من العلماء اجتمعوا على ألا يجمعوا مصدرا للتشريع ؟؟

- برّا... برّا...

وقد كان ذلك آخر ما سمع إسحاق في القسم، كونه قرر عدم العودة إلى الثانوية قبل الانتهاء من قراءة كتاب مصادر التشريع الإسلامي، والذي بقي منشغلا في قراءته طيلة يومين ليتم استدعاؤه رسميا إلى مكتب المدير أثناءها، في لقاء لم يعد يذكر تفاصيله، إلا أنه كان يشعر في تلك اللحظات التي أمضاها في ذلك المكتب المظلم وغير المنظم لمن كان يطلق عليه اسم المدير، أنه ببساطة يضيع وقته. فقد كان مشغولا بالقراءة، ولم يكن في وارد الدخول مع أحد في سجالات، وعلى رأسهم هذا المتخلف. فكر إسحاق وهو ينظر إلى ذلك الشخص الذي كان يكلمه باستعلاء ولم يكن يعرف شيئا عنه سوى أنه مدير لا يعرف تماما مهمته في هذا المكان سوى أنه يجلس الآن على مكتبه، وأنه لم يكن يعرف حتى اسمه الحقيقي في ظل انتشار اسمه غير الرسمي بين الطلبة : « مطلوعة ». وذلك

بسبب وجهه المسطح الدائري الكبير والذي جعل طلبته يطلقون عليه اسم هذا الخبز الشعبي، إلا أن إسحاق كان الوحيد في المؤسسة الذي كان يرفض مناداته بهذا الاسم لأنه كان ببساطة يحب المطلوع، وكان يفضل مناداته باسم « باغيطا » بالمقابل لأنه لم يكن يحب تناول هذا الخبز... الذي كان يشبه عضوه الذكري. هكذا فكر.

إلاّ أنه وللصراحة كان متابعا وفيا لصفحة مدير ثانويته على الفايسبوك والتي تحمل اسم « المطلوعة اليابسة »، والتي كانت تورد آخر النكات باسم المدير العتيد للثانوية حيث تم تركيب صورة لهذه الخبزة التقليدية على جسم مدير الثانوية كصورة للبروفايل فوق صورة التقطت له سرا في فناء المدرسة من طرف أحد الطلبة، لتحقق هذه الصفحة عدد إعجابات قياسي نسبة لعدد طلاب الثانوية. ولابد أن « مطلوعة » نفسه كان قد سمع بهذه الصفحة التي من الواضح أنها حققت له شهرة حتى خارج مؤسسته بل وخارج حدود الولاية... شهرة لا يبدو أنه كان سعيدا بها، وهو من كان يحاول بكل ما أوتي من وسائل أن يعرف من كان وراءها. والواقع أنه لم يكن يصله سوى وشايات غير مؤكدة من بعض الطلبة من حين لآخر حول هذا الموضوع لم تكن تتجاوز طابع الكيدية. إلا أنه ومنذ قراءته لتقرير « الزلومية » أستاذة الشريعة الحازمة في مؤسسته حتى استشعر أن إسحاق قد يكون هو مدير صفحة « المطلوعة اليابسة » لأنه كان يلزم لمدير صفحة كتلك قدر كبير من الوقاحة لم يكن يضاهيها بحسب ذلك التقرير سوى وقاحة التهجم على الدين الحنيف ورسوله الكريم. هكذا فكر وهو يغلي ويزبد في ذلك اللقاء، بينما كان إسحاق في مكانه يقف بهدوء من دون أن تنفرج شفتاه عن كلمة واحدة. لتنتهي تلك الجلسة التقريعية بموعد في

مجلس التأديب، لم يتخلف إسحاق عنه فحسب بل قرر ترك المدرسة بأكملها، وهو القرار الذي لم يفكر فيه لأكثر من دقيقتين والذي لم يزعج بصراحة سي بن هارون الذي كان يريد من ابنه مساعدته في المحل وهو من لم يكن يعجبه دفع مرتب للعمال، حيث كان سي بن هارون معروفا بحرصه الشديد أو ربما ببخله، بقدر ما أزعجه سبب ترك ابنه للدراسة والذي غدا حديث العام والخاص في ثانويته وبين زملائه الذين أصبحوا يتهامسون بين بعضهم البعض « إسحاق كافر... إسحاق يهودي ». لتصل هذه الأصوات إلى الحي الذي كان يسكن فيه سي بن هارون ويعمل أيضا، وهو ما كان من شأن تعريض سمعته للخطر.

صحيح أن زبائن سي بن هارون كانوا من السواح أو المهاجرين بالدرجة الأولى، إلا أنه كان يخشى إثارة اللغط من حوله في جميع الأحوال خصوصا أنه اضطر في سنوات التسعينيات أن يكف عن عرض اللوحات التي تصور أشخاصا بعد أن حذره مجموعة من الشبان الذين قصدوا محله في إحدى المرات من عرض لوحات التوارق التي كان يعلقها في محله، بل وطالبوه بإتلاف كل اللوحات التي تمثل كائنا ذا روح، فحتى لوحات الإبل والجمال لم تُستثن من هذا التحذير الذي انصاع له سي بن هارون خوفا من أن يصيبه أي مكروه. وعلى الرغم من أن الكثير من أقارب وأصدقاء سي بن هارون هاجروا خلال العشرية السوداء التي عصفت بالجزائر، إلا أنه بقي متشبثا بمكانه. فما الذي كان يمكن أن يعمله رجل يمتهن بيع مقتنيات تحمل توقيع الجزائر في أرض غير الجزائر. هكذا كان يفكر، لذلك لم تكن مسألة الهجرة واردة بالنسبة له. وهو الأمر الذي لا يبدو أن إسحاق قد غفره لوالده وهو من أصبح حلم الهجرة يراوده مثل كل الشباب الذين كانوا في سنه.

- على فكرة إلياس ليميغري عاد. قال إسحاق وهو يقرأ آخر نكت « المطلوعة اليابسة ». ونظر بطرف عينيه إلى والده الذي كان لا يزال يشرق الحساء بهدوء، كأنما كان يود أن يرصد رد فعله على هذا الخبر، وتابع : « رأيته صاعدا اليوم إلى تليملي ».

نظرت داميا التي كانت غارقة في أفكارها من أمام الشرفة إلى شقيقها بلا فهم، ليستطرد : « إلياس تاع الطاليان... جار سهيلة ». قال إسحاق وهو ينظر إلى شقيقته الكبرى باستغراب وكأنه يحاول شرح معلومة بديهية.

- آه نعم، نعم. تذكرته ! هتفت داميا، وأدارت وجهها إلى والدها وابتسمت له في تواطؤ.

أخذ سي بن هارون نفسا عميقا وكأن صدره قد انشرح لهذا الخبر وتذكر آخر زيارة لإلياس في محله وقد رافقته فيه خالته الإيطالية قبل سنوات. بدأ إذن العمل. انفتحت أسارير سي بن هارون، وانشقت شفتاه على نحو غريب بابتسامة كشفت عن أسنانه، وهو من لم يكن وجهه يرشح سوى عن ابتسامات مقفلة...

آيلي آيلي والغني ربي * آيلي آيلي يا سيدي ربي

دندن إسحاق بنبرة تهكمية كلمات أغنية الحراز التي كانت تتنازع ملكيتها الجزائر والجارة المغربية، والتي اشتهرت بالنسخة التي أداها المغني العاصمي الهاشمي ڤروابي، وهو ينظر بطرف عينه إلى والده، لكن سرعان ما غرز سي بن هارون عينيه في رأس إسحاق وبنبرة تهديدية غير معهودة شكّ في أذني ابنه بضع كلمات جافة...

- وأنت من مصلحتك أن تُبقي فمك مغلقا. لقد بدأ الآن العمل. فكر سي بن هارون وهو يحاول إخفاء ابتهاجه بالخبر.

- 26 -

- هل كنت تعرف إلياس شخصيا ؟
- نعم. قال بنبرة خالية من أي تعبير.
- ومتى كانت آخر مرة قابلته فيها ؟
- منذ خمس سنوات.

صمت مساعد المحقق للحظات محاولا احتواء تفاجئه من برودة محدثه المريبة، والذي لم يكن يبدو عليه أي انفعال...

- وأين كان ذلك ؟
- في محلي.

نظر خير الدين إلى سي بن هارون، وشعر للحظات أنه أمام محترف قد يكون من الصعب الخروج منه بأي معلومة...

- وما الذي أتى لفعله ؟
- ليشتري.

وواصل بن هارون كلامه بهدوء غدا مقلقا لمساعد المحقق، وبدا الآن وكأن خير الدين قد بدأ يفقد أعصابه من الإجابات التلغرافية التي كان يحصل عليها من محدثه.

- ألم يعد بعدها ؟ سأل المحقق وهو يحاول كتمان سخطه.
- لا.

والآن لم يشعر خير الدين بنفسه إلا وهو ينفجر في وجه سي بن هارون.

- أرجو منك سي بن هارون أن تتعاون معنا وأن تجيب عن أسئلتي بإسهاب أكبر.

رد سي بن هارون على مساعد المحقق بنظرة خاوية واستطرد :

- أنا أجيب على أسئلتك. قال دون أن يرف له جفن.

- حسنا. ونفث خير الدين بنفاد صبر : « أخبرني بكل ما تعرفه عن إلياس ». وطرح خير الدين سؤاله المفتوح وهو يتوقع أن يحفر خندقا لخلخلة توازن محدثه.

- أنا يا بني تاجر، ولست مخولا ولا معنيا بمعرفة أي تفاصيل عن حياة زبائني. قال سي بن هارون بحلم كأنه لا يكاد يفهم سر كل تلك الأسئلة الموجهة إليه ولا سر الغضب الذي بدا على المحقق، والآن انشرحت تقاسيم خير الدين لأول مرة في ذلك اليوم كأنما أحس أنه أخيرا أوقع محدثه في المصيدة.

- أنت تعني أن إلياس كان زبونا عاديا مثله مثل جميع من يمر كل يوم على محلك ؟ سأل المحقق وهو يحاول إخفاء ابتسامته.

- نعم. وعاد سي بن هارون إلى ردوده المختصرة المرفقة بنظرات باردة.

- وهل يكتب كل تاجر رقم هاتفه لكل زبون عادي يدخل محله بخط يده ؟ سأل خير الدين بشيء من المكر وهو يرقب ردة فعل تاجر التحف على كلامه وهو الذي لم يغير حتى وضعية جلوسه منذ بدأ التحقيق.

- لا أفهم قصدك. أجاب سي بن هارون بهدوء واستطرد الآن بشيء من القلق. هل أفهم من أسئلتك أن الشرطة تشك بي ؟

- أجبنا على قدر السؤال لو سمحت. قال خير الدين وقد بدأ هدوء سي بن هارون يشعره بالاضطراب وهو الذي زادت زرقة عينيه من بث المزيد من الإحساس الجليدي على تصرفاته...

- وأين السؤال ؟

ليُخرج في هذه اللحظة مساعد المحقق من جيبه تلك الورقة شبه المهترئة والمطوية أربعا والمسجل عليها رقم سي بن هارون...

- كيف تفسر وجود هذه في محفظة القتيل ؟

وللمرة الأولى منذ بدء التحقيق، لمح خير الدين رفة غير معهودة في عيني سي بن هارون.

- 27 -

وقف إلياس أمام باب العمارة رقم 6 وهو يمسح حبات العرق التي نمت على جبينه ملتقطا أنفاسه، وفتح الباب الأخضر الثقيل بصعوبة، ليلتطم وجهه مباشرة ببرودة المكان، وأطبقت معها على نفَسِه رائحة العفونة المتكونة على جدران العمارة والتي خلّفتها الرطوبة، وسرعان ما رافق إحساسَه بالارتياح من الحر الشديد الذي لازمه منذ هبوطه بالمطار، شعورٌ قوي بالاختناق جراء رائحة المكان النفاثة. يبدو أن الرحلة على الصراط لم تنته بعد.

حمل حقيبته وهو يمر على العتبة، مغلقا خلفه الباب وقد حرص على قراءة الإعلان المثبت على الجدار والمكتوب بقلم فوتر أزرق بأسلوب لم يخلُ من عصبية :

Ne jettez pas vos ordures avant 19h. Soyez civilisés[16] !!

انكمش إلياس على نحو غريزي وهو يقرأ هذا الاعلان التقريعي، واتجه بسرعة نحو المصعد وهو يجر حقيبته بحذر عبر الرواق المظلم للعمارة وأخذ يضغط بعصبية على زر المصعد، إلا أنه لم يتجاوب. وبعصبية أكبر بدأ يبحث عن أي زر يضغط عليه حتى ينير المكان الذي كان يقف فيه، والذي شعر في تلك اللحظات أنه غريب كليا

16. لا ترموا قمامتكم قبل الساعة السابعة. ولتتحلوا بشيء من الحضارة !

عنه، وقد شكّل الدخول فجأة إلى مكان بهذه العتمة بعد الاحتراق بشمس مسروقة من ساعات الظهيرة، طيلة الصباح، صدمة لجميع حواسه.

حمل حقيبته بكلتا يديه وشعر الآن أن قواه قد بدأت تخور واتجه نحو السلالم في آخر مجهود للوصول إلى الطابق الأخير لمنزل جده، والذي لن يجده في انتظاره هذه المرة على أي حال. جفل إلياس للفكرة وهو يصعد تلك الدرجات وقد شعر في هذه اللحظة أنه يرغب في البكاء للمرة الأولى على فقدان جده. إلا أنه سرعان ما شعر بنبضات قلبه تتسارع وقد استشعر وقع أقدام تتسلل من ورائه كان من الواضح أنها بدأت تحاكي وتيرة سيره. من يلاحقني يا ترى. فكّر وقد خفّض من سرعته ليتأكد من سماعه لصوت تلك الخطوات، التي اختلط وقعها بدقات قلبه، ليختفي بعدها ذلك الصوت ويبقى فقط صوت أنفاسه هو المسموع في ذلك المكان الذي غدا موحشا في تلك اللحظات على نحو خاص. وفجأة زاد إلياس من سرعته، ليزيد أيضا ملاحقه من سرعة خطواته.

كان كل شيء من حوله معتما، عدا عن لون الخوف البني أو الرمادي الذي كان يحيط به... لم يكن متأكدا تماما من ذلك اللون الذي كان يصبغ ذهنه في تلك اللحظات فلطالما اعتقد أن لون الخوف أصفر مخضر بدرجة الكاكي. إلا أنه كان يراه الآن بلون رمادي مائل إلى الزرقة، مع أن كل شيء من حوله كان فعليا أسود أو ربما كحلي.

والواقع أنه لم يكن يشعر بشيء في تلك اللحظات سوى صوت الأنفاس الثقيلة لملاحقه، الذي كان يحس أنه يقترب منه أكثر فأكثر. بينما هو كان في تلك اللحظات يهرب نحو الفراغ. لم يعد

يعي في الحقيقة حتى في أي طابق كان، أو أنه كان يصعد أم يهوي، يركض أم يحبو، لم يعد مركّزا سوى مع الخطوات التي كانت تتبعه وكان منشغلا بتحديد لونها، لقد كانت ربما حمراء بلونٍ قانٍ، أو صفراء برتقالية. تبا لهذه الألوان التي كانت تلاحقه حتى في لحظات فزعه. فكر وهو يركض وراء دقات قلبه.

لقد كان يبدو أن التشوهات الناتجة عن مهنته تلاحق إلياس في حياته اليومية حتى في أكثر اللحظات حرجا. إلا أن الغريب أنه وعلى الرغم من كون إلياس فنانا يحترف التعامل مع الألوان لدرجة أنه كان يحسن دوما وصف لون أفكاره ووسوسات نفسه ونزاوته بدقة متناهية. ولكنه كان حاليا ضائعا بين البني والرمادي، بين لون حارّ وآخر بارد. ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها أنه عاجز عن تحديد لون أفكاره. وعادة ما كان يحتار في لحظات الارتباك القصوى ليتعثر بين درجتي لون واحد أو ثلاث درجات منه على أقصى تقدير، لكن أن تتلعثم حواسه اللونية فيفقد القدرة على تحديد لون إحساسه ويتيه بين لونين من عائلتين مختلفتين فكانت تلك هي المرة الأولى. والواقع أنه ربما كان يشعر بالفزع من هذه الفكرة أكثر من فزعه من عدم معرفة هوية ملاحقه.

والحقيقة أنه وعلى الرغم من هوس إلياس بتحديد الألوان إلا أن لوحاته كانت تفتقر على نحو عجيب لها. إذ لا طالما رسم تفاصيل أجساد شخصياته بضربات سوداء من ريشته، ولم يكن يختار لها لونا آخر غير ذلك اللون أبدا. الأسود لون الجسد الذي لم يكن للإنسان، أي إنسان أن يستحق غيره. وأبيض شفاف على الأطراف كان لابد منه ليمنح من خلاله الحرية لأرواح شخصياته لتسبح داخل لوحته. ولون واحد فقط لا غير يشبه حياة شخصيته،

أو يشبه بالأحرى الذكرى التي يخلفها كل شخص بعد مماته يوزعه في أماكن مختلفة من اللوحة تتحدد شدته بحسب ميوعة أو كثافة الحياة التي عاشها صاحب الشخصية. لم يكن إلياس يرسم إلا الأموات. ولم يمكن له ليرسم أي شخصية إلا وهي ميتة. هكذا كان يشعر. ولطالما اعتبر المسألة طبيعية كونه كان يرسم الروح التي لا نشعر بزخمها إلا بعد مفارقتها للجسد. غير أنه كان يشعر منذ أشهر أنه يود وللمرة الأولى رسم روح لا تزال حية... لقد كان يشعر حتما أنها حية، وكان يدرك أنها أنثى لكنه لم يكن قادرا على تحديد تفاصيل وجهها ولا اللون الذي يشبهها. تماما كما أنه لم يكن قادرا على تخيل تفاصيل وجه ملاحقه أو تحديد لون أنفاسه. هذه الأنفاس الثقيلة والمنهكة التي انقضت عليه بإحكام. لابد أنه كائن من نوع خاص، كائن لا لون له. كائن شفاف. لا لم يكن حتما ذلك هو الوصف اللائق بالمتربص به. بل هو حتما كائن معتم وربما ملغز مثله مثل العدم. تبا ما هو لون العدم ؟ فكر وقد عجز الآن عن رؤية العدم الذي طالما اعتقد أن لونه أبيض، لكنه الآن لا يرى ذلك اللون. وفجأة تذكر ذلك الحايك الأبيض الذي رآه منذ قليل على سلم الأموات والذي كان يشبه لونه لون الفراغ، كان يشبه لونه لون الموت. لكنه كان مخضبا ببقع الزمن والحزن والألم الرمادية منها والصفراء والبنية. لا بد أن ملاحقه يود أن يقتله، لمَ يلاحقه إذن إن لم يكن يرى أمامه لون الموت ؟ كان يرى ألوانا متداخلة ضائعة بين البني والكحلي والرمادي.

إن كان عليّ أن أموت الآن فلا بد لي من أن أموت بشرف. وتمتم في سره وهو يأخذ قراره بأعلى صوت مسموع داخل رأسه. لابد أن أتعرف على آخر لون في هذه الحياة. وفجأة توقف عن السير

واستدار على نحو مباغت نحو المتربص به. ولم يكن يدري إن كان قراره ذلك قرار مواجهة أم أنه قرار استسلام، لكنه كان حتما قرار مكاشفة. إلا أنه مجددا لم يكن قادرا في تلك اللحظة على رؤية أي لون سوى لون الوحدة الأبكم.

والآن لمح شيئا يشبه لمعة سكين كانت تبدو معلقة في الهواء تستعد للسقوط على يده التي مدها في حركة غريزية للدفاع عن نفسه.

- 28 -

خرجت كاترينا من كنيسة القديسة كريستينا في ساحة سان كارلو، بعد أن اعتادت الذهاب إليها للصلاة قبل كل موعد لها مع المستشعرة راكيل، وهي تحمل معها لوحة للصحراء الجزائرية المصنوعة من ثلاثة أنواع من الرمال بحسب سي بن هارون صاحب محل المقتنيات التقليدية في الجزائر، والتي اشترتها تحت طلب العرافة العجوز التي بدأت تتردد عليها بشكل شبه أسبوعي منذ خمس سنوات بعد تلك الرحلة التي أخذتها لأول مرة إلى موطن ابن أختها في الجزائر، وذلك حتى تمارس المستشعرة طقوسها المعتادة عليها.

وقد كان مسمّى « مستشعر » في إيطاليا يطلق على كل من يمتهن عمل البصار والوسيط الروحي وكل ما يدخل في إطار تحسس أمواج الطاقة الخفية التي تحيط بالعالم، وهكذا كان يعرّف المستشعرون نشاطهم الذي يعد مرخصا في إيطاليا بل ويتجاوز حجم أعماله الست ملايير أورو كل عام، ذلك على الرغم من أن عددا كبيرا من المستشعرين في هذا البلد يمارس عمله في الخفاء لتجنب دفع الضرائب.

والحقيقة أنه وفي بداية الأمر لم يعجب كاترينا أن تكون زبونة لمستشعرة يقع محلها في المنطقة المشؤومة من المدينة حيث كان

لا بد، من أجل الوصول إليها، أن تعبر جادة ڤالدوكو[17] التي كانت تسميتها المشتقة من اللاتينية Vallis Occisorum تعني واد المقتولين، وذلك حتى تصل إلى ساحة ستاتوتو[18] التي تعد قلب « المنطقة السوداء » في المدينة والتي يعتبرها خبراء السحر الغربيين من أشد الأمكنة الطافحة بالطاقة السلبية في العالم، وهو ما يجعل تورينو تشكّل على نحو عجيب بالإضافة إلى كونها أحد عواصم السحر الأبيض في العالم أحد أعمدة ثالوث السحر الأسود، جنبا إلى جنب مع لندن وسان فرانسيسكو. وتقع إحداثيات المكان الأشد سلبية في المدينة بحسب المختصين، في النقطة التي تم بناء مسلة غوليا بيكاريا[19] عليها والتي كانت تطل عليها شرفة العرّافة في مواجهة تمثال ترافورو ديل فريجوس[20] المريب وسط ساحة ستاتوتو بالتحديد.

والواقع أن ساحة ستاتوتو كانت تعرف بشكل خاص بتوالي الأحداث الجنائزية عليها على نحو يثير الريبة، ولذلك أُطلق عليها لقب « القلب الأسود لتورينو »، فعدا عن أن الساحة اختيرت كمكان لتنفيذ أحكام الإعدام بالمقصلة في مئات الأشخاص عام 1864 بعد الأحداث الدامية التي أعقبت تحويل العاصمة الإيطالية من تورينو إلى روما، فقد تم اكتشاف أن هذه الساحة نفسها كانت في العصر الروماني عبارة عن مقبرة كبيرة، حيث أنها كانت تحظى بسمعة منحوسة منذ ذلك العصر وهي الساحة التي كانت تقع غرب المدينة حيث تنطفئ عين الشمس لتنفتح أبواب الظلمات. هذا غير أنه لا

17. Corso Valdocco.
18. Piazza Statuto.
19. Guglia Beccaria.
20. Traforo del Frejus.

يمكن لأحد إلا ويشعر بانقباض في صدره وهو يتأمل معلم « ترافورو ديل فريجوس » المريب، والذي كان يعلوه ملاك أسود يراقب عمالقة بيض يحاولون صعود الهرم الصخري وعلامات الشقاء بادية على وجوههم بينما كان هو يبدو وكأنه يدفعهم إلى الأسفل بحركة يديه الموجهتين إلى الأرض.

لكن لم يكن فقط صيت ساحة ستاتوتو المشؤوم التي كانت تمارس فيه راكيل نشاطها هو ما جعل كاترينا تتردد في اللجوء إلى تلك المستشعرة فحسب، بل كان أيضا شكل تلك المشعوذة نفسها والذي لم يُشعر كاترينا بالراحة البتة لدى مقابلتها في بادئ الأمر. فقد كان يبدو من مظهرها وكأنها غجرية قذرة، أو مهاجرة أجنبية حقيرة ترتدي ثيابا وأكسسوارات صينية لا يتجاوز سعرها مجتمعة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها العشرين أورو، وأن هذا المبلغ كان هو في أحسن الأحوال التسعيرة التي لابد أنها كانت تطلبها هذه الراكيل عندما كانت تمارس نشاطها السابق قبل الاعتزال. هكذا فكرت كاترينا وهي تجلس أول مرة أمام تلك البصارة التي بدا هيكلها الضخم كبقايا جيفة حيوان هرم نهشت من لحمه الضباع حتى لم تعد لها حاجة به، لترميه بعدها وتتركه لشأنه يتحلل على مهل في الطبيعة. وأما وجهها المسمرّ الذي كانت التجاعيد قد حفرت خطوطا عميقة عليه فكان أشبه بورقة صحية مكرمشة انتهى أحدهم لتوه من مسح مؤخرته المتهدلة بها تاركا إياها في قاع البيب دون أن يسحب الماء وراءها.

نظرت إليها باشمئزاز وهي تحاول طرد روائح الشمع الغريبة التي كانت تلف المكان والتي أزكمت أنفها، وهي تحاول منذ لحظة دخولها إلى ذلك المكتب، إرجاع شفتيها الرفيعتين اللتين كانتا ممطوطتين على نحو بدا وكأنهما مشدودتان بسلك من طرفيهما، لوضعهما

الطبيعي ولكنها فشلت كلما أمعنت النظر في جزئية أخرى من جزئيات تلك المرأة التي بدت لها وضيعة على نحو يدعو للقيء.

والواقع أن كاترينا كانت تتمنى لو تجد عرافا راقيا من طراز ابن مدينتها الشهير غوستافو أدولفو رول[21] الذي كان يعد مستشعر الطبقة المخملية ليس في تورينو فحسب بل في كامل أنحاء العالم، حيث كان يعتبر صديقا مقربا لعائلة أنييلي[22] صاحبة مصنع فيات للسيارات ونادي يوفنتوس العريق، كما كان مقصودا من طرف سياسيي العالم بأسره ابتداء من بينيتو موسوليني، مرورا بكينيدي. إلا أن كاترينا اقتنعت في النهاية بضرورة اللجوء إلى راكيل هذه بعد أن أثنت خادماتها البيروفيات عليها، وهن اللواتي لم تسمعهن غير مرة يتحدثن بإعجاب عن قدرات هذه البصارة الخارقة لقراءة المستقبل، بل وحتى قدرتها على محاربة الأقدار المزعجة. لتقتنع في النهاية بالعودة إليها بعد لقائها الأول معها وهي التي كانت تبدأ حديثها مع زبائنها بخطاب تطميني يليق بسمعة المكان الذي كانت تمارس فيه نشاطها :

« يبدأ التعامل في التقاليد الخيميائية دوما من أحقر المواد وأقلها شأنا ليتم تحويلها إلى مواد أكثر نبلا ».

أعلنت راكيل وهي مطبقة جفنيها كأنما كانت تود أن تطرد صورة تلك العجوز الأنيقة صاحبة الشفتين الممطوطتين والتي كانت ماثلة أمامها، من حقلها البصري، وقد بدت وكأنها تمارس طقسا روحيا ما وهي تبخ تلك الكلمات داخل رأس تلك العجوز الإيطالية المتعجرفة :

---

21. Gustavo Adolfo Rol.
22. Agnelli.

« ونحن الآن في هذا المكان نقع تحت رعاية شيطان جادة فالدوكو « لوسيفر » محاطين بكل هذه الأرواح المعذبة لننطلق شيئا فشيئا في رحلتنا من اليأس والضياع، نحو الطمأنينة والراحة والسكينة، برعاية الأب، الابن، وروح القدس ».

والواقع أن مستشعرة بيازا ستاتوتو لم تكن تعي تماما ما الذي كانت تعنيه تلك العبارات التي كانت حريصة أن تبدأ بها مقابلاتها مع زبائنها التورينيين بالتحديد، في أول موعد لها معهم، وهي التي كتبتها لها وكالة إعلانية لجأت إليها قبل فترة من أجل الترويج لمحلها. وقد طبعت لها هذه الفقرة على مطوية تعرض فيها خدماتها على زبائنها الذين تضاعف عددهم بفضل سياسة الترويج التي اعتمدتها بل وتنوعت أيضا خلفياتهم. فلم تعد راكيل فقط تستقبل زبائن من مواطنيها المهاجرين الجنوب الأمريكيين في المدينة فقط لكنها أصبحت تستقبل عددا كبيرا من أهل المدينة أيضا والذين كانت تكفي بعض الفذلكة والحذلقة والتظاهر بشيء من الثقافة من أجل جذبهم، لتصبح بذلك منافسة قوية لأقدم وأهم المستشعرين الإيطاليين في المدينة، وتغدو كاترينا كافاريلو نفسها وهي ابنة واحدة من أعرق العائلات في تورينو وزوجة أحد أهم المحامين في المدينة وأثراهم، زبونة عندها.

اتجهت كاترينا الآن إلى كافي تورينو لتناول قهوتها الصباحية قبل أن تذهب إلى مكتب راكيل لتمارس طقسها الاعتيادي على اللوحة، وتذكرت في تلك اللحظة أول موعد لها لقراءة بطاقات التاروت مع هذه البصارة قبل خمس سنوات، والذي أفضى إلى ذهابها إلى محل سي بن هارون.

- اجلبي لي شيئا من بلده.

قالت راكيل وهي تفتح بطاقات التاروت التي كانت بارعة في قراءتها وقد أطبقت الآن جفنيها وهي تأخذ نفسا عميقا بعد أن فتحت البطاقة رقم ثلاثة عشر. البطاقة التي كانت المفتاح في طالع إلياس حسب قراءة العرافة التي كانت تزيّن جدار مكتبها بدبلوم حصلت عليه من أحد مراكز تعليم الكبالا، والتي كانت بطاقات التاروت التي تستعملها تعتمد على رموزها. ذلك أن فكرة التاروت قائمة على أن لحياة كل شخص مفتاحا تختصره كلمة. وشرّعت العرّافة المخضرمة الآن عينيها بعد أن فتحت تلك البطاقة التي كانت مسكونة بالبياض وأخذت نفسا عميقا، ثم عادت لتتأمل بخشوع ذلك البياض الذي كان ينفر من حصان يتوسط قلبها وقد كان يرمز للطهارة. لقد كانت تلك هي البطاقة المطهّرة، كما كانت تطلق عليها. إنها المطهرة لجميع البشر شيوخا ونساء وأطفالا، ملوكا كانوا أم فلاحين، خطائين كانوا أم قديسين. والذين كانوا جميعهم يقفون مستسلمين من دون مقاومة في طريق ذلك الحصان الذي كان يقوده فارس يلبس درعا أسود ويحمل راية معتمة، أما وجهه فقد كانت تغلفه ابتسامة نصر مفزعة، ذلك الوجه الذي لم يكن سوى وجه جمجمة. كانت تلك هي بطاقة الموت. كانت تلك هي الكلمة... وكررت طلبها الآن بنبرة جنائزية...

– اجلبي لي شيئا من بلده.

– شيء مثل ماذا ؟ سألت كاترينا بصوت مرتعش وهي تجلس بخشوع أمام بصارة بياتزا ستاتوتو.

– أي شيء له علاقة بالأرض. قالت البصارة العجوز وهي تدق البطاقة الملعونة على الطاولة...

- 29 -

نظر سي بن هارون إلى تلك الورقة التي كان قد دون عليها رقمه الخاص بخط يده قبل خمس سنوات وقد شعر بدفقة أدرينالين قوية تجتاح كامل بدنه.

– لم يكن يربطني شيء بإلياس. رد على سؤال المحقق وهو يحرص على ضبط نبرة صوته، ثم واصل الآن بهدوء أكبر : « كما أنني لم أعطه هذه الورقة ».

– وكيف تفسر وصولها إلى محفظته إذن ؟ سأل خير الدين وقد بدأ يشعر فعلا الآن بأن سي بن هارون كان يحاول التلاعب بسير التحقيق وهو من لم يكن يُعتبر بالأساس مشتبها حقيقيا في القضية لغياب دوافع معروفة من شأنها أن تدفعه للقيام بهذه الجريمة.

– أنا لم أسلّمه حتما هذه الورقة. قال سي بن هارون وقد ارتجت نبرة صوته. كان آخر ما يرغب به في تلك اللحظات هو إعطاء المحقق أسباب أكثر تؤكد فكرة تورطه بمقتل إلياس، وشعر الآن أنه لا بد أن يتخلى عن الصمت الذي أراده قانونا لحياته حتى يُبعد عنه الشبهات، وتردد قليلا ثم حسم أمره بالكلام.

– بل أعطيتها لخالته...

- خالته ؟ غمغم خير الدين مستغربا وهو يركز نظره على بن هارون الذي بدأ الآن يرف بعينيه بشيء من العصبية...

- ومن هذه الخالة ؟ سأل مساعد المحقق بتشكك كونه يعلم أن إلياس لم يكن له أي أقارب في الجزائر، وأن آخر فرد من عائلة إلياس كان جده علي الذي توفي منذ أيام.

- خالته الإيطالية. رد سي بن هارون وقد رشحت رعشةٌ عن نبرة صوته، لم يُفوت خير الدين التقاطها دون أن يفهم تفسيرها...

خالة إيطالية ؟! وتمتم في قلق وهو يشعر أن القضية قد بدأت تتشعب على نحو مربك...

- 30 -

لم تتردد كاترينا كثيرا قبل خمس سنوات في اتخاذ قرار مرافقة إلياس إلى الجزائر، لحمل والده إلى مثواه الأخير والرجوع بما من شأنه التعجيل في التخلص من ابن أختها الأجنبي.

... ابن أختها !

تمتمت العجوز البييمونتية الأنيقة بأسف ممزوج بالكثير من الاشمئزاز، وهي تتذكر أنها أصبحت غصبا عنها خالة لعربي. والحقيقة أن الخالة التورينية لم تكن تستوعب وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة من زواج أختها مارتينا بالمدعو الطّاهر وتبنيها لولده إلياس أن إفريقيين شماليين قد أصبحا فعلا فردين من عائلتها، عائلة كافاريلو البييمونتية النبيلة. كان ذلك جزءا لا يبدو أنه سيتقشر بسهولة من العائلة حتى بوفاة أختها وزوجها في حادث سيارة على طريق سافونا تورينو قبل خمس سنوات.

وعلى الرغم من أن إلياس قد سافر بعدها إلى الجزائر ورافقته هي من أجل تنفيذ وصية والده الذي أراد أن يُدفن في مسقط رأسه، وهي وصية لم يكن لها أن تسعد أكثر كاترينا التي طالما رفضت في سرها أن يتواجد بينهم هذا الغريب المعتوه وهو حي، لتتحقق أمنيتها في أن يرحل عنهم وهو ميت. إلا أنها كانت تأمل أيضا وبالمناسبة أن يقرر إلياس البقاء في بلده إلى جانب جده الذي كان يقيم وحده

في العاصمة الجزائرية. لقد كانت ترجو أن تكون تلك الرحلة بالنسبة لها مناسبة لتودّع فيها الأب وابنه معا، لكن المشكلة الوحيدة كانت تكمن في أن إلياس لم يصرح بأي نية له في العودة إلى وطنه بعد وفاة والده، فلم يكن أمامها سوى اللجوء إلى خدمات « راكيل التي لا تقرأ لك المستقبل فقط بل تساعد على تغيير مجرى الأقدار لصالحك ». هكذا كانت تقول اللافتة الإعلانية المعلقة على مدخل مكتب العرافة الجنوب أمريكية، وذلك لتعرف كاترينا مصير منزل عائلتها الواقع وسط تورينو في شارع روما الأنيق، والذي ورثته أختها مارتينا بعد وفاة والديهما لتعيش فيه مع زوجها الجزائري الذي لملمته هو وابنه من أحد شوارع مرسيليا في إحدى رحلات الهيبي التي كانت تقوم بها والتي كانت تجلب العار لعائلتها.

لقد كانت مارتينا وكاترينا أختين مختلفتين في كل شيء، ففي حين كانت الأولى متهورة متمردة على التقاليد رافضة لها ولم يكن من الممكن توقع ما قد تقدم عليه، كانت الثانية نموذجا للفتاة الرصينة المحافظة ذات الخطوات المحسوبة بالمسطرة. وهكذا كان حال الأختين حين قررتا الزواج فارتبطت الأولى بمهاجر أجنبي لم يكن قادرا حتى على العمل، بينما درست الثانية قرارها بتعقل ولم تقل نعم سوى لرجل من صفوة المجتمع لم يكن له أن يخرج عن الإطار الذي حددته في ذهنها منذ الصغر. فتزوجت كاترينا بابن أحد قضاة تورينو الكبار، لتصبح لاحقا زوجة أحد أهم وأشهر المحامين في المدينة. وقد كان زواجها ذاك زواج صالونات بامتياز أعاد الهيبة لعائلة كافاريلو بعد أن عبثت بسمعتها أختها البكر بقرار زواجها من أجنبي من شمال إفريقيا.

وعلى الرغم من أن مارتينا تركت فيلا لاكولينا الفخمة والواقعة في أرقى مناطق تورينو لشقيقتها عند اقتسام إرث والدهما لتكتفي هي بشقة فيا روما، إلا أن كاترينا لم تكن راضية عن تحول ذلك العقار التاريخي الذي كان يساوي الملايين إلى مسكن يأوي جرذا أجنبيا كان يعيش كعالة هو وابنه على ظهر أختها.

وارتشفت كاترينا الآن قهوة الإسبريسو في كافي تورينو بعد خروجها من الكنيسة التي كانت تداوم على الذهاب إليها منذ صغرها مع والديها والتي لم تكن تبعد سوى بضع دقائق عن منزل والدها في شارع روما، وهي الكنيسة التي كانت مقصد العديد من عائلات الطبقة المخملية في تورينو، والذين كانو يزورون مكان العبادة المطل على ساحة سان كارلو للتعارف وتوطيد علاقاتهم ببعضهم البعض. والحال أنه لم يكن من الممكن إيجاد مكان أفضل في المدينة من ساحة سان كارلو المعروفة باسم صالون تورينو لحَبك العلاقات الاجتماعية المتنوعة، حيث اعتادت العائلات البييمونتية الالتقاء في الكنيسة عند كل قداس أسبوعي، وكان الجميع يأتي بأبهى حلة استعدادا لعقد صفقة من أي نوع كان في ساحة الكنيسة، لتحظى كاترينا هي الأخرى بصفقة حياتها في هذه الساحة حين تعرفت على زوجها. والواقع أن قنص زوجٍ في ساحة سان كارلو الممتدة على طول 168 متر وعرض 76 متر بمباركة الكنيسة لم يكن بالأمر الصعب، كون الساحة كانت محاطة بالعديد من الكنائس التي كان يؤمها أثرياء المنطقة، فإلى جانب كنيسة سانتا كريستينا التي تزوجت كاترينا أمام مذبحها كانت تنتصب شقيقة توأم لها أيضا هي كنيسة سان كارلو بوروميو[23].

23. La chiesa di San Carlo Borromeo.

ويَعتبر المستشعرون التواجد السخي للكنائس في تلك المنطقة بالذات ضروريا، وذلك للحد من الطاقة السلبية التي كان ينفثها باستمرار المتحف المصري الذي لم يكن يبعد سوى حوالي الثلاثمائة متر عن الساحة، وهو المتحف الأكبر في العالم بعد متحف القاهرة من حيث أنه يضم مومياوات ومقتنيات فرعونية كان أشهرها وأكثرها شؤما من دون منازع كتاب الأموات.

وأخذت الآن كاترينا نفسا عميقا وهي تتذكر وجه بطاقة الموت في مكتب راكيل في ساحة تورينو المشؤومة والتي دفعتها قبل خمس سنوات للقيام برحلتها إلى ذلك المكان المريب. ولازالت تتذكر لحظة دخولها إلى محل سي بن هارون الذي بدا لها سحريا لدرجة أنها قد شعرت بالعمى لدى ولوجها إياه أول مرة، وهو الذي كان يعج بالرموز غير المفهومة والكفوف العجيبة والعيون الزرقاء الشاخصة وصور الرجال الملثمة والتي كانت كلها غريبة عن عالمها. كانت تشعر ذلك اليوم أنها كانت محاصرة في ذلك المكان بتعاويذ كانت تنغرس في عينيها حيثما حط بصرها، وزادت تلك الموسيقى التي كان ينفثها ذلك المذياع القديم من انقباض صدرها. لم تكن تفهم حتما كلمات تلك الأغنية الشعبية، لكنها كانت تشعر أن تلك النوتات الموسيقية التي كانت تزعق في أذنيها أشبه بخناجر تُدق في صدرها...

حراز مطور بالاشكال * وانا نرجع له بالحيال *
صاحب سيدي رحّال
درت عشرة بقطاطي دايرين * وشمعهم مشعولين
والبنادر عشرة متسخنين * وحنايا جدبانين كاملين
وصلنا لباب القصر

نطقوا الارصاد * بداوا كيقولوا تواجب يا حكيم *
خرج حراز الريم
كأن جن مطّور * عينيه كيدوروا في راسه زدت ليه *
سلّمت عليه غفل
قاع ما رد علي شي سلام * قلت في قلبي ولد الحرام

بلعت ريقها والعرق يتصبب من ظهرها، ثم طلبت من صاحب المحل من دون أن تدقق النظر في أي غرض في ذلك المكان لأكثر من خمس ثوان، أشد ما يوحيه محله تمثيلا لأرض الجزائر. فأخذ سي بن هارون يعرض على كاترينا اللوحة تلو الأخرى، والتحفة تلو التحفة، ويتلو لها الشرح تلو الآخر عن كل جزئية وتفصيلة في تلك اللوحات والتحف، بينما كان الهاشمي ڤروابي يواصل هديره بتلك القصيدة التي بدت كلماتها في تلك اللحظات أشبه بموسيقى تصويرية لشريط رعب يبث على المباشر...

جدبت عليه وقلت له * قول مرحبا بأهل الكمال
تعرف سيدي رحّال جدنا * وانتايا جيت لغربنا *
لازم نوريك سرنا...

أما هي فكانت بالكاد تنظر إلى تلك اللوحات، إلى أن اجتمعت أمامها مجموعة معتبرة ارتأت أنه قد يكون فيها ما يفي بالغرض. أخرجت محفظتها الجلدية الأنيقة لدفع ثمن تلك المقتنيات، وحطت عيناها الآن على عيني ذلك التاجر ذي الأنف اليهودي المعقوف والذي بدت ملامح الجشع واضحة عليه وهو يكاد يلتهم بنظراته تلك الأوراق المالية التي كانت تحمل على نحو منفّر صورة رأس ثور قبيح.

فكرت وهي تضع خمسين ورقة من تلك الفئة المالية على طاولة المحل وقد انقبض صدرها من منظر ذلك الثور الذي بدا لها شبيها على نحو غريب بتمثال الإله مولوخ الدموي، وهو الإله السامي الذي يُعتقد أنه كان إلها للفينيقيين إلا أنه كان ينسب تاريخيا إلى ثقافات عديدة في كافة أنحاء الشرق الأوسط منها العمونية والكنعانية بل وأيضا ثقافات بلاد الشام وشمال إفريقيا والضالين من بني إسرائيل حيث ورد ذكره في سفر اللاويين، وسفر أعمال الرسل وسفر الملوك الأول والثاني... مولوخ ذلك الإله ذو النزعة الشريرة الذي لم يكن يرضيه شيء سوى قرابين من الأطفال البكر، والذين كان الفينيقيون القدماء يقدمونهم له في مقابل الحصول على ثروات مادية من مختلف الأنواع. فيتم حرق الأطفال أمام مذبحه كقرابين له بهدف الحصول على رعايته.

تنحنحت كاترينا وهي تنظر إلى الوجه المفزع لذلك الثور الذي اختير من طرف البنك المركزي الجزائري عام 1992 ليعكس البعد الحضاري والثقافي لهذه الدولة كما تفعل جميع الدول عندما تفكر بإخراج عملات جديدة. وتمتمت وهي تبسط كفها الآن على صدرها على نحو جنائزي : « لا عجب في دموية هؤلاء إن كانوا لا يزالون يعبدون الإله مولوخ ويتداولون صوره في عملاتهم ». وتسارعت دقات قلبها وهي تنظر إلى صاحب ذلك الأنف المعقوف والذي اقتنعت بمجرد قراءة ملامحه أنه يهودي جشع، بينما كان هو يعد بلهفة الخمسين ثورا الذين وضعتهم لتوها على طاولته.

والواقع أن التفسير الرسمي لاختيار صورة الثور على عملة الألف دينار الجزائرية يندرج في إطار كونه أحد الحيوانات المرسومة على جدران حظيرة الطاسيلي جنوب الجزائر والتي تعد أكبر متحف

في الهواء الطلق في العالم يعود إلى ما قبل التاريخ، وقد ارتأى البنك المركزي الجزائري أن يستعير صورا منه لإخراج هذه الورقة النقدية، وذلك على الرغم من تشكيك الكثير من الجزائريين في الرموز الواردة في تلك العملة، والتي وجد البعض فيها صلات واضحة بالماسونية العالمية حيث يظهر المدور والكوس وسط الورقة على نحو مموّه، وكذا الهرم وعين حورس وهي جميعها رموز ماسونية. وقد بدا وكأن خالة إلياس كانت تتفق مع أصحاب هذه النظرية بعد أن ربطت مباشرة بين ذلك الثور المتوحش الذي كان يحتل المكان الأبرز في تلك العملة النقدية والإله مولوخ الذي يُرمز إليه برأس الثور والذي ينتصب بشموخ وسط أعلى مبنى في تورينو، لامولي أنتولينيانا[24]. وهو نفس الرأس الذي يرمز للشيطان لوسيفر الذي يُتهم الماسونيون بعبادته، والمعروف باسم حامل النور.

– لكن كيف يمكن إعطاء مثل هذا الاسم لروح شريرة ؟

سألت كاترينا باستغراب الأب أليساندرو الذي كان يشرح لأصدقائه سبب استيائه من وجود مجسّم للإله مولوخ داخل المبنى الذي يعد القبلة الأولى للسواح في تورينوً، وهو المعلم الذي لم تكن صورة قبته تفارق أية بطاقة بريدية للمدينة.

– السبب في ذلك يعود إلى أن كوكب الزهرة هو رمز الشيطان لوسيفر عند الماسونيين، وهو أقرب كوكب إلى الشمس من الأرض. أجاب الأب أليساندرو بتجهم : « ولأنه يظهر من نفس الناحية التي تطل منها الشمس عادة تكون رؤيته من على سطح الأرض ممكنة فقط قبل الشروق أو بعد المغيب بوقت قصير، ولذلك يطلق عليه أحيانا تسمية نجم الصبح أو نجم المساء، وعند ظهوره في تلك

24. La Mole Antonelliana.

الفترة، يكون أسطع جسم مضيء في السماء، ولذلك ارتبط اسمه بالنور. كما أن هذا الشيطان في الواقع ليس إلا تمثيلا للإله مولوخ الذي كانت تلقى في حضنه القرابين البشرية حيث كان يحمل في حضنه موقدا من النار يزيد في تأجج ألسنة لهبها كلما رُمي فيها طفل آخر، تقايضه عائلته بثروات الدنيا، وذهبها وبريقها. فكان بذلك النور الذي يعمي الأبصار، لا النور الإلهي الذي تنقشع منه أسرار الملكوت ».

أجاب الأب أليساندرو، على سؤال كاترينا، وهو يشعر بالمرارة وقد تذكر أن ذلك الثور الوثني، لا يبعد سوى 200 متر عن مبنى كاثوليكي مقدس، تحدى أهميته الدينية والروحانية ومكانته لدى جميع مسيحيي العالم ذلك المتحف الذي يحتضن بصفاقة صنما ملعونا يعد المقابل الفينيقي لعجل السامري الذهبي الذي أمر الله النبي موسى بتحطيمه. ويبدو مصلى الكفن المقدس في تورينو مقارنة بالمبنى الذي يضم هذا الثور وكأنه بناءٌ قزم إذا ما قورن بلامولي أنتونيليانا العملاقة التي يبلغ ارتفاعها 168 مترا. وذلك على الرغم من أن المصلى يحتفظ منذ عام 1578 بما يعتقد البعض أنه كفن المسيح، وهو قطعة من الكتان تظهر عليها صورة لوجه رجل مع بقع من الدم في مناطق مختلفة من جسده وضلوعه يُعتقد أنها تعود فعلا إلى القرن الأول من الميلاد. ويُعرض هذا الكفن على فترات متباعدة للجمهور بكاثدرائية سان جيوفاني باتيستا بتورينو وذلك لحمايته من التلف... كفنٌ مقدس في المدينة كان يبدو وكأن وجود ذلك الصنم الوثني المتربع عمليا على عرش تورينو يجعله يبدو وكأنه يطأ على مقدسات المدينة المسيحية أو في أحسن الأحوال يبصق عليها.

استحضرت كاترينا، وهي تنظر إلى الورقة المالية الجزائرية الأغلى، صورة ذلك الثور الذهبي والذي كانت ترتسم على صدره النجمة السداسية وهي تشعر بالاستياء من كونه يحتل أهم مبنى في مدينتها والذي اشترته بلدية تورينو من أصحابه اليهود الذين لم يتمكنوا من إكمال بنائه حيث كان يفترض أن يكون كنيسا يهوديا، لتحوله البلدية إلى متحف يعد حاليا من أشهر متاحف العالم، وهو المتحف الوطني للسينما.

والحال أن تمثال الإله مولوخ يعد الآن من أبرز مقتنيات ذلك المتحف وهو الذي أُخذ من ديكور فيلم Cabiria الصامت الذي يعد من أشهر أفلام السينما الإيطالية، إلا أن الكثير من المسيحيين المتدينين لا يعتبرون وجوده بريئا في ذلك المكان، بل يعتقدون أن متحف السينما بسببه أصبح لايقل شؤما عن المتحف المصري الموجود في المدينة والذي يحوي تعاويذ ومومياءات ملعونة وكانت تحرسه من على قمته عين حورس الإله الذي أنجبته إيزيس لدى طلوع نجم الشِّعرى اليمانية من كوكبة الكلب للنجوم الساطعة، وهو جرم مقدس في الحضارة المصرية عادة ما يُربط بالإله الكلب أنوبيس الذي كان يُعتقد أنه حارس جهنم وإله الأموات، بالإضافة إلى متحف عالم الإجرام لومبروزو الجنائزي الذي يضم ألف جمجمة ...لومبروزو اليهودي. فكرت كاترينا وهي تتأمل أنف موسيو بن هارون المقوس بينما كان منخرطا في لف اللوحات والمقتنيات لزبونته مواصلا شرح تاريخ كل تلك الرموز والمواد التي صُنعت منها اللوحات التي قام بانتقائها لها بشغف كبير...

تماما مثل هذا الملعون. فكرت كاترينا وهي تحرص على تسجيل كل كلمة كان يقولها سي بن هارون في ذهنها، وتحاول تذكر شروحاتها من أجل مساعدة البصارة راكيل للقيام بالاختيار الأفضل، وانتقاء الغرض الأنسب منها لتمارس عليه طقوسها، دون أن تفهم الشيء الكثير من المعلومات التي كان يقدمها لها ذلك التاجر، لكنها مع ذلك كانت متأكدة أن راكيل ستفهمها. فالوضيعون لهم أدمغة تحسن التخاطب مع بعضها البعض. فكرت وهي تتناول المقتنيات من يده...

- هل يمكنك إعطائي رقم هاتفك في حال ما إذا احتجت للاتصال بك لطلب غرض آخر ؟

- طبعا. ودوّن سي بن هارون رقمه الشخصي على قطعة ورقة وسلمها بزهو للسيدة الإيطالية الأنيقة.

لم يكن سي بن هارون يملك بطاقة عمل لمحله. فهو لم يكن بحاجة إلى إنفاق المال في هكذا أمور وهو المعروف بتيبّس كفه.

- يمكنك الاتصال بي في أي وقت. وسنؤمّن لك جميع طلباتك.

- شكرا. أجابت كاترينا وقد لبست ابتسامتها الرقيقة قبل أن تغادر المحل مع ابن أختها وهي تشعر بالكثير من الارتياح فهي في النهاية لن تضطر لتلويث يديها من أجل طرد هذا الإلياس من منزل والدها، بل سيقوم بذلك وضعاء من أمثال هذا اليهودي، وراكيل البيروفية. فكرت وهي تدس رقم سي بن هارون في جيبها.

وفي المحل كان سي بن هارون يعيد عد المال الذي جناه في ذلك اليوم. وهو يلعق شفتيه بينما أعاد تشغيل أغنية الحراز (الساحر) وهو يشعر بغبطة خاصة...

حراز حكيم من الحجاز * وطلع للغرب على البراز
قاري جردابية ديال رومان الزرق يا فهيم *
وميسر كذا من حكيم * قاري علم التنجيم
كيحقه وسجيع وفرصة * ومعلم في حرب النساء *
ومبلي بالطاسة

- 31 -

– بسم الله الرحمن الرحيم... بسم الله الرحمن الرحيم. همهمت « يمّا مريم » بوجل وهي ترمي بالسكين على الأرض، ثم سحبت بصعوبة رجليها حتى بلغت الجدار وماهي إلا لحظات حتى أُنير الطابق الأول من العمارة. ونظرت إلى إلياس الذي كان يقف كالتمثال وهو يطلق الزفرات تلو الأخرى كأنما خرج لتوه من حلبة مصارعة، أما هي فكانت لا تزال ملتصقة في حركة استسلامية على الجدار ويدها مثبتة على زر الكهرباء بينما عيناها كانتا تتأرجحان بين إلياس الملقى داخل العمارة وسكينها المرشوقة على أرضها.

– « يمّا مريم ». هتف من دون أن يستوعب ما يدور حوله. لكنه على الأقل كان في هذه اللحظات يشعر بالاطمئنان... بل يشعر بالغباء... كانت تلك هي المرة الثانية التي يعيش فيها في ذلك اليوم كابوسا مرعبا من وحي خياله.

– عسلامتك يا وليدي. عسلامتك...

– آسف « يمّا مريم »، واندفع إلياس بحركة غريزية لتفقد يدها التي لابد أنه قد أصابها بشدة لدى محاولة إبعاد السكين عنه. وعاد مباشرة للنظر إلى السكين بشيء من الاستغراب...

– كنت عند سهيلة. قالت وكأنها فهمت قصد عينيه. بنت الزّهرة. وتابعت وهي تلهث : « حملت لها خبز الدار وكعادتي

نسيت وضع السكين جانبا بعد أن قطعته ». وانحنت لتلتقط سكينها من على الأرض وهي تشعر بالإجهاد. ليسبقها إلياس ويتناول السكين وهو يعتذر مجددا...

– « واش عليه يا وليدي، واش عليه ». وتناولت السكين بيدها اليمنى، وأخذت تمسّد خد إلياس بكفها اليسرى وقد تدفقت مسحة من الأسى على تقاسيم وجهها حاولت إخفاءها بكلماتها ودعاوتها الرقيقة لإلياس. « خموس وجبريل على وليدي... خموس وجبريل ».

وعاد صوت أنفاسها الثقيلة يملأ المكان وقد أشاحت بوجهها عن إلياس الآن وهي تشد على صدرها.

– لم أعد أحتمل هذا الطقس الرطب. إنه يزيد من أزمات الربو عندي. قالت وهي تحاول التنفس بشكل عادي : « لم يبق من العمر شيء... وجدك الله يرحمه ». وتناولت الآن طرف خمارها الأبيض لتمسح عينيها بأسى : « يا حسرة... ». ثم رفعت رأسها للمصباح الذي تحولت حوافه إلى منازل للعنكبوت : « اعتقدت أنك من سكان العمارة عندما لم تشعل المصباح، فنحن نعرف طريق منازلنا في العتمة ». وابتسمت الآن وهي تشد طرفي خمارها متفادية على نحو احترافي ملامسة السكين لوجهها.

نظر إلياس إلى « يمّا مريم » وهو يشعر بالارتباك، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يتبع خطواتها بعدما أشارت إليه بإيماءة خفيفة من رأسها للمشي وراءها. ومع أن « يمّا مريم » كانت تبدو متماسكة على نحو ما في تلك اللحظة فهي لم تكن توحي يوما بالضعف بالرغم من وهن جسمها، إلا أنها كانت تظهر حتما الآن وكأنها مضطربة. ولابد أنها كانت تشعر ببقايا الذعر من هجوم إلياس

في الظلمة عليها، عدا أنه كان من الواضح أنها تكابد الشعور بالأسى لفقد جارها الذي ذكّرها به قدوم إلياس والذي لم تتسن لها بعد فرصة التعبير بالسعادة لرؤيته مجددا بعد خمس سنوات من الغياب، وهو الذي لم يكن يتوقع فيها أحد عودته خصوصا أنه كان قد حمل في تلك الزيارة جثمان والده الذي أوصى بدفنه في الجزائر وهو من قضى أكثر من نصف عمره في إيطاليا. وبعد تلك الزيارة الجنائزية لم يعد إلياس مجددا لوطنه الأم، واكتفى بإرسال تذاكر السفر لجده من أجل زيارته في تورينو. أما هو فلم يكن يرغب بشكل واضح في العودة إلى المكان الذي ترك فيه جسد والده إلى الأبد... والده الذي حرص على أن يحتفظ بروحه في تورينو داخل إحدى اللوحات التي جمعته على نحو غريب مع والدته مارتينا، أمّه الإيطالية بالتبني، وليس والدته الجزائرية البيولوجية التي لم يعرفها يوما وهي التي توفيت قبل أن يتم بعد عامه الأول. لكنه مع ذلك كان يحتفظ برسم روحي لها كان يزين به غرفته. لوحةٌ بقيت على نحو خاص وحيدة حتى بعد وفاة والديه معا في حادث سيارة وقرر إلياس أن يرسم صورتهما الروحية بعد ذلك بثلاث سنوات، لكنه ارتأى إبقاء لوحة أمه البيولوجية معلقة على جدار معزول من غرفة نومه بعيدا عن كل اللوحات الأخرى، ولم يعرف السبب من وراء ذلك. إلا أن إلياس وحتى لدى اختياره لمكان تعليق لوحاته لم يكن يعتمد على القواعد الجمالية التقليدية للديكور الداخلي في ذلك، لكنه كان يتبع إحساس لوحاته في أن تلتقي ببعضها البعض في ذات المكان أو تنفصل، وقد كان عادة ما يمضي فترة طويلة لدى التحضير لمعارضه في اختيار أماكن تعليقها، وكان يعتبر تلك الفترة أشبه بفترة الرسم ذاتها. وهو ما جعله يحمل صيت صاحب

أكثر الفنانين مزاجية في أوروبا عن جدارة. وقد تطلب آخر معارضه في برشلونة منه فترة الشهرين لتحديد موقع التقاء الأرواح/اللوحات أو افتراقها. فعلق بعض اللوحات على الجدار بملامسة الأرض. وأخرى علقها بملامسة السقف. أما أغرب روحين/لوحتين فقد كانتا تلكما اللتان اختار لأحديها مكانا في السقف والأخرى ثبتها على الأرض. وكان رواد المعرض يضطرون للجلوس على الأرض على سجادات صغيرة من أجل تأمل اللوحات الملامسة للأرض، أو الصعود على السلالم التي تم تجهيز القاعة بها لتأمل اللوحات الملامسة للسقف. أما اللوحة المثبتة على السقف فقد تركها بعيدة عن الزوار بمسافة مترين وقد كانت محشورة في الزاوية الداخلية لأحد الجدران، وأما المثبتة على الأرض فقد كانت مغروسة عمليا وسط القاعة وقد كانت مغطاة بعلبة زجاجية، وأتت باللونين الأبيض والأسود فقط من دون أي لون آخر معها، ولم يفصح إلياس لأحد لحد الآن عن مصدر إلهامه في تلك اللوحة ولا مكان عرضها. كان ذلك معرضا فنيا نادرا، لا يتكرر كل عام. وقد وصفته الصحافة الإسبانية بأن الولوج إليه كان أشبه بولوج « المطهر » في العرف الكاثوليكي.

وهكذا وحتى داخل منزله لم يكن ترتيب إلياس للوحاته يأتي جزافيا البتة، وهو المكان الذي لم يكن يحتفظ فيه سوى بلوحات الأرواح العائلية. وقد كانت لوحة روح أمه التمثيلية تتربع على الجدار المقابل لسريره في غرفة النوم في مشهدية دراماتيكية حيث تصطدم الروح الحداثية للوحة ولونها الأخضر الهلامي بالروح الكلاسيكية والتفاصيل الجدية للغرفة، لكنه لم يكن يبالي بعبثية المشهد، وعدم انسجام المدرستين الفنيتين لمنزل يعود إلى القرن

السابع عشر ولوحته المعاصرة تلك البتة، فقد كان يريدها في غرفة نومه بالذات ومقابل سريره بالذات، وكأنه كان يقصد مشاهدة ذلك الصراع بين اللوحة الدخيلة على المنزل وأثاثه كل يوم. ولم يكن لأي لوحة أخرى أن تتربع على ذلك المكان أو تزاحمه فيه، وإن كان لأي لوحة أخرى أن ترافقها فكان لابد أن تكون لوحة روحه هو...

هذه الكسرة صنعتها البارحة. قالت « يمّا مريم » وهي تضع سلة الخبز على الطاولة وهي تشعر بالإحراج. لكن هذا المطلوع خبزته اليوم. وانصب الآن شيء من الشعور بالثقة إلى صوتها. ثم قامت بسكب كيس اللبن الذي كانت تطفو عليه ثلاث قطع من الزبدة في الإناء الزجاجي، وهي تتابع حديثها مع إلياس بنبرة تشبه التبرير : « البارحة لم أفهم من ردك على الهاتف تماما أنك تنوي القدوم. » وكحت بصوت لا يكاد يكون مسموعا وكأنها فقدت فجأة قدرتها على الكلام لسبب غير واضح، وأردفت : « لم أحضّر شيئا يليق بك... ولكن في هذا الحر لا يوجد أفضل من الكسرة واللبن... ». وتابعت « يمّا مريم » وهي تشعر بالإحراج من الطاولة المتواضعة التي أعدتها لضيفها الذي كان ينظر إليها بارتباك، وهو الذي لم يدرِ كيف انتهى إلى داخل منزل « يمّا مريم »، مع أنه كان يمنّي نفسه منذ الصباح بالارتماء على السرير بمجرد وصوله إلى المنزل ليجد الآن نفسه يؤدي زيارة غير مبرمجة.

– لا، لا تزعجي نفسك. ورد بصوت خافت بلغة فرنسية خجلة : « فأنا في الواقع لا آكل في هذا الوقت... ».

ولم يكن إلياس من بين مختلف الأمور التي لا يفهم مبرر حصولها في كل مرة كان يزور فيها الجزائر، سبب إصرار الجميع

على مخاطبته باللغة الفرنسية لمجرد أنه « إيميغري » على الرغم من أن والدته مارتينا كانت قد حرصت منذ صغره على تسجيله في مدرسة يتعلم فيها اللغة العربية وكان الجميع على علم بذلك، وذلك حتى يتمكن من التخاطب مع أهله من دون مشاكل ولكي لا يشعر بالغربة في وطنه كما كانت تعتقد. ولكنه لا يزال يتذكر أنه لم يتمكن يوما من التكلم بالعربية يوما في وطنه ولا حتى مع جده، الذي كان يرتاح للحديث معه باللغة الفرنسية مثله مثل « يمّا مريم » التي لم تكن تنطق معه بالعربية إلا لتتمتم مستغفرة الله أو لتغرقه بدعواتها. أما والده فكان يعاني المرض ولا يذكر أنه خاض معه يوما حديثا « عاقلا » لأكثر من خمس دقائق.

وقد كان الطاهر والد إلياس رجلا هادئا بطبعه لا يكاد تُسمع له كلمة في البيت، إلا أن مرضه جعل حالة هدوئه تأخذ شكلا مسرحيا لدرجة كان يبدو فيها تارة كالتمثال لا يتحرك فيها لساعات، وتارة أخرى كالشبح يتجول في أنحاء المنزل دون إحداث أي ضجة، وأحيانا كشخصية اجتماعية من الطراز الرفيع تكون فيها طريقة كلامه أشبه بالصقليين، وأحيانا أخرى كشخص متعجرف يخاطب من حوله من طرف أنفه كفرنسي اشترت عائلته لنفسها منذ بضع عقود فقط لقب نبالة.

وكان الطاهر قد تعرف على زوجته الإيطالية مارتينا في مارسيليا، خلال رحلة هيبي حملتها مع أصدقائها إلى الجنوب الفرنسي قبل حوالي الأسبوع من احتفالات عيد الميلاد، حيث لم تكن ترغب في تمضية فترة هذه الأعياد المملة حتما مع العائلة، وفضلت الفرار إلى جنوب فرنسا لتنعم بشتاء أدفأ تحتفل به مع الأصدقاء بالتحرر من قيود التقاليد البالية. بينما الطاهر في هذا الوقت كان مهاجرا يقيم منذ حوالي السنتين في فرنسا ولم يكن قد

مضى على وصول زوجته مع ابنه الذي ولد في الجزائر ولم يكن قد أكمل عامه الأول سوى بضعة أشهر فقط.

وقد كان المهاجرون الجزائريون يتمتعون إلى غاية نهاية الستينات بوضع تفضيلي مقارنة بغيرهم من الجنسيات فيما يتعلق بشروط الإقامة في فرنسا. الأمر الذي كان يغري الجزائريين بالهجرة إلى الضفة الأخرى. إلا وأنه في بداية السبعينات بدأ الشعور باللاأمن يسيطر على الأوساط الجزائرية المهاجرة بفرنسا، خصوصا مع تنامي العنصرية ضدهم والتي كانت تقودها المنظمة السرية OAS التي كانت تحن إلى الجزائر الفرنسية والتي على الرغم من كونها محظورة إلا أنها كانت تحظى بشعبية بين أوساط اليمين المتطرف. إذ عمدت هذه المنظمة السرية إلى تنظيم عمليات إرهابية ضد المهاجرين راح ضحيتها عشرات الجزائريين المقيمين في فرنسا بين عامي 71 و77، وكانت إحداها عملية نظمها نادي « شارل مارتيل » الإرهابي أمام القنصلية الجزائرية في 14 ديسمبر 1973، والتي كان من بين ضحاياها زوجة عامل لم يكن قد مضى على قدومها إلى فرنسا هي وابنها إلياس سوى بضعة أشهر فقط.

في اليوم الموالي من هذه الحادثة قامت مظاهرات في مدن فرنسية مختلفة منها باريس، ليون، وبوردو... وقد كانت مارتينا وزملاؤها الهيبيون من بين المتظاهرين المندّدين بالهجوم، لتلتقي مارتينا لأول مرة بإلياس بين أحضان والده في تلك المظاهرة المناهضة للعنصرية ضد العرب، ولينطق بعدها ذلك الصبي، وبعد بضعة أشهر كلمة « ماما » مناديا مارتينا.

لم يعرف إلياس يوما بحيثيات وفاة والدته الجزائرية سوى من جده. لكنه حتى قبل ذلك كان يعلم أن والدته البيولوجية لم تحظ

بميتة جيدة، ذلك لأن مارتينا لم تحدثه يوما عن كيفية رحيل أمه، مع أنها لم تكن تعاني من مشاكل مع الموت. وهي التي كانت تزور بشكل أسبوعي والديها في « المقبرة الصّرح[25] » بكورسو نوفارا في تورينو دون أن تشعر بالوحشة وهي تتأمل الصور المبتسمة لأفراد عائلتها داخل المقبرة، والذين فقدتهم جميعهم في السنوات الأخيرة ولم يبق منهم سوى شقيقتها كاترينا.

- عندما أموت أود أن ينثر غباري على تربة تنمو عليها هذه الشجرة. وأشارت إلى شجرة كانت تنتصب أمام ضريح والدتها في تلك المقبرة التي كانت أشبه بالمتحف الفني وواصلت : « أود أن أكون بعد وفاتي سمادا لهذه النبتة ». كانت تلك هي أمنية مارتينا عند وفاتها، إذ أنها لم تكن ترغب أن يبنى لها ضريح ضخم ومزخرف مثل أضرحة والديها وبقية أفراد عائلتها.

وعلى الرغم من أن مارتينا لم ترزق بأطفال من صُلبها، إلا أنها كانت تملك قدرة خاصة على بث الحياة في كل ما يحيط بها. وقد كانت مسألة أنها لم تتحدث يوما عن كيفية فقد والدة إلياس تعني أنها كانت حادثة لا بصيص فيها للحياة ولا خير في استحضارها. لقد كان ذلك هو مبدأ مارتينا، فهي فضلا عن أنها لم تكن تتحدث عن أحد بسوء فهي لم تكن تتحدث عن السوء نفسه. بل لم تكن تراه، ولم تكن مستعدة لجعله جزءا من أفكارها، وحتى أنها كانت تغبط زوجها الطاهر ممازحة إياه على مرضه الذي كان من أعراضه مسح الذكريات المزعجة. وعلى الرغم من أن مرض تعدد الشخصية الفصامي الذي كان يعاني منه والد إلياس، يعدّ مرضا مزعجا للمحيطين بالمصابين به، إلا أن مارتينا

25. Cimitero Monumentale.

لم تظهر يوما تذمرها من حالة زوجها، وقد يكون عملها مع الأطفال المعاقين كموجهة اجتماعية منحها قدرة على التعايش مع مختلف الحالات الإنسانية المستعصية، بل والتعلق بأصحابها وإيجاد سبب آخر لجعلهم جزءا من حياتها التي خصصت قدرا كبيرا منها للعمل الإنساني التطوعي.

تناول إلياس قضمة من الكسرة وأعقبها رشفة من اللبن البارد الذي كانت « يمّا مريم » قد سكبت له كأسا منه وقد شعر بالحياة تدب في أوصاله فتذكر على نحو غريزي أمه مارتينا...

- تذوق خبز الدار هذا أيضا. ووضعت « يمّا مريم » الخبزة الذهبية الطازجة المزينة بالسانوج التي حضرتها هذه الصبيحة وقد ابتهجت برؤية علامات الرضا على وجه ضيفها.

كان إلياس سعيدا بالأنواع المختلفة للخبز التي لم يرها يوما على رفوف المخابز في الجزائر والتي كانت تعج بها طاولة « يمّا مريم » على الرغم من الإحراج الذي كان باديا على وجهها، ذلك أن الضيافة في المفهوم الجزائري كانت دوما تعني تقديم أطباق اللحوم، ولذلك لم يتسن لإلياس التعرف على الكثير من الأكلات المحلية ولا إيجادها على أية لائحة من المطاعم الشعبية أو الراقية في أنحاء الجزائر حيث كان تناول الخبز بكثرة ومشتقات الحبوب من العجائن وأنواع الحبوب والبقول المختلفة دليلا على الفقر... فقرٌ لم يكن من اللائق إظهاره للضيوف ولا عرضه على لوائح المطاعم. وهو تصرف لم يكن يفهمه إلياس من أصحاب المحلات الذين كانوا يفضلون على نحو يدعو للاستغراب عرض قائمة طعام محدودة أو مستوردة، على تضمين أنواع طعام جزائرية تتسم بالبساطة والتي يبدو لسبب أو لآخر أنها تشكل مصدر خجل لشعب يفضل أن يكون آكلا

للحوم، فأصبحت أغلب مطاعمه تحمل على نحو مثير للسخرية اسما واحدا يعوزه الخيال هو le Roi du Poulet للمفرنسين أو ملك الشواء للمعربين. وذلك بدل الاستثمار في وصفات شعبية تغازل حلاوة الطبيعة كوصفة البامتوكات[26] الكتالونية التي لا يخلو منها أي مطعم برشلوني والتي لا تكتمل حتما أي زيارة لإسبانيا من دون تناولها، وهي ليست سوى قطعة خبز تهرس عليها حبة طماطم طازجة مع رشة ملح يمرر عليها خيط من زيت الزيتون ليكتمل معه الطعم المتوسطي الرشيق وقد يُفرم عليها أيضا القليل من الثوم إيغالا في التلذذ بنكهات الأرض.

تذكر إلياس أكلته البرشلونية المفضلة وهو يحاول التلصص على طعم السانوج الممتزج بخبز الدار الذي أراد من خلاله أن يشعر بنكهة أرضه إلا أنه ولسبب ما شعر أنه غير قادر على استطعامها مع أنه كان يشعر بطعم كاتالونيا وهو يتناول البام توماكات، ونكهة بوليا وهو يتناول الفريزيلي[27]، إلا أنه لم يكن قادرا على عيش لحظة الخبز في تلك الآونة وقد يكون السبب هو وجه « يمّا مريم » الذي كان يطالعه بارتباك. وعبَر ذهن إلياس الآن فكرة أنها تدرك وجود خطب ما في هذه الوجبة التي تكتسي أهميتها الإنسانية، وبعدها الحضاري من أبرز مقاديرها وهو القمح : ذلك المنتوج الذي لا يرمز لبدء صفحة جديدة من تاريخ الحضارة البشرية فحسب، بل الذي ارتبطت زراعته بأفكار دينية حميمة في جميع المجتمعات مما جعله مرادفا للحياة، وجعله بذرة مقدسة لا تمنح فحسب قوتا للإنسان مع كل موسم حصاد، بل خلقت نوعا من التلاحم الصوفي بينه وبين عالم النبات، ليكتشف الإنسان أن القمح يحمل في دورة حياته

26. El pa amb tomàquet.
27. Friselle.

لغز الحياة والموت. ويقرر الإنسان بعد اكتشاف زراعته طرح القيم الحيوانية التي كانت تطغى على حياته وطقوسه اليومية، ليتبنى نمطا آخر في الحياة نشأت عنه مؤسسات اجتماعية واقتصادية خلقها واقع الزراعة ليصبح القمح أول عملة متداولة بين البشر. عملة الحياة القائمة دورتها على التجدد الدائم. فلا أحد يقتل أحد ليتغذى على جثته، بل يحرث ويعتني بالزرع ويحصد ليتغذى على بذرة يعود لزرعها والاعتناء بها وانتظار وقت حصادها. وهكذا دواليك تعلم الإنسان التعايش بسلام مع مكونات محيطه. سلام لم يكن إلياس يشعر دوما به في مسقط رأسه. والواقع أن إلياس قد شعر للمرة الأولى بالاستياء من ظاهرة النفور من منتجات الأرض في بلده بل وحتى احتقارها، عندما أخرجت « يمّا مريم » قبل خمس سنوات جفنة كسكسي صدقة على روح والده حملها إلياس بنفسه إلى مسجد الحي، ليتفاجأ مساءً لدى عودته لاسترجاع الجفنة ببقاء الكسكسي تقريبا على حاله واختفاء قطع اللحم التي كانت تزين وجهه. وفي المقابل كان « الطْعام » متناثرا على سجاد المسجد وبدا وكأنه تعرض لحادث اغتصابٍ بالأيدي من بشر قرروا نهش اللحوم والدوس على الحبوب... من بشر قرروا العودة بالإنسان إلى عصر ما قبل الزراعة للتغذي على اللحوم الحمراء فقط. وكأنهم يريدون العودة إلى عصر كانت القيم الحيوانية فيه هي السائدة.

واقشعر بدن إلياس للفكرة التي عبرت ذهنه. وتناول شطر كسرة ثانية وأخذ يقلبها بين يديه ويتأملها كأنما كان في حضرة قطعة فنية كان يحاورها بين أصابعه ويغازل بنظراته الخطوط المحززة الموشومة على وجهها النحيل الذي كانت تتدرج ألوانه على نحو متجانس يحاكي دوائر الطاجين الذي خُبزت عليه بالألوان البرتقالي الغامق

والبني الفاتح والأصفر الذهبي. كان ذلك نوعا من الخبز لم يسبق له مشاهدته في المخابز وقد يكون ذلك هو خبز الرخساس الذي يُصنع منه الزفيطي ولم يسبق له تذوقه، لكنه سمع عنه من صديقة إيطالية كانت تعد كتابا عن الأدوات التقليدية المستخدمة في الطبخ في إفريقيا، ومنها المهراس، الذي كان يُدق بواسطته خبز غير مخمّر مصنوع من الدقيق والماء فقط لتعد به هذه الوصفة...

– هل هذا هو الرخساس ؟ سأل إلياس وهو يقلب الخبزة بين يديه.

نظرت « يمّا مريم » إلى إلياس باستغراب وكأنها لم تكن تتوقع منه هكذا سؤال...

– نحن نسميه الكسرة. وقد يُطلق عليها اسم الفطير في بعض المناطق، أو الرخساس... لكن من أين عرف...

– من الغريب أننا لا نجد هذه الأنواع في المخبزات. قال إلياس دون أن ينتبه أنه قاطع كلام « يمّا مريم » فقد كان يعيش حالة تشبه الانتشاء في حضرة أنواع الخبز المختلفة التي كانت على المائدة. وواصل : « لايبدو لي أنني شاهدت خبزا مدورا في المخبزات، فهي لا تعرض إلا الباغيت... »

– في الواقع. هناك من يصنع خبزا مدورا بكميات قليلة لكنه غير تقليدي، عجينة عادية مخمّرة بضعف سعر الباغيت لمجرد أنها مدورة. لكن الخبز التقليدي هو حتما غائب في المخبزات... وبنات اليوم يا حسرة، لا يحسنّ في أغلبهن الخبز... لا يعرفن شيئا، ولا يفكرن سوى في الماكياج... وهاديك اللبسة... ربي يبقي الستر ! حنا بكري كيفاش كنا نعجنو... بصح بنات اليوم... يا لطيف ! كل وا...

ولسبب ما شعر إلياس بأنه يعيد سماع ذلك الشريط الذي اغتصب أذنيه صبيحة ذلك اليوم وكأنه قد تلبّس حبال « يمّا مريم » الصوتية، وهي التي لم يكن يبدو أنها تعترض على كون سائقٍ مثل الذي اصطحبه من المطار ذلك اليوم قد امتهن السرقة المقنّعة بدل حرث الأرض مثلا لكنها كانت تعترض على عدم خبز الفتيات لقمحٍ لا يحسن رجالهم بالأصل بذره...

« وزيد بالزيادة، كل واحدة تشرّط الدار وحدها كي يجيو يخطبوها... ودوكا راهم يتزوجو بالشناوة مصفارات الوجه... خلاص راحت الحشمة ! ».

وتوقع إلياس الآن من « يمّا مريم » التي انطلقت بالحديث بلهجة جزائرية عفوية، أن تعبّر عن استيائها من العرض الفاضح لقضبان الخبز الفرنسية في جميع المخبزات، وحشرها رجالا ونساء، في جميع الوجبات والتلذذ بها في المنازل الجزائرية. وعاد ليتذكر بأن « يمّا مريم » لا تمانع من خَبز وعجن ودعك ودلك خُبز يُصنع من دقيق مستورد على أي حال. غريب مع أن البذرة في النهاية هي الأساس ! فكر بتعجب بينما وضعت « يمّا مريم » أمامه الآن حبتين من الخفاف وهو خبز مقلي خاص يؤخذ عادة مع قهوة الصباح أو المساء. لكنها عمدت على تقديمه له بعد أن لاحظت في عينيه الاهتمام بالمخبوزات. « هذا في الواقع لم أحضّره بنفسي بل أرسلته لي جارتنا، بعد أن رُزق ابنها بطفل منذ يومين... في منطقتهم يحضرون « الخفاف » في هذه المناسبة ».

– وهل يوجد أنواع معينة من الخبز تحضّر لمناسبات أخرى أيضا ؟ سأل إلياس بفضول وهو يفكر في مدى ارتباط الخبز حضاريا برمزية الخصوبة، ففي سيراكوزا بصقلية وخلال مهرجانات الخصوبة التي

تعود إلى العهد الإغريقي والتي كان يتم فيها الاحتفاء بالإلهة ديميترا، إلهة النبات والزراعة والزواج والحياة والتي يشار إليها بـ « أمنا الأرض » كانت النساء على نحو خاص يقمن بتحضير نوع من الخبز هو الميللوي[28] يأخذ شكل الأعضاء التناسلية الأنثوية ويزين بالسمسم والعسل لربط خصوبة الأرض بالمرأة.

والواقع أن رمزية جسد المرأة الذي تخرج منه الحياة متواجدة بقوة في مختلف أنواع الخبز بل والمسميات التي تطلق عليه في الكثير من اللغات، فباللغة الفرنسية كلمة miche تستخدم لنوع مدوّر من الخبز وهي تعني أيضا ثدي المرأة، وفي اللغة الإنجليزية buns تعني نوعا من الخبز المدور ولكنها تعني أيضا باللغة العامية مؤخرة المرأة. تماما كما أن brotleib بالألمانية تشير إلى الخبز لكنها قد تعني أيضا جسد المرأة.

– هناك الْبراج. وهي كسرة بالتمر تأتي على شكل معيّنات. قالت يما مريم بهدوء مستطردة. « وهي تحضّر في جميع مناطق الريف عادة لاستقبال الربيع... ».

وابتسم إلياس الآن وهو يفكر في خبز الميللوي السيراكوزي الذي يُحتفل به أيضا في الربيع وقد كان هو الآخر يأخذ شكل المعيّن. ونظر لـ « خفاف » الذي بدا له ذا رمزية تفصيلية لا تخلو من صراحة، وقد أعجبه شكله الدائري والشق الظريف الذي كان يتوسطه مستغربا في الوقت عينه من عدم وجود أنواع من الخبز الجزائرية تأخذ أشكال طويلة.

---

28. Mylloi.

– ألا يوجد خبز تقليدي على شكل قضبان ؟ سأل إلياس « يمّا مريم » وهو يفكر في أنواع الغريسيني[29] المختلفة الموجودة في إيطاليا وهو خبز جاف يعود أصله إلى تورينو ويصنع على شكل أعواد تأتي بنكهة حيادية أو بنكهة البصل أو الزيتون وغيرها...

– لا يا بني. قالت « يمّا مريم » الآن بنبرة واثقة : « الخبز الوحيد عندنا الذي يأتي على شكل قضبان هو الباغيت ». قالت وهي تعدل خمارها : « وأنت تعلم أنه فرنسي ». وتابعت منظفة حلقها : « كما أنك قد تجد في بعض المخبزات أيضا الفيسيل[30] أو الباتار[31] ». قالت « يمّا مريم » مستعرضة ثقافتها في أنواع الخبز الفرنسية ذات الأشكال الطويلة والتي لا تَعرض المخبزات الجزائرية غيرها. وسرعان ما عادت في تلك اللحظة إلى ذهن إلياس صورة رغيف الباغيت أو الباتار (ابن الحرام) لم يعد يذكر. والذي رآه اليوم قابعا أمام عجوز سلم الأموات. لقد كانت تلك العجوز تبدو مشمئزة من تلك الخبزة بل شبه مذعورة. وتأمل إلياس « يمّا مريم » متسائلا إن كانت تلك المرأة التي كانت تخفي وجهها بالحايك تشترك معها في ملامح وجهها المتوسطية أم أنها كانت تحمل وجها آخر. من كان يدري إن كانت تلك امرأة بيضاء أم سمراء، أو ربما صهباء. وسرعان ما أعادته هذه الفكرة وألوانها إلى سبب قدومه إلى الجزائر. وتذكر بشيء من الذنب صديقه إيرمانو الذي لم تعجبه يوما فكرة قدومه للبحث عن هذه المرأة، وهو الذي لم يكلمه منذ أن وصل مع أنه وعده بذلك في رسالة نصية، وسرعان ما تذكر وكأن الإلهام قد هطل فجأة على رأسه...

29. Grissini.
30. Ficelle.
31. Bâtard.

الخامسة...

فكر إلياس وهو الذي كان يعلم أن شغف إيرمانو بالأيدي لم يكن يقتصر مثلما هو الحال مع بقية أحفاد رومولوس وريموس على استخدامها في محادثاتهم اليومية إلى درجة جعلت علماء الأنثربولوجيا يخلصون إلى أن الإيطاليين لا يمكنهم التخاطب على نحو فعال دون استخدام أيديهم في الكلام. فاهتمام إيرمانو بالأيدي كان يتجاوز بكثير تقدير أي إيطالي آخر لهذا الجزء من جسد الإنسان الذي كان يعطي نكهة خاصة للكلام... لقد كان إيرمانو عاشقا لها، لقد كان دارسا لها.

لا يوجد أحد غيره يمكنه أن يساعدني على كشف سر تلك الكف ! وفكر مجدّدا في ختم الجمهورية.

- 32 -

اتخذ أستاذ الفن المقدس في أكاديمية ألبيرتينا بتورينو، إيرمانو بيرغونزي، مجلسا على إحدى الطاولات من أمام فترينة كافي مولاسانو[32] في تورينو، وهو محل تاريخي لم تكن تتجاوز مساحته الواحد وثلاثين مترا مربعا، إلا أنه طالما شكل قبلةً لفناني المدينة الباحثين من داخله على الإلهام.

وقد كان المحل الذي يقع تحت أقواس ساحة كاستيلو الساحة الأشد بياضا في تورينو يتوسط نفق سوبالبينا ومسرح ريجيو، ليصبح منذ افتتاحه في السنوات الأولى من القرن العشرين ملتقى فناني مسرح ريجيو المجاور، ويتحول بعدها بسنوات إلى قبلة كان يؤمها المخرجون، والممثلون والمطربون في تورينو من أمثال جيجتا مورانو[33]، وغويدو غوتزانو[34]. بالإضافة إلى الممثل الشهير إيرمينيو ماكاريو[35] والذي كان طيلة فترة إقامته في تورينو يحضر بشكل يومي كل ظهيرة إلى كافيه مولاسانو لتناول مشروب الفيرماوث من أمام فترينة المحل ويراقب من مكانه من كان يمر بساحة كاستيلو من رجال أعمال وموظفين وفناني شوارع، ليستوحي الكثير من

32. Caffè Mulassano.
33. Gigetta Morano.
34. Guido Gozzano.
35. Erminio Macario.

شخصياته الهزلية من خلال مشاهداته في المقهى العريق. أما بالنسبة لإيرمانو الذي لم يكن متعلقا بالمسرح بشكل خاص، فمواظبته على القدوم إلى هذا البار بالتحديد في أوقات الضحى كان يعود إلى شغفه الخاص بالأيادي وما كان يمكن أن تصنعه من عجائب. وابتسم الآن للفكرة وهو يشكر النادل الأنيق الذي وضع أمامه وجبة الترامیزینو[36] الخفيفة المفضلة لديه والتي يتناولها ملايين الإيطاليين كل يوم، وقد تم اختراعها في هذا المحل بالتحديد عام 1926 على يد أنجيلا ديميكيليس نيبيولو[37]، ليعطي التسمية لهذا الطبق بعد سنوات الكاتب الإيطالي غابرييلي دانونتسيو[38].

فتح إيرمانو حاسوبه المحمول وهو يشعر بالفضول للاطلاع على أسرار بلد صديقه مع أنه لم يفكر سابقا في زيارته بالرغم من صداقته الطويلة لإلياس الذي لم يكن يحدثه عن مسقط رأسه، ربما لأنه هو شخصيا لم يكن يعرف الشيء الكثير عنه على الرغم من زياراته المتكررة له في صغره. ولكن يبدو أن فكرة زيارة الجزائر قد بدأت فعلا تطرق ذهن إيرمانو الآن، وقد لفتت تلك الخرائط الماسونية التي شاهدها اهتمامه بهذا البلد الذي يبدو أنه يخفي الكثير من الأسرار. ونقر إيرمانو اسم مطار الجزائر هواري بومدين وكتب إلى جانبه لفظ الماسونية من أجل أن تعود تلك الصور التي شاهدها قبل قليل على هاتفه الذكي، لكنه تفاجأ بموضوع لا يتعلق بتصميم المطار الماسوني الذي كان يأمل أن يجد له شرحا ما، بل بعلاقة الرئيس الجزائري نفسه الذي أعطي اسمه للمطار بالماسونية، وذلك على موقع مرصد الماسونيين الأحرار الذي كان ينشر بستة لغات أوروبية منها الإيطالية، ليبدأ القراءة باهتمام :

---

36. Tramezzino.
37. Angela Demichelis Nebiolo.
38. Gabriele D'Annunzio.

لم تقتصر علاقة برونو إيتيان[39] الأستاذ الجامعي الماسوني وصاحب كتاب « طريق للغرب : الماسونية القادمة[40] » بالأمير عبد القادر بذلك اللقاء الفكري فقط، بل قام بمساعدة الحكومات الجزائرية الأولى بأفكاره أيضا بعد الاستقلال. حيث كان إيتيان يؤمن فعلا بالثورة الاشتراكية التي بدأها بن بلة وواصلها بعده بومدين. ليضع مؤلفا آخر من بين مؤلفاته الكثيرة بعنوان « الجزائر قائدة دفة دول العالم الثالث [41] ». إلا أن هذه المقاربة الثورية التي كانت تلائم سنوات الستينات، لم تكن أسلسَ لقائه مع الأمير [...]

والآن أقفل إيرمانو الصفحة التي يبدو أنها لم تكن تعنيه في شيء وشرع في البحث في خانة الصور، وهو يأخذ قضمة من الترامزينو مع الكمأ والبانياكاودا[42]، والتي كانت الحشوة المفضلة لديه من بين الثلاثين صنفا من حشوات الترامزينو التي كان يقترحها المحل، وهو نفسه الصنف الذي كان يفضله إلياس. ليتنهد إيرمانو وهو يفكر بصديقه الجزائري الغائب والذي لم يكن يختلف في ذوقه في الطعام بشيء عن التورينيين، حتى أنه كان يحب البانياكاودا بثوم زائد مثله مثل أي بييمونتي أصيل.

ولكن يبدو أن هناك شيئا أقوى يجمع بيننا. غمغم الآن وهو يقلب صور غوغل الجوية لمطار هواري بومدين وغيرها من المنشآت في الجزائر التي كان الموقع الذي نشر صورها يوضح علاقتها بالرموز الماسونية. وها هو ينظر إلى رمزٍ في أحد هذه المعالم لفت نظره بشكل خاص، لينقر مباشرة على الصورة وهو يشعر بالحماس الممزوج

39. Bruno Étienne.
40. Une voie pour l'Occident : La Franc-Maçonnerie à venir, 2001.
41. L'Algérie comme montreur de conduite du tiers-monde, 1977.
42. La bagna cauda.

بفضول من نوع غرائبي خاص. كبّر إيرمانو الصورة التي تُظهر لقطة جوية لجامعة سعد دحلب بمدينة البليدة حيث كانت المنشأة تُظهر بشكل واضح نجمة خماسية وسط دائرة وهو رمز ماسوني شهير بدأ كرمز ديني قديم لينتشر كعنصر تزييني لاحقا ارتبط بالرتب العسكرية. وعلى الرغم من أن أصله لم يكن معروفا تماما لكنه يعد من دون أدنى مجال للشك أحد أهم رموز الحركة الماسونية، حيث أصبحت النجمة الخماسية تعد الرمز الأكثر تقديسا ورفعة بالنسبة لأعضاء هذه المنظمة.

وللحظات أشاح إيرمانو نظره عن حاسوبه واستحضر صورة العلم الجزائري في ذهنه الذي يذكر أنه كان مزينا بالهلال الذي أصبح يعد رمزا للمجتمعات المسلمة بسبب ارتباطه بالامبراطورية العثمانية، ولكن أيضا بالنجمة الخماسية التي لم يكن يدري تماما دلالتها على العلم الجزائري ولا على غيره من أعلام الدول التي كانت تدين أغلب شعوبها بالإسلام وسبب ارتباطها بالهلال كونه على الأقل يعلم أن الديانة الاسلامية لم تكن تقبل بالأيقونات التمثيلية. وإن كان يعرف في المقابل دلالة النجمة التي تتوسط ختم الجمهورية الإيطالية والذي صممه الفنان الإيطالي باولو باسكيتو[43] المولود في توري بيليتشي في ضاحية تورينو وقد تم اعتماده رسميا في مطلع عام 1948. ليأتي التعريف الرسمي لدلالة النجمة في شعار الجمهورية الإيطالية هو أنها تعد من أقدم الرموز التي يزخر بها الموروث الأيقوني الإيطالي، كما كانت رمزا لحركة الريسورجيمينتو Risorgimento التي تم على إثرها توحيد الممالك الإيطالية في القرن التاسع عشر لتتشكل أول مملكة موحدة في إيطاليا عام 1890 وعاصمتها تورينو، وتبقى النجمة إلى يومنا هذا رمزا لهذا البلد.

---

43. Paolo Paschetto.

إلا أن إيرمانو كان يعلم أيضا أن باولو باسكيتو الأستاذ في أكاديمية الفنون الجميلة بروما والذي طالما عرّف فنه بأنه يدخل في إطار الفن المقدس، يعدّ فنانا يعتقد الكثيرون بماسونيته. وهو من قام بتصميم العديد من الطوابع وزين الكثير من الكنائس والقصور وقدم العديد من الأعمال الفنية التي لا تخلو من رموز ماسونية واضحة، وقد كانت النجمة الخماسية حاضرة فيها بقوة. ولا عجب أنه اختار هذا الرمز أيضا ليتوسط شعار الجمهورية الإيطالية.

والآن نقر إيرمانو على لوحة المفاتيح في خانة البحث في غوغل كلمتي « العلم الجزائري » باحثا عن رمزية تلك النجمة الحمراء فيه. ليقع على مقال منشور في ويكيبيديا بنسخته الإيطالية إلا أنه لم يكن مفصلا ولم يتطرق لرمزية تلك النجمة. ليجد نفسه يبحث في قائمة اللغات التي كان يتقن بعضها من الإسبانية والإنجليزية والكتالانية والتي تتناول موضوع العلم الجزائري من على الموسوعة العالمية، إلا أنها كانت جميعها مقتضبة لينقر الآن على اللغة الفرنسية ويحط على صفحة ثرية تفصيلية لا تخلو من مراجع خُصصت للعلم الجزائري بهذه اللغة.

> يتكون العلم الجزائري من شريطين عموديين متساويين في العرض [...] يتوسطهما هلال ونجمة خماسية [...] تمثل النجمة والهلال رمزين إسلاميين. فالهلال يرمز إلى الطريق التي يفترض بالمسلم سلوكه طيلة حياته لدخول الجنة، أما النجمة الخماسية فتشير إلى أركان الاسلام الخمسة.

قطّب أستاذ الفن المقدس جبينه غير مقتنع بما قرأه لتوه ومسح الصفحة بسرعة نزولا علّه يجد أي معلومة قد توافق ما كان يدور في خلده، وإذا به يصل إلى تصميمات لأعلام سبقت العلم الحالي

المعتمد. وقد كانت رايات مختلفة في ألوانها وأشكالها، ليظهر العلم بالنجمة والهلال بألوانه الحالية في مظاهرات 8 ماي 1945 في سطيف لكن النجمة كانت نجمة سداسية إلى جانبها كف حمراء ذات أصابع مرسومة دون عناية. والصورة بحسب الموسوعة لم تكن مؤكدة المصدر، تسبقها صورة أخرى لعلم وُصف بأنه كان متداولا بين الوطنيين الجزائريين، لكن النجمة اختفت فيه لتحل محلها هذه المرة كف حمراء صغيرة فقط. ضاقت عينا إيرمانو وهو يتأمل تلك الكف الصغيرة، ثم هبط بالصفحة ليتفحص قائمة المراجع وصعد مجددا بحركة سريعة باحثا عن قائمة اللغات التي توفرها الموسوعة على يسار الصفحة ليكبس الآن زر اللغة العربية علّه يجد في الصفحة العربية للموسوعة المخصصة للراية الجزائرية نماذج عن أعلام أخرى. لكنه تفاجأ أن الصفحة كانت فقيرة ولا تحتوي سوى على صورة للعلم الجزائري بشكله الحالي وبعض الشروحات المختصرة باللغة العربية التي لم يكن يتقنها.

عاد إيرمانو إلى الموسوعة بنسختها الفرنسية ليتأمل الآن صور العلم الجزائري بحسب الحقبات التاريخية المختلفة، واحدة واحدة، ولفت نظره أن علم الحفصيين الذين حكموا شرق الجزائر بين 1230 و 1574 كان يحمل نجمة خماسية بزاوية مائلة شبيهة بالنجمة التي تزين العلم بشكله الحالي، بينما كانت النجمة التي تزين علم « عين الصفراء » خلال الحقبة الاستعمارية أشبه بالنجمة الخماسية التي تستقر على شعار الجمهورية الإيطالية، وهي النجمة الماسونية التي كانت ترمز بحسب إيليفاس ليفي[44] الخبير الماسوني الشهير إلى الخير، والتي إن أتت مقلوبة فهي ترمز إلى الشر. وبتعبير آخر

44. Éliphas Lévi.

فقد كان المؤمنون بالنظريات الشيطانية يعتبرون النجمة الخماسية رمزا لـ « لوسيفير » إله الخير والذي تمثله النجمة عندما يكون شعاعٌ واحدٌ منها فقط موجها إلى الأعلى، بينما ترمز إلى الشيطان عندما تكون مقلوبة، أي بشعاع موجه إلى الأسفل. وتحمل كلا الوضعيتين رمزية كبيرة في المحافل الماسونية، ذلك أن الخير والشر متواجدان في العالم بذات القدر، وقد يكون ذلك هو تفسير هذين الوضعيتين المختلفتين اللتين تظهر بهما النجمة الخماسية بحسب ليفي، لكن لا أحد يعلم بشكل قطعي ما كانتا تشيران إليه على وجه الدقة. وما الذي تعنيه النجمة الخماسية في العلم الجزائري وهي مرسومة بهذه الزاوية المائلة ؟ فكر إيرمانو وهو يحاول الجمع بين النظريتين الماسونيتين السابقتين للنجمة الخماسية، ثم عاد ليتأمل علم عين الصفراء وهي مدينة تقع في الجنوب الغربي من الجزائر حيث كانت تتزين رايتها الرسمية تحت الحكم الكولونيالي بالنجمة والهلال أيضا واللذان أتيا بلون ذهبي فاقع توسطا علم المستعمر ثلاثي الألوان، كما ظهر مشعل ذهبي على اليسار من العلم وهو رمز ماسوني آخر لم يكن يغيب عن أعمال باولو باسكيتو مصمم شعار الجمهورية الإيطالية، والذي كان يُعد الرمز الماسوني الأوضح في تمثال الحرية في واشنطن، ولكن سرعان ما لفت نظر إيرمانو تلك الكف التي تواجدت في ذلك العلم الجزائري الفرنسي أسفل المشعل الماسوني في زاويته اليسرى. وهي أيضا ذات الكف التي كانت تتوسط راية الأمير عبد القادر أول مؤسس للدولة الجزائرية، حيث بدت اليد في هذه الراية أقرب لتصوير يد آدمية منه إلى مجرد رمز للكف.

لمعت عينا إيرمانو وهو ينظر إلى تلك الراية التي بدت مرسومة بعناية فأتت السلاميات فيها محددة بشكل واضح، وكذا خطوط

راحة اليد، ونقر الآن على الصورة ليتأمل ذينك الخطين المتقاطعين بتراجيدية واضحة. كان ذلك الخط العمودي والقصير المائل إلى اليسار يرمز إلى العقل، أما الخط الطويل الذي بدا منعرجا على نحو ملفت فكان هو خط القدر. أما خط الحياة وخط القلب فقد كانا غائبين كليا عن تلك الكف. والآن فكر إيرمانو فيما إذا كان من صمم هذه الراية يدرك رمزية الخطوط التي حرص على ألا تغيب عن الكف أم أنها أتت من قبيل الصدفة. وأخذ يتفرس السلاميات التي كانت محددة بوضوح تام، وهي جزئية لم تغب عنه هي الأخرى. فبحسب الفكر المسيحي المرتبط بالكبالا، تمثل الأصابع عناصر الكون الأربعة، وترمز السلاميات الثلاث في كل أصبع فيها إلى تقسيم هذه العناصر إلى ثلاثة أنواع : الأساسية، الثابتة، والمتحركة. فكر إيرمانو وهو يتساءل عن رمزية السلاميات في هذا العلم بالتحديد، وقد لفته عدم تحديد خط السلامى الثالثة في الإبهام من تلك الكف. وقد كان الابهام في التقاليد السحرية المسيحية، يرمز بسلامياته الثلاثة إلى الثالوث المقدس : الأب، الابن، وروح القدس. وحسابها مجتمعة في الكفين يرمز إلى الأيام الستة التي خلق الله فيها الكون. إلا أن هناك من يفسر السلاميات الثلاثة على أنها رمز لقدرات الخلق، والحفظ، والتدمير التي يختص بها الله. والآن نظر إيرمانو إلى ذلك الإبهام ذي السلامى الناقصة في كف العلم الجزائري الغريب، وتساءل عن دلالة غيابه، إذ طالما اعتبر الأنثروبولوجيون تطور الإبهام عند البشر كأهم مرحلة لاكتمال الإنسان من الناحية التشريحية. فالإبهام في اليد أشبه لليد بالنسبة للعقل، والتي من دونه لكان من الاستحالة لأي تطور ميكانيكي أو تكنولوجي أي يتم، وقد

كان الرومان والإغريق يعتبرون الإبهام عضوا مقدسا قداسة الإلهة فينوس بالنسبة للأوائل وأفروديت بالنسبة للإغريق، رابطين إياه بالقضيب، وهو ما يجعله يرمز إلى الخصوبة، كما أن حجم الإبهام وشكله طالما كان مؤشرا لطبع الإنسان. وقد رُسم الإبهام في ذلك العلم قويا طويلا على نحو واضح وهو عادة ما يرمز إلى قوة العزيمة وترمز كل سلامى فيه إلى سمة محددة في شخصية الإنسان. ففي حين يشير حجم السلامى الأولى عادة إلى مدى توفر صاحبها على سمات قيادية وهو ما كان واضحا في تلك الكف ولذلك فقد كان الإبهام هو الإصبع الذي يستخدم في أداء طقوس الكنيسة من طرف الكهنة كونه يرمز إلى القوة، كانت السلامى الوسطى ترمز إلى عقلانية صاحبها، أما السلامى الثالثة فقد كانت ترمز إلى العاطفة وقدرة الشخص على نشر المحبة. والآن ركز إيرمانو نظره على ذلك الإبهام متسائلا عن السلامى الغائبة منه : سلامى العقل أم العاطفة، أو سلامى العناية الإلهية أم التدمير بحسب التقاليد المسيحية ؟ وهما في جميع الأحوال عنصران متناقضان يبدو غياب أحدهما أو اندماجه بالآخر ذا رمزية شديدة العمق في ذلك العلم.

فكر إيرمانو في كل هذا وهو يشعر بالفضول لمعرفة اسم الفنان الذي يكون قد زج بجميع هذه التأويلات في عَلم لمجرد رسم تفاصيل كفٍ بشريةٍ عليه، محمّلا إياه تفسيرات نفسيةً وأنثروبولوجية وحتى سحرية قد تخرج عن إطار الرمزيات التقليدية التي تزخر بها الرايات المختلفة للبلدان والتي تستند إلى خلفيات سياسية وأخرى ثقافية وتاريخية، ليخرج صاحب فكرة هذا العلم براية تبدو وكأنها تغوص في تفاصيل بشرية يعرضها عبر كف مجهولة.

يبدو هذا البلد فعلا مثيرا للاهتمام.

غمغم إيرمانو وهو يأخذ قضمة أخرى من سندويش الترامیزینو بالبانيا كاودا اللذيذة. وسرعان ما نادى على النادل ليعيد تسخين وجبته البيبيمونتية الخاصة، ممنيّا نفسه بتناول وجبات جزائرية فريدة عن قرب وأخذ يبحث الآن عن عنوان القنصلية...

- 33 -

أعاد المحقق إبراهيم بقلق قراءة التقرير الذي يسرد السيرة الذاتية لإلياس، وقد شعر بأنه زاد بشكل أو بآخر من الضغط عليه في هذه القضية. إذ لم يكن التحقيق في مقتل فنان جزائري ذي صيت عالمي في مسقط رأسه بعد العودة إليه ببضعة أيام يشبه في شيء قضايا القتل التي يتورط فيها مدمنو المخدرات في عراك على سيجارة زطلة في الكاريار أو بومعطي أو أي من شوارع العاصمة المنسية. كما لم تكن الطعنات الموجهة لتلك اللوحة في حي تليملي الكولونيالي تشبه في شيء ضربات السكين المتبادلة بين أنصار الكرة في ملاعب الموت والتي غالبا ما يتم القبض على صاحبها في مهلة وجيزة، ولا حتى طعنات قاتلة تحت تأثير الويسكي في أحد الفنادق الفاخرة في خصام على فتاة ليل فاتنة، كان يتم التغطية عليها بحرص حتى لا تخرج للعامة. بل كان من الواضح أن هذه الجريمة جريمة من نوع آخر، لم يسبق له التحقيق فيها من قبل.

وأخذ إبراهيم نفسا عميقا وقد غزاه شعور جنائزي غامض أن هذه الجريمة قد تنطوي على أبعاد خطيرة، لم يتمكن من تحديد ماهيتها، لكنه كان يخشى أن تخرج عن صلاحياته في التحقيق فيها...

- لا أريد تقريرا عن جيران إلياس وأقاربه فقط، بل تقريرا عن كل من كان يعرف جيرانه ومعارفه أيضا.

قال وهو يقرأ أقوال سي بن هارون، والتقارير حول ابنته داميا وعلاقاتها بمنظمات غير حكومية أقل ما يقال عنها أنها مريبة، وفكر في عدد المشتبهين الذي زاد من حوله وهو يشعر بالحيرة...

لم يكن ينقصنا سوى د. شنيت ! وغمغم بانزعاج وقد شعر بأن القضية قد بدأت تخرج عن نطاقه.

- 34 -

– أنا لعلمك أقدم تقريرا تفصيليا للجنرال حكيم بنشاطاتنا بشكل دوري.

قال د. شنيت بنبرة جدية وهو يخاطب الرئيس الولائي لجمعيته الوطنية في إحدى المدن الداخلية، بينما كان يوقع على قرار تنصيبه.

– الله يبارك... الله يبارك !

رد جلول بلهفة وقد لمعت عيناه عند سماع تلك الكلمات، ولم يشعر بظهره إلا وهو يتقوس جراء ذكر اسم الجنرال منير أمامه... أربما كان اسمه حكيم... لم يكن يعرف، أو حتى سليم. والصراحة أنه لم يكن يدري أصلا من هو، لكن المهم أنه كان جنرالا وكفى. والواقع أن صيت د. شنيت في الأوساط الجمعوية بأنه مسنود من الجنرال حكيم أو ربما كان اسمه بشير وهي جميعها على كل حال أسماء حركية لأن الاسم الأصلي لصاحبها لم تكن تعرفه سوى الدوائر الخاصة، هو ما خلق هالة من حول د. شنيت جعلت الجميع يرغب في التقرب منه والانخراط في جمعيته رغبة في التقرب بشكل أو بآخر إلى عالم سمعوا عنه لكنهم لم يعرفوا يوما شكله الحقيقي.

واستطرد الآن رئيس المكتب الجديد للجمعية بحماس وقد ازدادت نبضات قلبه خفقانا لسماعه ذلك اللقب العسكري وراح يلهج بكل ما قد يخطر بباله من عبارات تظهر الولاء والطاعة :

– وأنا أعدك أنني سأعمل كل ما بوسعي لجعل « لنا » الجمعية رقم وا..

– أخبرتك مائة مرة بأنها ليست « لنا » بل « أنا » « أنا ».

قال د. شنيت مقاطعا بنفاد صبر جلول، وهو يصحح للمرة الألف نفس الغلطة لأعضاء الجمعية الوطنية التي كان يرأسها والتي يطلق عليها اختصارا NA وهي الأحرف الأولى من الاسم الكامل لهذه المنظمة الوطنية غير الحكومية Notre Algérie والتي تعني جزائرنا باللغة العربية. وهو الاسم الذي اختاره لها د. شنيت بنفسه، وذلك على الرغم من أنه لم يكن فرنسي التعليم، حيث أنه ولد ونشأ في قرية من إحدى الولايات الداخلية التي لم يكن استعمال اللغة الفرنسية شائعا فيها كما هو حال العاصمة، هذا عدا أنه تعلم في المدارس الجزائرية في عهد التعريب، إلا أن د. شنيت وبعد انخراطه في العمل السياسي وتمكنه من الظفر قبل سنوات بكرسي تحت قبة البرلمان، نقل على إثر ذلك إقامته إلى العاصمة، وأدرك أهمية استعمال هذه اللغة من أجل البروز بمظهر المتمدن خصوصا إذا ما تعلق الأمر بإظهار التفوق على سكان المناطق الداخلية الذي كان يُعتبر منهم منذ مدة غير بعيدة.

– أنا... أنا دكتور بل أقصد بالطبع... أنت... أنت...

وبدأ جلول بتجفيف العرق من على جبينه وهو يشعر بأنه يكاد يبتلع لسانه من شدة الارتباك بينما كان ماثلا في حضرة السياسي المخضرم من أهل منطقته والذي تمكن من إيجاد مكان له على ساحل العاصمة.

– يا سي جلول ڤولْ Notre Algérie وهنّينا. قال د. شنيت باشمئزار مخاطبا الرئيس الولائي الجديد لجمعيته وهو يشعر

بانحدار كبير في مستواه بمجرد الاضطرار للجلوس قبالة أمثال هذا الجلول. وتنحنح وهو يعبث بربطة عنقه وكأنه شعر بالاختناق في تلك اللحظة.

والواقع أن د. شنيت لم يكن يختلف كثيرا عن جلول وأمثاله من أعضاء جمعيته على الأقل شكليا، حيث كان كلاهما يرتدي ربطة عنق وبذلة رسمية تليق بمقامهما. إلا أن ما كان يميز بذلتيهما عن بذلات سياسيي العاصمة وشخصياتها النافذة هي أنها بذلات كلاسيكية بنصف كم، وهي بذلات كانت تُميز سياسيي الولايات الداخلية عن غيرهم، والتي يبدو أنه قد تم اختراعها في هذه المناطق دون غيرها من مناطق العالم، للحفاظ على بريستيج أصحابها بضرورة التأنق وفي إشارة لامتلاك أصحابها المال لشراء البذلات الكلاسيكية الغالية، لكن في نفس الوقت التأكيد على إظهار شعر ذراعي صاحبها والسماح لبعض الهواء للمرور تحت إبطيه. وعلى الرغم من أن دكتور شنيت كان يشترك مع هؤلاء في أصله وفصله والبذلات الكلاسيكية من طراز النصف كم التي كان يرتديها هذه، وكذا شواربه الكثة، ولكنته المميزة وشعر ساعديه الملفوف، بل حتى في ضاحكته المقلوعة إلا أنه كان يعتقد جازما أنه يختلف كليا عن هذا الجلول وأمثاله، وموطن الاختلاف بينهما يكمن في لقبه ! نعم لقبه الجامعي الذي كان يصر على أن يناديه الجميع به وهو الذي لم يكن يتمكن أحيانا من إخفاء ازدرائه لمن كان يطلق عليهم اسم « القواطة » تماما من أمثال جلول هذا. فكر وهو يتأفف وينفث بينما واصل توقيع الأوراق...

– اسمح لي... اسمح لي يا دكتور ...NA... NA. رد جلول متلعثما بخنوع.

والواقع أن سي جلول كان مناضلا في لاراندي، كما كان مناضلا سابقا في لافالان، ويقوم حاليا بدراسة تحوله إلى لافافاس أو ربما فتح مكتبا للارسيدي في ولايته أو أي حزب آخر يمكنه أن يشعره بأهميته الحقيقية لكنه لم يحسم أمره بعد. هذا عدا عن عضويته في جمعيات ثقافية واجتماعية وبيئية متنوعة، وكلها أحزاب ومنظمات سياسية ومدنية وحقوقية تبدأ جميعها بأداة التعريف الفرنسية Le التي يبدو أنها ضللته وجعلته هو وغيره من أعضاء « أنا » يميلون على نحو غريزي لإضافتها أيضا عند النطق باسم جمعية د. شنيت، وهو اسم وجيز على نحو مربك. إلا أن ذلك كان يزعج حتما صاحبها د. شنيت كون منظمته غير الحكومية كانت معرّفة أصلا باسمها : « أنا » ولم تكن بحاجة إلى أي أداة تعريف أخرى. وقد كان د. شنيت يشعر بالفخر كلما نطق باسم المنظمة التي قام بتأسيسها منذ بضع سنوات وذلك بعد أشهر قليلة من استقراره في العاصمة، وفتح لها مكاتب مختلفة في كامل أنحاء القطر ليتجاوز عدد أعضائها العشرين ألف شخص في ظرف وجيز.

وجمعية جزائرنا التي يشار إليها بـ « أنا » كما ورد في المادة 3 و4 من قانونها الأساسي هي جمعية وطنية اجتماعية ثقافية فنية خيرية إنسانية صحية رياضية بيئية وتربوية، تهدف أساسا إلى : القضاء على الفقر المدقع والجوع، وتحقيق تعميم التعليم الابتدائي، وتعزيز المساواة بين الجنسين، وتخفيض معدل وفيات الطفل، وتحسين الصحة النفسانية، ومكافحة فيروس المناعة البشرية، وكفالة الاستدامة البيئية، وإقامة شراكة عالمية، وكسر حاجز الصمت بشأن التغوط في العراء... وسرعان ما انتبه د. شنيت وهو يحرر القانون الأساسي لجمعيته مستعينا بموقع الأمم المتحدة على الإنترنت أن

الهدف الأخير يبدو غريب الشأن نوعا ما، فقام للتو بمسحه. ليواصل تحرير قانون « أنا » ـه مستعينا الآن بمطوية خاصة بأحد الأحزاب السياسية الذي لم يكن يستلطف على أي حال رئيسه الذي كان زميله في البرلمان، لكن أهدافه و« توجهاته الكبرى » كانت هي نفسها أهداف كل الأحزاب السياسية، والمنظمات غير الحكومية التي يترأسها رجال دولة من وزنه ومثقفون مبرّزون من أمثاله. فكر وهو يتابع النسخ واللصق : « وتهدف « أنا » أساسا إلى : بناء الإنسان الصالح، الإيجابي والمتوازن في أبعاده الروحية والفكرية والسلوكية، المواكب لروح عصره والمتمسك بأصالته، وبناء مجتمع متماسك، متضامن، منظم، منتج ومتعايش، ومتناغم ومتراحم قوامه أسرة مستقرة، وأبناء محترمون، وامرأة شريكة وفاعلة، وشباب واع ورائع وواعد. واستكمال بناء دولة القانون والمؤسسات والديمقراطية والحكم الراشد. وبناء اقتصاد وطني قوي تنافسي منتج للشغل والثروة وضامن للأمن والحرية والعدالة الاجتماعية. وإعادة الاعتبار لسلم القيم على أساس مقومات الهوية الوطنية الإسلام العربية الأمازيغية ومختلف القيم الإنسانية. الاستمرار في نصرة القضايا العادلة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية. العمل على التكفل بالانشغالات المشروعة للمواطنين، خاصة : الأمن، الشغل، السكن، العدالة، الصحة، التعليم، ورفع القدرة الشرائية للمواطن الجزائري... والآن توقف د. شنيت مجددا وقد شعر أنه قد بدأ يخوض في أمور لا قبل له بها. وارتأى ضرورة الاستعانة أيضا بمصدر آخر من شأنه إثراء قانون جمعيته التي كان يريد لها قانونا أساسيا جامعا مانعا، تتفوق به على كافة الجمعيات الوطنية والأحزاب السياسية المتوفرة حاليا في الأسواق... المتواجدة حاليا على الساحة.

فكر مستدركا وتناول الآن القانون الآساسي لإحدى التعاونيات الفنية وتابع عملية النسخ واللصق التي كان يبرع بها إلى درجة جعلت بعض المغرضين يتهمونه بسرقة مذكرة أحد الطلاب في قسم التاريخ بجامعة الجزائر ونسبها لنفسه للحصول على درجة الدكتوراه وقبلها سلوك نفس السبيل للحصول على درجة الماجستير، مع أن كل ما قيل عنه في هذا الصدد ملفّق ولا أساس له من الصحة بل لا أحد يعرف أنه دفع دم قلبه مقابل الشهادة الأخيرة. وتنهد الآن د. شنيت بحسرة.

380 مليون سنتيم كاش.

وكان ذلك هو ثمن شهادته الذي دفعه لرئيس اللجنة العلمية في قسم التاريخ حيث تكفل بعدها بكل شيء، من قبول تسجيله في الدكتوراه إلى غاية كتابة السطر الأخير من مذكرة تخرجه.

ولكن الحقير إن كان سرقها... نوكل عليه ربي !

وغمغم بحزن وهو يتذكر الضجة التي صاحبت حصوله على شهادته الأكاديمية قبل ثلاث سنوات، والتي كانت بدرجة فضيحة في مختلف الجرائد الوطنية والتي على الرغم من أنها لم تعلن صراحة عن اسمه لدى تناولها لشائعة سرقة مذكرته العلمية إلا أن كل زملائه في البرلمان آنذاك علموا أنه المقصود بالخبر. ليبدأ التهامز والتغامز عليه في أروقة المجلس الشعبي، وداخل المكاتب المغلقة والصالونات الخاصة وحتى من طرف المقربين منه.

كان الدكتور شنيت يعلم أنه في عالم السياسة هذا كان محاطا بالكثير من الانتهازيين عديمي الضمير، والوصوليين، وكذا الحاقدين عليه والمتآمرين من أصحاب القلوب السوداء، والألسنة الكريهة، ممن يظهرون له الولاء في وجهه، لكنهم من ورائه مستعدون لطعنه في

ظهره. ونظر الآن إلى جلول الذي كان يواصل تأتأته وهمهمته بينما كان هو مشغولا في توقيع محاضر تنصيب مراصد ومنتديات ومجالس كان ينتظر أصحابها بالدور خارجا للحصول على مناصبهم في المنظمة غير الحكومية الأكبر على التراب الوطني ومعها بطاقات الانخراط...

– حسنا... حسنا سي جلول. قاطع الدكتور شنيت رئيس مكتب جمعيته في ولايته الأم بشيء من الازدراء وانبرى : « خذ محضر التنصيب هذا واذهب به إلى أمام سجن الحراش ». قال وهو يناوله الأوراق من دون أن يحطّ عينيه على وجهه. وفجأة صمت جلول ونظر إلى رئيسه بتعجب خالطه شيء من الوجل ليردف الآخر بلا مبالاة : « هناك يمكن أن تصنع ختما دائريا وآخر مستطيلا لمكتبك ». قال شنيت من دون أن يركز النظر في وجه محدثه ليصيح الأخير الآن متنفسا الصعداء...

– آه. هكذا إذن! سأصنعها في « البلاد »... لا تقلق بهذا الشأن وتابع ببراءة : « الآن علي العودة... ».

– قلت اصنع الختمين في المحل المجاور لسجن الحراش. رد دكتور شنيت بجفاف بينما نظر إليه جلول باستغراب وواصل : « أنا » تصنع هناك جميع أختامها.

وبمجرد ارتسام ملامح الامتعاض على وجه جلول بسبب النبرة الاستعلائية التي كانت تجلل كلمات شنيت انتبه هذا الأخير للجليد الذي غطى وجه محدثه وسرعان ما استدرك الموقف مبتسما : « طبعا إن كان لديك وقت للبقاء في العاصمة يا سي جلول ». وتناول نسخة من القانون الأساسي للجمعية وهو ينهض من مكتبه ليجلس في حركة حميمية مدروسة في مواجهة محدثه بعد أن ربّت على ركبته بحركة أخوية : « وهذه نسخة من قانوننا الأساسي احتفظ بها في مكتبك ».

والواقع أن السياسة وكواليس العمل السياسي قد علمت الدكتور شنيت أن يحتقر الكل لكن أن يبتسم في وجه الكل في آن واحد، وألا يكون له هدف آخر سوى أن يطأ على رؤوس الجميع حتى إن اضطر لطأطئة رأسه لبعض الوقت للجميع. وسرعان ما عاد الدم ليسري في عروق وجه جلول الذي تناول محضر تنصبيه وهو لا يصدّق أنه أصبح أخيرا رئيسا على شيء ما بعد أعوام طويلة من النضالات الحزبية والكفاحات الجمعوية في مختلف المجالات والتوجهات السياسية.

- لا بل سأذهب حتما إلى سجن الحراش. قال بحماس ثم استدرك : « أقصد محل الأختام المواجه لسجن الحراش ». ونهض وهو يصافح الدكتور شنيت بحرارة : « وهكذا سأكسب مقابلتك مجددا عندما أعود لاسترجاع الأختام... ».

وبادله الآن دكتور شنيت بابتسامة عريضة، شجعت محدثه على الانحناء بحركة شبه رشيقة ليهمس في أذنه بصوت خافت : « بلغ سلامنا لـ « حضرات ». قال جلول دون أن ينظر إلى عيني مخاطبه، وكان يقصد بلفظ « حضرات » الجنرال حكيم... سليم... أو منير لم يعد يذكر، المهم أن هذا اللقب كان يطلق على كل من يحمل لقبا عسكريا، كان الاحتكاك به أو الاحتكاك بمن يحتك به من شأنه أن يغير مجرى حياة المرء في هذه البقعة من الأرض. هكذا فكر جلول وهو يغادر مكتب الدكتور.

عاد شنيت لمكتبه وهو يشعر بالاشمئزاز من هذه المقابلة الكريهة، ونظر الآن إلى ساعته التي كانت تشير إلى منتصف النهار. توقف للحظات ثم فكر أن لا شيء يمكن أن يروّح على خاطره في هذه اللحظات سوى القيام بتلك الشعيرة السحرية الخاصة التي كان

مدمنا على ممارستها. وابتسم بخبث وهو يتجه نحو دُرج مكتبه ليبدأ طقسه اليومي في جلسة التدليك الذهنية الخاصة كما كان يطلق عليها، ولم ينس قبل ذلك أن يُغلق باب مكتبه بالمفتاح.

- لا تدخلي أحدا إلى المكتب. قال للسكرتيرة من خلال المحوّل الصوتي بينما عدل جلسته الآن وهو يفكر في تلك النجمة البرونزية التي كان يستعد لبدأ طقسه اليومي عليها. فتح الدُرج الأول من مكتبه وأطلق ضحكة مكتومة بينما أخذ يفرك بشبق شاربيه. لقد كان ذلك هو وجه نور الدين شنيت الذي لم يكن يعرفه أحد.

- 35 -

– هل تعلم أن داميا تعرف شنيت ؟

– شنيت من ؟ قال بلا مبالاة وهو ينظف أسنانه بظفر خنصره الطويل.

– شنيت « أنا » ؟ قالت سهيلة بجدية.

نظر حمزة إلى شقيقته باستغراب بينما كان منهمكا في تناول بقايا اللحم العالق بين أسنانه...

– تقصدين شنيت هو ؟ وأطلق ضحكة تشبه الشخير وهو يحاول مسايرة مزحة شقيقته غير المضحكة على الرغم من أنه كان يعلم أن أخته لم تكن معروفة بكونها تتمتع بحس دعابة من أي نوع، ولم يفهم سبب محاولة تخفيف دمها في ذلك اليوم، إلا أنه قرر مجاراة مزحتها، ربما من أجل تشجيعها في مسعاها لتطوير حس ما في داخلها وليكن ذلك حس الفكاهة، إن كان ذلك هو حقا ما تريده، وهي المعروفة بتبلدها الحسي التام.

وواصل الآن حمزة شخيره « أم أنك تقصدين شنيت أنت ؟ » وتصنّع الضحك من جديد وهو يقرأ البريد الإلكتروني لأوبتيميديا بينما كان جالسا على مكتب المديرة. والواقع أن حمزة كان هو العقل المدبر لأوبتيميديا على الرغم من أن سهيلة كانت مسيّرته على الورق، ذلك أنه قد تم استخدام أوراقها للحصول على قرض

تشغيل الشباب من أجل فتح هذه الشركة التي تمارس حاليا نشاط النشر، والذي كان يُشترط فيها شرط الشهادة الجامعية وهو الشرط الذي كان ينطبق على سهيلة، دونا عن إخوتها. فحمزة الذي عمل فترة كميكانيكي كان يتنقل بين ممارسة نشاطات مختلفة في الأعمال الحرة وهي التي تسببت له في بعض المتاعب القضائية مع شركاءٍ عمِل معهم في قطاعات مختلفة، ليتفرغ الآن لتسيير أوبتيميديا عمليا معتمدا على خبراته السابقة، وأما بقية الإخوة فكانوا ينتظرون حصتهم من ريع الشركة العائلية نهاية كل شهر بينما كانوا يمارسون نشاط الاتكاء على جدران العاصمة.

وقد كانت سهيلة تضع ثقتها الكاملة في شقيقها الأكبر، بالرغم من كونه مسبوقا قضائيا بتهم مختلفة تتراوح بين النصب والاحتيال، وتوقيع صكوك من دون رصيد، إلا أنه كان يتمكن دوما من التنصل من التهم الموجهة إليه، أو الخروج منها بأحكام بأقل الأضرار. ولذلك فقد كانت سهيلة تثق بأفكاره، وكانت دوما تقدم له تقريرا يوميا بكل شاردة وورادة حصلت في المكتب، ليتم على ضوء ما يرتئيه اتخاذ قرارات يومية لأوبتيميديا.

نظرت سهيلة الآن بشيء من الاستياء لشقيقها الذي لم يبد أنه كان يركز معها في تلك اللحظات واستطردت :

– أقصد دكتور شنيت رئيس جمعية « أنا » ؟ NA. قالت وهي تلفظ الحرفين الفرنسيين بشكل منفصل بشيء من العصبية.

– آه. صاح حمزة كمن تذكر أخيرا كلمة سر ضاعت منه واستأنف ضاحكا : « لم يكن لشخص مثل شنيت أن يجد برأيي اسما أفضل من « أنا » لجمعيته ». وحطت الآن عيناه على رسومات لإسماعيل كانت مرمية بإهمال فوق المكتب وتناولها بلامبالاة : « شخصيا لو

تنبهت للمسألة لكنت قد سميت هذه الشركة NTOUM. وألقى الآن بالرسومات من أمامه في المزبلة : « ربما بذلك كنا لنحصل على زبائن أكثر ». ثم نظر إلى سلة المهملات بشيء من التهكم وواصل : « وكنا لنستقطب موظفين أفضل أيضا ».

– لكننا في المقابل لم نكن لنستفيد من خدمات سي عبد الله معنا ! وأطلقت سهيلة قهقهات مكتومة كانت تناسب شكل وجهها الخاوي من التعابير شاركها فيها شخير أخيها المدوي، وقد تذكرا أول دخولٍ لسي عبد الله إلى أوبتيميديا.

– أوبتيميديا ؟ سأل سي عبد الله باستغراب. ما الذي قصدتموه بهذا الإسم ؟

– في الواقع... وترددت سهيلة كعادتها في الإجابة، وهي من وجدت هذا الاسم على الإنترنت حيث كان متداولا من قبل شركات أجنبية عدة : « في الحقيقة... » واصفر وجهها : « إنه... ». وفي هذه اللحظات تدخل حمزة لانقاذ الموقف بتغيير مجرى الحديث...

– نحن نحاول أن نطلق سلسة كتب ذات نوعية جيدة، وطبعا نحن نتكل عليك من ناحية المضمون و...

ـ فهمت، فهمت. قال سي عبد الله وهو يبتسم برضا بينما كان مطبقا جفنيه كالحالم. « أنتم استخدمتم جذر الكلمة اللاتينية Optimus والتي تعني جيد لوصف جودة المنتوجات التي تودون المنافسة بها في الأسواق. »

تبادلت سهيلة وشقيقها نظرات بلهاء بينما واصل سي عبد الله الذي وافق على مساعدتهما في مشروعهما دون أن يتفاوض على أي مقابل، حديثه وهو من كان لا يهتم بالحصول على المال بقدر نشر معارفه التي كان لا يبخل بها على أحد، وحتى دون أن

يُطلب منه ذلك : « جميل أنكما قد فكرتما باسم ذي مغزى ». قال وهو يعدل الآن طربوشه، « وما أكثرها الشركات ذات الأسماء المنسوخة والملصوقة والخاوية من المعنى ». بلعت سهيلة ريقها على نحو غريزي بينما واصل سي عبد الله كلامه دون أن ينتبه لانخطاف لون محدثته وشقيقها : « ولكن هل تعلمون ما هو أسوأ من هذه الأسماء المسلوخة ؟ » ونظر الآن محدّقا نظره في عيني الأخوين على نحو ترهيبي خاص كان الأبرع فيه إذا ما كان يعتزم عقد لسان محدثيه، لتهز المديرة وشقيقها رأسيهما بالنفي بالكثير من الطاعة، ويواصل الباحث كلامه الآن بعد أن رصعه بابتسامة رضا، وعاد لارتداء ملامح الجدية التي كان لابد منها لبث معلومته الصادمة : « ماهو أسوأ من الأسماء المسروقة أيها الأحبة هي الأسماء المختصرة ! ». وقال وهو يشرّع عينيه الصغيرتين بحركة تعبيرية مسرحية كان يؤديها عندما كان يرغب في الحصول على ردة فعل تتراوح بين الفاه الفاغر والحواجب المعلقة وسط الجبهة، لكنه لم يحصل في هذه اللحظة سوى على وجهين صنميين كأنهما صُنعا بيدي نحات فاشل.

نظر إليهما بخيبة ثم واصل كلامه محاولا اتباع استراتيجية مختلفة لتحقيق ردة الفعل التي كان ينتظرها.

– سوناطراك ! وأطلق سي عبد الله تلك الكلمة من فمه كالبصقة وهو يرصد ردة فعل سهيلة وحمزة على وقعها. والآن رأى جبينا مقطبا أمامه وشفتين ممطوتين في تعبير كان أيضا يدل على الدهشة. لكنه كان التعبير الذي تلفظه وجوه الأشخاص المنغلقين على أنفسهم في حين كان يفرد الأشخاص المنفتحون جباههم وقد تنفتح معها أفواههم أيضا. كان ذلك هو تفسير سي عبد الله الذي

كان خبيرا في تعابير الوجوه وشخصيات أصحابها، والتي كان يركز دائما معها كونه كان يضبط بحسب شدها أو مدها، نبرة صوته أو طول أو قصر عباراته.

والآن ثبّت نظره في وجه حمزة قليلا وكأنه يستلذ بالتعبير الذي رُسم عليه، بينما تجاهل النظر إلى سهيلة التي كانت ذات وجه قد رُفع عنه القلم، ليواصل بهدوء وبشيء من النشوة : « لاناب »... « لانام »... « لاكنيب »... « لونساج ». والآن بلعت سهيلة ريقها الذي شعرت أنه قد جف أصلا من فمها ووجهت نظرات استنجادية لأخيها الذي كان وجهه يشبه في تلك اللحظات وجه الجوكر.

– كل هذه الكلمات المختصرة ليست إلا بقايا لموروث القبّالة.

– القبالة ؟؟؟ وقاطع حمزة باستغراب. « لكنهم في النهاية جزائريون مثلنا ». قال بنبرة تنم عن بلاهة.

– لا... لا. صاح سي عبد الله بغضب وهو يهز رأسه باستهجان.

لم يكن سي عبد الله يحب من أحد أن يقاطعه، كما لم يعجبه بالتحديد التلميح لعنصرية ما في كلامه ضد جزائري مثله وهو من كان نفسه من أصول قبائلية الأمر الذي لم يكن يعرفه حمزة. « لا أقصد حتما سكان القبائل ». قال بحزم وتابع بهدوء الآن : « بل القبّالة... أو ما يعرف أيضا باسم الكبالا، وهي تلفظ بالقاف باللغة العِبرية. إنها تراث اليهود السحري. » وقال كلماته تلك وقد كمش كتفيه بحركة دفاعية.

ساد المكتب صمت خانق لم يكسره سوى تلك الكلمات المبعثرة من سهيلة : « لكن كيف ؟ لو سمحت... وسوناطراك ؟ هل... ؟... وضّح ؟ ». ونثرت سهيلة ما تيسر لها قوله من كلمات في تلك

اللحظات التي كان سي عبد الله يعشق صنعها، واستعد الآن ليجيب عليها وهو يبتسم بحلم.

- نعم... نعم. لا تستغربي يا بنيتي. قال الباحث في التاريخ وهو يسند ظهره إلى الكرسي مستعدا لبدء خطابه الذي قدّم له بشكل يليق بغموضه، واستطرد وهو يعدل طربوشه : « فلتعلمي يا بنيتي أن انتشار الأسماء المختصرة في العالم ليس إلا نتيجة لتأثرنا بفكر القبّالة. والقبّالة في التراث اليهودي قائمة على مبدأ التشفير، وتفسير التوراة باعتماد الشِفرة ». وتابع الآن وهو يفرك يده على عصاه الخشبية الأنيقة : « فبحسب أحبار اليهود، فالنبي موسى عليه السلام لم يكلم ربه مرة واحدة فقط بل ثلاث مرات : مرة عندما أنزل الله عليه الألواح وقد ذهب لتعليمها لكافة اليهود دون استثناء، ومرة عندما شرح الله له المعاني الخفية للتوراة، وقد علمها موسى بحسبهم للكهنة والأحبار فقط. أما المرة الثالثة فقد لقنه الله فيها أسرار التوراة الخفية، وهي الأسرار التي اختص بها موسى صفوة الأحبار، وهم من تناقل عبر التاريخ إرث القبّالة ».

- لكن ما علاقة سوناطراك بالكبالا ؟ سأل حمزة باستغراب.

- نعم وأيضا بلونساج ؟ أضافت سهيلة مؤمّنة على كلام أخيها، بينما استطرد سي عبد الله كلامه متجاهلا مقاطعة هذين الولدين وواصل شرحه لأصول الكبالا : « والواقع أن ثمة نظرية أخرى تقول أن القبّالة هي نصوص سحرية وصلت إلى بعض أحبار اليهود عن طريق أحد الملائكة الساقطين على الأرض ». وصمت قليلا ثم تابع : « وقد يكون المقصود هنا الملكين هاروت وماروت الوارد ذكرهما في القرآن، واللذان كانا يعلّمان السحر في بابل، ولكن اليهود تحدثوا عن واحد فقط وكان اسمه رازائيل بحسب

نصوصهم وقد قالوا أن الأحبار قد أخذوا السحر عنه ببابل من خلال التواصل العقلي. ورازائيل هذا كما يقولون كان أحد خدّام « حامل النور » وهو الشيطان المدعو لوسيفر ».

وصمت سي عبد الله مجددا كأنما كان يحتاج لتلك الفواصل بين أفكاره للتخفيف من كم المعلومات التي كان يضخها في الرأسين اللذين كانا يقابلانه واللذين بديا له فارغين على نحو يروي متعته في الكلام. « ولوسيفر هذا قد لا يكون سوى الشيطان الذي يعبده الماسون أيضا إذ يعتقد الكثيرون أن الحرف G الذي يظهر وسط الرمز الماسوني الشهير المدور والكوس لا يمثل سوى رمز كوكب الزهرة الذي يُعتبر أحد أسماء الشيطان الذي يحيل عند الماسونيين إلى لوسيفر الإله الذي كان فرسان الهيكل يعبدونه. إذ يُعرف أن هؤلاء قد اطلعوا على كتب القبّالة بعد نبشهم للآثار في القدس خلال حملاتهم الصليبية، ويقول البعض أنهم اطلعوا على أسرار سحرية عجيبة بما فيها طرق القتل بالحسد أي بالإصابة بالعين، وذلك من خلال كتابات الحاخام إسحاق التي دونها في القرن 12 في فرنسا. فتحولوا عن المسيحية إلى عبادة الشيطان وهو ما استدعى إعدامهم لاحقا بمباركة الكنيسة. أما من فر من فرسان الهيكل فقد تمكنت سلالته من تأسيس منظمة الماسونية التي تأخذ من القبّالة مرجعية لها، والتي تقدس الشيطان « لوسيفر » ملاك النور المطرود من الجنة أو ببساطة الشيطان. وقد اختير كوكب الزهرة ليمثل ما يطلق عليه ملاك النور هذا لسطوع هذا الكوكب من الكرة الأرضية وذلك لانعكاس كمية كبيرة من ضوء الشمس فوق سطحه بسبب كثافة الغلاف الجوي الكبيرة عليه. وتؤكد الدراسات الحديثة أنه كوكب يحمل على سطحه الكثير من البراكين النشطة الأمر الذي يجعله

بهذا التوهج. والواقع أن القصص الإسلامي يدعم فكرة أن الشيطان المطرود من الجنة كان مصنوعا من النار وهو الذي يذكر القرآن أنه تكّبر على السجود لآدم المصنوع من طين بينما هو من نار ».

وتبادل الشقيقان الآن نظرات مبهمة ليعود سي عبد الله لإضفاء المزيد من الزخم على كلامه، وبحركة مفاجئة لا تخلو من استعراض فرد يديه وأضاف بنبرة توعدية : « بل قد يكون هذا الكوكب نفسه هو منزل إبليس اللعين ». والآن ارتسم على وجه حمزة شيء يشبه الضحكة المكتومة لم ينتبه لها سي عبد الله الذي واصل بجدية : « ولهذا السبب يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قد نهانا عن النظر إلى الكواكب في حديث شريف منقول عنه ».

وفي هذه اللحظات شعر سي عبد الله أن سهيلة وحمزة قد غابا كليا عن حديثه وبدا وكأنهما تاها تماما عما يود الوصول إليه، لينتبه أنه قد شط على أصل الموضوع كعادته، واستطرد وهو يدق الآن عصاه على الأرضية حتى يجذب مجددا انتباه مستمعيه، وبنبرة جدية قال : « أما عن التشفير الذي بدأت حديثي معكما عنه والذي أخذ العالم فكرة التسميات التي تعتمد على المختصرات منه فهو بالأساس قائم على فكرة الخلق عند اليهود والمرتبط بإرث القبّالة ». والآن توقف للحظات وكأنه يحيّن المعلومات التي كان يخزنها في عقله على نحو لا يمكن له سوى إثارة الاعجاب قياسا بشخص في سنه وواصل : « فاليهود يعتقدون أن الله بدأ بخلق كل شيء من خلال تركيب اثني عشر حرفا تولدت عنها جميع المخلوقات، ولهذا فالتسمية بالنسبة لخبراء القبالة تعد مفتاح قدر كل إنسان ».

والآن شعر حمزة ومعه سهيلة التي كانت تعابير وجهها لا تختلف عن تعابير الكرسي الذي كانت جالسة عليه، بالضياع الكامل في حضرة سي عبد الله ونظرياته المختلفة ومعلوماته المركزة، بينما حاول حمزة الربط بين آخر جملة قالها وسوناطراك، وهو من لم يجد ردا على سؤاله من سي عبد الله الذي كان غارقا في سرد معلوماته المكثّفة.

ما علاقة سوناطراك بكل هذا ؟ وفكر حمزة بتلك المؤسسة التي كان يحلم جميع الجزائريين بالعمل فيها، والتي قسمت في الواقع الشعب الجزائري إلى فئتين : فئة من يعمل في سوناطراك ومن يعرف أحدا يعمل في سوناطراك، وفئة من لا يعمل في سوناطراك ولا يعرف أحدا يعمل في سوناطراك. لقد كان ذلك اسما يحدد فعلا شكل حياة الأشخاص في ذلك المكان من الأرض، والذي لم يكن يستطيع لأحد الدخول في عداد موظفي شركته البترولية العتيدة إن لم يكن من أصحاب المحسوبيات والوساطات أو ما يطلق عليه لدى العامة اسم « البيستون ». وحاول حمزة الآن فك شفرة « سوناطراك » وعلاقتها بـ « البيستون »، وهما اللفظان اللذان كانا يكوّنان ثنائيا حميما، إلى درجة جعلت تَرافقها في هذا البلد أشبه بترافق العبارات الخليلية. وتوقف هنا قليلا وهو يتساءل في سره إن كانت كلمة SONATRACH قد وُجدت بالأصل في الجزائر أم كلمة PISTON ؟ أم أن وجود الأولى تطلب وجود الثانية أم العكس ؟

وقد كان لفظ « البيستون » بالتعبير المجازي الفرنسي يعني التزكية التي تتم من تحت الطاولة للحصول على امتياز ما، أما الـ PISTON بمعناه الحقيقي فهو المكبس، تلك القطعة الموجودة في

جميع المحركات والتي تقوم بنقل القوة من الغاز المتمدد في الأسطوانة إلى العمود المرفقي من خلال ذراع التوصيل. وفي المضخة فإن الوظيفة معكوسة حيث تنقل القوة من العمود المرفقي إلى المكبس من أجل ضغط أو طرد أحد الموائع الموجودة في الأسطوانة. وفي بعض المحركات يعمل المكبس كصمام وذلك من خلال تغطية بعض الأجزاء في جدار الأسطوانة أو إظهارها ». فهل يمكن بعد كل هذا الشرح لد « شركة الوطنية للبحث وإنتاج ونقل وتحويل وتوزيع المحروقات » أن تتخلى عن هذا المكبس في صناعتها ؟ مستحيل ! تدبّر حمزة في المسألة وهو يفرك رأسه، ليغوص أكثر في الفكرة : أليس من العدل إذن أن ترتبط ميكانيزمات التوظيف في مؤسسة صناعتها قائمة على البيستون بالـ PISTON ؟؟ أو الـ PISTON بالبيستون ؟ أيّا كان... وأخذ الآن نفسا عميقا من روح الحكمة التي هطلت عليه فجأة وغمغم : « تبا كم يحتاج هذا الشعب المتخلف من سنة ضوئية لفهم عمق فلسفة الكبس من أجل التوظيف ! ».

وواصل حمزة مونولوغه الصامت وهو ينظر إلى سي عبد الله الذي كان يتكلم الآن بنبرة الخبير دون أن يصغي إلى ما كان يقوله، لكنه كان على أي حال سعيدا لأن ذلك الطربوش الناطق قد أشعل في ذهنه شرارة فهم المعاني الخفية للكلمة الأقوى في الجزائر « بيستون » وصديقتها الحميمة « سوناطراك ».

– وتسمية سوناطراك تتبع نفس فلسفة التشفير المدعوة « نوتاميكون » في القبّالة.

والآن التقط حمزة هذه الجملة الأخيرة من سي عبد الله وحاول استدراك ما فاته من المحاضرة. « فإلى جانب تقنية حساب الجمل بإيعاز كل حرف إلى رقم يقابله في جداول خاصة يحفظها الكهنة

والتي تحيل بدورها إلى أحرف أخرى، وتقنية « تيمورا » التي تعتمد على تقسيم الأبجدية إلى نصفين، وقلب الحروف مكان بعضها البعض بحسب ترتيبها في الجزء الأول أو الثاني من الأبجدية، فأسلوب « النوتاميكون » لحل الشفرة التوراتية بالنسبة لكهنة القبّالة يعتمد ببساطة على فك شفرة الكلمات من خلال الأحرف التي تشكّلها والتي لا تمثل في النهاية سوى الأحرف الأولى لمجموعةٍ أخرى من الكلمات، كاختصار كلمة سوناطراك باللغة الفرنسية والأمم المتحدة بمختلف اللغات الأجنبية، وهو المبدأ الذي تقوم عليه الاختصارات الشائعة في العالم بأسره والذي يرتبط بإرث القبّالة اليهودي الذي لا يكاد يخلو منه أي مكان ». ووسع الآن سي عبد الله عينيه على نحو درامتيكي وكأنه يضع النقطة الأخيرة على محاضرته لنهار اليوم.

وفي حين بقيت سهيلة جالسة في مكانها كعمود كهرباء مائل دون أن يبدو أي تغيير يذكر على سطح وجهها منذ بداية المحاضرة إلى آخرها، عسعس وجه حمزة بملامح تَشي بشيء يشبه خيبة الأمل، فنظريته في تحليل اسم سوناطراك المعتمد على ميكانيزم « البيستون » في النهاية يبدو أكثر تشويقا من نظرية « النوتاميكون » هذه، والتي بدت له لشدة شيوعها وانتشارها تفتقد إلى أي سحر.

والآن بدا حمزة وكأنه قد استفاق من غيبوبة، ونظر إلى أخته التي كانت منخرطة في الضحك على ذكرى إحدى محاضرات سي عبد الله في المكتب، وقد بدا وجهها كوجه رجل آلي تمت برمجته للقهقهة في تلك اللحظة لكن من دون أن تبدو عليه أثار الانبساط الحقيقية. لقد كان وجه سهيلة ذلك فعلا اسمنتيا بامتياز، ولم تكن

فيه سوى شفتان قادرتان على التعبير عن حصول شيء ما في قاع نفسها، فإذا ما هي مطتهما بخط أفقي كانت تلك الابتسامة وإذا فتحتهما وأرفقتهما بصوت خرخرة كانت هي تلك الضحكة، أما إن عكفت على عضهما فذلك يعني أنها متوترة. وغير هذا فعيناها كانتا أشبه بعيني دمية تتطلع أبدا إلى الفراغ. وهنا نظر حمزة إلى سهيلة باستغراب مملوء بالدهشة.

– هل قلت أن داميا تعرف شنيت ؟!

– نعم. أجابت سهيلة بآلية وقد توقفت بكبسة زر عن الضحك.

– ولكن من أخبرك بذلك ؟ قال وعيناه تكاد تخرجان من محجرهما.

– هي نفسها. ردت بطاعة

والآن لم يشعر حمزة بنفسه إلا وهو يقفز من على كرسي المكتب وقد اشتعلت عيناه فرحا.

– وهل تعلمين ما الذي يعنيه هذا ؟ قال وهو لا يكاد يصدق نفسه.

– نعم. وابتسمت سهيلة لأول مرة منذ سنوات على نحو مقنع، وواصلت وقد انطبعت على صوتها نبرة زهو غريبة نادرون هم من كانوا يستطيعون تمييزها في صوتها الروبوتيكي المرتعش : « بل وأخبرتني أنها ستعرّفنا عليه »... ثم استدركت : « ستعرّفني عليه غدا ».

وفي هذه اللحظات لم يشعر حمزة بنفسه إلا وهو يرقص من الفرح. ليعود مباشرة لاحتواء سعادته...

– لابد لنا أن نفكر الآن بخطة للتعامل الذكي معه. قال ساهما وهو يفرك يديه في حركة سينمائية مستهلكة لم يكن يستعملها للصراحة كثيرا، لكنه لم يتمكن من منع نفسه من التفكير فيما

يمكن أن يحققه من وراء دخول شنيت على الخط. ونظر الآن لسهيلة بانتصار وبنبرة المعاتب خاطبها.

- يومٌ يتواجد فيه إلياس وشنيت معا لا يمكن أن يُذكر فيه اسم ذلك النكرة مطلقا. قال حمزة وهو يُذكّر شقيقته بمكالمتها السابقة له والتي كانت قلقة فيها بشأن إسماعيل.

نظرت سهيلة إلى شقيقها الآن باطمئنان لا يخلو من بعض الريبة.

- وهل تعتقد أننا سنتخلص منه بسهولة إذن ؟

- بل وبأسهل بكثير مما كنت أتوقع !

- 36 -

تابع إسماعيل بعينيه سيارة مدير أكاديمية الفنون الجميلة وهو يخرج من بوابة الجامعة، وكزّ بحركة غريزية على أسنانه وهو يراقب السيارة السوداء الأنيقة وهي تختفي وراء البوابة بينما كان يشعر أنه يتآكل بداخله من السخط. كان إسماعيل يعتقد قبل التحاقه بأكاديمية الفنون الجميلة قبل خمس سنوات أنه سيتم الاحتفاء به أيما احتفاء لدى وصوله للعاصمة، وهو من كان يطلق عليه اسم « لارتيست » في بلدته الصغيرة التي تبعد حوالي الـ 700 كلم عن الجزائر العاصمة. وهي البلدة التي لم تكن تتوفر كغيرها من الولايات الداخلية في الجزائر على أدنى مرافق للترفيه عدا عن بعض دور الشباب المهترئة التي كانت تقيم نشاطات محدودة لمنتسبيها وقد أمضى إسماعيل فترة طفولته ومراهقته بين إحداها، ينتظر بشغف كل يوم اثنين وخميس لمتابعة دروس الرسم التي لم تكن منتظمة على أي حال وذلك حسب ظروف معلمة الرسم أو حارس الدار أو الوضع الأمني في المنطقة. وبالرغم من أن الظروف لم تكن يوما مشجعة لإسماعيل من أجل تفجير مواهبه الفنية، إلا أنه تمكن من صقل موهبته شيئا فشيئا وتمكن من جعل اسمه في البلدة التي كان يقطن بها، اسما معروفا لم يكن يخفى على أحد فيها، فقد كان الجميع يعرف إسماعيل « لارتيست » الذي كانت تُزين أعماله

جدران الولاية، وهو من لم يكن يرد طلب أحدٍ في تزيين حائط مطعمه برسم لقنينة كوكا كولا أو سندويش همبرغر، أو حتى جدار منزله بشعار الفريق المحلي الذي كان يشجعه. ولا يزال إسماعيل يذكر الفرحة التي غمرت قلبه عندما طلبت منه معلمة الرسم في دار الشباب بالولاية تزيين مدخل الدار بطلبٍ من المدير نفسه بعد إعلان زيارةٍ لأحد المسؤولين السامين في الدولة، وقد رسم إسماعيل بالمناسبة علم الجزائر ترفرف أمامه حمامة وإلى جانبهما غصن زيتون وقلم. كانت تلك هي الشعارات الأكثر رواجا والتي طالما فاز بمسابقات الرسم في المدرسة في صغره بفضلها. وعلى الرغم من أن إسماعيل لم يتقاض مالا على عمله الذي أمضى أسبوعا كاملا في رسم خطوطه ومزج ألوانه يوميا تحت أشعة الشمس الحارقة إلا أنه كان سعيدا لكونه قد طُلب منه رسميا عملٌ شاهده مسؤول من العاصمة وقد يكون ذلك بوابة لطلبيات أخرى مدفوعة الأجر في المستقبل تُحوله إلى فنان كبير.

والواقع أن الرسم لم يكن مهنة تعد بالكثير لمحترفيها في الجزائر، إلا أن إسماعيل استبشر خيرا بهذه البداية. وقد كان متأكدا أن المزيد من الأبواب ستفتح في وجهه لدى ذهابه للعاصمة، والتحاقه بأكاديمية الفنون الجميلة التي كان يعتقد أنها ستستقبل موهبته بالأحضان. ليتفاجأ بواقع أكاديمي لم يكن أفضل حالا من واقع دار شباب ولايته، مع فارق أن أساتذة الأكاديمية هنا كانوا يرطنون باللغة الفرنسية التي لم يكن يذكر في المدرسة منها سوى جملتي Selma va à l'école و Omar Joue au ballon. كما لم تكن الهيئة الاستعلائية والأسلوب الفوقي لأساتذة الرسم في أكاديمية الفنون الجميلة في العاصمة تختلف كثيرا عن هيئة جميع معلمي اللغة

الفرنسية الذين مروا عليه، أو بالأحرى من تسنى لهم أن يدرسوه. لأن إسماعيل لم يحظ في العديد من سنوات دراسته بمعلم لغة فرنسية، كون تعليم هذه اللغة في سنوات الإرهاب كان يشكل خطرا على أصحابها في بلدته. ولكنه مع ذلك وجد نفسه مضطرا لدراسة مواد كثيرة في الأكاديمية الآن بهذه اللغة، هذا عدا أن أغلب المراجع التي تتوفر عليها مكتبتها كانت باللغة الفرنسية أيضا. لم يفهم إسماعيل ما الذي كان يدور من حوله أول مرة وضع فيها قدميه في العاصمة، ولم يستوعب سبب استخدام الكثيرين من حوله للفرنسية، في الأكاديمية، في الحي وفي الحافلة. لم يكن يشعر أنه في وطنه سوى مع رفقة من الأصدقاء القادمين من ولايات داخلية مثله لا يرطنون بالفرنسية، وحبذا لو كانوا من ولايته يفهمون لهجته دون أن يتندّروا عليها. لقد كان يشعر حتما بالغربة في العاصمة، ولم يكن يشعر بالألفة البتة مع سكانها.

واتجه إسماعيل الآن إلى المكتبة بسخط وهو يحمل كتابين نسخ منهما ولصق بعض الفقرات ليحضّر بها مذكرة تخرجه من الأكاديمية تلك السنة. والواقع أنه لم يكن يفهم شيئا من تلك الكتب الأجنبية، بل كان يكرهها، كما كان يكره ضرورة تواصله مع مادة يحبها بلغة يجهلها، والأسوأ أنه قد بدأ يشعر أنه لم يعد يكره اللغة والمتكلمين المتعجرفين بها فحسب بل المادة نفسها والأكاديمية بكل ما فيها، والعاصمة بأسرها، وكل من كان يحيط حوله.

- بونجور.

- تبا لك أيتها الفاسقة.

تمتم وهو ينظر إلى طالبة دخلت لتوها إلى المكتبة كانت ترتدي قميصا بدون أكمام وتفوح منها رائحة السجائر. لم تكن

تلك الساقطة كما كان يسميها وشبيهاتها من طالبات الأكاديمية يحصلن على علامات جيدة سوى لأنهن كن يتقن لغة لم يكن هو يتقنها... سوى لأنهن ولدن في العاصمة. أما هو فكان من ولاية داخلية لم توفر له أساتذة لتعليمه لغة لم يكن يدري أنها كانت ستحطم شغفه الوحيد في الحياة. شغفه الذي طالما ساعده لتخطي هواجسه ومخاوف طفولته في سنوات الدم والرعب.

رمى الكتب التي استعارها لدى المسؤولة عن مكتبة الأكاديمية وتناول هاتفه المحمول باحثا عن رقم سهيلة.

تلك السافلة. فكر وهو يكبس على زر الاتصال. كالعادة، لا ترد. أقفل الخط واتصل مباشرة بداميا...

- « وِي »...

- اسمعي يا داميا. أخبري صديقتك أنني لن أسكت على حُقْرتها، وأعلميها أنها لا تستطيع أن تعاملني كعبد عندها لمجرد أنني لست ابن العاصمة...

- أنا لا أفهم عما تتحدث عنه. قالت داميا بنفاد صبر، « وليكن في علمك يا إسماعيل أنك إن واصلت بهذا الأسلوب فسهيلة لن تتأخر عن إيجاد رسام غيرك ». وصمتت للحظة وكأنها تضع خطين على جملتها الأخيرة، « أكاديمية الفنون الجميلة مليئة بالرسامين مثلك أو أحسن منك. وتماما كما وافقت أنت على العمل معها سيوافق غيرك من الطلبة على أخذ مكانك في أوبتيميديا ».

والواقع أن سهيلة ولدى تفكيرها في مشروع السلسلة المصورة، فكرت مباشرة بطلب خدمات طلبة من أكاديمية الفنون الجميلة التي لم تكن تبعد كثيرا عن مكتبها. ليقع اختيارها على إسماعيل الذي كان أول من اتصل بها...

- تبًا لك ولمعلمتك أيتها المتعجرفة. أنا أعلم أصلا أنك متآمرة معها ! لقد أخبرتك أمس أنها لا تملك التصاريح لبيع كتبها، ولازالت تعملين معها. أخبريها على أي حال أنني أعلم أنها ليست سوى نصابة محتالة استغلتني هي وأخوها صاحب السوابق لتصميم إشهارات لوكالتها بالمجان وبيعها من تحت الطاولة... لكنني لن أسمح أن ترميني كالعلكة الحقيرة بعد أن عملتُ معها دون مقابل كل تلك الفترة، وسأفضح أمرها للشرطة... لا بل أقسم أنني سأقتلها وسأقتل كل من يحاول سرقة مجهودي... سأقتله...

وانتهت المكالمة.

لم يكن إسماعيل يملك رصيدا كافيا ليتحدث أكثر من أربع دقائق في هاتفه، وهو من عمل لأكثر من من ثمانية أشهر بدون مقابل في أوبتيميديا بين تنفيذ رسومات لشرائط مصورة كانت تشرف عليها داميا، وتصميم إعلانات مختلفة كان يطلبها منه حمزة شقيق سهيلة بوصفه موظفا في المكتب كان يفترض به القيام بكل ما يُطلب منه في إطار اختصاصه. والواقع أن إسماعيل عمل الأشهر الثلاثة الأولى من دون مقابل كونه كان تحت فترة الاختبار بحسب قانون العمل. أما الشهران المتبقيان فقد تمكنت سهيلة بأسلوبها الخاص من إقناعه أنها وبمجرد بيعها للكتب التي عمل عليها ستدفع له راتبه، حيث أكدت له أنها متعاقدة مع وزراة الثقافة في هذا الصدد، وأن مسألة بيع الأشرطة المصورة التي قام برسمها وإخراجها الفني ليست إلا مسألة وقت. إلا أنه ومع مرور الوقت واقتراب نهاية العام الدراسي، أدرك إسماعيل أن الأمور وإن استمرت على هذه الحالة لن يتمكن من مواصلة العمل في أوبتيميديا لأنه لن يكون له الحق في البقاء بعدها في الحي الجامعي

والإقامة في هذه المدينة، مما يعنيه التخلي عن خدماته لصالح رسام آخر يقيم في العاصمة. كان إسماعيل يعلم أن إيجاد فرصة للعمل مباشرة بعد التخرج شبه مستحيلة، وكان من أجل ذلك متشبثا بالعمل في أوبتيميديا، إلى أن شعر أن سهيلة كانت تتعمد التسويف في مسألة البيع حتى تضطره ربما لترك العمل، كونه لم يكن يتفق يوما مع داميا... داميا العاصمية مثلها. وهو ما جعله يتقصى أخبارا عن شركتها ليكتشف أنها لا تملك تراخيص بيع أي منشور يصدر من مؤسستها. وأنها ليست سوى نصابة وقد تكون داميا متواطئة حتما معها.

– الحقيرتان. تمتم وهو يكز على أسنانه. حتى أنهما كانتا لا تتحدثان سوى باللغة الفرنسية مع بعضهما البعض وأنا بينهما كالأبله لا أفقه شيئا من كلامهما ! وبصق الآن على الأرض كل ما كان في نفسه من سخط في تلك اللحظة مع مرور فتاتين أخريين من أمامه في الحديقة. تبا لكن أيتها العاهرات. فكر في سره، وانطلق خارج الأكاديمية وهو يحرث الأرض بقدميه.

لكنني لن أسكت على هذه الحُفْرة.

- 37 -

نظرت إلى هاتفها المحمول، وهي تفكر في معاودة الاتصال بإسماعيل. وضغطت على زر الاتصال وسرعان ما عادت لإقفاله. لم تكن داميا متأكدة من جدوى الحديث مع هذا الشاب خصوصا وهو في تلك الحالة. والواقع أنها كانت تعيب على سهيلة الغياب الكامل للحزم في شخصيتها وبالتحديد في التعامل مع إسماعيل هذا، وهي التي كانت تأمل منذ حوالي الستة أشهر من بدء العمل معها أن توجه له ولو ملاحظة واحدة بشأن تقصيره في إتمام الرسوم المطلوبة منه في إطار الأشرطة المصورة التي كانت تشرف عليها. لقد كانت داميا تتمنى أن يخرج ذلك الشريط المصور في أقرب فرصة وترى اسمها مطبوعا لأول مرة على عمل يظهر فيه اسمها كمدققة لغوية. فقد كان ذلك يعني الكثير بالنسبة لها، وهي التي كانت تخفي على الرغم من ثقتها الظاهرة شعورا خفيا بالنقص من زميلاتها في قسم الأدب العربي اللواتي كن يتعاملن معها بشيء من « العنصرية »، كيف لا وهن من كن يتفوقن عليها في فهم الأفلام المصرية والأغاني « العربية ». والواقع أن داميا لم تكن تستطيع المشاركة في أيّ حوار مع زميلاتها القادمات من المدن الداخلية واللواتي لم تكن تشعر أنها تنتمي إلى عالمهن « العربي » المليء بالكليبات والمسلسلات وأخبار المفضلات عندهن

من « الفنانات » وتقنيات التبرج على نمط المذيعات الخليجيات على الرغم من أنهن كن جميعهن متحجبات، أما المتجلببات والأكثر التزاما فكن يتسامرن حول الفتاوى وبرامج آخر الدعاة التي كانت تبثها ذات الفضائيات. لم يكن ذلك العالم حتما يشبهها على الرغم من أنها كانت تحاول تكحيل عينيها بين الفينة والأخرى لتقترب من أجوائه، لكن الأسود لم يكن يليق بها.

وغرزت أصابعها بحركة لا إرادية في شعرها الناري المجعد وتذكرت الآن غرة سهيلة الملساء. وهل كانت هي تشبهها ؟ فكرت داميا وهي تتذكر وجه مديرتها الصنمي الصامت والذي لم يكن يفلت سوى القليل من الانفعالات من حين لآخر على نحو آلي. لقد كان ذلك وجها معتما بامتياز. وتذكرت لحظتها « كانديد ». لم تكن متأكدة الآن بأن سهيلة كانت فعلا النسخة النسائية لبانغلوس الساذج الذي اشتق فولتير اسم روايته له من الجذر اللاتيني candidus : أبيض. لم يكن هناك ما ينم عن بياض في تعاملات سهيلة تلك. فأكذوبة التصاريح والعقود مع الوزارة التي أخبرها بها إسماعيل، ووجهها المغلق أبدا كانت كلها عناصر معتمة في سريرة تلك السيدة التي لم تكن تعرف عنها شيئا آخر سوى أنها ابنة الزُهرة، المرأة التي كانت تسأل عنها « يما مريم » باستمرار في مكتبها. وعدا عن ذلك فكل شيء في حياة سهيلة كان مظلما لا يشفّ عن شيء.

وعادت داميا للنظر إلى الهاتف ومكالمتها تلك مع إسماعيل الذي لم تتمكن قط من فهم سر سخطه الدائم من الجميع وعلى الجميع. لم تفهم قط عدوانيته التي لم تكن تجد لها تبريرا سواء أتعلق الأمر بأسلوب حديثه، أو كيفيه انتقاء ألفاظه، أو حتى

حركاته. لم يكن ذلك الشاب فنانا في شيء. فكرت وهي تنظر إلى الأقنعة الكولونيالية العابسة التي كانت مثبتة على البناية المقابلة من على شرفة منزلها. بل فتى شوارع. واقشعر الآن بدنها وهي تتذكر آخر جملة تلفظ لتوه بها.

« سأقتل كل من يحاول سرقة مجهودي... سأقتله ».

وارتعشت من الفكرة وهي تلقي الهاتف بفزع من يدها.

- 38 -

سحب من درج مكتبه بطاقة العضوية التي قام بطبعها مؤخرا لها، وأخذ يتأمل تفاصيلها بشهوانية مقلقة. كانت تلك البطاقة مثلها مثل بقية بطاقات « جزائرنا » مستخرجة من مطبعة خاصة، وكانت ذات لون أحمر أولي غير قابل للتحليل خال من الأزرق والأصفر، بطول ذبذبة يساوي 6562 حسب مخطط تباين رود، ويحتل الموقع 285 على الطيف العادي. وهي بطاقة لم يكن يخص بها شنيت سوى الأعضاء القياديين في الجمعية والذين لم يكن يتجاوز عددهم المائة شخص من بين العشرين ألفا الذين كانوا ينتشرون في كامل القطر الوطني. أما البطاقات خضراء اللون فكانت تسلم لرؤساء الفروع الولائية وأعضاء المكاتب الخمسة في كل فرع فقط، وكانت هذه البطاقات يتشكل اللون الأخضر فيها من الكمية نفسها من الأصفر والأزرق، بحيث يكون طول ذبذبته مساويا لـ 5411، ويحتل الموقع 600 على الطيف العادي. أما البطاقات البيضاء وكفى، فكانت تسلم للأعضاء العاديين المنتسبين في الفروع، وهم من كان يطلق عليهم اسم الأعضاء العاملين. لتبقى أهم البطاقات في « جزائرنا » هي تلك السوداء، والتي لم يكن يحملها سوى الأعضاء المؤسسون للجمعية، وهم ثلاثة فقط لا غير وكان د. شنيت أحدهم. وهؤلاء هم

الوحيدون المطلعون على دستور الجمعية السري، وهو غير القانون الأساسي الموجه للاستهلاك العام. وقد كانت مزايا حامل كل بطاقة في جمعية « أنا » تختلف عن الآخر.

أما أصحاب البطاقات البيضاء ممن تقتصر مهمة غالبيتهم في الجمعية على التصفيق بحماس في التجمعات الشعبية التي كانت تقيمها القيادات، فكان يحق لهم استخدام اسم الجمعية للشعور بالأهمية لارتباطها باسم الجنرال حكيم، ودفع الاشتراكات السنوية للحفاظ على مزية التذكر أنهم محميون من الجنرال منير أو سليم... أيا كان، والذي كان شنيت يحرص دوما على تذكير أعضاء « أنا » بارتباط الجمعية به سرا. وفي المقابل كان يحق لأصحاب البطاقات الخضراء إشهار بطاقاتهم في وجه السلطات العمومية لطلب تسهيل أداء مهامهم كما هو مدون عليها. بينما كانت البطاقات الحمراء تتضمن على نحو يميز أصحابها عن أصحاب البطاقات الخضراء عبارة كانت منقوشة أسفلها بحروف سوداء صغيرة.

يرجى من السلطات العمومية والعسكرية تسهيل مهام حامل هذه البطاقة.

– إنها تستحقها. تمتم د. شنيت وهو يفرك البطاقة...

داميا بن هارون

تاريخ ومكان الميلاد 25 - 7 - 1990 بالجزائر الوسطى

العنوان، 89 شارع ديدوش مراد، الجزائر العاصمة

الصفة : عضو قيادي

هكذا أريد أعضاء جمعيتي الحقيقيين، وليس جلول ذاك. غمغم وهو يحاول طرد صورة ذلك السمج من ذهنه الآن، بينما كان يتأمل

صورة داميا حيث انبلجت شفتاه عن ابتسامة مبهمة، وهو يفترس كل تفاصيل الصورة التي كانت تحط فوق بطاقة العضوية الحمراء تلك، وقد كاد يلتهمها بعينيه متأسفا لعدم التقاط المصور لمساحة أكبر لصدرها. وسرعان ما حط بصره على تلك النجمة البرونزية التي لم تكن تفارق رقبتها، وابتسم. « كم هي كثيرة الأشياء التي تجمعنا يا صغيرتي. » ونظر الآن إلى العلم الرئاسي الضخم الذي كان ينتصب وراء مكتبه وأخذ يعبث بالوشاح الذهبي الذي كان يزين أطرافه. وكم هي كثيرة المشاريع التي سنعمل عليها سويا في خدمة « وطننا الغالي ». وأطلق الآن قهقهة غير مفهومة كانت أشبه بطلقة رصاص من مسدس كاتم للصوت.

- 39 -

جلس موسيو أمزيان من بعيد يراقب حركات مدام صفري وتسللت إلى شفتيه ابتسامة صادقة نادرا ما كانت تنتج عن حركة طبيعية من عضلة خده الأيسر، وقد بدا له ذلك المشهد على نحو خاص أشبه بعرض تهريجي يحمل الكثير من التسلية.

تأملها وهو يرفع كأسه ببطء وكأنه يحاول التلصص على رائحة الشامبانيا دون أن يزعجها. وأخذ نفسا عميقا وهو يستنشق شرابه محاولا حبس رائحته في قفصه الصدري وعاد لينفثه ببطء وهو يضع شفتيه بعناية شديدة على الكأس كأنه يخاف أن يكسره وهو يتأمل الآن تنورتها الساتان البنفسجية التي كانت تظهر شيئا يشبه سلحفاة برمائية معمّرة في مكان يفترض أن يكون بطنها.

أخذ رشفة من كأسه وهو يستمتع بقوام الشامبانيا الناعم بين شفتيه، واعتراه فجأة شعور بالشفقة على ذلك الكأس الذي كانت تحيطه بأصابعها الضخمة التي كانت تنتهي أطرافها بأظافر عريضة زاد بروزها ذلك الطلاء البنفسجي اللامع. وارتسم على الفور بين حاجبيه خطان غائران بدا أنهما يزدادن عمقا كلما تأمل تفصيلا آخر فيها...

– لكن لا تنكر أنها تحسن اختيار الشراب. همس في أذنه وهو يبتسم له في تواطؤ وكأنه كان يقرأ أفكاره.

- فعلا ! ابتسم موسيو أمزيان بهدوء دون أن يُظهر أي تفاجؤ من دخول صديقه عمر على خط أفكاره، ومد له يده ليصافحه، وأخذ رشفة أخرى من ذلك الشراب الناعم الذي انساب رشيقا في حلقه واستطرد : « من كان يصدق أن بدوية مثلها قادرة على ذلك ! » قال وهو ينظر إلى ركبتي مدام صفري الغليظتين واللتين لم تسعفهما الجوارب اللحمية الشفافة لتبدوان أكثر أنوثة. وعاد لينظر بأسى إلى كأس الشراب الذي كانت تحيط به بأصابعها وكأنه طاس من لبن الماعز.

- مع أنني سمعت أنها تحولت إلى أيقونة للجمال. قال عمر وهو يتصنع الجدية. « لقد كنت هناك »، وبحركة مدروسة حوّل اتجاه نظره عنها، « وفهمت مما تيسر لي فهمه أن أغلب التهاني الموجهة إليها اليوم تتعلق بمدى أناقتها... »، وكح الآن محاولا إخفاء ضحكته... « وبجمالها ».

- حقّا ؟ رد موسيو أمزيان مبتسما في تواطؤ، « من كان ليصدق أن أفلام الأبيض والأسود المصرية التي شاهدتها ستنفعنا في التعرف على مارلين مونرو الأعراب في زماننا ». وانفجر كلاهما في ضحكة حاولا جهدهما التخفيف من حدتها.

وقد كان حضور حفلات « مدام صفري » بالنسبة لموسيو أمزيان أكثر تسلية من عروض السيرك نفسها، فقد كانت حفلات الفيلا الباذخة « دار الضياف » بأعالي حيدرة تؤمّن له على الأقل المتعة السرية لمقاومة الضحك والتي لا تقدمها له عروض المهرجين التي يكون الضحك المعلن فيها مباحا، بالإضافة إلى أنه اليوم يجد على الأقل صحبة يفهم عليها، إذ غالبا ما تدعو مديرة معهد أبحاث التراث العربي أساتذة وباحثين يتحدثون أثناء حفلات واستقبالات

« دار الضياف » لهجاتهم العربية المختلفة التي لم يكن يفقه منها أمزيان شيئا.

– قل لي... سأل أمزيان صديقه وهو ينظر من حوله كمن يبحث عن أحد. ألا يوجد جزائريون غيرنا هنا ؟

نظر عمر من حوله بلا مبالاة وأخذ رشفة أخرى من كأسه، « يبدو أننا لسنا على ذوقها ». ثم صمت هنيهة : « وعلى فكرة بالنسبة لصديقك يمكنك أن تطمئنه فقد احتفظنا لابنه بالمنصب... صحيح أن شهادته لا تناسب الأكاديمية لكنني تحدثتُ مع أحبابنا في الوظيف العمومي وأكدوا لي اليوم أنهم تدبروا الأمر ».

– جيد... جيد ! أجاب أمزيان وهو شارد الذهن وقد سقطت عيناه على شيء يشبه الهلام النافر من صدر إحدى الحاضرات التي كانت تلبس نظارة ذات إطار أسود كامد عتّم على شكل عينيها وهي تلتهم بين شفتيها غير المرئيتين اللتين كان يحدد مكانهما خط أحمر رفيع، قد يكون أحمر شفاه، سيجارة بدت وكأنها ستنسحق بين إصبعيها. « وهل هذه دكتورة أخرى في الأدب أم... » وهمس الآن في أذن صديقه بمكر، ليقطع نميمتهما صوت أجش أتى من بعيد...

– « موسيو أمزيان ». صاحت مدام صفري وهي فاردة ذراعيها بحركة باريسية رقيقة بدت معها وكأنها ماركة كريستيان لوبوتان مثبتة على حذاء صيني مقلد. « أتمنى أنك تستمتع بوقتك »...

– بالطبع. وبحركة لا شعورية أخذ أمزيان يمسّد ربطة عنقه البيير كاردين الأصلية. « ومن غيرك القادر على إمتاعنا بحفلات راقية كهذه ؟ »

فتحت مدام صفري فمها فيما يشبه ابتسامة عريضة وطوّحت برأسها إلى الوراء في حركة مستوردة أخرى تعبيرا عن الإطراء

الممزوج بتواضع رشيق على الرغم من أن نظرات عينيها لم تكن قادرة على التحكم في أحاسيسها التي كانت تشي بأنها كانت تريد سماع المزيد.

– ميغسي... ميغسي بوكو موسيو أمزيان ! قالت بلكنة باريسية متقنة لكنه شعر للحظة بأنه يسمعها من الشيخة الريميتي وهي تطلقها بصوتها الغليظ ذاك. وبحركة آلية نظر إلى كأسها في محاولة منه لفهم ظاهرة حبالها الصوتية المسترجلة على الرغم من قيامها بكل ما في وسعها لإضفاء الأنوثة على أدائها. وبسرعة طرد تلك الفكرة من ذهنه وهو يشعر بالحرج مما عبر رأسه...

– آه ! صاحت صفري وكأنها تذكرت شيئا ما. « أعرّفك على الدكتور أنطوان أدشيتي الباحث في التاريخ الأندلسي. وموسيو أمزيان هو مدير أكاديمية الفنون الجميلة هنا في الجزائر ».

– تشرفنا... تشـ...

– لا أستغرب في أن يكون خبراء الجمال من بين أصدقائك مدام...

ولبرهة شعر مدير أكاديمية الفنون الجميلة وكأنه تعرض للنشل، وغزاه فجأة شعور غريب بالحقد على هذا الغريب، وتمنى لو أنه يستطيع أن يهرس كفه التي مدها لمصافحته وهو لا يصدق أنه تعرض للتو للاستغلال من طرف وصولي مجهول استغل منصبه الذي بذل كل شيء من أجل الحصول عليه، لإغراق « مدام » بالمزيد من الإطراءات لنيل رصيد أكبر لديها. لقد كانت « مدام صفري » تتربع على كرسي هيئة شابة تشفط سنويا ميزانية بالدولار من مختلف الدول العربية، وكان لابد من أن يفكر كل شخص بأن

يحصل على حصة من تلك الكعكة الطازجة حتى لو كانت تقدمها أيدي بدوية. فكر وهو يشعر بالحنق.

– وموسيو عمر هو صاحب المطبعة التي أشرفت على طباعة أولى إصدارات معهدنا.

– تشرفنا موسيو عمر. ومد الدكتور أدشيتي يده بكياسة لمصافحته. « لا أشك في أن ذلك كان أروع ما طبعت ». ولبس ابتسامة رقيقة وهو يستدير لمخاطبة المديرة مجددا : « لقد كانت تلك بالفعل أفخم نسخة أراها للمصحف الشريف ».

– طبعا... فعلا... طبـ.. ابتسم عمر وهو يحاول لملمة كلماته وقد تشتت تعابير وجهه وشعر للحظة بأنه قد فقد قدرته على التركيز. وبحركة آلية نظر إلى أمزيان الذي كان يقف أمامه وقد اختلطت تعابير الانزعاج على وجهه بشيء من الاستغراب، ولكنه سرعان ما تلقف نظرات الاستغاثة تلك من « شريكه » وحاول السيطرة على الوضع.

– لقد كانت احتفالية يوم أمس لاختتام نشاطات المعهد لهذا الموسم فعلا رائعة ! قال أمزيان وهو يحاول استجماع أفكاره، « لقد طغت فعلا على المشهد الثقافي »، وتابع وهو ينظف حلقه : « وبهذا سيبرز نشاط المعهد بشكل أكبر على الساحة خصوصا أن الجزائر مقبلة على استضافة تظاهرة هامة ». واستطرد باضطراب وقد بدا أنه لم يكن يتوقع أن يجد نفسه في موقف كهذا في ليلة الاحتفال الحقيقية تلك، وهو من كان مستعدا لصف هذه الكلمات على الأقل البارحة أمام الصحفيين لكن ليس الآن وفي هذه اللحظة أمام زجاجات الويسكي والكونياك.

– شكرا... شكرا... قالت صفري بلطف وقد بدا عليها شيء من عدم الاهتمام وسرعان ما فهم المطلوب وتابع...

– وأنت كنت كالعادة... في القمة !

– آه، شكرا ! وعادت لتطوح برأسها إلى الخلف. ليلتقط هو لحظة نشوتها تلك وواصل.

– أتخيل الغيرة التي أثرتها في قلوبهن أمس. وسرعان ما لاحظ أن المسافة بينهما أصبحت أقرب من المسافة التي كانت تفصل صفري عن الدكتور أنطوان، ليقرر المتابعة : « لقد كنت فعلا الأروع على الإطلاق » وأردف : « لابد أن تعلّقي خامسة على صدرك لحماية نفسك من الحسد ». وبحركة لا إرادية نظر إلى رقبتها التي كانت تلمع من أثر البودرة المضيئة التي كانت تغطيها ليرى خنفساء من الزفير الأسود تستقر وسط عنقها البني. وسرعان ما لاحظ برودة استجابتها على هذا التعليق الذي يبدو أنه لم يرق لها. ومن الواضح أنها شعرت بالانزعاج من محاولة انتشالها من الأجواء الباريسية التي كانت تحرص على غرس نفسها فيها ليعيدها بكلمة واحدة إلى جذورها البدوية. لقد كان كل شيء يظهر، من عيني مدام صفري البنيتين الجاحظتين التي اختارت الأخضر الفوسفوري اليوم لتزيين قبّتيهما. والحال أن الحفلات الموجهة للاستهلاك العام كحفلة أمس لم تكن على ذوق أمزيان، إلا أن مدام صفري وإن لم تكن توفر الشراب في مناسبات تحضرها الصحافة والمتربصون بها كما كان يحلو لها تسميتهم حيث تحرص على الظهور بزي محتشم وزينة خفيفة، فقد كانت على الأقل تعفيهم خلالها من أشكال وألوان كالتي يضطرون لمشاهدتها وتملقها في حفلاتها الخاصة بين أصدقائها وأحبائها الذين كان أمزيان محسوبا عليهم. فكر وقد انزلقت عيناه لوهلة لشفتيها الضخمتين الذي تحول امتلاؤهما وهي في هذه السن إلى شيء يشبه قطعة لحم فاسدة استقرت أسفل أنفها وقد اختارت لتزيينها تلك الليلة درجة لامعة من البنفسجي الفاتح.

نظر موسيو أمزيان من حوله في ارتباك وهو يحاول إصلاح ما يمكن للجملة الأخيرة أن تكون قد أفسدته، ولكنه سرعان ما وجد نفسه مجددا في مواجهة مع الدكتور آدشيتي، الذي يبدو وكأنه قد أعطاه مجددا الفرصة لسرق الأضواء منه على طبق من ذهب...

– مدام صفري ليست بحاجة إلى أية « خامسة ». قال مبتسما بلطف مصطنع : « بل هي الإلهة تانيت نفسها ». وقال وهو يشير إلى إحدى المنحوتات التي كانت تقبع بهدوء في إحدى الزوايا المخفية من الصالون، والذي كان لشدة امتلائه بالتحف واللوحات والمنحوتات أشبه بمحل تحف مكتظ لا يجذب أي شيء فيه بشكل خاص اهتمام أحد.

نظرت مدام صفري إلى « أدشيتي » وقد تلألأت عيناها من النشوة. فقد كان الجميع يعامل مدام صفري على أنها آلهة بشكل أو بآخر منذ جلوسها على ذلك الكرسي، وقد كانت تسمع إطراءات من شاكلة المرأة الحديدية... المرأة العظيمة... المرأة الجبارة... لكن أن يقول لها أحدهم صراحة أنها آلهة وبشكل مباشر فتلك كانت فعلا المرة الأولى.

– تمثال تانيت الصغير هذا دليل على تراثنا المشترك. قالت صفري بزهو وهي تفسر لموسيو أمزيان وعمر اللذان بديا تائهين الآن علاقة ذلك الصنم الصغير الذي يقوم بشكل واضح بحركة « الخامسة » الشهيرة التي تقوم بها النساء لدرء الحسد عنهن، بألوهيتها.

– لقد أمضيت وقتا طويلا وأنا أنحته بكل تفاصيله، ولكني لم أجد من يستحق عناء صنعه أكثر منك لأهديك إياه...

– يا للطفك دكتور !

أجابت صفري بدلع، شعر معه موسيو أمزيان للحظات أنه سيستفرغ معه كل الشراب الذي استمتع به الليلة قبل أن يضطر ليقف هذا الموقف...

– وما الذي قصدته بهذا النحت بالتحديد ؟ قال الآن مقاطعا بشكل مقصود ما بدا وكأنها أجواء سريالية نشأت بين الطرفين، وهو يشعر بالاشمئزاز مما بدا له أقبح تمثال عار قد رآه في حياته.

– آه. قال أنطوان متعمدا الاندهاش وكأنه لم يكن منتبها لوجود مدير أكاديمية الفنون الجميلة معهما أصلا. « في الواقع التمثال المتعبد الصغير الذي تراه الآن هو إعادة تجسيم قمت بها للتمثال الأصلي الموجود في المتحف الوطني للآثار في مدريد ».

وأطلق موسيو عمر تنهيدة عميقة، لم يفهم تماما سببها، لكنه شعر لسبب ما بالارتياح لكون هذا التمثال المخصي الذي يقف أمامهم ليس من تصميم هذا الشخص الغريب الذي مد له منذ قليل يده لمصافحته.

الآلهة تانيت ؟ غمغم أمزيان وهو يحدج بريبة مدام صفري التي طالما شعر في حضرتها أنه يقف أمام مهرج قبيح، إلا أنه أحس في تلك اللحظة أنه يقف في مواجهة مشعوذة شمطاء تحيط نفسها بكهنة غريبي الأطوار...

– وتانيت هي إلهة قرطاج العظيمة، وحاميتها وكان يطلق عليها اسم « الربّة ». قال الدكتور أدشيتي وهو ينظر بإجلال إلى مدام صفري التي نفخت صدرها الذي كان يلملم بقاياه وهي من تجاوز الخمسين من عمرها حمالة صدر « پوش آب » منتقاة بعناية من محلات باريس الراقية للملابس الداخلية.

– ولكن ما علاقة هذا التمثال بالإرث المشترك بين المغرب والمشرق العربي ؟ قاطع عمر بفضول صادق حديث الباحث العربي.

– في الواقع تانيت هي إلهة فينيقية من أصل أمازيغي. أجاب أنطوان بلا مبالاة متصنعا الجدية وهو يشعر بالقليل من الانزعاج من مقاطعة عمر له، ثم عاد ليخاطب مدام صفري في نبرة تشبه الغزل : « تانيت في الحقيقة كانت إلهة السماء، التي تتحكم في الشمس والقمر والنجوم... ».

– ولكن كيف يمكن أن تكون آلهة خنثى رمزا لتاريخنا ؟ عاد عمر لمقاطعة الدكتور آدشيتي وهو ينظر باشمئزاز إلى العضو الذكري الصغير لذلك التمثال الملتحي من دون أن ينتبه إلى كونه يشكل عنصر إزعاجٍ لأجواء خاصة كانت تنشأ بين الدكتور أدشيتي ومديرة المعهد...

– قد تكون آلهة متحولة جنسيا ! وقهقه موسيو أمزيان بشيء من الصفاقة وهو يكرع من كأس الشامبانيا...

– تانيت قصتها طويلة. قاطعت الآن مدام صفري موسيو أمزيان بتبرم وواصلت مخاطبة موسيو عمر : « وقد تكون موضوع الإصدار القادم لمعهدنا، والذي سنتعامل فيه حتما مع مطبعتك ». قالت بنبرة جدية، وهي ترسم ابتسامة صفراء على وجهها، موجهة نظرات لاذعة من طرف عينها إلى موسيو أمزيان الذي أدرك في تلك اللحظة أنه قد خسر معركته مع الدكتور آدشيتي. وكز على كأسه بحركة لا إرادية وهو يفكر في كم الأعداء المحتملين الذين لابد له مواجهتهم كل يوم من أجل الحصول على أكبر قدر من المكاسب. أعداء من مختلف الأشكال والأصناف، منافقون متحذلقون من أمثال الأدشيتي هذا، وسذّج مجردون من أي حس للمراوغة من أمثال ماضي الأبله ذاك. وابتسم أمزيان لمجرد تذكره لإلياس وانفرجت الآن أسارير وجهه.

على الأقل هذا ضمنت التخلص منه.

- 40 -

– قد يكون برأيي رمزا لتانيت. قال إيرمانو وهو يتأمل كفّ شعار الجمهورية من على جواز سفر إلياس، والذي لم تكن تفاصيله تبدو بوضوح من خلال الفيديو بسبب سوء نوعية الاتصال بسكايب لذلك اليوم. « لست قادرا على تبين تفاصيل الشعار ». قال إيرمانو وهو يضيّق عينيه الآن محاولا تجميع جزيئات البيكسل الكبيرة التي كانت تشوش على الصورة وواصل : « لكنه إن كان يظهر فعلا الكف بأصابع مضمومة وموجهة إلى فوق فقد يكون ذلك شعار الإلهة تانيت ».

– تانيت ؟! سأل إلياس باستغراب.

– نعم. أجاب إيرمانو : « الإلهة الإفريقية التي انتشرت عبادتها من قرطاجة وإسبانيا مرورا بمالطا وسردينيا. لقد كانت إلهة البحر الأبيض المتوسط بامتياز ». وتوقف الآن للحظات، منتظرا ردة فعل صديقه إلياس الذي بقي صامتا ليواصل : « ففي صقلية مثلا، قد يكون معبد أكروبوليس سيلينوس هو معبد للإلهة تانيت حيث وُجدت الكثير من الرموز المرتبطة بها في داخله تحت اسم فيرجو سيليستيس، هذا كما أن تانيت لها معبد أيضا في روما باسم تانيت/جونو في الجزء الشمالي من الكابيتول ». ثم سكت قليلا وهو يحاول استقراء معنى صمت إلياس الذي كانت نظراته

تختفي وراء أجزاء البيكسل في ذلك الفيديو الرديء ليتابع : « وكثيرون هم قادة الدول على أي حال الذين لم يكونوا يخفون إعجابهم بالآلهات وقد يكون ذلك هو السبب من وراء اختيار رمز تانيت على شعار الجمهورية في بلدكم، فحتى الإمبراطور الروماني إيل جبل كان معجبا بهذه الإلهة الإفريقية وكان هو من جلب تمثالا لها خلال فترة حكمه القصيرة بين عامي 218 إلى 222 إلى روما، حيث أقام معبدا كبيرا باسمه في المدينة ووضع فيه تمثال تانيت الضخم مطلقا عليه اسم سيليستيس ». والآن كح إيرمانو منظفا حلقه وواصل بشيء من الأسف : « صحيح أن إيل جبل قد عُرف عنه مثليته الجنسية وهو ما استدعى اغتياله حيث سُحبت جثته في المدينة ليُلقى بها في نهر التيبر مثله مثل أي مجرم منحرف إلا أن هذا لا يعني أن كل من كان يعبد هذه الآلهة كان موسوما بالمثلية الجنسية ». والآن تابع بنبرة واثقة : « بل كانت تانيت ترمز للقوة بالدرجة الأولى حيث كانت كثيرا ما تُصور وهي ممتطية أسدا، وكانت معبودة من طرف الجنود بشكل واسع في حوض البحر المتوسط. وقد يكون اختيار رمز ارتبط بها ليكون على شعار دولة متوسطية حققت استقلالها بعد ثورة قاسية أمرا غير مستبعد لهذا السبب ».

بقي إلياس صامتا للحظات لينبري الآن بشيء من التردد، وبالكثير من عدم الاقتناع، وهو ينظر إلى غلاف جواز سفره.

– لكن...

– أعتقد أن من تبحث عنه قد تركته اليوم خلفك في روما. وقاطعه إيرمانو دون أن ينتبه أن صديقه قرر أخيرا الكلام وتابع : « لم يكن هناك داع للقيام بكل تلك الرحلة في النهاية لإيجاد تلك

« المرأة ». قال إيرمانو وهو يرجو أن تكون في النهاية تانيت هي مصدر الإلهام الذي كان يبحث عنه صديقه وواصل : « أعتقد أن لوحتك المنتظرة طويلا لن تكون في النهاية إلا لوحة شبيهة بلوحات مونيكا شو[45] المجنونة ». وأطلق إيرمانو ضحكاته التهكمية المعهودة.

والواقع أن مونيكا شو الرسامة السويدية الشهيرة كانت فنانة تشكيلية مهووسة بالإلهة تانيت، ولم تكن تخلو لوحاتها من الرموز المختلفة لهذه الإلهة لا سيما إشارة الكف هذه التي تظهر على شعار الجمهورية الجزائرية. لقد كانت تلك فنانة يُعرف عليها انتماؤها إلى الحركة النسوية والتي كان يعتبرها البعض فيها مناضلة متطرفة حتى أنها لم تكن تخفي عبادتها للإلهة الأم الأرض وقد كان آخر عمل لها قبل أن تتوفى عام 2005 كتاب معنون بـ « البحث عن تانيت : الإلهة الإفريقية/السامية العظيمة وشعبها[46] ».

– في الواقع لا أعتقد صدقا أننا شعبها. قال إلياس وهو لا يزال ساهما في ذلك الشعار.

– ولم لا تريد أن تمنح نفسك فرصة للتفتيش عن صورتها في داخلك ؟ قال إيرمانو مستغربا ما بدا وكأنه رفض قاطع من إلياس للفكرة التي طرحها وتابع : « باعتقادي قد تكون تانيت هي فعلا المرأة التي تبحث عنها ريشتك ».

– لا أعلم. أجاب إلياس بنبرة مترددة. « لكنني لا أعتقد أن هذه الإحالات الوثنية هي فعلا ما عناه استخدام هذا الشعار هنا ». فكر إلياس وهو يذكر علامات الخجل التي ارتسمت على وجه « يمّا مريم » وهي تقدم له الخبز وكأنه سبة، وليس كأنه أغلى منتجات

45. Monica Sjöö.
46. Seeking Tanit : African/Semitic Great Goddess and Her people.

الأرض (أمنا) بتعبير مونيكا شو مقدسة تانيت، وابتسم الآن بشيء من التهكم، « لا أعتقد أن هذا هو تفسير الكف على شعار الجمهورية الجزائرية، كما لا أرى بصراحة أن هناك فعلا ما يجمعنا بالرومان، ولا بالإمبراطور إيل جبل هذا ». وقال الآن بشيء من الأسف : « حتى وإن كان ذلك إلهة من اختراعنا ».

ونظر إلياس إلى شعار الجمهورية المحاط بكل تلك النباتات والحبوب، ولم يفته تذكر أن الجزائر تستورد قمحها وغذائها، بل ووصفة خبزها اليومي المقتصر على القضبان الفرنسية. وتنهد الآن بالكثير من الأسى، وفكر كيف أن خبازي الإمبراطورية الرومانية كانوا يحتفلون بالمقابل في 9 من جوان من كل عام بعيد فيستاليس، على شرف الإله الروماني جوبيتير. حيث يصف شاعر روما أوفيد كيف كان يعبد الرومان جوبيتير بيستور أو جوبيتر الخباز، والذي وبحسب أوفيد، قد تضرع له الرومان عام 387 قبل الميلاد عندما هاجمهم جيرانهم الغاليّون، فألهمهم الإله الكبير فكرة إلقاء أغلى ممتلكاتهم على أسوار المدينة في وجه الغزاة. وهكذا قاموا بتحضير قطع خبز صغيرة بكل ما توفر عندهم من دقيق وهم يتضرعون لإله القمح سيريس لمساعدتهم في مسعاهم. وبالفعل وبمجرد اقتراب الغاليّين من أسوار المدينة قام الرومان بإلقاء ما صنعوه من خبز عليهم. ولما رأى الغاليّون ذلك فهموا أن عدوهم ممون على أحسن وجه، وهو ما قد يخولهم تحمل الحصار الذي أرادوا ضربه على الرومان قبل غزو مدينتهم، الأمر الذي جعل الغاليّين يتراجعون عن مخططهم. وقد بنى الرومان تخليدا لذكرى إنقاذ المدينة بواسطة خبزها، معبدا لجوبيتر ليذكرهم بارتباط الخبز والحبوب التي تنتجها الأرض بمصير روما وبقائها على قيد الحياة. وقد ذهبت

الإمبراطورية الرومانية بعيدا عندما قامت بتأميم صناعة الخبز. كما كان الخبازون الرومان يعملون تحت المراقبة اللصيقة من أجهزة الدولة ربما لأنها كانت على علم بما يمكن لفقدان الخبز أن يسبّبه من زعزعةٍ في أوصالها. وهو ما حدث في فرنسا بعد أكثر من ألفية بسبب المجاعات المتعددة التي عرفتها البلاد، ونقص الخبز الذي تسبب في الثورة الفرنسية. والواقع أن أحفاد الغاليّين قد فهموا أخيرا أهمية الخبز الوطنية ودوره الكبير في الصراعات السياسية والاقتصادية عبر العصور. فحرص حكام فرنسا بعدها على ضمان توفيره لرعاياهم. هذا وكانت رسائل نابليون تشهد على انشغال الامبراطور الشديد بشأن توفير الخبز في باريس. والحقيقة أن وزن الخبز وثمنه بقي لحد الآن في فرنسا خاضعا لتنظيم الدولة، وهو الحال نفسه مع الجزائر التي تحرص أيضا على توفير ودعم سعر ذات الخبز لجميع مواطنيها... الباغيت. وسعل الآن إلياس بقوة وكأنه يكاد يختنق من الفكرة. وواصل : « اسمعني يا إيرمانو لست في الواقع مقتنعا البتة أن هذا الكف يرمز إلى إلهة ترتبط بالأرض ».

صمت إيرمانو وهو لا يفهم سبب تحامل صديقه على الإلهة تانيت بينما تابع الآخر : « جدي طالما كان يقول لي أن كل ما تراه هنا قد لا يعني بالضرورة تماما المقصود منه ».

– بمعنى ؟ سأل إيرمانو باهتمام.

– أقصد أنه قد يكون هناك معنى سري وراء هذا الرمز.

قطب إيرمانو جبينه وكأنه احتاج إلى تلك الحركة من أجل أن يحدد ما كان يبحث عنه إلياس من بين جميع المعاني التي قد يحملها هذا الرمز المنتشر بقوة في مختلف الأديان والطقوس السحرية. وقال الآن بنبرة حازمة.

– أرسل لي صورة واضحة لذلك الشعار. قال وهو يفرك جبينه بأصابع يده اليمنى : « فقد يكون لهذه الكف علاقة بالمودرا ».

- 41 -

تأمل إبراهيم صورة ذلك التمثال الغريب المحمّل من محادثة إلياس الأخيرة على السكايب وقد شعر باشمئزاز خاص. كان من الواضح أن اهتمامات ذلك القتيل شاذة على نحو يدعو للتقزز، حيث كان ذلك التمثال يشبه كتلة حجرية مصنوعة من القيء، ولم يشعر بنفسه الآن إلا وهو يكوّر أنفه بحركة لا إرادية.

– إنها مصابة بالجذام.

– عفوا ؟ رد إبراهيم وقد بدا أنه لم يكن منتبها لوجود مساعده الذي يبدو أنه كان يحدثه في موضوع ما.

– عجوز السلالم. أجاب برنة تشبه الألم.

– حسنا. قال من دون أن يظهر أي تعبير من صوته، وهو من كان قد صرف تفكيره عن عجوز سلالم تليملي المتشردة التي لم يكن هناك أي دافع لها من وراء قتل فنان من دون سرقة ماله، خصوصا وقد دخلت عناصر أخرى على القضية.

– وقد تكون خرساء، واصل خير الدين بشيء من الأسى. « وبحسب مركز العجزة والمرضى العقليين الذي كانت تأوي فيه في باب الزوار لم يكن يعرف أحد شيئا عنها ».

– ولماذا تركوها أصلا تهرب من المركز ؟ طرح سؤاله الاستنكاري بلامبالاة بنبرة لا تخلو من قسوة.

صمت خير الدين قليلا وكأنه يحاول كبت دموعه وهو يتذكر ملامح وجه عجوز سلالم تليملي الموجعة وواصل : « على أي حال تقنيا من المستحيل أن تكون هي القاتلة ». واستطرد بصوت متهدج : « فقد كانت تعاني من تشوه في أصابع يدها بسبب إصابتها... ».

– الآن لا يهمنى هذا الموضوع. قاطع المحقق مساعده بانزعاج وهو ينظر إلى الصور التي تبادلها إلياس مع إيرمانو في الأيام الأخيرة، وقد لفت انتباهه بشكل خاص تمثالٌ لإلهة خنثى.

إلياس هذا كان بلا شك شخصية غريبة. غمغم إبراهيم وهو يأخذ نفسا من سيجارته المحلية، وقد بدأ تفكيره يأخذ منعرجا آخر...

- 42 -

– المودرا ؟؟ تساءل إلياس باستغراب.

– نعم المودرا. قال إيرمانو. وتابع وهو يشعر الآن بالحماسة : « فنحن عندما نقوم بدراسة الفلسفات، والمعتقدات والثقافات الشرقية بالإضافة إلى الأساليب الهندوسية والبوذية في ممارسة اليوغا نجد حضورا قويا لرمزية الكف فيها. ذلك أن الطقوس والرقصات الروحية في هذه الديانات تنطوي على القيام بحركات ذات معاني رمزية عميقة ويُعتقد أن لها خصائص مقوية للنفس. وعلى الرغم من أن كلمة مودرا تعني الرمز أو الختم باللغة السنسكريتية، لكنها تحمل أيضا معاني أخرى في فلسفتي التانترا واليوغا وجميعها يرتبط بإيقاظ الطاقة النشطة الداخلية عند المرء ».

– لكن ما علاقة كل هذا بـ...

– ولذلك يطلب خبراء اليوغا من إبقاء حركات المودرا سرية وعدم تعليمها للجميع. تابع إيرمانو من دون أن ينتبه لمقاطعة إلياس له : « ذلك أن تعلم الأشخاص غير المناسبين لها من شأنه أن يمنحهم قوى ومهارات جسدية كبيرة تدعى « سيديس ». وعليه فمن لا يكون مؤهلا روحيا لممارسة حركات اليد في هذا النشاط السحري الخاص يمكنه أن يسبب الأذى لنفسه ولغيره إذا ما نجح في تنفيذ تمارين المودرا بدقة وبالتالي كشف خصائصها السحرية.

– حسنا ايرمانو، لكن اشرح لي العلاقة بين كل هذا وما أسألك عنه...

– خذ هذا، وواصل إيرمانو حديثه بحماس وقد هم الآن برقن فقرة من كتاب « فاجرايانا تانترا » المختص بتعاليم مذهب الفاجريانا البوذي والذي يعد الفترة الخامسة من فترات تطور الديانة البوذية الهندية، ويعرف هذا المذهب أيضا باسم المانترا السرية :

> احرصوا على عدم نشر هذه التعاليم على نطاق واسع. هذه التعاليم ينبغي أن تبقى حتما سرية وألا يطلع عليها الآثمون، وحانثو اليمين، وكذا المتحذلقون والثرثارون. كما لا يجب أن يتعلمها أيضا المتشككون والنمامون، ولا أن تلقن للمهرطقين غير الصادقين... إبعاد هذه التعاليم المقدسة عن هؤلاء الأشخاص مبدأ لا يجب الحياد عنه.

قرأ إلياس النص الذي رقنه لتوه إيرمانو وبعثه عبر رسائل المحادثة وهو يشعر بالضياع، بينما واصل إيرمانو كلامه بالكثير من الحماس...

– ولعلمك فباتانجالي جامع نصوص اليوغا سوترا الهندية لم يشر في نصوصه الـ 195 عن السوترا إلى المودرا بأي شكل من الأشكال، وقد يكون ذلك تطبيقا لقاعدة عدم تلقين إشارات اليد السحرية هذه للعامة، ذلك أن سوء استخدام هذه القوى البدنية أو تسخيرها لأغراض خاصة من شأنه أن يؤدي إلا هلاك الفرد. وعليه كان لابد من تخصيص هذه المعرفة لذوي الحكمة والتطلعات الروحية الحقيقيين، وليس لمن ينصب اهتمامهم سوى على دنياهم أو حتى من يطمح إلى الوصول إلى مراتب روحية قد تصل به إلى الشطط. وعلى فكرة فالمذاهب المخصصة « للقلّة » نجدها في جميع التقاليد الروحية تقريبا كالكبالا مثلا و...

- لكنني لا أعلم ما علاقة كل ما تقوله والمودرا هذه بالكف الموجودة على شعار الجمهورية الجزائرية. وقاطع الآن إلياس صديقه بشيء من العصبية.

صمت إيرمانو للحظات، وحاول تجاهل نبرة الغضب التي جللت صوت صديقه.

- ببساطة لأن الكثيرين من قادة الدول يؤمنون أنهم لابد أن يحصلوا على هذه المعارف لتهيئة أنفسهم للحصول على قوى خارقة، بإيقاظ قوى الكونداليني لديهم بحسب الفلسفة الهندوسية، والتي لها مزايا معيدة للشباب وهو ما يجعل هذه التعاليم أشبه بإكسير للحياة، حيث يتحرر الإنسان بممارسة طقوس المودرا من حالته الإنسانية لتقربه من الحالة الإلهية. وكل هذا بفضل حركة اليد.

والآن ساد صمت غريب بين الاثنين، واستطرد إيرمانو بحذر : « ألا تعتقد أن حكام منطقتكم المعمرين على كراسيهم لا يسعون إلى الخلود ؟ » وقال كلمته الأخيرة وهو ينظر إلى صديقه بشيء من الترقب.

بقي إلياس صامتا للحظات وهو لايدري أين يضع كل هذا الكم من الشروحات الغامضة لشعار سياسي، لكنه لم يمنع نفسه من تذكر شعر الحكام العرب الأسود أبدا ووجوههم المتشمعة. لم يكن يبدو أن هؤلاء كانوا يريدون أن يشيخوا... أن يرحلوا... أن يموتوا... ورنرنت كلمات صديقه في أذنه :

« حيث يتحرر الإنسان بممارسة طقوس المودرا من حالته الإنسانية لتقربه من الحالة الإلهية »...

وكيف يقدس المواطنون هؤلاء ويجعلونهم أشبه بأنصاف الآلهة.

« ذلك أن سوء استخدام هذه القوى البدنية أو تسخيرها لأغراض خاصة، من شأنه أن يؤدي إلى هلاك صاحبها »...

وكيف ينتهي البعض منهم بميتات مقيتة وأخرى عجيبة.

والآن شعر بدقات قلبه تزداد خفقانا بينما أخذ يتأمل ذلك الشعار الذي صُمم في عهد الرئيس الجزائري الأشبه بالأسطورة وشعر أنه يحمل بين يديه تعويذة سحرية وسرعان ما حاول لفظ كل تلك الفرضيات من ذهنه واستطرد بانفعال : « ولكن ما الذي يمكن أن يجلب حركة مودرا سحرية من الشرق لا نعرف مغزاها لتحط على شعار جمهورية دولة متوسطية لا تمت بأي علاقة بالثقافة الهندوسية ؟! ».

والآن صمت إيرمانو للحظات وهو غير متأكد إن كان إلياس مستعدا فعلا لسماع ما كان مقدما على قوله.

- 43 -

تناول نسخة من الإنجيل وأخذ يقلب أوراقها بعناية دون أن تستوقفه أي آية محددة، وقد خامره شعور قوي بالانزعاج لدى دخول والده الذي صفعه بنظرة قاسية من عينيه الزرقاوين الثاقبتين بمجرد ولوجه إلى الغرفة بينما كان هو غارقا في الفراغ، ليتوقف فجأة عند الإصحاح الخامس، وقد شعر بنظرات والده وهي تحاول التلصص على أفكاره، والتسلل إلى كواليس عقله.

لا يفهمني.

فكر إسحاق وهو يشعر بالاستياء من والده الذي كان يطلق عليه اسم الرجل القديم الذي كان يعرقل متعمدا أحلامه، بل ربما كان يكرهه. وفكر بحسرة وهو يتذكر أن أباه لا يريد لحد الآن التصريح به في مصالح الضمان الاجتماعي كعامل عنده حتى لا يكتمل ملف طلب التأشيرة الذي من شأنه أن يخوله الفرار من هذا البلد. وكز على أسنانه وقد عادت إلى ذهنه أصوات المتغامزين والمتلامزين من حوله في الحي والثانوية : كافر... يهودي. لا أعرف لماذا كان يريدني أن أبقى بين هؤلاء كما يفعل هو. والآن شد على الكتاب بحركة عصبية وهو يشعر بانقباض في صدره لمجرد تذكره لذلك الأصبع المجنون الذي انقض على رأسه في آخر يوم له على مقاعد الدراسة ويبدو وكأنه لا يزال يلاحقه في كل مكان حل فيه، ولا مفر له منه سوى أن يرتحل. وحول نظره إلى الحاسوب وتأمل صورة حساب

صديقه مراد على الفايسبوك وهو يقف بفخر أمام برج إيفيل وعاد لينظر إلى ذلك الكتاب الذي تركه له قبل سفره.

هل ينبغي عليّ أن أمر بذات الطريق ؟ فكر وهو يحدج الآن سي بن هارون الذي كان لا يزال يطالعه بنظرات خاوية.

– ماذا تقرأ ؟ سأل سي بن هارون ابنه بنبرته الجليدية المعتادة.

ونظر الآن إسحاق إلى الصفحة التي توقف عندها من إنجيل متّى، وابتسم بمكر.

– « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن... ». ليتنحنح سي بن هارن في حركة انزعاج واضحة، بينما واصل إسحاق تلاوته غير مبال بإثارة أعصاب والده : « وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا ». وتابع إسحاق بنبرته الاستفزازية المعتادة، بينما شعر والده أنه يريد في تلك اللحظة أن ينقض على لسان ابنه ويسحبه من حلقه ليتعلم الأدب. « ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا. ومن سخّرك ميلا واحدًا فاذهب معه اثنين ». ونظر إسحاق الآن إلى والده بتحدّ، « ومن سألك فأعطه ومن أراد أن...

– أما أنا فلا أؤمن سوى بالعين بالعين ! صاح سي بن هارون مقاطعا ابنه وهو يحاول الحفاظ على هدوئه.

لم يكن سي بن هارون يفهم سبب تمرد ابنه، والسر في نزقه. لم يكن يفهم ما الذي كان يقف وراء طيشه. ربما كان يكرهه. فكر وهو يستذكر نقاشه اليوم مع سي عبد الله. لماذا يصر على أن يفضح نفسه ؟ لماذا يريد تحطيمي ؟ لينهض الآن مباشرة من مكانه. بينما التفت إسحاق مجددا إلى حاسوبه. لم يكن هناك شيء آخر يقولانه لبعضهما البعض. لم يبق هناك سوى الأفعال. فكر إسحاق وصورة إلياس وهو يسحب حقيبته من أمام ساحة أودان اليوم لا تفارق ذهنه.

- 44 -

بقي إلياس فاغر الفاه لدقائق، قبل أن يرمي سؤاله في دماغ صديقه، وهو يشعر بالكثير من التوجس.

– ولكن ما علاقة المودرا بالكف الموجودة على ختم الجمهورية ؟

سأل إلياس إيرمانو بدهشة ممزوجة بالكثير من الإعجاب بصاحب ذلك العقل المتقد الذي لم يفارقه منذ أول يوم قابله في أكاديمية ألبيرتينا حيث جمعت بينهما صداقة قوية منذ أكثر من عشرين سنة، فغدا بذلك صاحبه الأوحد الذي لم يكن له أن يستغني عنه حتى وهو يتقلب داخل بحر أفكاره.

– العلاقة قد تكون مع أرداناريشافرا. أجاب إيرمانو بصوت عميق.

صمت إلياس للحظة واستطرد بريبة.

– هل تقصد شيفا الإله الأكبر في الديانة الهندوسية ؟

– الإله أو الإلهة. رد إيرمانو وهو يحاول الآن تبين معالم وجه صديقه من خلف شاشة الكومبيوتر وواصل : « لأن الأمر غير محدد كما تعلم ».

وقد كان الإله/الإلهة شيفا وهو كبير الآلهة الهندوسية خليط بين الرجل والمرأة، فلكونه إلها خالدا لم يكن بحاجة للتناسل، وعليه فلم يكن بحاجة إلى تحديد جنسه، ولكونه الإله الذي كان يرمز

إلى التدمير والخلق، يقال أن شيفا كان/ت تـ/يجسد التناقضات كالموت والحياة، النور والظلام، الذكر والأنثى.

والآن أرسل إيرمانو صورة لنحتٍ من جنوب الهند يعود للقرن الرابع عشر، وقد كان يظهر التناقض الذي كانت تجسده الإلهة شيفا بتلبس جسد رجل وامرأة في نفس الوقت، وهي السمة الأساسية التي كانت تقوم عليها النظرة الهندوسية للكون.

« كما ترى من خلال هذا النحت لا يمكن أن نتبين تماما جنس شيفا ». قال إيرمانو مستطردا في شرح ذلك النحت الذي كانت تحتفظ به مؤسسة ألسدورف الأمريكية وواصل : « وتبدو الطبيعة الزئمردية لهذا الإله من خلال النهد البارز له من الناحية اليسرى فقط، والزي الذي يُظهر من ذات الناحية رداء ملفوفا على الخصر على نحو ما ترتديه النساء، بينما يظهر على اليمين لباس رجل يشبه البنطال الذي يصل إلى الركبة ».

– نعم وما علاقة موضوعنا بهذا ؟ طرح إلياس سؤاله المكرر للمرة الرابعة في تلك الليلة.

والآن نقر إيرمانو على بعض الملفات على حاسوبه واختار إحدى الصور، ثم تردد للحظات وقرر إرفاقها أخيرا بالمحادثة على شبكة التواصل الزرقاء السماوية.

فتح إلياس الصورة وهو يشعر بالارتباك. وسرعان ما ارتطمت عيناه بكف الخامسة التي كان يشير بها تمثال عارٍ ملتحٍ يحمل عضوا ذكريا صغيرا، ويرتدي أقراطا بارزة، كما كان يضع قلادة تحمل رمزا مألوفا.

– أليس هذا الرمز الذي يظهر في لوحات مونيكا شو ؟ سأل إلياس بريبة.

- نعم. قال إيرمانو بهدوء : « لقد وُجد هذا التمثال الصغير، في مقبرة بويج دي مولينس في إيبيزا وهو يعود إلى القرن الثالث من ميلاد المسيح ». وصمت قليلا ثم واصل : « وكما تلاحظ هذا التمثال الذي يبدو ثنائي الجنس هو الآخر تماما كالإله شيفايا، يعتقد الباحثون من القلادة التي يحملها وكذا الكف أنه قد يكون للإلهة تانيت ». ثم تابع بتردد : « يبدو أن هناك علاقة بين شيفايا و... ».

- تبا ! وصاح إلياس على الطرف الثاني من الخط مقاطعا إيرمانو : « ألا زلت تحدثني عن تانيت الملعونة هذه ؟ » وأغلق الآن الصور التي أرسلها له إيرمانو صابا جام سخطه على لوحة المفاتيح. واستطرد بغضب : « لقد أخبرتك أن هذه الكف لا يمكن أن يكون لها علاقة بتانيت ولا بالتعاليم السحرية لصديقتها شيفايا إذن، كلمني عن شيء آخر ! ».

وخيم للحظات على الأجواء صمت بدا وكأنه دام لساعات. وشعر إيرمانو لوهلة أنه لا يعرف محدثه، الذي غدا فجأة عصبيا على نحو لا يحتمل. وحاول تبيّن ملامحه من وراء شاشة الحاسوب فوجد وجها ضبابيا، لكنه حتما لم يجده. لم يكن ذاك هو إلياس الذي طالما عرفه.

- لا أعرف أي نوع من التفسيرات تريد ؟ قال إيرمانو بهدوء محاولا كسر دراماتيكية اللحظة وهو يحاول تجاهل العدوانية غير المعهودة في طريقة كلام صديقه معه لذلك اليوم. وواصل بنبرة شبه باردة : « أنا لم أحاول سوى أن أقدم لك تفسيرات تتناسب والثقافات الشرقية أو ما له علاقات بالمعتقدات الوثنية التي حكمت منطقتكم ». وواصل الآن على مضض : « لم أجد أن هناك

داع لسرد التفسيرات الرمزية للكف في المسيحية ودلالتها في المذهب الكاثوليكي ».

والحال أن الكف تحتل مكانة كبيرة في الثقافة الرمزية المسيحية حيث تشير عادة إلى الوجود الإلهي. وفي المذهب الكاثوليكي بالتحديد لطالما تم تصوير التأثير الإلهي على مجريات الكون في اللوحات والجداريات التي تعود إلى القرون الوسطى من خلال يد عظيمة تخرج من بين الغيوم لتحمل معها رسائل روحية هامة للرسل والقديسين. أما في الكاثوليكية المعاصرة فهي تصور يد يسوع كاليد القادرة أو Mano Poderosa، وتظهر اليد المصلوبة أصابع المسيح وهي ممدودة حيث يقف على أطرافها مختلف القديسين. لم تكن اليد ترمز يوما إلى القدرة البشرية في العرف المسيحي، بل كانت دوما إشارة للألوهية، فاليد المقدسة تظهر رمزيتها في تأثيرها على صيرورة الأحداث اليومية للبشر، عندما يضل الناس عن طريق الحق. والكتاب المقدس يعج بالقصص التي تتحدث عن التدخل الإلهي في سير الكون ممثلا بيد حقيقية. فليست يد الله هي من خطت فقط « الوصايا العشر » على ألواح موسى بحسب العرف المسيحي، بل هي من أعلنت للملك البابلي بلشصر مصيره المحتوم :

« وفي تلك الساعة، ظهرت أصابع يد إنسان، وكتبت تجاه المصباح على كلس حائط قصر الملك. والملك يرى طرف اليد التي تكتب ».

كانت تلك كلمات ملغزة لم يتمكن أحد في القصر من رؤيتها غيره...

« حينئذ تغيرت سحنة الملك وروّعته هواجسه وانحلت عقد وسطه واصطكت ركبتاه وصرخ الملك بصوت شديد أن يُدخلوا العرافين والكلدانيين والمنجمين... ».

ولكن رجاله طمأنوه...

« أن في مملكتك رجلا فيه روح الآلهة القدوسين، وفي أيام أبيك وُجد فيه نور وفهم وحكمة كحكمة الآلهة. وقد أقامه الملك نبوكد نصر أبوك رئيس السحرة والعرافين والكلدانيين والمنجمين. إذ وجد فيه روح بارع وعلم وفهم في تفسير الأحلام وفك الألغاز وحل العقد، وهو دانيال الذي سماه الملك بلشصر. فليدع الآن دانيال ويبين التفسير ».

ما الذي يمكن أن يفسر كتابة إلهية سوى روح إلهية ؟...

وأسكت إلياس الآن أفكاره حتى لا تشوش على صوت خالته العائد إلى رأسه قبل خمس سنوات...

– كم كنت أتمنى أن أزور قبر القديس أوغسطين. قالت وهي تشعر بالامتعاض بينما كانا في طريقهما إلى المطار.

– إذا أردت يمكننا تمديد الرحلة والسفر إلى أم البواقي مسقط رأسه أو عـ..

– ليس لدي وقت. قاطعت كاترينا إلياس وهي تنظف حلقها بتصرف لا إرادي واستطردت : « لدي مسؤوليات تنتظرني في إيطاليا ». قالت الخالة العجوز وهي تعدل شعرها، « لكنني على أي حال سأقول لأصدقائي في الكنيسة أنني زرت مسقط رأس القديس أوغسطين ».

– وبالمناسبة. قال إيرمانو وهو يحاول أن يكسر ذلك الصمت المزعج الذي خيم على المحادثة : « فمن وجهة النظر الميتافيزيقية،

وبعيدا عن المعتقدات الدينية. يعتقد بعض المؤمنين بالسحر أنه يمكن لهذه الكف أن تمثل رمزا سحريا معروفا. إذ يعتقد خبراء السحر الأبيض أن ظهور يد من دون جسد أمر ليس مستغربا في الحياة العادية وتُعرف هذه الظاهرة باسم « الأيادي البيضاء »، ويعتقد أن هذه الأيادي لسحرة يملكون قدرات خارقة ويعملون لخير الإنسانية. ويقال أنهم يعملون على أبعاد عليا خلال الليل من خلال إسقاطات مدارية. والبعض من السحرة المتمرسين لهم القدرة على تجسيد يدهم فقط دونا عن بقية جسدهم من أجل إحداث تغيير مادي على محيطهم الملموس لمساعدة المضطهدين أو لإنذار الطغاة المتجبرين ». قال إيرمانو بغير اقتناع. ثم واصل بحماسة الآن وهو يحاول تغيير الموضوع الذي يبدو أنه قد استولى على ذهن إلياس كليا : « هل تعلم أن قصة الملك بلشصر الإنجيلية قد تدخل في هذا الإطار أيضا ؟ هل سمعت يوما بلغز « كتابة الجدار » ؟ وانخرط إيرمانو الآن في كتابة رسالة على نافذة المحادثة، بينما واصل الحديث دون أن يلاحظ عدم متابعة إلياس لكلامه : « إنها الرسالة الشهيرة التي تظهر مكتوبة بالعبرية وسط إشعاع شمسي في لوحة ريمبراند[47] « مأدبة بلشصر » التي رسمها في القرن الـ 17، والتي يحتفظ بها الناشونال غاليري في لندن :

Mene, Mene, Tekel u-Pharsin

« منا منا، تقل، وفرسين. وهذا تفسير الكلام : منا، أي : أحصى الله أيام ملكك وأنهاها. تقل، أي : وزنت في الميزان فوجدت ناقصا. فرسين، أي : قسمت مملكتك وأسلمت إلى ميديا وفارس. حينئذ أمر بلشصر، فألبس دانيال الأرجوان، وقلد طوق

47. Rembrandt Harmenszoon van Rijn.

الذهب في عنقه ونودي له بأنه الثالث في سلطان المملكة. وفي تلك الليلة، قُتل بلشصر، ملك الكلدانيين ».

ورد في سفر دانيال...

– لقد كانت تلك رسالة تحذيرية من يد بيضاء لملك متجبر.

والآن صمت إيرمانو فجأة عن الكلام وشعر فجأة وكأن الدم قد تجمد فجأة في عروقه لفكرة قد عبرت ذهنه.

– القديس أوغسطين ولد ومات هنا. قال إلياس بصوت آلي وهو الذي لم يكن يسمع شيئا مما كان يقوله صديقه. ليعود وينظر بريبة إلى اليد التي كانت تتوسط شعار الجمهورية ومن ورائها تشع شمس ذهبية. « هل يمكن أن تكون هذه اليد ببساطة رمزا ليد الله في العرف الكاثوليكي ومجرد تذكير بأن الجزائر قد كانت أرض أحد أهم وجوه الكنيسة الكاثوليكية عبر التاريخ ؟ » لفظ إلياس كلماته تلك بشيء من الخيبة، وقد شعر أنه فقد للتو خيطا كان يأمل أنه قد يوصله إلى مصدر إلهامه. ليست حتما الكنيسة.

فكر وهو يتذكر الخالة كاترينا... كاترينا المتعجرفة... كاترينا المتديّنة... كاترينا الشريرة.

وفي هذه اللحظات رجعت إلى ذهن إيرمانو صورة الكف المرسومة على أول راية للدولة الجزائرية. راية الأمير عبد القادر، وسلامياتها المحددة على نحو مستغرب، ومقولة جد صديقه المتوفى. « يبدو أن جدك محق إلياس ». هتف إيرمانو وهو يشعر بالإثارة، « أريدك أن ترسل لي مراجع عن الأمير عبد القادر ودولته. » ثم تابع بحماس طفولي : « وأيضا مراجع عن علمكم وعن دلالة النجمة فيه ». وفكر أستاذ الفن المقدس الآن في كل ما أثار دهشته ذلك اليوم وبحثه السريع على الإنترنت حول الجزائر. كم كانت غريبة تلك

النجمة المائلة. والآن فكر بحماسة أكبر : « وأريد أيضا مرجعا عن المحافل الماسونية عندكم، أعتقد أن لها علاقة بـ..

والآن

انقطع الخط...

- 45 -

جلس إسماعيل على حافة المقعد الحجري في حديقة أكاديمية الفنون الجميلة من صبيحة ذلك اليوم المشمس والذي لم يبد بالنسبة له أقل تعاسة وكآبة من اليوم الذي سبقه والذي سيليه منذ أن حطت قدماه أرض العاصمة قبل أربع سنوات، فكر وهو يكبس بعصبية على زر النزول بقائمة المكالمات الصادرة والواردة في هاتفه الجديد الذي اشتراه من تجميع مال المنحة الجامعية، ليتوقف الآن أمام اسمها. شد على قبضته بحركة غريزية، وهو يتذكر آخر جملة قالتها له في اتصاله المحموم معها نهار أمس.

« سهيلة لن تتأخر في إيجاد رسام غيرك »

وكز الآن على أسنانه وقد شعر أنه على وشك الانفجار وأصوات قهقهات الطالبات في الحديقة من حوله كانت تنخر رأسه.

« أكاديمية الفنون الجميلة مليئة بالرسامين مثلك أو أحسن منك ».

وشعر الآن أنه يود أن يقتلع ذلك الكرسي ويدق به رؤوس الجميع، بدءا من رئيس الأكاديمية الذي لم يتمكن يوما من مقابلته وجها لوجه ليطرح عليه انشغالاته، مرورا بالأساتذة الذين كانو يتعمدون الحديث معه بلغة لا يتقنها، انتهاء بزملائه الطلبة... جميع الطلبة الذين تنتظرهم مناصب عملهم لمجرد أنهم أبناء فلان، أو معارف

علان أو أولئك الذين سينافسوه على عمل بلا مقابل في شركة بائسة.

« وتماما كما وافقت أنت على العمل معها سيوافق غيرك من الطلبة على أخذ مكانك في أوبتيميديا... ».

كان إسماعيل يشعر بأنه يختنق وأن هناك كتلة ما لا يعرف طبيعتها تستقر منذ فترة في حلقه. كان يشعر في لحظات كثيرة أنه يرغب في البكاء لكنه لن يسمح لنفسه بذلك. « بل سأقتلها ». تمتم وهو يحاول دفع تلك الكتلة التي كانت تقبع في حلقه، بينما كان يتذكر كلمات داميا.

« إن استمريت بهذا الأسلوب... »

والآن توقف فجأة أمام هذه الكلمة، وسرعان ما هطلت على رأسه أفكار غريبة لم يشعر بنفسه إلا وهو يتشبث بإحداها، وقد ارتسمت ابتسامة غير اعتيادية على وجهه، لينهض من مكانه بهدوء، وهو يكتب رسالة نصية لن تكلفه أكثر من أربعة دنانير على هاتفه لسهيلة.

Salam, rani jay nekhdem les pubs li gali 3lihom 7amza...[48]

ضغط على زر الإرسال، وتوجه الآن نحو البوابة الخارجية للأكاديمية وهو يحفر الأرض بقدميه.

سأتبع أسلوبكم أيها السفلة...

48. سلام، أنا قادم لتصميم الإعلانات التي طلبها مني حمزة...

- 46 -

- موسيو أمزيان في اجتماع ولا يمكنه مقابلتك اليوم.

قالت السكرتيرة وهي تعدّل بلامبالاة خمارها الرمادي الكبير الذي كان مسدلا على كتفيها دون أن تنظر إلى وجه محدثها.

- عفوا لكن بحسب الورقة المعلقة في المدخل فاليوم هو يوم استقبالٍ إلى غاية الساعة...

- قلت لك الرئيس لديه اجتماع. قاطعته الآن بنبرة عالية وقد ثبتت يدها على الدبوس الذي كانت تحكم به إغلاق خمارها وكزت على أسنانها بحركة عدوانية وهي مطبقة عينيها.

شعر إلياس للحظات بالفزع من حركات السكرتيرة العدائية غير المبررة اتجاهه وهو من يدخل مكتبها لأول مرة، لكنه فكر أنه ربما قد يكون أخطأ في شيء ما معها، أو أنها كانت تعاني في تلك اللحظات من أزمة مع خمارها وقد اختلط عليها أمر التمييز بين أزماتها الخاصة ومتطلبات مهنتها، وحاول إلياس تفهم وضعها واستدرك.

- آسف على الإزعاج سيدتي لكن هل يمكن إذن أخذ موعد حتى...

- لا. قالت بجفاف وقد استدارت الآن إلى حاسبوها وبدأت ترقن عليه بلامبالاة واضحة. بينما كانت تتأكد بين الفينة والأخرى أن خمار رأسها يغطي أسفل ذقنها.

– عفوا ؟ نظر إلياس إلى السكرتيرة في غير تصديق، وقد شعر أنها تحدث ربما أحدا غيره، والتفت بحركة لا إرادية حوله واستطرد الآن بشيء من الارتباك : « لكن كيف يمكنني أن أعرف متى يمكنني العودة لمقـ... ».

– هناك أيام استقبال. قاطعت السكرتيرة مجددا إلياس بنفاد صبر هذه المرة، وهي لا تزال مثبتة نظرها على الحاسوب ولكنها كانت قد توقفت عن الرقن بحركة شبه تهديدية.

– لكن اليوم يوم استقبال ومع ذلك...

والآن شعر إلياس وكأن شيئا يشبه قارورة غاز البوتان قد انفجرت في وجهه دون سابق إنذار...

– « انت تحب تفهم بزاف »... صاحت السكرتيرة بنفاد صبر. وبينما شعر إلياس في تلك اللحظات أن الدم قد تجمد في عروقه وأن لسانه قد انعقد من الصدمة، أخذت السكرتيرة تطالع ضيفها الوقح من فوق إلى تحت وقد استنتجت من قميص البولو الأبيض الذي كان يرتديه والحقيبة التي كان يضعها على ظهره كالمتشردين أنه قد لا يكون سوى رسام متجول يحلم بمقابلة رئيس أكاديمية الفنون الجزائرية أملا في تنظيم معرض له في هذه المؤسسة التي لا تليق سوى بالشخصيات الأنيقة، أو ربما تكون قد سولت له نفسه عرض خدماته كأستاذ في أكاديميةٍ لم يكن رئيسها يرتدي سوى ربطات العنق الإيطالية الفاخرة، ولم يكن لديه حتما الوقت الكافي ليضيعه مع فاشلين من أمثال هذا المتطفل على مكتبها، والذي يقف أمامها الآن فاتحا فاه كالأبله. « تأتي في أيام الاستقبال ». صرخت في وجهه باشمئزاز. « فإذا كان متفرغا استقبلك أما إن كان في اجتماع تعود مرة أخرى. المسألة ليست بهذه الصعوبة ».

صاحت في وجهه كتلميذ أحمق لم يفهم شرح القاعدة الثلاثية في درس الرياضيات.

وفي هذه اللحظات سُمع في الرواق قرع كعب نسائي رفيع بدا كأنه آت من عالم آخر وقد احتوته قدمان متوحشتان كانتا تبدوان وكأنهما تدقان كمطرقةِ حِرفيّ صدئة الأرضية الرخامية لرئاسة أكاديمية الفنون الجميلة بالعاصمة.

أصاخ إلياس السمع إلى هذه الخطوات الزَمَردية الغريبة وشعر للحظات أنه يعيش كابوسا مزعجا بين صياح سكرتيرة لم يتمكن من تحديد سبب انزعاجها منه إلى حد الآن، وصوت كعب شرس شعر للحظات أنه يفترس الأعصاب التي كانت متبقية في رأسه.

- لا بأس... لا بأس. وقال الآن بشيء من العصبية : « لو سمحتِ عندما ينتهي الرئيس من اجتماعه أخبريه أن إلياس ماضي أستاذ تقنيات الرسم في أكاديمية ألبيرتينا في تورينو قد أتى لرؤيته ». لفظ كلماته تلك بسرعة وهمّ مباشرة بالانصراف وكأنه يفر من كابوس مزعج، إلا أنه وفي اللحظة التي استدار فيها صوب الباب، شعر بهبوط شديد في دورته الدموية، وأحس أن قلبه كان سيتوقف عن الخفقان من هول المشهد...

كان ذلك شيئا لم يتخيل يوما رؤيته أمامه، لكنه الآن كان ينتصب على بعد أمتار قليلة فقط منه.

تبا لك إيرمانو. غمغم إلياس وقد شعر في تلك اللحظات أنه يكاد يفقد وعيه.

- 47 -

لم يكن المحقق إبراهيم ولا مساعده خير الدين معجبين في كل هذه القضية بمسألة إرسال إلياس لصورِ شعار الجمهورية الجزائرية إلى شخص أجنبي.

– ما الذي قد يعنيه هذا ؟ تساءل إبراهيم بريبة.

– إيرمانو بيروغنزي هو أستاذ للفن المقدس في أكاديمية ألبيرتينا بتورينو وله مؤلفات حول...

– وما دخل هذا الأجنبي بشعار دولتنا. قاطع إبراهيم بانفعال وهو لا يكاد يسمع ما كان يقوله مساعده.

– ربما كان مهتما بإجراء أبحاث عن رموز الدولة. ثم صمت قليلا. « وقد بلغنا من قنصليتنا في ميلانو أنه زارهم بعد يوم من سفر إيرمانو بهدف تقديم طلب تأشيرة. »

صمت إبراهيم قليلا وفكر مليا قبل أن يشارك فكرته مع مساعده، وهي الفكرة التي لم يتمكن من لفظها من ذهنه بمجرد قراءة المراسلات بينه وبين صديقه الإيطالي.

– يبدو أن موسيو أمزيان كان يعرف بعض الأشياء الخطيرة عن إلياس لا نعرفها بعد.

– هل تقصد أنه عرف ذلك بفضل علاقاته الخاصة بـ (...) وصمت خير الدين وقد جحظت عيناه بعد أن فهم الفكرة التي كان يلمّح لها رئيسه.

– نعم موسيو أمزيان نفسه تدرج في عمله بفضل هذه العلاقات. قال إبراهيم بصوت عميق وواصل الآن ببطء حتى يسمح للفكرة أن تتخمّر جيدا في رأس مساعده : « كما أن أمزيان تمكن في نفس اليوم الذي أتى فيه إلياس من تمرير ملفٍ في الوظيف العمومي لشخص لا يملك مقومات الحصول على منصب في الأكاديمية كان شاغرا منذ سنوات، وكان يليق تماما بإلياس، ولكنه منحه لغيره. وكأنه حاول سد أي محاولة لإلياس بدخول الأكاديمية من خلال هذا التحرك ».

– والملف تم تمريره بفضل (...) قال خير الدين وهو يحاول احتواء دهشته، ثم صمت مجددا من دون أن يتجرأ على التلفظ بالكلمة الأخيرة.

– نعم. تماما. قال إبراهيم وهو ينظر بفخر الآن إلى شعار الجمهورية محاولا إخفاء ابتسامته.

– ولكن هل هذا يعني أن مهمتنا قد انتهت ؟

– لا، إطلاقا. قال إبراهيم على نحو مستغرب : « فهذه ليست سوى فرضية قد تقوّضها العلاقة الغريبة بين إلياس والدكتور شنيت ». ثم صمت الآن لوهلة. « فمن المستغرب أن يتورط د. شنيت بربط اسمه بشخصية مريبة لهذه الدرجة ». وتناول الآن محضر سماع أقوال سهيلة.

– كما أنني لم أفهم سر إخفاء هذه السيدة معرفتها الشخصية بإلياس. قال وهو يعيد قراءة أوراقها بريبة.

- فعلا. قال خير الدين مؤمّنا على كلام رئيسه. لم تكن تلك المرأة في حالة طبيعية أثناء التحقيق وهي من كذب أكثر من مرة.

- والكذب في هكذا قضايا لا يعد إشارة جيدة. وغمغم المحقق وهو ينظر باشمئزاز لصورة تمثال تانيت المخصي الذي كان موجودا في ملفات حاسوب إلياس. « كما أن هذا الشيء لا يعجبني ! ». وقال بتقزز واضح وهو يتمنى أن تكون نظرية الـ (...) التي لم يتجرأ مساعده على التلفظ بها هي الأصح، حتى ينتهي بأقرب وقت من هذه القضية.

- 48 -

– نايمة صفري. مديرة الـ ISRHA قالت مدام صفري وهي تمد يدها لمصافحة ذلك الشاب الذي كان يقف مشدوها أمامها، متجمد الأوصال كالتمثال. وقد يكون ذلك لانبهاره التام بسحرها، وجمالها، ورفعة ذوقها، ورقي إطلالتها خصوصا أن مدام اختارت لذلك اليوم فستانا صيفيا أبيض بكمين قصيرين يظهر زنديها المتهدلتين، وقد كان مزينا بورود بنفسجية ذات أوراق خضراء كبيرة كانت تستقر لا على التعيين على مناطق مختلفة من جسمها.

لقد كانت مدام صفري تعرف جيدا أنها كانت أستاذةً في الإبهار، تماما كما كانت تدرك أنها سيدة العلاقات الاجتماعية بامتياز وهو ما جعلها تنجح في إدارة معهدها الذي لم تكن متأكدة أن إلياس قد سمع به على أي حال، لكنها كانت على يقين أن وقع اسمها لم يمر مرور الكرام على أذنيه ولا حتى جمالها. فكرت وهي تهنئ نفسها على دخولها في تلك اللحظة بالذات لتتعرف على أستاذ... لم تعد تذكر اسمه لكن المهم أنها سمعت جيدا أنه من تورينو، بينما هو كان يقف أمامها متسمرا لدرجة بدأت مدام صفري تشعر معها بالإحراج وقد حاصرتها نظرات إعجابه التي بدا من الواضح أنه لم يكن قادرا على السيطرة عليها.

تنهدت مدام صفري وماكان لها سوى أن تطوّح برأسها بدلال إلى الوراء في حركتها الباريسية المفضلة وهي تشعر بالإطراء البالغ من نظرات شاب قد يكون في سن ابنـ.. لا، قد لا يكون أصغر منها بكثير، استدركت وهي تتأمل الآن وجه هذا الشاب الملائكي الرقيق.

أما إلياس فلم يكن في تلك اللحظات يفكر سوى في قصص الآلهة ثنائية الجنس التي أغرقه بها إيرمانو ليلة أمس، وهو ينظر إلى ذلك الشيء الذي لم يره في أكثر اللوحات السريالية تطرفا. تبا لك إيرمانو... تبا ! بل لم يره حتى في أسوإ كوابيسه وقد ارتأى أن يطلّ عليه في مكان طالما توجس منه ومن أصحابه، بدءا من تجاهل مديره لرسائله على مدى عامين مرورا بحديثه القصير مع سكرتيرة يبدو أنها تكرهه حتى قبل أن تعرفه، وها هو الآن يجد نفسه يصافح متحولا جنسيا يبدو بشكل واضح أنه خضع لعملية تغيير جنس غير موفقة ونسي تنعيم حباله الصوتية، ولكنه مع ذلك يواجه المجتمع بكل ثقة. بل ويرفع صوته الأجش لذكر اسمه مبتسما ولا على باله شيء. تبا لك إيرمانو ! غمغم مجددا وهو يحاول التآلف مع تلك الملامح الرجولية المكسوة بحلة نسائية.

ونظر إلى تلك المرأة وهو غير متأكد فعلا إن كان ذلك هو وجهها أو قناع جوكر قبيح ضاحك كانت ترتديه. والآن نظر إليها وهو لا يفهم كيف يمكن لشخص ما أن يكون اسمه « نائمة ». وحاول إعادة لفظ اسمه/ ـها بينه وبين نفسه ليستنتج أنها « نعيمة »، وأنها لفظت اسمها على الطريقة الفرنسية. وفكّر للحظات أن الاسم الآخر قد يكون أصلح لها فلا شيء في ذلك الرجل الذي كان يرتدي فستانا والمدعو صفري يمت بشيء إلى النعومة... النائمة.

والآن بلع إلياس ريقه وهو يحاول فتح فمه للكلام، إلا أنه شعر بشفتيه وكأنهما مختومتان بالشمع الأحمر في حضرة مخلوق زَمُردي قبيح لم يتمكن من استيعاب تفاصيله، وقد هاله أكثر ما هاله في المدعو/ة نائمة حضوره/ها الذكوري الطاغي الذي لا يمكن أن تفسره فقط كتلته/ا الجسدية الضخمة التي بدت تلك الورود البنفسجية التي تحط عليها وكأنها تستغيث من حالها، وهي التي فرضت عليها الأقدار أن تحط على تلك البقعة الموحشة وفوق تلك التضاريس القاسية التي لم تكن طبيعتها تليق حتما بها، ولا ملامح وجه/ها العصية على التأنيث والتي زاد من صعوبة تفسيرها الغمامة السوداء التي طفا شيء منها على جيبي عينيها المنتفختين وقد حدد الكحل الأسود الزائد في عينيها الجاحظتين تجاعيدها، وهو ما أضاف إلى وجهها بعدا جنائزيا عجيبا بدا دراكوليا على نحو مفزع، وقد اقترن بابتسامة عريضة أكلت نصف وجهها أطلت منها أسنان ضخمة رمادية مخضرة تشير أنها كانت مدخنة شرهة، وزادت من شناعة شكلها. ولكنه الآن قرر أن يبصق تلك الكلمات في وجهها وينتهي من هذا الكابوس الذي غرق فيه لأذنيه.

– تشرفنا. قال بشفاه شبه مقفلة. إلياس ماضـ..

– الإلهة تانيت بشحمها ودمها. والآن صدح أزيز صوت احتفائي من أمام ذلك الباب المنضّد الذي كان مغلقا بإحكام منذ الصباح.

وفي هذه اللحظة شعر إلياس بتفكك عظام ركبتيه. وأحس أنه يعيش حتما هلوسة لا يبدو فكاكه منها قريبا. تبا لك إيرمانو. ماذا زرعت في رأسي ؟

– ميغسي... ميغسي بوكو موسيو أمزيان.

والتقط إلياس الكلمة الأخيرة ونظر مبهوتا إلى ذلك المخلوق الذي كان قد بدأ يشعر بالأصل أنه كائن أسطوري نعتقد أنه موجود لكنه لا يوجد سوى في خيالنا، وعندما نبدأ بالكفر به يعود ليظهر مجددا لإقلاق راحة بالنا.

موسيو أمزيان أخيرا. واستدار ليرى صاحب ذلك الوجود الهلامي الذي طالما راسله ولم يرد عليه. كان ذلك رجلا أنيقا فارع الطول صاحب عينين ملونتين لماعتين يتمطى بمشيته وكأنه منخرط في رقصة فالس، وهو يهز بحركة لا إرادية كتفيه الضيقتين. لتنظم إليه « نائمة » وهي فاردة ذراعيها في مشهد استعراضي لا يليق سوى بأرقى المسارح الأوروبية... أو ملاهي الليل البرازيلية. استدرك وهو ينظر الآن إلى نائمة وقد حطت عيناه على مؤخرتها العريضة المسطحة والتي كانت تصنع بنظرة جانبية إليها خطا مستقيما متصلا بظهرها دون أي درجة انحناء بسيطة فيما يفترض أنه أسفل ظهرها. لم يكن ذلك حتما نموذج امرأة يصلح لتعليم دروس التشريح. فكر وهو ينظر إليها من منظار تقني بحت، إذ لم يكن إلياس يشعر عادة بأي انجذاب لجسد النساء، ولا حتى المتحولين منهن أو إليهن جنسيا. فكر بجدية. ولكنه شعر في تلك اللحظة بالفضول الممزوج بطعم القيء في حضرة هذا البدن. وسرعان ما شعر بالهول وقد استدار ذلك المخلوق ذو الفستان المورّد والعظام القوية ليهجم عليه مجددا بعد أن عبث بشيء من داخل حقيبته المستطيلة اللماعة.

– يمكنك أن تتصل بي في أي وقت. قالت مدام صفري وهي تناول إلياس بطاقتها وكأنها تحتضن الكتاب المقدس وواصلت مبتسمة : « فنحن بحاجة إلى أساتذة في اختصاصك في معهدنا ». تناول إلياس البطاقة باستغراب، دون أن يستوعب تماما ما الذي يحدث

حوله، وسرعان ما حوّل بصره إلى السكرتيرة التي كانت تبدو ممحية تماما من المكان وبعدها إلى موسيو أمزيان الذي واصل سياسة تجاهله له وهو من لم يوجه نظرَه إليه إلى الآن.

لكن لا بأس. فكر إلياس وهو يطالع بطاقة تانيت بلحمها وشحمها. فقد يفي هذا الـ ISRHA بالغرض.

- 49 -

جلست داميا قبالة والدها الذي لم يكن على ما يرام ذلك اليوم بينما كان منكبا كعادته على تلميع إحدى صينيات النحاس القديمة التي كان يبدو وكأنه منخرط في مناجاة روحية مع نقوشها وهو يحاول إعادة البريق لحوافها، أو أنه ببساطة يبحث عن شيء ما فقده في داخلها، بينما كان الهاشمي ڤروابي يصدح كعادته من داخل المحل بصوته المغناطيسي.

خاصاه غزالة عنها يدور * فتش المداين والدشور

ونظرت داميا إلى والدها وشعرت أنه كان يبدو في تلك اللحظات وكأنه يبذل جهدا غير اعتيادي في تنظيف تلك الصينية، ليبادرها بسؤاله المفاجئ :

– هل التقيت بسي عبد الله اليوم ؟ طرح سؤاله ذاك وهو يحاول التظاهر باللامبالاة بينما كان يلهث من شدة الضغط على أصابعه وهو يصغي باهتمام لـ « حراز ».

– لا. أجابت بأسف واعتقدت أنها فهمت الآن سبب حالة والدها غير المعهودة لذلك اليوم وواصلت : « مررت في الصباح على الجامعة فقط. » ثم استطردت محاولة تغيير موضوع الحديث إلى ما قد يبعث على التفاؤل أكثر : « وهل اتصلت كاترينا خالة إلياس بـ... ؟ ».

- لا.

غابت عني تاج الابكار * سبع ايام تفقدت الاخبار

صاح سي بن هارون بعصبية ورمى بنتفة القطن الذاوية من يده، وراح يفتش عن أخرى بعصبية شديدة.

من جانا للغرب بالسحر * رصدها في داخل القصر
ملكاته بالزين والشعر * والشامـة والخـال والشـفـر
والخد العكري بلا عكر * والمعنى فالنقـط والشعـر

ضمّت داميا حقيبة اليد التي كانت تضعها في حضنها بحركة لا إرادية إلى صدرها، وهي لا تكاد تصدق أن والدها قد صرخ للتو في وجهها، واستحالت بشرتها الشاحبة إلى ورقة شفافة لم يكن يبدو منه سوى بقع نمش برتقالية كانت تتجمع على وجنتيها ووسط أنفها، وقد اغرورقت عيناها العسليتان اللماعتان بشيء يشبه الدموع، لكنها لم تكن تصدق أنها فعلا ستذرفها. لم يكن سي بن هارون أبا يُظهر عادة الكثير من العاطفة لابنيه على الرغم من أنه رزق بهما في سن متأخرة، إلا أنه لم يكن بالمقابل أبا عنيفا البتة لا فعلا ولا قولا، بقدر ما كان يظهر حنانه بصمت. بقيت داميا متجمدة في تلك الوضعية الدفاعية في مدخل محل والدها تنتظر إشارة أخرى منه حتى تسمح لدموعها بالسقوط، أو تبلعها بينما واصل قروابي غناءه بلا مبالاة.

ما نامنشي في بعض السلام * مواكلهم عندي حرام *
ما نشرك عندك شي سلام

ليستأنف الآن سي بن هارون فركه للصينية بانفعال، واستطرد :

« برأيي عليك أن تبدئي التفاوض مع سهيلة على عقدك في أوبتيميديا ؟ ». قال سي بن هارون بنبرته المعتادة وقد رفع عينيه الآن لابنته التي أطلقت أخيرا تنهيدة ارتياح، فقد كانت نظرة والدها تلك تعني أنه لم يقصد إغضابها. كانت داميا تفهم شِفرة جميع حركات والدها. لتبلع الآن دموعها ومسحت مباشرة من ذهنها الثواني الخمس الأخيرة التي عاشتها، وردّت بعد شيء من التفكير.

– نعم لكن ليس اليوم.

– وما الذي تنتظرينه ؟ سأل سي بن هارون وقد استأنف فرك تلك الصينية النحاسية القديمة التي بدا أنه كان مصرا على إعادتها إلى سابق عهدها، على الرغم من السواد الذي نخر أجزاءها، وأجابت داميا بنبرة مبهمة :

– أوبتيميديا لم تكن يوما هدفي. قالت وهي وتنهض من مكانها مقلّبة عينيها في أرجاء محل والدها. « أنا أعتبرها فقط مرحلة اكتساب خبرة وقد يكون من الرائع أن أنجح في مسعاي هناك بمساعدة شنيت ». وتناولت الآن بابوشا بنيا مزخرفا بعناية واستطردت : « فأنا أريد الـ ISRHA ».

– جميل. رد سي بن هارون بنبرة واثقة، وهو من كان يعلم أن ابنته ذكية ومجتهدة وتستحق الولوج إلى ذلك المعهد الذي يقال أنه يملك ميزانية ضخمة من الجامعة العربية وقد وضعت الجزائر كل ثقلها للظفر بمقره على أرضها. لكنه كان يعلم أيضا أن داميا واقعية وعملية.

– وهل بدأت بخطوات معينة في هذا الصدد ؟

– أرسلت لهم الأسبوع الماضي سيرتي الذاتية مشفوعة بنسخة عن البحث الذي قمت به خلال هذه السنة.

وقد كان « صورة الأنا والآخر في شعر عبد الرحمن الثعالبي » هو عنوان المذكرة التي أعدتها داميا للحصول على شهادة الليسانس هذا العام، وهو العمل الذي استدعى منها مجهودا كبيرا، على الرغم من أنها لم تحصل على الكثير من الإطراء من الأستاذة المشرفة على بحثها بسبب العرف السائد بين الأساتذة الجامعيين والذي يقضي بعدم إعطاء العلامة الكاملة لأحد ولا الإشادة بمجهود أي طالب حتى لا يصيبه الغرور. لقد كان الهدف من إحباط معنويات الطلبة في الجامعة هدفا تربويا بحتا، وهي النتيجة التي خلصت إليها داميا بعد عام كامل من الشعور بعدم الجدوى الذي أصابها خلال فترة تحضيرها لمذكرتها، وهي التي لم تكن تتلقى أي نوع من أنواع الدعم المعنوي من أستاذتها المشرفة والتي كانت تتجنب عقد اجتماعات العمل معها، أو إسداء النصائح لها، وفي المقابل لم تكن تتوانى في كل مرة عن توجيه الانتقادات القاسية لعملها، بل وكانت تطلب منها مرارا وتكرارا إعادة كتابة فصول كاملة من دون أن توضح السبب في ذلك. وهو لم يكن حتما الحال مع زملائها، الذين لم يكونوا وبالرغم من اختيارهم لمواضيع بحث مستهلكة وعدم بذلهم للجهد الذي كانت تبذله هي في مذكرتها، يتعرضون للمعاملة التي كانت تخصصها لها المشرفة على مذكرتها والتي كانت تتلخص في إظهار تعبيرين وحيدين فقط أثناء جلسات عملها معها : عدم المبالاة والاشمئزاز. وهو ما جعل داميا تفقد الكثير من ثقتها خلال هذا العام، إلى أن تغير كل شيء قبل أيام حين سمعت المشرفة على بحثها بالصدفة، بينما كانت تلج إلى قاعة الأساتذة تطري على عملها في حديث جانبي مع أستاذ آخر أكدت له فيه أن « صورة الأنا والآخر في شعر عبد الرحمن الثعالبي »

عمل أكاديمي غير مسبوق وهو يستحق النشر. تذكرت داميا هذه الكلمات الآن وارتسمت ابتسامة صادقة على وجهها.

– وهل تعتقدين أن ذلك يكفي ؟ قاطع سي بن هارون ابتهاج ابنته بشيء من التشاؤم الذي لم يكن غريبا على شخصيته السوداوية.

ابتسمت داميا بسخرية دون أن تخفي عدم استغرابها من ردة فعل والدها.

– إن لم يكفِ ذلك فقد ألجأ إلى طرق أخرى. واستطردت وكأنها تذكرت شيئا ما : « وبالمناسبة هذه الظهيرة لدي موعد مع د. شنيت ».

والآن دخل إسحاق المحل وتفل تحيته المعتادة واتجه نحو بيت الخلاء.

– واش ؟

– كنت أعتقد أنك تعمل هنا ؟! ردت داميا على شقيقها الذي أتى للمحل متأخرا كعادته بنبرة مازحة.

– وأنا كنت أعتقد أنك تعملين هناك. أجابها إسحاق من بعيد بنبرته المسطحة المعهودة.

لم يكن إسحاق يحضر بشكل منتظم إلى الدكان الذي كان يفترض أنه يعمل فيه. والواقع أنه لم يكن يشعر بداخله يوما أنه ينتمي إليه، وكان غالبا ما يتعامل معه على أنه بيت خلاء فقط لا غير. يمرّ عليه عندما لا يشعر فعلا أنه بحاجة إلى فعل أي شيء آخر. والآن عاد ليقف أمام باب المحل، وهو يعدل ثيابه.

– وهل التقيت بإلياس ؟ سأل إسحاق شقيقته بلا مبالاة.

– ولم عليّ أن ألتقي به ؟! أجابت داميا ببعض الاستغراب وهي تحدج شقيقها الآن بتعجب واضح.

– وهل تعتقدين أن تلك المحتالة التي تعملين معها ستوفره هو الآخر ؟ قال وهو ينظر إلى الشارع الرابط بين ساحة أودان وتليملي من أمام إبر ألجيري، وواصل الآن وهو ينظر إلى تلك الصينية التي لا يبدو أنها ستبيضّ أبدا على الرغم من إصرار والده على فركها وواصل : « أراهن أنك إذا صعدت الآن إلى المكتب فستجدين إلياس قد « توظّف » رسميا في أوبتيميديا ». قال إسحاق بنبرة تهكمية وهو يدخل إلى المحل، لتلمع عيناه فجأة بتدخل والده غير المتوقع.

– نعم اذهبي الآن إلى المكتب. قال سي بن هارون بحماسة لكن دون أن ينظر إلى عيني ابنته. « فلعلك تجدين سي عبد الله هناك ».

لقد كان من الواضح أن سي بن هارون لا يزال مشغول البال بشأن صديقه، ولم يكن ذلك إذن تأمينا على كلام إسحاق. شعر هذا الأخير بالخيبة. وأخرج رواية كاتب ياسين التي كان منخرطا في قراءتها هذه الأيام من درج المكتب. وسد أذنيه بسماعات الهاتف الذي كان يصدح بإحدى أغاني الراب.

العام يـ Pousser العـام
هـكـدا جـــازوا الايـــام
وأنـــا مبحـــر في منام...

لم يكن يرغب حتما بسماع شيء من والده ولا الأغاني الشعبية التي لا تتوقف عن النعيق من مذياعه، لا سيما هلوسات ذلك الحراز وعذرائه القميئة. رفع الآن صوت « نجمة » لمغني الراب عبد اللطيف عليان.

وحـــــدانـــــي Solitaire
عايش في Monde بعيد

ولا صديق والده الذي خرج من عنده يوم أمس على غير هدى دون أن يقول كلمة واحدة.

كـــاره و Jamais ســعيـــــد
غارق toujours في الـ... vide

لم تكن تلك هي عادته، فقد كان يحب أن ينهي دوما هو المحادثة.

الـ vide اللي ساكن قلبي * رماني في بحر عريض
مهـــول وأمـــواجه عاليـــه * عييت ما لقيـت طريق

ونظرت الآن داميا إلى شقيقها نظرة عتاب ممزوجة بالكثير من الاستياء. لقد كانت تعرف أن شقيقها شاب متهور، وقد كانت تتوقع منه كل شيء، وقد أقدم فعلا على كل شيء، لكنها الآن بدأت تشعر بالخطر الذي قد يشكله تهوره عليها.

آمل فقط ألا يكون سي عبد الله قد أحس بشيء ؟ فكرت وهي تنظر إلى شارع « إير آلجيري » مسدود الأفق. بينما فتح هو رواية « نجمة » وانفصل عن ذلك العالم، أو هكذا كان يأمل :

« Inutile. Sans argent, tu ne feras pas un pas dans ce pays. Ils vivent tous du pèlerinage, et leur fameux sultan n'est qu'un marchand de pétrole… Il faut un guide »… [49] [50]

وفكر الآن في إلياس « الإيميغري » بينما كان منخرطا في الرواية وكلمات الأغنية تطن هي الأخرى في أذنه...

c'est bon… c'est le terminus

---

49. « عبثا. فمن دون مال. لا يمكنك الإقدام على أي خطوة في هذا البلد. الجميع هنايعيش من الحج، وسلطانهم الشهير ذاك ليس إلا تاجر نفط... لابد لك من دليل... »
50. KATEB Yacine, *Nedjma*, Paris, Seuil, 1996, p. 130.

هنا يحبس الـ car

ياوهنا تخلاص الحكاية

تخلاص بالـ désespoir

ونظر الآن إلى والده بحقد...

« [...] Tu es assez vieux pour être égoïste. Je finirai par trouver un moyen. »[51] [52]

وفكر الآن في ضرورة إيجاد حل من أجل الرحيل، بينما انخرط مغني الراب ذاك داخل أذنيه في الأنين.

نجمة... نجمة... نجمة... نجمة...

في السما Toujours ضاوية

عزيزة علي وغالية * عيشتي معاها هانية

حنينة ديك البنية يارب...

وأطفأ الآن الأغنية وهو يشعر بالاشمئزار.

---

51. « ألا تعتقد أن الأنانية لا تليق بمن هم في سنك. لكنني سأجد حلا »

52. KATEB Yacine, op. cit., p. 130.

- 50 -

« لقد كانت لغته [...] تلك ثمرة قبوله للقيطيته، لقيطية كان يطالب بها من طرف أنفه ». توقف إلياس الآن عن القراءة وكأن مصباحا ما في منزل آيل للسقوط قد اشتعل فجأة في ذهنه، وعاد مباشرة إلى بداية التقديم الذي كتبه جيل كاربونتيي[53] للرواية التي كان يبدو وكأنه يعض عليها في تلك اللحظات بأصابعه :

عندما سُئل الاسكندر عن سبب مناداته باللقيط، أجاب ديوجين :
اعلم أن والدتك نفسها كانت تقول ذلك. أليست هي من كان يقول أنك لست من صلب فيليب، بل من صلب تنين أو ربما من آمون، لا أدري عن أي إله كانت تتحدث، ربما عن نصف إله، أو ربما حيوان متوحش ما ؟...

وقلب بسرعة صفحات ذاك التقديم وعاد مجددا لقراءة تلك العبارة : « لطالما قلنا أن « نجمة » عمل « عربي حتى النخاع » على الرغم من أنه كتب بلغة فرنسية صرفة. والواقع أن لغته... ». والآن دخلت على الخط كحة احتجاجية، ونحنحة امتعاضية لم يكن أمامه سوى إغلاق الرواية مباشرة على إثرها ووضعها مثل التلميذ المطيع على رف الدفع.

---

53. Gilles Carpentier.

- سأشتريها. قال وهو يبلع ريقه.

دك الكتب الثلاثة داخل حقيبته وتوجه مسرعا إلى تليملي، دون أن يدري سبب هرولته. لم يكن مروره بتلك المكتبة المواجهة لساحة الأمير عبد القادر أقل رهبة من مروره بمكتب موسيو أمزيان صبيحة ذلك اليوم الرطب حد التعفن.

عبر شارع العربي بن مهيدي وهو يحرص ألا يصطدم بأحد، إلا أن ذلك لم يكن يبدو مهمة سهلة. وقد بدا ذلك اليوم أن منازل العاصمة قد تقيأت جميع سكانها. ثم عاد لتذكر تلك المكتبة الكبيرة المواجهة للساحة الأكثر اكتظاظا في العاصمة، والتي كان يراقب المارين بها ذلك التمثال البرونزي الضخم لمؤسس الدولة الجزائرية. وتساءل عن سر خوائها عن عروشها عدا عن كحّات البائع ونحنحاته الترهيبية، في حين كانت الشوارع تعج بمارة بدا أغلبهم وكأن لا وجهة لهم سوى التسكع أمام فترينات الألبسة الصينية المستوردة من أسواق إسبانيا وفرنسا الشعبية، ومحلات المصوغات المقلدة، أوشمشمة رائحة الشاورما المصنوعة من اللحم المجمد، من محلات الفاست فود الزفرة.

« كاش ما تبيع... كاش ما تشري »

لم يفهم تلك العبارة التي كانت تتردد كموسيقى خلفية في ذلك الشارع المكتظ حد التخمة، ليتبين له أن الأمر يتعلق بشباب يتاجرون بالذهب في السوق السوداء، فقد كانوا يقتربون من المارات من النساء على وجه خاص ليعرضوا خدماتهم عليهن بكل ذوق... بكل ذوق وبلع ريقه وهو يلفظ آخر كلمة. لتعود صورة البائع في مكتبة الأمير إلى ذهنه وهو يصفعه بنظرتين باردتين من عينيه بمجرد دخوله المحل، ويتراجع هو مباشرة عن فكرة مخاطبته وسؤاله عن الكتب التي كان يبحث عنها.

والواقع أن إلياس قد اتعض تلك الصبيحة من محادثته مع سكرتيرة أمزيان وتعلم أنه لا يجوز إزعاج موظف أثناء قيامه بعمله !! وانكب على البحث عن المراجع التي طلبها إيرمانو لدى دردشتهما ليلة أمس. صعد إلى الطابق الأول وهو لا يدري في أي جناح يمكنه أن يجد ما طلبه صديقه. والحقيقة أنه لم يكن متأكدا مما طلبه أصلا، ولا حتى إيرمانو نفسه قد بدا له متأكدا مما كان يبحث عنه... الماسونية... الأميرعبد القادر... النجمة... والآن سقطت عيناه على كتاب ضخم بعنوان الأميرعبد القادر باللغة الفرنسية. تناوله بلا تردد، وهمّ بالبحث عن مرجع آخر قد يكون عن تاريخ العلم الجزائري مثلا، وها هو الآن يجد كتابا عن تاريخ الثورة... وآخر عن شهداء الثورة... وثالث عن مذكرات أبطال الثورة... ورابع عن ليلة اندلاع الثورة... وخامس عن نساء الثورة... وسادس عن ثورة الثورة... وشعر للحظات أمام كل كتب التاريخ تلك وكأنه أمام احتفائية صاخبة بنظرية الـ « بيغ بانغ ». والآن شعر بالاكتفاء وتناول كتابا عن تاريخ الجزائر بدا من عنوانه مدرسيا نوعا ما، لكنه سيكون حتما أقل اختزالية من اثنين وتسعين شهرا، علّه يجد فيه شيئا عن تاريخ الرايات الجزائرية، وربما توضيحات عن رمزية النجمة في العلم، إلّا إن كان العلم الجزائري قد وُلد هو الآخر وكل ما يحمله من رمزية بعد الانفجار الأعظم... هكذا ببساطة من العدم.

نزل على الدرج ووضع الكتابين على رف الدفع هو يتذكر أنه من المفترض أنه قد اشترى كل ما طلبه إيرمانو من مراجع... الأمير عبد القادر... تاريخ الجزائر وربما معها تاريخ العلم، أو حتى الماسونية... لم يكن متأكدا. قلب الفهرس بعدم اقتناع، إذ لا يرجّح عادة ذكر دور الماسونية في التاريخ الرسمي للشعوب، وما كان له

الآن سوى أن يطرح سؤاله على البائع الذي كان مشغولا بتسجيل أرقام دليلية لكتب كانت مكدسة إلى جانبه، وبمجرد التفات البائع له، بعد برهة من الزمن وتناوله كتابه الأول من دون أن ينظر حتى إليه، طرح إلياس سؤاله بصوته الخافت المعتاد.

– هل لي أن أجد عندكم لو سمحت كتابا عن الجزائر الماسونية ؟

– عفوا ؟ واستدار إليه البائع وحدجه من وراء نظارته باستغراب وربما باستياء مبطن.

تلعثم إلياس وتفككت كلماته، واستطرد الآن وقد بدأت حبات العرق تتجمع على جبينه.

– أقصد تاريخ الجزائر الماسوني. قال وهو يجفف وجهه. إلا أن البائع بقي ينظر إليه بريبة وقد ضيق عينيه أكثر، بينما شعر إلياس أن أوصاله الآن قد تبعثرت وقال بصوت مرتعش : « بل أعني الماسونية في الجزائر. »

والآن أشار البائع بإبهامه إلى آخر قاعة العرض دون أن يزحزح عينيه عن إلياس وقال بصوت جاف : « هناك توجد جميع الكتب عن الماسونية ». رسم إلياس على وجهه ابتسامة باهتة، وأدار رأسه إلى الخلف بحذر وهو غير متأكد إن كان من المناسب إلقاء نظرة عن قرب على تلك الكتب ذات الأغلفة السوداء الكالحة والتصميمات الجنائزية.

« حكومة الدجال » بلع ريقه وهو يقرأ أحد العناوين. وعلى الرغم من أنه لم يكن متأكدا من كلمة الدجال إلا أن الرسم التوضيحي المرفق بالعنوان كان يكفي لتبين المضمون. ومباشرة ارتأى أنه قد يكون من الأفضل أن يكتفي بتاريخ الجزائر الرسمي، واستدار لدفع ثمن الكتابين، بينما البائع كان لا يزال يحدجه كالتمثال. أخرج

المال من محفظته بيدين مرتعدتين، وحاول الآن أن يصلح ما أفسده السؤال الأول، ومع أنه لا يعرف كيف استطرد.

– هل يوجد عندكم كتب عن النجمة... أقصد العلم... الجزائر... أقصد نجمة الجزائر... لم يكن إلياس يفهم سر ارتباكه في تلك اللحظات، إلا أنه لم يكن يفهم أيضا سر نظرات ذلك البائع له. وقبله تلك السكرتيرة. بل وذلك السائق. لم يكن يدري بما أخطأ في حق كل هؤلاء حتى يلقى هذه المعاملة.

والآن أشار البائع بيده إلى يساره وهو يعيد له بقية ماله من ثمن الكتابين. أدار إلياس رأسه باتجاه ذلك الأصبع لتسقط الآن عيناه على رداء أبيض ينضح بالحياة. كان ذلك رف الروايات. ولم يشعر بنفسه إلا وهو يبتسم لقراءة العنوان : « نجمة ». كانت فاتحة ذراعيها على وسعهما تاركة الهواء يعبث بشعرها الناري المجعد، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يلقي بنفسه بين صفحاتها : « لطالما قلنا أن « نجمة » عمل « عربي حتى النخاع » على الرغم من أنه كتب بلغة فرنسية صرفة. والواقع أن لغته [...] ». لتقتلعه بعدها من مكانه ذاك كحة واحدة من حلق البائع. وهاهو الآن يسابق الريح حتى يصل إلى المنزل. لم يكن ينظر إلى وجه أحد. لم يكن يريد أن يتلقى صفعات أخرى من أحد. ترك خلفه ساحة الأمير عبد القادر... عبَر شارع العربي بن مهيدي... مر من أمام بائعي صور جزائر بومدين... ساحة البريد المركزي... شارع ديدوش... وها هو الآن يقف على سفح درج الأموات... أخذ نفسا طويلا وهو يستعد لصعود تلك الدرجات الطويلة. كان يشعر بالحماس لأنه أخيرا سيلقي نفسه بين أحضان « نجمة ». كم كانت منعشة صورة ذلك الغلاف. والآن ابتسم ملء فيه وهو يقترب من صاحبة الحايك الأبيض التي بدت له

على نحو ما في تلك اللحظات مشعة. صحيح أنها لم تحمل الورود التي وضعها أمامها صباحا قبل أن يذهب إلى الأكاديمية، لكنها كانت حتما تليق بها أكثر من القمامة التي كانت تتناثر حولها. صعد سلم الأموات أربعا أربعا، والآن فتح باب العمارة رقم 6... وفي تلك اللحظة لم يشعر بنفسه إلا وهو يتلقى من خلفه ضربة قوية... وخرّ على الأرض.

- 51 -

لم يكن شعور سهيلة بالفزع في تلك اللحظات يعود إلى منظر إلياس الذي كان ممددا على أرضية مكتبها بقدر ما كان نابعا من نظرات إسماعيل الجليدية التي كانت تحس وكأنها تخترق جدار رأسها، وتعبث بأعصابها عصبا عصبا.

ما الذي ينوي فعله الآن ؟ فكرت وهي تحاول تفادي تركيز النظر إلى عينيه وهو من بدا غير مبالٍ بإلياس بقدر ما كان منشغلا بالتفكير فيما سيقدم عليه.

نظرت سهيلة إلى إسماعيل ودقات قلبها تكاد تتوقف من شدة الخفقان وقد انخرطت مباشرة بعضّ شفتيها بكل ما أوتيت من أسنان، بينما بقي هو يراقبها من دون أن يرف له جفن.

تبا ما الذي يريده مني الآن ؟ فكرت وهي تحاول احتواء ذلك الشعور الرهيب الذي كانت تبثه في نفسها حركات إسماعيل غير المتوقعة.

لقد كان برود إسماعيل المفاجئ ذاك ونظراته الجافة سمتا لم تتعود عليه، وهو الذي كان يصيح دوما على الهاتف. يحتج على الأجرة. يضرب بقبضته على الطاولة. يصفع الباب من ورائه وهو خارج. ويتذمر وهو داخل. أما الآن فكان يبدو هادئا تماما... تماما مثلها. والفرق بينهما أنه هو بدا فعلا غير مبال البتة بإلياس،

بينما هي كانت ترتعش. وفي هذه اللحظات سُمعت حشرجة من الباب ومعها ذلك الصوت المعتاد.

- بونجور. كانت تلك هي داميا.

نظرت إليها بوجهها الصنمي وهي تدخل إلى القاعة دون أن تتمكن من الرد عليها.

- بونجووووور. وجاء الرد من عند إسماعيل الذي رصع « بونجوره » بابتسامة ساخرة.

نظرت داميا باستغراب إلى إسماعيل الذي كان قد أخبرها أنه لن يعود إلى المكتب ولن يقوم بأي عمل مجددا قبل أن يحصل على أجرته من أوبتيميديا، وما هي إلا ثوان حتى شعرت وكأنها في مشهد سينمائي لكنها لم تكن متأكدة تماما مما كان يحصل حولها.

- ولكن من هذا ؟! قالت داميا بصوت مرتعش وهي تنظر إلى ذاك الشخص المرمي على الأرض كالخرقة البالية.

- إلـ..إلـ..إلـ..ياس. ردت سهيلة وهي تبلع ريقها : « جارنا إلياس ». قالت وهي تحاول إظهار شيء من الهدوء على أدائها.

وفي هذه اللحظات شعرت داميا أن مفاصل ركبتيها قد تفككت وقد دب الرعب في أوصالها.

« أراهن أنك إذا صعدت الآن إلى المكتب فستجدين إلياس قد « توظّف » رسميا في أوبتيميديا... ».

وعادت كلمات شقيقها إلى رأسها. ثم استدارت بحركة لا إرادية إلى إسماعيل الذي كانت تعابير وجهه في ذلك اليوم تشبه لا تعابير وجه سهيلة التي كانت تقف كعادتها كالتمثال. ولسبب ما شعرت أنها وقعت في مصيدة.

« تبا لك ولمعلمتك أيتها المتعجرفة... »

تذكرت كلماته أمس وبدأت دقات قلبها تتسارع.

« لكنني لن أسمح أن ترميني كالعلكة الحقيرة... أقسم أنني سأقتلها... »

ونظرت إلى سهيلة التي كان لون وجهها مسحوبا وهي مثبتة نظرها الآن على إلياس وكأنها كانت تقف أمام المقصلة، وحولت الآن نظرها إلى إسماعيل الذي كان يقف أمامهما بهدوء جنائزي مفزع.

« سأقتل كل من يحاول سرقة مجهودي... سأقتله... »

وفي حين كانت تستعد فيه على نحو غريزي للفرار من هذا المشهد، هاج المكان وماج بصراخ « يمّا مريم » وحمزة وأبنائها.

« الله أكبر... الله أكبر »

« يا يمّا على وليدي مسكين... يا يمّا... يا يمّا »

« بلعقل بلعقل... »

لم تكن داميا متأكدة من كل ما يحصل حولها، كان يبدو وكأن كل شيء أشبه بكابوس مرعب.

– ولكن ما الذي حصل هنا ؟ صاحت بفزع وهي تسأل حمزة الذي بدا مضطربا على نحو غير مألوف.

– رأيته أمام مدخل العمارة. قال حمزة وهو يلهث : « ربتُّ على كتفه لأحييه... لا، أقصد... » وبدأ حمزة يتلعثم. « لم ألمسه حتى... في الواقع أتيت ورأيته ساقطا على الأرض ». قال وهو يحاول السيطرة على تخبط أفكاره، بينما كان وجهه يتعرق.

لم تفهم داميا شيئا مما حاول حمزة قوله. لكن كل ما كانت تعرفه أنها بدأت فعلا تشعر بعدم الاطمئنان في ذلك المكان. وعادت لتنظر إلى سهيلة التي كانت لا تزال تقف كالصنم، بينما كان أبناء

« يمّا مريم » يحاولون إسعاف إلياس، وعادت كلمات إسماعيل تطنّ في أذنيها.

« أعلم أنها ليست سوى نصابة محتالة استغلتني هي وأخوها صاحب السوابق لتصميم إشهارات لوكالتها بالمجان... لكنني لن أسمح أن ترميني كالعلكة ».

صاحب السوابق... ربتُّ على كتفه لأحييه... لا، أقصد... لم ألمسه حتى... في الواقع أتيت ورأيته ساقطا على الأرض...

من كل هؤلاء ؟؟ وشعرت داميا أنها لا تعرف أحدا هنا...

« سُهيلة اسم علم مؤنث عربي مصغر ». وأخذت تستسرجع شرح المعجم لاسم تلك المخلوقة التي كانت تحاول عبثا فهم شكل عقلها أو تركيبة رأسها. « وهو تأنيث سُهيل ». لتدرك الآن ما الذي يعنيه ببساطة أن تكون مجرد تأنيث لاسم مذكر، ونظرت بريبة إلى ذلك الحمزة صاحب ظفر الخنصر الطويل المقرف. « وقال الليث : بَلَغَنا أَن سُهَيْلاً كان عَشَّاراً على طريق اليمن ظَلوماً فمسَخَه الله كوكبا ».

– والزُهرة ماكاشها ؟ سألت يمّا مريم وهي منخرطة في البكاء.

– شكون الزّهرة ؟ سألت سهيلة ببلاهة واستدركت. « آه يمّا !... لالا ». ولم تعرف لِمَ تذكرت الآن سي عبد الله وكوكب الزُّهرة ولوسيفر وإبليس وجنهم و...

« وسَهْلٌ وسُهَيْلٌ : اسمان. وسُهَيْلٌ كوكبٌ يَمَانٍ. وقال الأَزهري : سهيل كوكب لا يُرى بخُراسان ويُرى بالعراق. » فكرت داميا وهي لا تزال تحاول فك معضلة هذه الشخصية. « وسُهَيْلَةُ : كذَّابٌ، وفي المَثَلِ : « أَكْذَبُ من سُهَيْلَةَ ».

« يا يما على وليدي مسكين... يا يمّا... »

« وقالت العرب : إذا طلع سُهيلْ، بَرَدَ الليلْ، وامتنع القَيْلْ، وللفصيل الوَيْلْ »

بينما استمرت « يمّا مريم » باللطم والنواح : « غِير كيما جدّو علي، ودوك هو... يا يمّا يمّا... »

لم تكن داميا متأكدة أن وجود هذه العجوز في هذه اللحظات كان يضيف السكينة إلى ذلك المكان الذي بدا موحشا على نحو مفزع. وعادت لتنظر إلى إسماعيل الذي بقي بلا حراك. ولكن ما الذي يحصل هنا ؟ فكرت بوجل. هل مات إلياس ؟ أم إسماعيل هو الذي مات ؟ ما الذي جرى ؟

وفي هذه اللحظات فتح إلياس عينيه على نحيب غير مفهوم.

« يا يمّا على وليدي... يا يمّا على وليدي... »

جنازة من هي هذه ؟ لقد كان الجميع ملتفا حوله. هل كان هو الميت ؟ ونظر إلى سكين « يمّا مريم ». أم كان هو القتيل ؟ والآن زعق صوت مألوف في رأسه.

– « راك خلعتنا يا خو ». كان ذلك حمزة وهو يتنفس الصعداء.

بينما كان آخر ينظر إليه بهدوء مريب.« يا خي مرخي يا خي ». قرأ ذلك على شفتيه.

ومن كل هؤلاء ؟؟ ونظر إلى أبناء « يمّا مريم » الذين ساعدوه الآن على الجلوس. لم يعد يذكر ما الذي حصل له.

– ربما لستَ متعودا على الرطوبة الخانقة. قال أحد أبناء يمّا مريم.

لكنه يتذكر أنه تلقى ضربة قوية على كتفه.

– أنا خلعني يا خو، مسيتو... السلام عليكم... طاح. قال حمزة.

– يا خي مرخي يا خي. وتفادى النظر إلى ذلك الشاب مجددا.

والآن سقطت عيناه على تلك الفتاة التي كانت تقف من بعيد وتذكر أنه شاهدها في مكان ما... كان شعرها الأحمر الكثيف يطغى على وحشة المكان. وعلى الرغم من أنها في تلك اللحظة كانت تنظر إلى الجميع، ما عداه هو، نظرات مريبة إلا أنها كانت لسبب ما منعشة... كانت تشبه لوحة من لوحات كاميل فوجنار[54]. وجلس قليلا يتأملها وسط كل ذلك الصخب الذي كان يدور من حوله. تشبهها تماما. فكّر وهو يحط على النجمة البرونزية الصغيرة التي كانت تزين عنقها.

« نجمة » ؟ وتذكر الآن سبب قدومه إلى هنا...

– إنها هي !

– لكن...

– اعتن بها

– ... لكن هل هي موجودة ؟

– إن كنت تريد حقا إيجادها، فلا تنكر في الأصل وجودها.

– كيف ؟!

– إنها الرابعة...

لكن... واعتراه مجددا ذلك الشعور الغامض. من هي الرابعة ؟

54. Kamil Vojnar.

- 52 -

خرج إيرمانو من مكتبة « إيزوتيريكا » بميلانو وهو يحمل مطوية « الكبالا سنتر » بعد أن أنهى تسجيله في المستوى الثالث للكبالا وهو الذي كان يداوم على حضور دروس التعاليم الصوفية للديانة اليهودية كل يوم خميس منذ أكثر من عام، واتجه الآن مباشرة نحو القنصلية الجزائرية مشيا على الأقدام وهي التي لم تكن تبعد سوى عشر دقائق عن المكتبة التي كانت تحتضن نشاطات هذا المركز اليهودي العالمي بشكل دوري.

والكبالا سنتر كان مركزا يضم أكثر من أربعين فرعا حول العالم قد تأسس عام 1922 على يد يهودا هلفي أشلاق في القدس، إلا أن أصول هذه المدرسة الروحية تعود إلى راف إسحاق لوريا الذي قام بكشف النص الرئيسي للكبالا إلى راف شيمون بار يوشاعي وهو « الزهار » قبل أكثر من 2000 سنة. وقد كان هذا المركز في بدايته مدرسة تقليدية لا تقبل سوى بعدد محدود من المريدين. إلا أنه وبعد موت مؤسسها، تابع الكثير من المريدين طريقة الحاخام يهودا تسفي براندوين في الكبالا. ولحق آخرون بابن المؤسس الحاخام باروخ شالوم هاليفي. إلا أنه ومع موت هذا الأخير انقسمت طريقته إلى جماعات مختلفة، وكانت أهم الخلافات بينها هي أن ابن براندوين في الكبالا

كان يختلف مع الخليفة الذي عينه والده راف بيرغ وهو الذي كان يعترض على أن تبقى تعاليم الكبالا محصورة على النخبة، لتحصل القطيعة بين الطريقتين، ويصبح بيرغ مديرا لـ « كبالا سنتر » وهو الذي كان يؤمن بضرورة نشر تعاليمها على أوسع نطاق، وشرح طرق الكبالا ومفاهيمها للعامة في كامل أنحاء العالم.

قطع الآن إيرمانو شارع تورينو، ليصل إلى ساحة كوردوسيو المكتظة أبدا ومنها إلى شارع دانتي المفضي إلى شارع روفيلو حيث مقر القنصلية الجزائرية العامة. وتوقف أستاذ الفن المقدس في أكاديمية ألبيرتينا أمام باب القنصلية وأخذ يطالع ذلك العلم الأنيق الذي كان يرفرف على واجهة المبنى.

- التأشيرات أم الشؤون القنصلية ؟ قال الحارس وهو ينظر بفضول إلى الصورة التي كانت مطبوعة فوق تلك المطوية التي كان يحملها ضيف القنصلية.

- التأشيرات. ومر عبر بوابة المراقبة، وهو يهنئ نفسه أن اللغة المستعملة في القنصلية كانت الإيطالية، مع أن موقعها على الإنترنت ارتأى مخاطبة طالبي التأشيرة من الإيطاليين بلغة جيرانهم الفرنسية.

لم يكن إيرمانو متأكدا أن اللغة الفرنسية التي يعرفها والمرتبطة بالدراسات الفنية تشمل فهم الوثائق الإدارية أيضا. ودخل الآن إلى تلك القاعدة الضيقة التي لم تكن تتسع لأكثر من عشرة أشخاص. وأخذ يطالع بفضول المكان الذي لم يكن يشعرك بأي حرارة خاصة يفترض لأي دولة من الجنوب أن تغدق بها على زائريها. والآن أتى دوره بعد مرور ثلاثة وجوه عابسة على نحو غير مفهوم من أمامه.

- أود أن أسأل عن الوثائق المطلوبة لطلب تأشيرة سياحية لو سمحت.

- كشف بمداخيلك المادية. حجز في الفندق أو شهادة إيواء مصادق عليها من السلطات الجزائرية. وتذكرة سفر ذهاب وإياب.

قال الموظف بصوت روبوتيكي وهو يسحب ورقة وضعها أمام محدثه من دون أن ينظر إليه. وتابع بذات البرود : « من أجل معرفة مواعيد تسليم الملف وفي حالة حدوث أي تغيير زر موقعنا على الانترنت ».

- شكرا. قال إيرمانو وهو يتناول الورقة. « لكن الموقع بالفرنسية على أي حا... ».

والآن أخرسته نظرات الموظف الذي لم يكن يبدو وكأنه بمزاج جيد لسبب ما، أو أنه ببساطة لم يكن هذا الزائر ذو الشعر الأشعث على ذوقه.

- عفوا. واعتذر إيرمانو لسبب لم يكن متأكدا أصلا منه، وبلع ريقه وقد لاحظ أن الموظف كان يحدجه بطريقة غير ودية واستطرد : « أردت أيضا أن أعرف لو سمحت طبعا إن كان يوجد في ميلانو مركز ثقافي جزا... ».

- لا. قال بجدية غير مبررة.

وخرج إيرمانو من القنصلية كالمطرود. والآن دس بطاقة هويته في محفظته وأخذ يقلب مطوية المركز اليهودي الذي أخذ فيه دورة من المستوى الأول اطلع فيه على المفاهيم الرئيسية الكبرى للحياة المرتبطة بفلسفة الكبالا، أما في المستوى الثاني فقد تعلم حدود النفس وطرق تغييرها، وأما المستوى الثالث الذي سجل للتو فيه فقد كان يتعلم الطالب من خلاله وسائل الكبالا المتقدمة في سبل الإلهام، وهو المستوى الذي يتم فيه الدخول إلى صلب هذه الفلسفة وعيشها فعليا، لتقع الآن عينا إيرمانو على تلك الصورة التي

كانت تتوسط غلاف المطوية، ويتذكر معها إلياس وتلك المرأة التي كان يبحث عنها.

الخامسة.

من يدري ما العلاقة بين لوحته القادمة وهذا الرمز ؟ والآن واصل قراءة لمحة عن البرنامج الذي كان يستعد لدراسته في الأشهر الثمانية القادمة :

- علم الفلك : تأثير النجوم
- قوة الكلمات
- التناسخ
- المراحل الأربعة...

المراحل الأربعة. وأعاد إيرمانو قراءة آخر كلمة وقد شعر لحظتها أن نافذة ما قد انفتحت على رأسه. إنها الرابعة! وغمغم الآن وهو يشعر بشيء يشبه النشوة قد اجتاح أعماقه. وتذكر لقاء ذلك الشيخ الصوفي في المعبد البوذي مع إلياس.

- 53 -

– لمَ تعتقد برأيك أن إيرمانو لم يتقدم بطلب التأشيرة واكتفى فقط بالمرور على القنصلية ؟

– قد يكون مقتل صديقه السريع بعدها قد منعه من ذلك. قال خير الدين وهو غير مقتنع بوجود علاقة لإيرمانو بالجريمة.

– ولِمَ مرّ أصلا بالقنصلية إن لم يكن يقصد سوى الاستفسار عن معلومات ولم يأخذ هذه المعلومات من الموقع على الإنترنت ؟

وصمت خير الدين وقد عجز عن إيجاد ربط بين هذه المعطيات والجريمة ليواصل المحقق إبراهيم تحليله.

– المجرم يحوم حول مكان جريمته.

ونظر الآن خير الدين إلى رئيسه وقد بدأ يشعر بالتوهان.

– لكن إيرمانو بيرغونزي لم يدخل الجزائر على أي حال.

– وما أدرانا نحن بمن كان يعمل معهم مِن هنا. قال المحقق بنبرة يشوبها الكثير من القلق. « مِن هنا ».

- 54 -

لم يستوعب إلياس كيف انتهى فجأة في مقر تلك المنظّمة جالسا في القاعة الشرفية قبالة رئيسها الذي كان يرتدي سترة كلاسيكية لم ير مثيلا لها من قبل في ذلك اليوم العجيب الغريب، ولكنه كان متأكدا أن سلوك هذا الشنيت كان أغرب من سترته النصف كم تلك، وكل ما مر عليه في ذلك النهار سريالي التفاصيل.

– منظّمتنا هذه كما تكون قد أخبرتك الآنسة داميا هي أكبر منظمة غير حكومية في الجزائر وأهمها على الإطلاق. قال شنيت بنبرة حازمة وهو يشبك أصابعه الطويلة والرفيعة ببعضها البعض.

– ما شاء الله... ما شاء الله ! قالت سهيلة بنبرة جدية في محاولة للمشاركة في حديثٍ بدأ منذ نصف ساعة ولم تتمكن فيه من قول كلمة واحدة على الرغم من أن أصل الزيارة هو تعريف شنيت بمشروع أوبتيميديا الخاص بإطلاق سلسلة أشرطة مصورة عن شخصيات وطنية، وذلك لنشدان دعم NA الجمعية التي كانت تتوفر على مقر فخم في أعالي العاصمة لا يمكن لأي جمعية أن تحصل عليه ومعه أثاثه الفخم إلا إن كانت ممولة ومدعومة من أطراف نافذة. وقد قامت سهيلة بحمل إلياس الدائخ معها والذي دخل مكتبها بالصدفة بعد التقاط حمزة له أمام مدخل العمارة على نحو انتهى بشكل غير متوقع، لاستعماله كأداة ترويجية بوصفه

فنانا أتى من أوروبا قد ألقى نظرة على عملهم، وهو ما من شأنه أن يعطي مصداقية أكبر على مشروعها الذي لم يكن يحتاج برأي شقيقها سوى للمسة آتية من فوق من على الخارطة الأوروبية من أجل الحصول على المباركة الآتية من فوق من على خارطة الجزائر البشرية.

والآن نظرت داميا إلى مديرتها وهي تحاول كتمان ضحكتها من ذلك التدخل الذي بدا كوميديا على نحو ما، بل وأشبه بمداخلات « يمّا مريم » منه إلى مداخلة سيدة أعمال يفترض بها إثبات حضورها بشكل أكثر فعالية في لقاء كهذا، بينما تنحنح دكتور شنيت الذي يبدو أنه لم يكن مركزا في هذا اللقاء سوى مع ضيفه الفنان العالمي ذي الوجه الملائكي.

– ولتعلم أن « أنا » تهتم بشكل خاص بالفنانين ودورهم في زيادة الوعي بأهمية مشاركة كل فرد على نحو فعال في تمثيل المجتمع المدني على نحو يصب في تعزيز مكانة الفنون على الساحة الوطنية والعالمية وهو ما من شأنه خلق صلات توعوية وكذا طاقوية حاشدة لروح الإبداع بين أفراد المجتمع والرامية لـ..

وفي هذه الأثناء كان إلياس ينظر إلى شنيت نظرة خاوية وشعر للحظات أنه ضاع بين المصطلحات الفخمة لتلك الجملة الكيلومترية التي يبدو أنها لم تنته بعد.

« وعلى هذا الأساس قمنا منذ أشهر بتنصيب لجنة ترمي إلى تعزيز مكانة الفنان الوطنية والدولية وذلك من خلال مد جسور التواصل الإبداعية على الصعيدين الشعبي والدبلوماسي بين مختلف أطياف المجتمع بما فيها الفنانين وكذا الحرفيين، دون أن

ننسى دور الزوايا في التحسيس بأهمية الدور الحضاري للفن في المجتمع و...

وهنا بدأ شعور القلق يتسرب إلى نفس داميا التي كانت ترجو ألا يخلص هذا الخطاب في أي حال من الأحوال إلى ذكر اسم رئيسة « اللجنة الوطنية للدبلوماسية الشعبية والتعاون الدولي الخاصة بالفنون التشكيلية والعروض السمعية والبصرية » CNDPCIAPSAV التابعة لـ NA والتي كانت ترأسها الشابة « حنان البلوندة » والمعروفة أيضا باسم « حنان الحنّونة » والتي حققت أغنيتها « عيطو لزهري بالتليفون » نجاحا كاسحا في سوق الكاسيت العام الماضي، إذ لم يكن يخلو أي حفل زفاف أو ملهى ليلي من قصة معاناة مغنية الراي صاحبة الشعر الذهبي من ماركة « لوريال »، مع حظها الذي هرب منها في الملحمة الشعرية التي كانت تلهب أحاسيس جميع من كان يستمع لها عبر كامل التراب الوطني في أحد روائع « الراي » المعاصر ويقول مطلعها.

عيطو لزهري بالتليفون
واي واي
ناس قاع بالأيفون وأنا ما زالني مع هداك الفكرون
واي واي
أنا شا درت لعمري باه نبغي ذاك المغبون
واي واي...

وتستمر كلمات الأغنية بالواي واي والآي آي حيث كان ينخرط الجميع في الرقص على أغنية الشابة « حنان الحنونة » التي كانت تنافس بها ملحمة غنائية أخرى بعنوان « وان تو ثري

فيفا لالجيري ». والواقع أن داميا لم تكن لتتعرف على هذه الدّرر الغنائية وهي من لم تكن من رواد الملاعب ولا من رواد الملاهي الليلية ولا القناة الوطنية، إلا أن حضورها حفل زفاف جارتها سلمى العام الماضي فتح لها نافذة على الأذواق الفنية للملاهي الليلية، والتي كانت تتصدر عرشها في هذا الموسم الشابة حنان الحنونة رئيسة « اللجنة الوطنية للدبلوماسية الشعبية والتعاون الدولي الخاصة بالفنون التشكيلية والعروض السمعية والبصرية » CNDPCIAPSAV التابعة لأنا.

والواقع أن شنيت كان يُعرف عنه ذكاؤه الإعلامي في محاولة استقطاب الوجوه الشهيرة إلى جمعيته لإعطاء زخم أكبر لنشاطاتها إلا أن اختياره ذاك لم يكن موفقا إلى حد بعيد برأي داميا، التي بدأت بالتنحنح في تلك اللحظات بينما بدت سهيلة الآن غائبة تماما عن الجلسة. أما إلياس فكان يبدو كأرنب أليف أطبقت على رقبته أصابع شنيت الطويلة المتشابكة تلك على نحو لا فكاك منه.

والآن تنفس إلياس سؤاله بهدوء وكأنه يئس من انتهاء هذه الخطبة العصماء : « وما الذي حققته جمعيتكم سيدي ؟ » قال بنبرة خافتة تليق بوجهه الطفولي إلا أنها بدت على نحو غريب وكأنها أشبه بصراخ نجدة.

وفي هذه اللحظة حلّ شنيت أصابع يده وقام من مكانه بحركة أشبه بقفزة بهلوانية رافقتها ابتسامة محمّلة بالكثير من الرضا، وكأنه كان ينتظر ذلك السؤال منذ البداية لينطلق في تقديم العرض الحقيقي لذلك اليوم.

– تفضلوا معي.

لحق الجميع بالدكتور شنيت إلى مكتبه، مارين برواق طويل لم يكن يخلو من تحف بشرية متحركة لموظفات شابات في أبهى حلة وأجمل طلة. والواقع أن وجود ذلك الكم من الموظفات الأنيقات في مبنى من ثلاث طوابق كان لافتا على نحو خاص، حيث استقبلت الضيوف موظفة سمراء. وقدمت القهوة لهم أخرى شقراء. بينما فتحت باب مكتب الرئيس لهم الآن موظفة رفيعة في حين اهتمت باشعال الفيديو الآن أخرى ممتلئة.

لم يكن يفهم إلياس تماما ما الذي يجري حوله وقبل أن يفتح فمه بالسؤال وهو ما لم يكن سيقوم به على أي حال بعد أن اكتست ملامح وجهه الآن تعابير يائسة، بادره شنيت وهو يشرّع ذراعيه مشيرا بإعجاب إلى مكتبة ضخمة مليئة بأشرطة الفيديو كانت تحتل جدارا كاملا من مكتبه مترامي الأطراف وهو ما لم يكن يلائم على نحو ما بنيته الجسدية الضئيلة، ليعلن الآن بحركة استعراضية من الواضح أنه كان قد تدرب عليها مطولا، وبصوت جهوري صدح بتلك الكلمة التي كان يكنّ لها معزة خاصة.

- إنجازاتَنا...

لتشعر داميا على إثرها بالغثيان من تلك الفتحة التي وضعت على المبتدأ، إلا أنها عادت وتذكرت أن شنيت دكتور على أي حال وحاولت أن تجد له عذرا منطقيا لتلك الجناية اللغوية واستدركت في نفسها.

لابد أنه يقصد إنجازاتْ « أنا ». فكرت وهي تشعر بالحرج.

والآن بدأ عرض أول إنجاز على شاشة التلفاز المسطحة ذات الثمانين بوصة بينما استعد الجميع لمشاهدة العرض.

شنيت ينزل من الهامر السوداء...

ها هو يبتسم.

يحيط به عدد غير محدد من الحراس الشخصيين...

وها قد لمعت عيناه.

والآن تتقدم فتاة صغيرة تضع أحمر شفاه وترتدي زيا تقليديا تحمل باقة من الورود، يقبّلها ويربت على كتفها بينما يتناول هو الورود منها ويعطيها لمساعده...

شنيت الآن يشرّع فمه عن ابتسامة عريضة أطل منها ثقب من واجهة فمه اليسرى، في ما كان يفترض أنه ضاحكته.

والآن تتدافع شخصيات متنوعة من ذوي البذلات الكلاسيكية بنصف كم لتحيته...

واكتست الآن وجهه ملامح الجدية المفتعلة.

سهيلة تجلس كالحجرة... وإلياس فاغر فاه... أما داميا فكانت تتصبب عرقا.

والآن يتغير المشهد وتبدأ فرقة موسيقية من داخل أحد المطاعم بالعزف...

يعتقد شنيت بأنه الوقت المناسب للتعليق.

– هذا مطعم بفندق خمس نجوم في الولاية. قال بنبرة استعلائية وواصل بشيء من الاعتزاز : « أكلنا المشوي الله يبارك في ذلك اليوم ! ».

– ما شاء الله. ما شاء الله ! قالت سهيلة بعد أن تذكرت أنها لم تتكلم منذ مدة. بينما أخذ إلياس الآن دورها، وبقي فاغر الفاه كصنم لا يصدق ما يجري حوله : ماذا أفعل هنا. فكر وهو يشعر أنه يعيش كابوسا ما.

- يعزفون لي أغنيتي المفضلة يا مسهرني... لأم كلثو... والآن بدأت داميا بالسعال بطريقة عصبية. « كما أنني أحب أيضا موسيقى شارل آزنافور ». قال مستدركا على نحو غير مفهوم وواصل معلقا على صورة مقرّبة له أثناء عرض ذلك الإنجاز وهو يهز رأسه برضا. « يحبونني كثيرا في كل مكان ». قال وهو يشاهد الفيديو كالمغروم ليفتح فمه بتلك الابتسامة المثقوبة كل ما حطت الكاميرا على وجهه. « يقولون أنني أشبه بومدين ». وواصل تعليقه بنبرة الحالم، بينما استأنفت الآن داميا سعلاتها العصبية. « وقد بلغني أن الرئيس نفسه يغار من شعبيتي ». تابع من دون أن ينتبه لداميا. « انظروا كم يحبونني ! ».علق على صورة النادل وهو يملأ كأسه بالماء. « في الواقع شعبيتي كبيـ..

وفي هذه اللحظات شعرت داميا أنها لابد من أن تتدخل لوضع حد لهذه المهزلة : « وطبعا جمعية « أنا » تعمل على مساعدة المشاريع الإبداعية كمشروع أوبتيميديا الخاص بالأشرطة المصورة ». قالت داميا مقاطعة الإنجاز الذي كان يُعرض أمامهم وهي تلكز بنظراتها سهيلة التي انخرطت الآن بالتأتأة والهمهمة. والآن أغلق شنيت فمه على نحو لا يخلو من انزعاج، وأطفأ الجهاز بحزم. وبدا وكأنه يستعد لخطبة أخرى.

- أنا تشد على أيديكم وتدعمكم وتحيي جهودكم وجهود جميع من يعمل في سبيل خدمة هذا الوطن العزيز على قلوبنا، بلد الرجال والنساء الأحرار. بلد الثوار والشهداء الأبرار. هذه هي جزائر العزة والمجد أيها الإخوة الكرام، البلد التي ضحى من أجلها أبي وجدي وأبناء عمومتي وأخوالي، وحتى والدتي حماها الله ورعاها كانت

تحضّر الكسرة للمجاهدين الأشاوس، أنا رضعت الثورة وشربت من كأس الحرية حتى الثمالة، كأس لن نفرّط أبدا في...

– طبعا دكتور طبعا. قالت داميا بعصبية واضحة وهي تكاد تشعر أنها تود أن تنقض على فم سهيلة المغلق بإحكام وسحب لسانها للحديث، لتواصل الآن لوحدها : « السيدة سهيلة تعاني من مشاكل للحصول على تصاريح من أجل إصدار سلسلة الأشرطة المصورة التي حدثتك عنها، والتي ستتناول شخصيات وطنية مثل لالة فاطمة نسومر والكاهنة ». لفظت آخر كلمة دون أن تنظر إلى وجه سهيلة وواصلت لوحدها شرح المشروع الذي عملت عليه منذ أشهر في أوبتيميديا.

نظر إلياس الآن إلى داميا دون أن يفهم كثيرا مما كان يجري حوله، وما دوره في كل هذا، ولماذ تم حمله إلى زيارة عمل لا علاقة له بها، لكنه كان يشعر مع هذا أن كل شيء كان متمحورا عليه. وعلى أي حال لقد كان سعيدا لأنه شعر أن الحياة عادت لتدب في أوصاله في هذه اللحظات، وهو ينظر إلى داميا التي كانت تتحدث بحماس. كان شعرها الأحمر يبدو وكأنه يضيء ذلك المكان المعتم على نحو ما. وكان وجهها الشاحب يشع بألق غريب. والآن نظر إلى تلك النجمة البرونزية التي كانت تحط وسط رقبتها بهدوء. وتذكر تلك النجمة التي كان يحتفظ بها في حقيبته. وشعر برغبة قوية تجتاحه للخروج الآن من هذا المكان المريب وحملها معه والركض بعيدا... والانفراد بها... والغوص في صفحاتها... كان يود قراءة تلك النجمة. فكر وهو لا يزال غارقا بكل ما له من خيال في النجمة التي كانت تتدلى من عنق داميا. كان يريد حتما الآن الخروج من هنا.

- السيد إلياس سيظل معنا طبعا. قال دكتور شنيت وهو يحدج الآن إلياس بشيء من الغيظ قاطعا عليه أفكاره وتابع بحزم : « وسيكون حتما مناضلا في صفوف جمعيتنا إذ لا يمكن لجزائرنا ألا تستفيد من طاقات هذا الفنان الواعدة ». قال وهو يكز على أسنانه وهو ينظر تارة إلى عيني إلياس الملتصقتين في رقبة داميا، وتارة إلى داميا التي كانت تبتسم برضا في تلك اللحظات وهي تنظر إلى سهيلة وهي من أخذت وعدا لتوها بنشر سلسلتها في أقرب الآجال، وذلك على الرغم من أن شنيت بدا مهتما أكثر بإلياس ذلك اليوم منه بسهيلة.

- شكرا دكتور. قالت داميا وهي تقوم من مكانها مصافحة شنيت في إشارة للانصراف.

- مري عليّ غدا لأخذ بطاقتك.

ابتسمت داميا لشنيت في تواطؤ وأخذت تعبث بحركة غريزية بنجمتها، وواصل : « وقد نتحدث أيضا في مواضيع أخرى ». قال وهو ينظر إلى إلياس الذي بقيت عيناه معلقتين على جيد داميا.

وأنت قد أتخلص منك قريبا. فكر وهو ينظر إلى إلياس بالكثير من الغيظ.

- 55 -

أنهت كاترينا اتصالها مع الأب أليساندرو، وابتسمت بعد تأكيد حضوره لاحتفال يوم الغد بالمناسبة التي كانت تنتظرها منذ زمن ولم يكن لها أن تمر دون مباركة الكنيسة. ونهضت الآن من مقعدها، وهي تستعد ليوم جديد تحمل فيه لوحة سي بن هارون، إلى محل المستشعرة راكيل في البياتزا ستاتوتو، ولم يفتها وهي ترحل عن كافي تورينو متوجهة إلى مكتب البصارة العجوز أن تطأ فوق خصيتي ذلك الثور المتحفز والمحفور في مدخل المحل ممنية نفسها أن تكون تلك هي آخر زيارة لراكيل بعد أن بدأت ثمار عملها تظهر بعد خمس سنوات كاملة، وذلك بسفر إلياس إلى العاصمة الجزائرية دون سابق إنذار.

إنها بداية النهاية. فكرت بزهو وهي تضغط بكل ما أوتيت من قوة على خصيتي ذلك الثور المتحفز رمز المدينة الذي اشتق منه اسمها والمحفور على أرضية ساحة سان كارلو، والذي لم تكن تضاهيه في سمعته في جلب الحظ في تورينو شيء سوى خنصر كولومبوس في ساحة كاستيلو.

والواقع أن خصيتي ثور تورينو لم تكونا الوحيدتين المعروفتين بجلبهما للحظ في إيطاليا واللتين ولكثرة الوطء عليهما كان يتم تجديدهما بشكل مستمر، بل كانت تنافسهما في سمعتهما

السحرية أيضا خصيتا ثور ميلانو الواقع تحت نفق فيتوريو إيمانويلي الثاني والذي يقال أن الدوران عليهما بكعب الرجل أو على أطراف الأصابع قد يكون مفيدا لتحقيق أمنيات الرخاء والخصوبة، وهو الذي جعل مكان الخصيتين أشبه بثقب من شدة اللف فوقه لتختفي بذلك خصيتا الحظ التي يتم ترميمهما بشكل مستمر أيضا. والحقيقة أن هوس الإيطاليين بالمنحوتات والتماثيل الجالبة للحظ يمتد إلى مدن كثيرة في إيطاليا، فالحظ في فلورنسا يتواجد في ساحة الفيكيو ميركاتو في تمثال يجسد نافورة مياه بُنيت تحت طلب فريدناندو الثاني دي ميديتشي عام 1640 وصنعها بييترو تاكا[55]، وهو ممثل في خنزير بري أطلق الفلورنسيون عليه مباشرة اسم « البورتشيلينو » الذي يعد طقس جلب الحظ من خلاله أكثر تعقيدا من طقسي الفرك العاديين في تورينو وميلانو، إذ يستدعي طلب الحظ من هذا الخنزير فرك قطعة نقدية على أنفه الذي أصبح لامعا مقارنة ببقية جسمه لشدة تمسيده هو الآخر، وبعدها تترك القطعة المعدنية لتسقط بعد طلب أمنية، فإن مرت القطعة النقدية بين شقوق النافورة تحققت الأمنية وإلا فيتم إعادة الطقس لثلاث مرات كأقصى حد. وأما في رافينا في شمال إيطاليا فيقال أن تقبيل شفاه التمثال المشؤوم لجثة غويداريلو غويداريلي[56] قد يساعد الفتيات على الزواج قبل مرور سنة من أداء هذا الطقس، وقد تم ترميم هذا التمثال لأكثر من مرة بسبب الكميات الكبيرة من أحمر الشفاه ومختلف أنواع مستحضرات التجميل الدهنية التي أضرت بشفتيه الأمر الذي دفع بالسلطات لمنع تقبيله من طرف السائحات اللواتي كن يأتين خصوصا لتقبيل فم الجثة أملا في الزواج، غير

55. Pietro Tacca.
56. Guidarello Guidarelli

أنه تم التأكيد لهن أن إرسال قبلات من بعيد للتمثال قد تفي هي الأخرى بالغرض. وفي فيرونا أيضا غير بعيد عن البندقية ثمة تمثال جولييتا الذي يقال أنه يساعد على جلب الحب إذا ما تم لمسه في نقطتين معينتين تختلفان إذا تعلق الأمر برجل أو امرأة. أما في روما فثمة تمثال نصفي ضخم يبلغ طوله الثلاث أمتار، في إحدى زوايا بالازيتو فينيسيا في ساحة سان ماركو ويقال أنه أتى من أحد المعابد القديمة للإلهة إيزيدي وقد يكون التمثال خاصا بها، إلا أن البعض يعتقد أن الأمر يتعلق بالإمبراطورة فاوستينا، غير أنه وبالنسبة لسكان روما فإن الأمر يتعلق بمداما لوركريتسيا. وقد كانت لوكريتسيا دالانيو محظية ألفونسو آراغونا، وقد اضطرت بعد وفاة الملك لمغادرة نابولي والانتقال إلى روما للعيش في تلك الساحة المحبوبة من طرف الجميع. وتقضي عادة قديمة الآن بضرورة الانحناء أمام التمثال تعبيرا للاحترام لمداما لوركريتسيا، ويقال أنها عادة تساعد على الشفاء من آلام الحب، أو من حب مستحيل إذ يكفي لمس الحلمة العارية من التمثال للعثور على السكينة المفقودة. والغريب في كل هذه الطقوس أنها منتشرة في وسط وشمال إيطاليا المتقدمة بأشواط عن الجنوب الإيطالي الذي تبقى الكنيسة وقديسوها هم محور حياة السكان فيه، بينما تنفتح مدن الشمال على ماضيها الوثني مشرّعة أبوابها على عوالم غامضة طالما داعبت خيال المنبشين في الأسرار الخفية.

وابتسمت الآن كاترينا وهي تركن سيارتها في ساحة ستاتوتو لتتأمل بإعجاب الملاك الأسود لنافورة ديل فريجوس. لقد انتهيت منك إلياس ! وغمغمت مبتهجة.

- 56 -

جلس إيرمانو يتأمل النجمة الهجينة التي كانت تظهر فوق بطاقة « داليث » الثالثة من سلسلة لوحات دافيدي توناتو[57] للتاروت والمعروفة باسم « شجرة حياة التاروت »، وهو الذي كان منكبا منذ فترة على دراسة أعمال هذا الفنان الإيطالي الذي ينتمي إلى المدرسة السريالية والذي بدأ بممارسة الكبالا وتطبيقها على أعماله منذ عام 1980، حيث لم تكن تخلو أي من لوحات توناتو من رموز السحر المخفية في البنيات الفنية لأعماله، وقد كان اهتمامه واضحا بالرموز السحرية لمختلف الثقافات القديمة منها والمعاصرة، إلا أن تأثره بالكبالا جعله لا يتوقف عند لوحة « شجرة الحياة » الشهيرة التي رسمها عام 1986، بل لرسم سلسلة من لوحات التاروت أطلق عليها اسم : « شجرة حياة التاروت » والتي يعود اسمها إلى عنوان النص اليهودي القديم سفر الزُهار أو « كتاب التكوين »، حيث يشرح هذا المؤلف الغامض خلق الكون من نفخة إلهية انبثق عنها اثنان وثلاثون فرعا أُطلق عليها اسم « دروب الحكمة العليا ». وتعكس هذه اللوحات الـ 22 والمستوحاة من مذاهب التاروت لمدرسة الكبالا الفرنسية الذي كان يعد إيليفاس

57. Davide Tonato.

ليفي أحد أهم أعمدتها، المعّنى الذي قد يربطه سحرة القرن الـ 21 بهذه الدروب الإلهية الـ 32. والواقع أن هذا العمل لم يكن عملا استعراضيا وإنما فلسفيا يعيد إنتاج دوغمائيات سحرية كانت تفرض على الفنان خيارات محددة. وقد تم عرض هذه اللوحات أول مرة في قلعة إيستنسي بفيرارا خلال معرض « تاروت : اللعبة والسحر في بلاط إستينسي » عام 1987.

فكر إيرمانو بالعلاقة المفترضة لتفسيرات الكبالا ورحلة إلياس إلى بلده، ونظر الآن بنفاد صبر إلى أيقونة اتصال صديقه بسكايب التي بقيت رمادية على نحو ضبابي منذ أن انقطع الاتصال معه يوم أمس. وأخذ الآن يطرق بشيء من العصبية على طاولة مكتبه وهو لا يطيق الانتظار منذ عودته من ميلانو حتى يكشف أخيرا لإلياس سر « الرابعة » التي أخبره عنها الشيخ برهان الدين في معبد بومايا. وتناول الآن بحركة لا إرادية مطوية « كبالا سنتر » التي كانت تعلوها خامسات تتوسطها قلوب ملونة. لكنه لم يكن مركزا معها الآن بينما في رمز « شجرة الحياة » الذي كان شعار المركز اليهودي الرسمي والتي كان يرمز لها برسم تخطيطي مقسم إلى ثلاثة أعمدة تعود رمزيتها إلى التقاليد اليهودية السحيقة، حيث تتقاطع أيضا مع التقاليد المسيحية من خلال التصور الذي أدخله بعض السحرة المسيحيين الذين يطلق عليهم اسم الهرامسة لكون هذه الشجرة تعبّر عن تجليات الخلق الإلهي، والمتمثلة في الطبيعة الألوهية، والنفس البشرية، والدرب الروحي لسمو الإنسان. والحال أن مفهوم شجرة الحياة لا يقتصر وجوده على التقاليد الفلسفية اليهودية فقط حيث يطلق على الشجرة اسم « السيفورات العشرة » بحسب التعبير اليهودي البحت، بل يجد هذا التصور له تجليات

في ديانات وفلسفات وأساطير عدة ذلك أنه يرمز إلى العلاقة المتبادلة بين الإنسان والكون. فنجد تعبير شجرة الحياة يطلق على الشجرة المقدسة في بعض الديانات الوثنية التي تعتبر فيها الشجرة كإلهة. وكذا شجرة المعرفة في العرف المسيحي والموجودة في جنة عدن والتي تربط الجنة بالعالم السفلي. وهي نفسها شجرة الخلد في الديانة الإسلامية والتي يطلق عليها أيضا اسم الشجرة المحرمة.

ونظر إيرمانو الآن إلى الشجرة التي كانت تعتبر خريطة تفصيلية للخلق حسب تقاليد الكبالا، دون أن يعرف مدى تقبل صديقه للتفسير الحقيقي المستوحى من هذه المدرسة لتلك الكف والمرتبط بواقع الأمر بـ « الرابعة »...

فهل سيكون مستعدا يا ترى لمعرفة السر ؟ فكر إيرمانو وقد شعر بدفقة أدرينالين تجتاح بدنه بعد أن ظهرت أيقونة إلياس على مكتبه الآن باللون الأخضر.

لقد دقت ساعة الحقيقة.

- 57 -

رتبت راكيل أوراق التاروت وهي تستعد الآن لاستقبال العجوز الإيطالية الثرية التي صبرت خمس سنوات كاملة معها لتحقيق مرادها، وقد غادر إلياس فعلا أمس إيطاليا بحسب ما أخبرتها به زبونتها الوفية، وكان ذلك هو كل ما طلبته منها، إلا أنها كانت تريد أن تكون أكثر سخاءً معها. وعادت لتفتح مجددا بطاقة الموت بينما كانت كاترينا تحدجها بالكثير من الخشوع وهي تفتح الورقة تلو الأخرى لتلك البطاقات الغامضة التي ظهرت في أوروبا في القرن الـ 15 وفي إيطاليا بالتحديد تحت اسم « تاروكي » ليبدأ مباشرة استخدامها في أعمال التبصير والكهانة دون أن يعلم أحد على وجه التحديد مصدرها. وإن كان يعتقد البعض أن أصولها تعود إلى الشرق ويعزون اسمها إلى كلمة « طرق » العربية، بينما يؤمن الآخرون أنها تستخدم في الكبالا بل وأصل التسمية يعود فيها إلى عكس أحرف كلمة « توراة ». وأيا كان أصل التسمية فالمؤمنون بقدرات الكشف عن المستقبل من خلال هذه الأوراق يعتقدون أنه ومن خلال أوراق السر الأعظم ومعها أوراق السر الأصغر للبطاقات الثماني والسبعين للتاروت يمكن قراءة خريطة حياة الإنسان وفق ترتيب معين، وذلك بحسب مهارة البصار أو المستشعر. وقد كانت راكيل إحدى أكثرهم براعة كما كانت تعتقد كاترينا وهي تنتظر ما ستسفر عنه جلسة ذلك اليوم.

غرزت راكيل الآن دبوسها الطويل على الزاوية اليسرى من تلك اللوحة المصنوعة من ثلاثة أنواع من الرمل الجزائري : رمز إليزي، وتندوف، ووادي سوف، بحسب ما أكده سي بن هارون لكاترينا التي لم تعاود الاتصال به بعد تلك الزيارة إلا أنها تركت رقمه لإلياس، ليتصل هو نفسه بمواطنه في حال إذا ما احتاجت لشيء آخر من محله، وهو الذي لم يكن ليشتبه البتة بما كانت تحضره له. والواقع أن راكيل كانت تبدأ كل جلسة لها بسماع آخر أخبار إلياس من الخالة نفسها لتقوم بقراءة أوراق التاروت المرتبة مسبقا، لتنهي طقوسها بغرز إبر طويلة في لوحة رمال الصحراء الجزائرية الثلاثة، وتتلو بعدها بأعين مطبقة ملخص « ما هو قادم »، والذي لم يكن يتجاوز عبارة مكوّنة من ثلاث كلمات على أقصى تقدير، كانت تنتظرها كاترينا عند نهاية كل جلسة بفارغ الصبر لتبث الطمأنينة في نفسها، أما اليوم فكانت تشعر بنشوة كبيرة.

« سيرحل دون رجعة ».

هكذا ختمت اليوم راكيل لقاءها بزبونتها الثرية والتي يبدو أنها ستضطر لتوديعها قريبا بعد أن حققت ثروة طائلة من ورائها طيلة السنوات الخمس الماضية. وفكرت وهي تنظر إلى تلك اللوحة مغمغمة بأسف : « سترحل دون رجعة ».

- 58 -

نسخت مدام صفري بحث « صورة الأنا والآخر في شعر عبد الرحمن الثعالبي » على ملف وورد جديد، وقد ارتسمت تلك الابتسامة الدراكولية التي كانت تميزها على وجهها البني الكبير، بعد أن اطمأنت الآن أنها تستطيع نشر هذا البحث باسمها بعدما وصلتها نسخة عنه من متخرجة جديدة من قسم الأدب العربي اسمها داميا بن هارون. وألقت صفري نظرة خاطفة إلى صورة المرسلة مع سيرتها الذاتية بالكثير من اللامبالاة وشيء من الحقد. قد تنتهي كمراقبة بائسة في إحدى المتوسطات. فكرت وهي منشغلة بتغيير نوع الخط وحجم الكتابة وتمتمت بابتهاج : « لن تصلها المجلة على أي حال، فهي مخصصة للنخبة ». والآن ابتسمت بثقة، وهي تقارن بين النسخة التي وصلتها باسم داميا بن هارون ونسخة أمينة بختاوي الأستاذة في قسم الأدب العربي والمشرفة على بحث هذه الطالبة كما هو مدون في نسخة داميا، وقد كانت هي نفسها. المتخلفة! تمتمت صفري بزهو وهي تفكر بزميلتها اللصة. « تعتقد أنها تستطيع أن تصنع لها اسما كبيرا مثل اسمي ». واحتفظت الآن بالملفين في قرص مضغوط قد تحتاجه لأيام الأزمات. « لا تعرف هذه الغبية أنني وصلت إلى ماوصلت إليه بفضل قدرات أخرى لا يتمتع بها غيري ». وغمغمت وهي ولا تزال تلبس تلك الابتسامة

المخيفة على وجهها. والآن أرسلت البحث من دون حتى أن تكلف نفسها عناء تغيير عنوانه وقد اقتنعت أن زميلتها « الطموحة » لن تتمكن من فتح فمها احتجاجا على سرقة بحثٍ هي نفسها قامت بسرقته من طالبة عندها.

والواقع أن مدام صفري لم تكن بحاجة أصلا لنشر أبحاث باسمها وهي من كانت تشتهر في كافة الوطن العربي بثقافتها ورقيها، وجمالها !! ودكت الآن أصابعها الغليظة في شعرها الخشن بزهو، خصوصا أنها تملك جيشا من المتزلفين من الأساتذة والباحثين الذين يسبحون بحمدها شاكرين نعمة استدعائهم للتدريس في المعهد العربي وتقاضي حفنة من الدولارات من حين لآخر. إلا أنها فكرت أنه قد يكون من المثير للاهتمام أن تطرح بين الفينة والأخرى بحثا أو مقالة ما تلهب بها قلوب عشاقها، لعلهم يخرجون عليها باستعراضات تسبيحية أفضل من إهدائها تمثالا لإلهة قبيحة. والآن شعرت بالانزعاج من تذكر تلك التانيت التي أهداها إياها « أدشيتي » المنافق كما كانت تسميه في سرها. لكنها على أي حال تبقى آلهة. فكرت وهي تشعر بالامتعاض من كون المتزلفين المحيطين بها لم يتمكنوا لحد الآن من إبداع شيء يليق بمقامها.

وأي مخيلة يملك هؤلاء ؟

غمغمت باستياء وهي تتذكر الكتب التي يضعها آدشيتي وأمثاله من أساتذة المعهد والباحثين فيه، والتي لا تخرج عن ثلاث أو أربع أو خمس موضوعات تراثية مستهلكة. والحال أن أول إصدارات المعهد كان « القرآن » كافتتاحية مشرفة لا يمكن لأحد أن يتجرأ على انتقادها ليبدأ صرف المال وسرقة ما يجب سرقته لاحقا على أبحاث مكررة حول عنترة وتأبط شرا، أو حتى أدونيس لإضفاء

طابع حداثي على معهدها. والحقيقة أن صفري لم تكن تبالي البتة بما نُشر أو سينشر أو ما سيتم نشره، فالمهم أن يبقى المعهد مفتوحا وتبقى هي في الواجهة. تبقى هي الإلهة. إلا أنها كانت مع ذلك تشعر ببعض القلق على منصبها الذي لن يتسنى لها الاحتفاظ به دون دعم ابن منطقتها معاليه صديق الجنرال منير كما يشاع، والذي يتم الحديث في الكواليس أن هناك صراعات خفية مع معاليه الآخر المدعوم من الجنرال حكيم والله أعلم.

ربٍّ يستر...

فكرت وهي تذكر أن هناك أقاويل تؤكد بأن الجنرال حكيم هو ابن نفس المنطقة التي تنحدر منها فتيحة سعيودي المستشارة في وزارة الثقافة والتي بحسب ما سمعته فقد جن جنونها قبل سنة عندما تم تعيينها في هذا المنصب لأنها كانت تعتقد أنها تستحقه أكثر منها، وإذا ما تم الانقلاب على معاليه المدعوم من الجنرال منير من طرف معاليه الآخر المدعوم من حكيم ستنتهي حتما سعيودي على كرسيها، ولن يفيدها تملق الأساتذة العرب لها لأنهم في النهاية سيتزلفون لأي مديرة جديدة ويحولونها هي الأخرى إلى آلهة من أجل الحصول على دولارات المعهد التي كانت تتحكم في صرفها. وبلعت الآن ريقها وهي تشعر بانقباض في صدرها، وشدت بحركة غريزية على كرسيها. ثم نظرت بتوجس إلى هاتفها الذي أخذ يرن برقم مجهول. لكنها سرعان ما عادت لترسم تلك الابتسامة الدراكولية على وجهها، وهي تسمع ذلك الصوت الخافت وهو يكلمها وبدا وكأنه يشدو في أذنها...

أغلقت الآن الخط وهي تمني نفسها بمقابلة خاصة يوم غد في مكتبها مع أستاذ الرسم في أكاديمية ألبيرتينا بتورينو. وعلى الرغم

من أنها لم تكن متأكدة من مسمى المنصب التي قد تمنحه إياه لكنها كانت تعلم أنها تستطيع أن تجد طريقة ما لإبقائه بجانبها. والآن أخرجت المرآة من درج مكتبها ومعها قلم الحُمرة الخمري اللماع وهي تمني نفسها بمقابلة لذيذة يوم غد مع إلياس.

– تبا كم كان وسيما ! قالت وهي تلعق قطعتي اللحم المترهلتين اللتين كانتا تتوسطان النصف السفلي من وجهها.

- 59 -

– ألا تشتم رائحة فاسدة لامرأة ما في هذه الجريمة ؟ سأل المحقق إبراهيم مساعده بنبرة تكاد تكون يائسة وقد تجمعت أمامه معطيات كثيرة منذ بدء التحقيق تشير بأصابع الاتهام للجميع لكنها لا تدين إلى الآن أحد. « بدأت أعتقد بصراحة أن الجريمة قد نفذتها امرأة عرفت مسح آثار الجريمة جيدا من ورائها ». قال بنبرة شبه تهكمية وهو يأخذ الآن نفسا عميقا من سيجارته.

– كل شيء جائز. قال خير الدين بنبرته البراغماتية المعتادة : « لكنني لا أعتقد أنها قد تكون عاملة نظافة على أي حال ». وتابع مساعد المحقق دون أن تظهر أي من علامات السخرية على صوته : « فـ « يمّا مريم » أكدت أنها كانت هي من تنظف تلك الشقة، وهي بعيدة عن دائرة الشك لأن سليم صاحب الكشك أكد أنها كانت في وقت الجريمة تشاهد مقابلة الجزائر إنجلترا في المنزل مع أبنائها التسعة وكان هو وابن الحي رشيد معهم ليلتها ».

– أعلم... أعلم. تلك المقابلة ! وتمتم بامتعاض : « شخصيا كنت أشك في إسماعيل لولا أن زملاءه في الحي الجامعي أكدوا أنه كان يشاهد المقابلة معهم... الرجال المشتبه بهم يبدو أنهم جميعهم قد أنقذتهم تلك المقابلة، ولكن ماذا عن علاقاته النسائية ؟ ».

– عدا عن سهيلة وداميا ، قام إلياس بالاتصال بمدام صفري في اليوم الثاني من قدومه.

– نعم. وارتسم الآن تعبير الانزعاج على وجه إبراهيم. صفري أيضا في القضية...

وفكر أيضا بشنيت المعروف بعلاقاته النسائية الصاخبة وكذا جنون عظمته وحب التملك الذي كان يسيطر على جميع تصرفاته وحتى السياسية منها وعلاقاته المريبة، والأهم من ذلك صلات داميا به وبإلياس معا. « لا يعجبني وجود كل هؤلاء سويا في هذه القضية ». فكر إبراهيم بصفري، أمزيان وشنيت. ونفث الآن بعصبية : « وإيرمانو ذاك الذي لا أستطيع أن أجد سبيلا نحو فهم دوره في هذ الجريمة، وكل من يتواجد على الضفة الأخرى ». وكبس الآن رأس السيجارة بالكثير من الغيظ.

لقد كان إبراهيم يعلم بأنه لا يرى سوى وجها واحدا من الحقيقة... حقيقة إلياس التي لا يمكن لها أن تكتمل دون معرفة الخبايا التي تخفيها له الضفة الأخرى.

- 60 -

انتظر إيرمانو رد إلياس وهو يبلع ريقه، في حين لم يكن يدري بالتحديد سبب تسارع دقات قلبه في تلك اللحظات.

هل تود أن تعرف من هي « الرابعة » ؟! ورقن رسالته بعصبية.

لقد كان من الواضح أن إيرمانو عازم الآن على إخراج فكرة تلك المرأة من رأس إلياس والذي اتضح له أنه مقتنع بكونها امرأة حقيقية، وهو من لم يفهم رفضه غير المبرر لنظرية تانيت، ولا حتى شيفا ورموز المودرا للكف الموجودة على شعار الجمهورية الجزائرية، الأمر الذي لم يبدُ له بريئا بأي شكل من الأشكال. لقد كان من الواضح بالنسبة لإيرمانو أن إلياس يود إقناع نفسه أن ما يبحث عنه امرأة حقيقية من لحم ودم. والآن أخذ ينتظر رده على رسالته، وهو لا يكاد يتحكم بتسارع نبضات قلبه.

لقد كان إلياس فنانا صاحب أفكار متقلبة، وقد يكون تعلقه المفاجئ وغير المبرر بذلك الرمز ليس سوى بوابة قد ينقلب منها على حياته السابقة التي تركها وراءه هكذا دون سابق إنذار... حياة شاركها معه إيرمانو في السنوات الماضية، ولم يكن من الممكن أن يرضى الآن أن ينقلب عليها بسبب كفّ غيبية... امرأة غبية. فكر إيرمانو بالكثير من الانزعاج.

هل أنت موجود ؟

لماذا لا ترد ؟

أجِبني

ما الأمر ؟

رقن إيرمانو رسائله الواحدة تلو الأخرى بيد مرتعشة. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يشعر بها بكل تلك العصبية... بالقلق... بالخوف... بالذعر... بالغيرة... لم يكن قادرا تماما على تفسير كم المشاعر التي كانت تتدفق على نفسه في تلك اللحظة.

لا توجد أية امرأة

إنها ليست سوى الرابعة

لا تبقى هناك

عد إلى هنا...

والآن فُتحت نافذة الاتصال أمامه، وكبس مباشرة على زر الإجابة.

كان إلياس كعادته هادئا ساكنا إلا أن نبرة صوته كانت في تلك اللحظات تبدو ذاوية بل هامدة إلى حد الخدر. لم يكن يبدو أن نهاره ذاك قد مر بسلاسة.

– ما هذا القلق ؟ ما بك ؟ سأل إلياس مبتسما وهو يحاول طمأنة صديقه على حاله.

– اسمعني. رد إيرمانو بنبرة حازمة. لقد عرفت رمزية الخامسة التي تبحث عنها. وصمت ليسمع ردة فعل صديقه الذي بقي ساكنا هو الآخر للحظات، بل غير مهتم على نحو غير متوقع.

– دعك من الأمر. رد إلياس بلا مبالاة مستغربة. « فقد لا تكون سوى يد فاطمة ». لفظ كلمته الأخيرة دون اقتناع.

– لا ! صاح إيرمانو مقاطعا بعصبية لم تكن مألوفة عنده البتة، « إنها ليست فاطمة ». وقال الآن وهو يحاول العودة إلى هدوئه : « لا توجد أي امرأة في الموضوع ».

وصمت الآن إلياس وهو ينظر إلى صديقه بحيرة ليترك إيرمانو يقول ما عنده وقد بدأت الريبة تتسلل إلى نفسه.

– اسمعني يا إلياس. قال إيرمانو بجدية وهو يحاول استدعاء هدوئه ونبرته العلمية المعهودة : « لطالما قام القدماء بربط تفسيرات سحرية لكل عضو من أعضاء جسم الإنسان، ولكن تبقى رمزية اليد البشرية لوحدها كافية لملء عدة مجلدات. فالرموز يمكن أن تشير إلى مفاهيم ملموسة أو مجردة، أحداث حقيقية أو متخيلة، ظواهر طبيعية أو خارقة، مبادئ روحية أو مادية. إلا أنه ومما هو واضح في كل ما قيل عن اليد، أن الحكماء والفلاسفة استخدموها للإشارة دوما إلى شيء واحد فقط لا غير ». وصمت الآن قليلا وكأنه يلتقط أنفاسه وواصل : « بل وحتى في مصر القديمة كان رمز الكف الذي كان يظهر على شكل ذراعين مرفوعين نجده بشكل متكرر في المعابد، يبقى هو نفسه باللغة الهيروغليفية ذلك المفهوم المرتبط بالرمزية التي تعزى إلى اليد في جميع الثقافات ».

وأطبق إلياس الآن جفنيه وكأنه قد فهم قصد إيرمانو.

– هل تقصد الكا ؟ قال وقد تسرب إلى نفسه شعور غامض بالقلق.

ويعد الـ « كا » مفهوما في اللغة الهيروغليفية لا يوجد له مقابل محدد في الثقافة الغربية الأمر الذي جعل من إيجاد ترجمة دقيقة له في اللغات الأوروبية أمرا عسيرا، ولكنه يمكن أن يشير إلى الخصائص المميزة للشخص، أو طبيعته، أو مزاجه. ولكون

شخصية كل فرد لها تأثير على مسار حياته، فالكا قد تشير أيضا إلى قَدر الإنسان أو مدى تدخل القدرة الإلهية في تسيير حياته، وهي تعتبر نوعا من القوى الكونية التي يولد معها الإنسان. وقد كانت عبارةُ « أن يلتقي المرء بكاه » باللغة الهيروغليفية تعني أن يموت.

– نعم. أجاب إيرمانو بهدوء : « إنها الروح ». ثم واصل بصوت عميق : « فلطالما ارتبطت اليد بمعنى الروح والقوى المتصلة بها. وقد قامت مختلف الديانات والفلسفات بتمرير رسائلها عبر اتخاذ اليد كرمز لها ومثال لإيصال المغزى والمراد من تعاليمها الروحية ».

والآن نظر إيرمانو إلى اللوحات التي كانت معلقة على الجدار خلف إلياس والتي كانت تحمل جميعها توقيعه. لوحات ملغزة طالما أدهشت وحيرت عشاق فنه الوجودي والمقدس في آن، وهو الذي كان يلتقط الأرواح ويحبسها في لوحات ذات أطر مفتوحة تاركا لها حرية الهرب أم البقاء، أو ربما كانت تلك الأرواح التوأم للروح السابحة في مكان لا يمكن أن تتلصص عليه عين رسام ولا ريشة فنان. أرواح بمجرد خروجها من الجسد كانت تترك بصمتها على إحدى لوحات إلياس. فإلياس لم يكن يرسم الأحياء... لم يكن يؤمن بالأجساد... لم يكن يؤمن سوى بالأرواح. والحال أن إحدى المجلات الفنية الأوروبية قد أطلقت عليه منذ سنتين اسم « هيمو ـ كا » والذي كان يعني بالهيروغليفية خادم الروح، وهو الاسم الذي كان يطلق على الكهنة المحضرين للطقوس الجنائزية في مصر القديمة.

بقي إلياس صامتا للحظات وقد شعر أن شيئا ما قد سُحب من داخله فجأة ودفعة واحدة.

– أنت لم تر من خلال تلك الكف سوى رمزا يرتبط بشكل ما بفنك... بكيانك، ولكنه في الواقع لن يوصلك إلى أي مكان هناك. وصمت قليلا واستطرد بنبرة تشييعية : « عد إلى هنا، لا يوجد أي شيء تبحث عنه هناك... ».

وخيم صمت مأتمي على المحادثة. ليعود إلياس الآن لقراءة تلك الرسائل شبه الهستيرية التي بدأ إيرمانو بها المحادثة.

« لا توجد أي امرأة. إنها ليست سوى الرابعة. لا تبقى هناك. عد إلى هنا ».

ليتذكر رحلته إلى توسكانا مع إيرمانو داخل ذلك الدير البوذي، وكلمات الشيخ الصوفي...

– لكن هل قلت في البداية أنك عرفت ما قصده الشيخ برهان الدين بالرابعة ؟! سأل إلياس في غير تصديق وهو يشد على حاسوبه المحمول وكأنه يترجى المكالمة أن تصمد أكثر وألا تنقطع فجأة.

– نعم. قال إيرمانو بتردد وهو ينظر إلى شجرة الحياة من على مطوية « الكبالا سنتر »... الشجرة المحرمة.

لكنه لم يكن متأكدا مما كان مقدما على قوله. لم يكن متأكدا من ردة فعل إلياس على كلامه...

- 61 -

نظر إيرمانو إلى شاشة الحاسوب، ومن دون أن يحاول التركيز الآن على عيني إلياس الضبابيتين قال دفعة واحدة بنبرة خابية.

– الشيخ برهان الدين كان يقصد المرحلة الرابعة.

– أية مرحلة ؟! قال إلياس وهو يحاول احتواء حماسه.

– المرحلة الرابعة من الـ « بردس ». ورفع الآن مطوية « الكبالا سنتر » بتردد...

نظر إلياس إلى المطوية وهو يحاول تبين محتوى ذلك الغلاف.

– ألا زلت تأخذ دروس الكبالا ؟ سأل إلياس صديقه الذي بدا مترددا على نحو غريب.

– نعم.

– وما هو البردس ؟ سأل إلياس بريبة.

– بحسب كتاب الزُهار الخاص بالكبالا فتفسير التوراة يمر بمراحل أربعة، وما تبحث عنه موجود في الرابعة. وصمت قليلا ثم تابع : « أقصد المرحلة الرابعة ».

وصمت إلياس الآن تاركا إيرمانو يستطرد في كلامه في تفسير المراحل التي يقترحها الزُهار والتي يُفترض أنها تنطبق على شرح أي مفهوم كان، حيث يمر أولا بالمرحلة البسيطة « بشات » وهي التي تقدم قراءة مباشرة للمعنى. والمرحلة الثانية والتي يطلق عليها مرحلة الـ « رمز » وتقدم إشارات رمزية للكلمة، وتعد مرحلة

أعمق من القراءة الأولى حيث تتجاوز القراءة الحرفية للمفهوم. والمرحلة الثالثة « داراش » وهي مرحلة البحث والتنقيب وترتبط بمحاولة إيجاد تجليات أخرى للمفهوم في سياقات مختلفة ومحاولة مقارنتها ببعضها. أما المرحلة الأخيرة فهي الرابعة. قال إيرمانو وهو ينظف الآن حلقه : « إنها « صود » وتعني السر وتشير إلى المعاني الخفية للمفهوم والتي يتجلى من خلالها المعنى السحري أو الصوفي للكلمة ». وصمت إيرمانو الآن وكأنه يستعد لتلاوة ما بدا وكأنه حكم إعدام. « وهذه المرحلة لا يتم بلوغها سوى بطريقة واحدة ». وبقي إلياس صامتا على نحو غريب، دون أن يفتح فمه بكلمة، ليواصل إيرمانو من دون مقاطعة. « إنها مرحلة الكشف أو الإلهام ». قال وكأنه يطلق رصاصة الرحمة على رأس إلياس الذي بقي كالصنم وهو من لم يراوده الإلهام لرسم لوحته تلك منذ أكثر من ثلاث سنوات.

– لم أفهم ! ردّ إلياس ببساطة. وقد تذكر على نحو غريب في تلك اللحظة إحدى وصايا جده. « ما تحوسش تفهم بزاف ! »، وتذكر معها انفجار قنينة غاز البوتان في وجهه من داخل مكتب أمزيان ذلك الصباح. « انت تحب تفهم بزاف ! ». تذكر أنه لم يقل يوما في حياته « لم أفهم » ليس لأنه كان يفهم كل شيء بالضرورة ولكن لأنه كان يحاول ببساطة فهم أي شيء، وقد كانت والدته تشرح له كل شيء. لقد كانت مارتينا تحبه أن يفهم. « يصبح المرء منا غبيا، عندما يقرر ألا يفهم، عندما يصبح الفهم مسببا للقلق أو للشعور بالذنب، أو من شأنه أن يشكل خطرا على التوازن العصبي الكائن... ». كان ذلك كتاب نظرية التحليل النفسي للأعصاب[58] لأتو فينيشل[59] والذي كان إلياس يقرأ له حين كان والده حيا بإيعاز من والدته ليحاول فهم مرضه أكثر.

58. Psychoanalytic Theory of Neurosis, 1945.
59. Otto Fenichel.

هل أصبحت الآن غبيا ؟ فكر بخواء وهو صامت كالتمثال الأجوف. والواقع أنه شعر في تلك اللحظات أن وجهه كان أشبه بوجه سهيلة.

– المعنى أنك مررت بالمراحل الثلاث الأولى للفهم. رد إيرمانو بهدوء. لقد حاولت فهم المعني السطحي للشعور الذي راودك، ثم فهم رمزية الأشياء التي تحيط به، وبعدها بحثت ونقبت عن معناها، والآن ما عليك سوى أن تنتظر الكشف... أن تنتظر الإلهام مثلك مثل أي فنان آخر. وصمت الآن إيرمانو للحظات وواصل : « حان وقت العودة إلياس، فالإلهام قد تجده هنا بعد أن مررت بمرحلة البحث الثالثة هناك، لكن الرابعة موجودة هنا. الإلهام طالما أتاك هنا ». وتابع بإلحاح، بينما بقي إلياس صامتا دون أن ينبس بكلمة، واستطرد الآن بنبرة يائسة : « انظر إلى تقلب مزاجك بين اليوم والبارحة. هل هذه حالة فنان ينتظر الإلهام، أم حالة إنسان قد تبلد حسه ؟! ».

تنهد إلياس وقد عادت إلى ذهنه كل الصور التي رافقته خلال اليومين اللذين قضاهما في تلك المدينة وبين أهلها. قد لا يكون هذا فعلا أفضل مكان لنشدان الإلهام... والآن نظر بأسى إلى « الأمير عبد القادر » و « تاريخ الجزائر » الموضوعين على الطاولة وإلى جانبهما « نجمة ». وعاد لينظر إلى إيرمانو الذي كان لا يزال يترقب رده على كلامه وهو حابس أنفاسه.

« وما علاقتي أنا وتحليلات الكبالا !؟ » قال دفعة واحدة. ونظر إلى « نجمة » ثم أطلق زفرة عميقة. أنا سأجدها هنا. وسأكتشف ماهية « الرابعة ».

- 62 -

J'ai caché *la Vie d'Abdelkader*
J'ai ressenti la force des idées
J'ai trouvé l'Algérie irascible. Sa respiration…
La respiration de l'Algérie suffisait.
Suffisait à chasser les mouches.
Puis l'Algérie même est devenue…
Devenue traitreusement une mouche[60].

« خبأت حياة عبد القادر
شعرت بقوة الأفكار
وجدت جزائر نزقة. نفَسها...
كان نفَس الجزائر يكفي.
يكفي لطرد الذباب.
وبعدها غدت الجزائر نفْسها...
غدت، على نحو تتأبطه الخيانة، ذبابة ».

وحاول طرد الذباب الذي كان يحوم على الفوطة الصحية العفنة الملقاة أمامها ، قبل أن يذهب إلى موعده مع مدام صفري على الرغم من أنه لم يكن يريد التوقف عن قراءة « نجمة » وكأن طيفها قد

60. *Nedjma*, 60.

تلبسه، وهو من أمضى طيلة الليل يلتهم صفحاتها. وضع إلياس الآن الأزهار إلى جانبها وهو يحاول التلصص من دون أن يزعجها على وجهها الذي كان يبدو غائصا داخل حفرة سوداء صنعتها ثنايا حائكها الحريري المهترئ. كان إلياس يعتقد فعلا أن الأزهار تليق بتلك المرأة على الرغم من أنها لم تكن تبدو سوى ككومة بشرية منسية على قارعة درج قذر، بل وأقرب إلى الكائنات الميتة منها إلى الحية، إلا أنه لم يكن يدري إن كانت تلك الزهور التي كان يضعها أمام ذلك الكفن الحي كل صباح تعبر عن مشهدية تأبينية أم تنم عن حالة تقدير حقيقية.

دخل إلياس إلى المعهد العالي للأبحاث في التراث العربي وهو يتذكر بشيء من الخجل تلك اللحظات الرهيبة التي عاشها في حضرة مديرته يوم أمس، دون أن يفهم تماما سر اهتمامها به ودعوته لزيارة المعهد على الرغم من عدم تمكنه من إيجاد ما قد يربطه كأستاذ فن معاصر بمعهد من هذا النوع. نظر إلى ساعته بشيء من الارتباك، وعاد ليتأمل المكان من حوله محاولا فهم طبيعته وقام الآن من مكانه وأخذ يطالع تلك اللوحات المعلقة على جميع جدران تلك القاعة الفسيحة على نحو استعراضي غريب، إلى درجة جعلت المكان يبدو أشبه بسيرك فني لا ينم عن أي فكر أو ذوق. ومن دون أن يحاول التدقيق في تفاصيل تلك اللوحات التي كانت تتبع جميعها تقنية رسم بدائية نظر الآن إلى الزاوية اليمنى منها لينتبه أنها كلها من توقيع ذات الشخص. من قد يكون الهاوي الذي يحظى بكل هذا التقدير في هذا المكان. فكر وهو يقرأ الاسم وشعر فجأة وكأنه ابتلع حجرة قد انزلقت إلى جهازه التنفسي وكادت تسد قفصه الصدري. Naima Safri. ليبدأ بالسعال على نحو بدا وكأنه

سيتقيأ معه لوزتيه بل ورئتيه لتدخل في هذه اللحظات السكرتيرة على عجل لتتفقد ضيفها الذي بقي ينتظر وحيدا في القاعة منذ أكثر من نصف ساعة.

نظر إلياس بحذر إلى السكرتيرة وهو يدحّ صدره بقوة، بينما اندفعت هي لملء كأس ماء من قنينة كريستال كانت موضوعة على الطاولة. لقد كانت تلك سكرتيرة تبدو في أواخر الثلاثينات من عمرها وكانت تشبه على نحو غريب مديرتها لكن من دون بهرجة زائدة، حتى أنها كانت تتبع نفس قصة شعرها وطريقة ابتسامتها التي استقبلته بها على نحو لم يكن يتوقعه بعد تجربته المريرة مع سكرتيرة موسيو أمزيان البارحة. تناول إلياس كأس الماء وقبل أن يبادرها بأي إيماءة شكر، بادرته هي بابتسامة رقيقة : « مدام صفري ستأتي بعد قليل ». قالت بكياسة للضيف الذي اكتفى بهز رأسه هزة خفيفة وهو لا يزال يبسط كفه على صدره، وعاد الآن لينظر بتوجس إلى تلك الجدران المعوطة بلوحات صفري وسرعان ما تذكر جدار مكتب دكتور شنيت الطويل والخزانة الممتدة على طوله والتي كانت محشوة بـ « إنجازاته ». لم يكن إلياس يشعر حتما بأي رغبة في مقابلة النسخة النسائية من دكتور شنيت على الرغم من الفرق الكبير بين جثة صفري تلك التي كانت تجعلها أشبه بمتحول جنسي ضخم، وجسيّم دكتور شنيت الذي كان أقرب إلى بدن قزم. إلا أن هوس كليهما بإنجازاته الكبيرة يبدو واضحا على أي حال من المكانة التي كان يخصصها لها كلاهما في مقر عمله. لم يكن إلياس يرغب فعلا في حضور مهرجان آخر يكون فيه متفرجا على استعراضٍ لنرجسية مَرضيّة، وفي الوقت الذي كان يدرس فيه فكرة الفرار، خرق مجاله السمعي مجددا الصوت الخامد

للنسخة المبسطة عن مدام صفري. « جميعها من إنجاز سيادتها ». قالت وقد لاحظت تركيز الضيف مع اللوحات التي كانت تزين بها مديرتها جميع جدران المعهد وحتى دورة المياه التي لم تكن تخلو من لوحتين من توقيعها.

وقد كانت مدام صفري « فنانة » ذات إنتاج غزير، فكانت ترسم أي شيء وكل شيء يخطر ببالها والمهم هو أن تضع توقيعها على الرسم في النهاية وأن تعلقه في أي مكان كان. وقد منحها المعهد العربي الذي كانت تديره فضاء رحبا لعرض لوحاتها، وكذا علاقات فتحت المجال لفنها كي يتبوأ المكانة التي يستحقها في المعارض الوطنية والعربية، لكنها لم تكن تشعر على أي حال أن تلك المساحة كانت تسع موهبتها بل وعبقريتها التي لابد للعالم بأسره أن يتعرف عليها. « فمدام صفري عدا عن كونها مديرة المعهد العالي للدراسات في التراث العربي فهي فنانة حساسة وراقية، وصاحبة ذوق رفيع ومميز ». قالت السكرتيرة بأسلوب روبوتيكي وكأنها تُسمّع درسا حفظته عن ظهر قلب، في حين بدت الآن تلك الابتسامة وكأنها ملصقة بالغراء على وجهها.

نظر إلياس من حوله وأخذ يفك على نحو عصبي الزر العلوي لقميصه وقد بدأ يشعر أن شكوكه كانت في محلها، وشعر للحظات وكأن جدران ذلك المكان ستنطبق عليه بما فيها من لوحات، ليعلن قراره بالرحيل على حين غرة.

– ربما قد أعود مرة أخرى. قال كلماته تلك على عجل وهو يتجه مباشرة نحو الباب.

– لا ! وصاحت السكرتيرة وقد استبد الرعب في نفسها لمجرد تلميح إلياس بالمغادرة وواصلت بكلمات مرتعشة : « المديرة ستصل حالا ».

وخرجت مهرولة لتعود بعد لحظات وهي تلبس نفس الابتسامة. « مدام صفري وصلت إلى مكتبها ». قالت السكرتيرة اللطيفة وهي تشير إلى الباب بحركة أنيقة من يدها : « تفضل معي ».

توجه إلياس إلى مكتب مدام صفري ليشعر أنه وقع قيد الاعتقال في ذلك المكان المزركش، بينما بقيت لوحات صفري المبهرجة تحاصره على طول الرواق المؤدي إلى مكتبها، على نحو هستيري. وقد كانت تلك اللوحات تتناول موضوع الأعشاب والحشائش والمجوهرات والأزهار والوجوه والحدائق والصحراء والبحر وكل شيء كان يمكن أن تحط عليه عين إنسان ومن شأنه أن يملأ الجدران. ولم يكن يبدو أن مدام صفري قد وفرت أي سنتميتر مربع من جدران ذلك المعهد لتضع عليه لوحة تحمل اسمها.

– أهلا أهلا أهلا بك موسيو ماضي ! قالت مدام صفري بحفاوة وهي تفتح ذراعيها على عرضهما لتطبقهما مباشرة على ظهر إلياس الذي شعر الآن بلزوجة وجهها ذي المسامات العريضة على خده وقد تسللت إلى أنفه رائحة عطرها النفاثة الذي قد يكون على الأرجح عطرا فرنسيا أدى تفاعله مع جلد صفري السميك ذاك للخروج برائحة تشبه رائحة مبيد قوية. وشعر إلياس مجددا بالاختناق وعادت نوبة السعال تلك لتزلزل صدره، لتهرع مجددا السكرتيرة إلى داخل المكتب وتصب له كأس ماء أخرى بينما أخذ هو ينظر مرتاعا إلى تلك اليد الكبيرة التي كانت أطرافها العريضة تنتهي بطلاء أحمر، وقد هبطت على قفصه الصدري وأخذت تمسّد صدره بحركة لم يستسغها ولم تزد سوى من تعقيد وضعه. وبحركة لا إرادية أبعد تلك اليد التي كانت أشبه بمجراف من على صدره، وراح يكرع الماء وهو ينظر إلى السكرتيرة التي كانت لا تزال

محتفظة بتلك الابتسامة البلهاء على وجهها. وتذكر في المقابل وجه سكرتيرة أمزيان المغلق. تبا لها! فكر وهو يضع كأس الماء على الطاولة الخفيضة من أمامه وهو يرفع رأسه بهدوء خشية أن تصطدم عيناه بأي جدار موقّع هنا أو هناك، بينما أخذ يلعن في سره تلك السكرتيرة التي منعته من مقابلة موسيو أمزيان ليقع في فخ هذا المكان. وفكر أنه كان لابد له أن يتصرف معها بشكل مختلف، وتذكر الآن « نجمة »...

– Tu n'aurais pas ton voile, par hazard ?
La femme sursaute
– Tu te fous de moi. Qui veux-tu voir[61] ?

– ألا تودين إعطائي خمارك بالمناسبة ؟
جفلت المرأة.
– أنت لا دخل لك بي، من تود أن تقابل ؟
وحاول إلياس الآن أن يخفف عن نفسه تلك اللحظات العصيبة، حيث استقرت صفري إلى جانبه فاردة صدرها الذي كانت تلتصق به سترة ضيقة كانت تبرز نتوء صدرها المكوم داخل حمالة صدرٍ مخرّمة كانت تشف من تحت قميصها...

– ... Il prend la main par sa manche
– Je te dis de me laisser ton voile.
– ... Veux-tu me laisser [62]

... أمسك المرأة من كمها
– قلت لك أريد خمارك
– دعني...

61. KATEB Yacine, *Nedjma*, Paris, Seuil, 1996, p. 41.
62. KATEB Yacine, *Nedjma*, Paris, Seuil, 1996, p. 41.

كم كانت بائسة. فكر وهو يتذكر تلك السكرتيرة، والآن نظر إلى صفري وأمَتها التي كانت تقف بتنورة قصيرة ضيقة تظهر امتلاء كرشها، وهما يتبادلان الابتسامات الغبية في شِفرة ما لم يتبين معانيها، لتنطلق الآن هذه الأخيرة في الكلام كآلة مبرمجة.

– موسيو ماضي كان يتأمل في قاعة الانتظار لوحاتك بالمناسبة مدام.

– فعلا ؟! أجابت صفري بنبرة مفتعلة وهي تبتسم لإلياس وقد طوّحت برأسها إلى الوراء.

والآن استدارت السكرتيرة إلى إلياس وهي ناخة رأسها كتلميذة مطيعة.

– مدام صفري عدا عن كونها مديرة المعهد العالي للأبحاث في التراث العربي فهي فنانة حساسة وراقية. وصاحبة ذوق رفيع ومميز. وصمتت قليلا ثم اصفر وجهها وواصلت متلعثمة : « كما أنها شاعرة كبيرة وروائية معروفة، وباحثة. إنها أديبة... »، وصمتت الآن وبدا وكأن ركبتيها قد بدأتا تصطكان ببعضهما. « كما أنها مبدعة قديرة... ورسامة جليلة »، وتابعت وقد بدأت وتيرة كلامها تتباطأ بينما وجهها كانت تتنوع ألوانه بين الأصفر والأخضر والرمادي وبلعت ريقها : « إنها فنانة راقية وحساسة مبدعة... وروائية... ذواقة ». والآن لفظت دفعة واحدة جملتها وقد وجدت أخيرا الكلمة التي كانت تبحث عنها داخل رأسها : « كما أنها باحثة ذات صيت كبير في كامل الوطن العربي وكذا فرنسا ».

كان إلياس يتابع هذا المشهد القميء دون أن يتمكن من تصنيف ماهيته وإن كان يندرج في إطار التراجيديا أو الكوميديا أو المهزلة. لكنه كان متأكدا على أي حال بأنه حضر لتوه عرضا

فاشلا بغض النظر عن مسماه، ونظر الآن إلى مدام صفري التي كانت تطوّح برأسها وفمها مشرّع عن آخره بضحكة سقيمة وهي تردد : « أخجلتم تواضعنا... أخجلتم تواضعنا ». لتنتبه الآن أن إلياس لم يعقّب على أي شيء مما سردته على مسامعه سكرتيرتها، فأغلقت مباشرة فمها، وأشارت لسكرتيرتها بحركة لا تخلو من انزعاج بالرحيل.

– أخبرتني أمس أن معهدكم قد يحتاج إلى خدمات أستاذ في الفن. قال إلياس بجدية دون أن يزعزع رأسه لا يمينا ولا شمالا خشية أن يؤدي ذلك لانخراط نائمة في شرح إحدى إنجازاتها المعلقة على الحائط وهو من أخذ درسا من نهار أمس وتابع : « ولكنني لا أعلم تماما كيف يمكن أن نتعاون سويا، خصوصا أنني فهمت أن المؤسسة التي تديرونها مختصة بالأبحاث في التراث العربي بينما أنا أستاذ تقنيات رسم معاصر ».

– جميل... جميل ! قالت صفري وقد عادت لتلبس تلك الابتسامة مجددا على وجهها. « وعلى فكرة أنا أيضا فنانة ولدي معارض... ».

– ما شاء الله... ما شاء الله ! قاطعها الآن إلياس كما لو أن مداخلات سهيلة يوم أمس قد خدمته في هذه اللحظة، ليستطرد بعجلة : « كنت أود فقط أن أعرف كيف يمكن أن نتعاون سويا من خلال هذا المعهد ؟ ».

والآن بدت ملامح الامتعاض ترتسم على مُحيا مدام صفري، وهي التي لم تسمع أية كلمة مجاملة لها إلى الآن من ضيفها.

– يمكننا أن ننشر لك كتابا عن الفن يتكفل معهدنا بطباعته. وواصلت بفخر : « وستكون طبعا نسخة فخمة، فأنا لا أتعامل

سوى بمعايير جودة عالية ». قالت وهي تعبث بحجرة الفيروز الضخمة المعلقة في رقبتها.

نظر إلياس إلى صفري دون أن يفهم طبيعة هذا العرض وهي من لم يتسن لها التعرف عليه، وشعر الآن بشيء من الزهو لكونه قد يكون معروفا أيضا في بلده على الرغم من أن أمزيان رئيس أكاديمية الفنون الجميلة تجاهله على مدى سنتين وقال الآن بشيء من الحماسة الحذرة.

- ولكنني لا أكتب بالعـ..

- لا بأس، لا بأس. وقاطعته صفري الآن بشيء من الانزعاج. « لن نختلف على أي حال على تفاصيل الكتاب ». وواصلت بلا مبالاة واضحة : « قد يكون عندك على الأكيد بعض الرسومات التي يمكننا أن نصنع منها كتيّبا ما ». ونظر الآن إلياس نظرة خاوية إلى مضيفته التي واصلت بنبرة متعالية : « لكنني سأضمن لك كما قلت طباعة جيدة فمعهدي يتهيأ على ميزانية عربية محترمة ». قالت وهي تغرز أصابعها الثخينة في شعرها السميك، بينما بقي إلياس صامتا لا يدري ما يقول. لتتابع المديرة كلامها وقد لمعت الآن عيناها : « أنا علمت على أي حال أنك أستاذ في أكاديمية الفنون الجميلة في تورينو وأنا كما تعلم فنانة مشهورة هنا وقد أقمت معارض كبيرة حتى في أكاديمية الفنون الجميلة في الجزائر ولعدة مرات، ذلك أن مديرها يقدر فني كثيرا ». وصمتت الآن للحظات وهي ترصّع كلامها بابتسامتها الدراكولية الخاصة لتواصل بثقة وهي تشد سترتها بقوة ليظهر منها شق صدرها، « ويسعدني طبعا أن أعرض أعمالي عندكم في تورينو... ». ولم

تكد تنهي صفري كلامها حتى عادت إلى إلياس نوبة السعال تلك، لتهجم عليه الآن مدام صفري بحركة سريعة بينما بقي هو يتصارع مع جهازه التنفسي. وبدأت هي بفك أزرار قميصه. شعر إلياس بالهول أمام هذا التحرك، وازدادت حدة السعال وقد شاعت رائحة عطر مدام صفري القوية في خياشيمه، لتحاول الآن نائمة مساعدته على شرب كأس الماء وهي تكاد تكون ملتصقة به، بينما أخذ يسحب جرعات الماء وهو جاحظ العينين غير مصدق أن هذا المتحول الجنسي الذي راعه منظره أمس يكاد يكون جالسا في حضنه اليوم. وبدأ يلهث الآن وهو لا يكاد يصدق الوضع الذي انتهى إليه في هذه اللحظات. تبا لتلك السكرتيرة. وفكر الآن في سكرتيرة أمزيان المجنونة وفي مديرها الذي لولا تجاهله له لما انتهى في هذا المكان وعادت « نجمة » إلى ذهنه لتواسيه في هذه اللحظات التعيسة بينما كانت شفتا مدام صفري البراقتان تقتربان الآن من فمه لينتفض من مكانه كالممسوس...

– Tiens[63]

– خذي هذا.

كم شعر إلياس الآن بالراحة.

Il l'a giflée ; il s'éloigne… [64]

صفعها، ابتعد...

Elle cri ; « un gamin, rien de plus, un fou[65] ».

صرخت : « لست سوى صبيّ، لا أكثر ولا أقل، أرعن ».

63. *Ibid.*, p. 41.
64. *Ibid.*, p. 41.
65. *Ibid.*, p. 41.

لم يكن ينقصني سوى هذا ! فكر وهو يشعر بالتقزز تاركا وراءه معهد الأبحاث في التراث العربي غارقا هو ولوحاته وإلهته وحاشيته في الصدمة. لو لم أكن فقط متأكدا من حدسي بأني سأجدها حتما هنا، لما بقيت أكثر في هذا المكان القذر. لابد أن أعرف ما الذي قصده الشيخ برهان الدين. وتوجه إلى البيت وهو لا يزال يفرك بقرف كفه التي حطت على الوجه اللزج لتلك المديرة وهو يشعر بالكثير من الاشمئزاز، وسرعان ما تلقى رسالة خطية زادت من توتره في تلك اللحظة.

يسعدني أن تمر على مكتبي اليوم من أجل ترسيم انخراطك في الجمعية.

دكتور شنيت

ولكن ماذا يريد مني كل هؤلاء ؟ فكر بقلق وهو يقرأ تلك الرسالة.

- 63 -

– أعتقد أنني عرفت القاتل. قال المحقق بنبرة حازمة وهو يعيد قراءة التحقيقات.

– لا أعتقد أنه علينا أن نتسرع. قال خير الدين وقد هاله حزم المحقق.

– كل شيء أصبح واضحا بالنسبة لي. وأقفل الآن ملفه وهو يستعد لإشعال آخر سيجارة في ذلك اليوم.

– لكن باعتقادي علينا أن نتريث قليلا. لا أعتقد فعلا أن المسألة بهذه البساطة. قال خير الدين باصرار. ونظر إبراهيم إليه الآن بتوجس.

– بمن تشك ؟ وسحب الآن نفسا عميقا من سيجارته... « ما الذي يدور في ذهنك ؟ » سأل المحقق بشيء من العصبية.

– لست في الحقيقة على يقين. قال خير الدين بنبرة براغماتية. « ولكنني أود أن أذكرك فقط أننا لم نفهم بعد علاقة إلياس بداميا »، وصمت قليلا. « كما أن غموض أقوال سهيلة في هذا الموضوع يجعل المسألة مريبة ».

وكبس الآن إبراهيم رأس سيجارته بقوة وهو يشعر بالانزعاج. « تلك الغبية ! » وانتفض الآن من على كرسيه. « لو لم يكن لدينا دليل أنها كانت في منزلها هي وشقيقها ذلك اليوم، لكنت

قد جزمت أنها هي القاتلة ! ». وصمت برهة ثم عاد للحديث وكأنه كان يستعد للانفجار، « المشكلة أنه لايوجد بصمات... لا يوجد بقايا من الحمض النووي لأي أحد يمكن أن تثبت علاقته بالجريمة... لم يترك المجرم وراءه أي أثر. لم يترك أي دليل. »

– القضية معقدة جدا، قال خير الدين. علينا أن نتريث إذن.

– المشكلة أن الصحافة تنتظر. وصاح إبراهيم وهو يقوم الآن من مكانه : « ولتعلم أن أي فشل لنا في الوصول إلى القاتل لن يبقى هنا فقط بل سيكون فشلا على المستوى الدولي ». وقام الآن من مكانه ليغرق من خلال نافذته في بياض العاصمة. لن أسمح لأحد أن يعبث بسمعتنا...

- 64 -

كانت كاترينا تعلم أنها ستنتهي للاعتراف بكل ما قامت به، وخططت له منذ سنوات لكنها لم تكن تدري إن كان ينبغي عليها فعل ذلك بعد تأكدها من التخلص من إلياس أم قبل ذلك. فكرت وهي تتوجه الآن إلى الأب أليساندرو الذي كان يقف مع صديقتها مارتا فالساني وزوجها المهندس أنطونيو دي سانتينو، بينما كانت تتبادل ابتسامات المجاملة مع ضيوفها الذين كانوا يستمتعون بطعم النبيذ الأبيض في ذلك اليوم الصيفي المبهج من داخل حديقة قلعة مازينو[66] الموجودة في كارافينو بضاحية تورينو والتي تم بناؤها في القرن الحادي عشر. وهو مكان لم يأت اختياره عبثا من كاترينا وزوجها ليحتضن حفل زفاف ابنتهما الوحيدة جوفانا والذي اختارا له هذه القلعة بالتحديد وهي أشهر قلاع إقليم بييمونتي، كونه يضم في قاعته الشرفية ألقاب جميع العائلات النبيلة البييمونتية التي حلت ضيفة على كونتات عائلة فالبيرغا أصحاب القلعة. وقد كان اسم عائلة كافاريلو وكذا عائلة المحامي ألفونسو ديل بونتي مسجلين على جدران القاعة الشرفية للقلعة الريفية البيضاء ضمن حوالي أربعين اسما آخر، ولم يكن لقب صديقتها مارتا فالساني ولا زوجها دي سانتينو موجودا بينهما. فكرت كاترينا بمكر وهي

66. Castello di Masino.

تتبادل الابتسامات مع مارتا وشعور البهجة في تلك اللحظات لم يكن يسعها.

لقد كانت كاترينا تحتفل اليوم بزواج ابنتها الشابة من إيزابو دو مارتان وهو شاب فرنسي نبيل تمكنت من تظبيط علاقتها به في رحلة سياحية العام الماضي ضمت الكثير من العائلات الأوروبية النبيلة إلى جنوب إيطاليا، لتنتهي بخطبة جوفانا على إيزابو بعد أشهر قليلة، تماما كما انتهت ذات الرحلة باقتران غيرهم من أبناء العائلات النبيلة ببعضهم البعض. وعلى الرغم من وجود شكوك تحوم حول كون عائلة دو مارتان قد اشترت لقب النبالة منذ قرنين فقط بعد أن اغتنت فجأة وكان من الضروري للعائلة الفرنسية محدثة النعمة آنذاك في ليون أن تشتري لها لقبا نبيلا أسوة بأغنى عائلات المنطقة، إلا أن كاترينا لم تكن مهتمة بالأمر، بقدر اهتمامها في تلك اللحظات بأن جميع النساء المدعوات للحفل كن يرتدين القبعات الأنيقة بينما كان يعلق الرجال النياشين المتنوعة على ستراتهم، بغض النظر عما إذا كانت تلك الأوسمة الفخرية حقيقية أم مدفوعة الثمن هي الأخرى، والمهم أن المشهد كان يبدو فيه الجميع وكأنهم شخصيات مستلة من العصور الوسطى، ولم يكن يوجد هناك أي مدعو يشذ عن القاعدة. والحال أن كاترينا لم تكن قادرة على احتواء سعادتها في ذلك اليوم، ليس لأن حفلات الزفاف كانت تشكل دوما فرصة لا تتكرر للتباهي على الأصدقاء والأحباء فقط، ولكن لأنها أخيرا ستتخلى عن هاجسها في أن تكرر ابنتها ما فعلته شقيقتها مارتينا قبل أربعين سنة والتي لطخت تاريخ العائلة بزواجها من ذلك العربي، الذي لم يكن ابنه موجودا لحسن حظها بين الحاضرين في هذه المناسبة. فكرت وهي تحمد الرب على

هذه النعمة الإلهية، ليقطع عليها بهجتها صوت صديقتها مارتا.

- لا أرى ابن أختك هنا ! سألت الصديقة النبيلة وهي تنظر حولها بشيء من الافتعال.

- لا. ردت كاترينا بانزعاج وهي من لم تكن تحب أن يشير أحد لإلياس على أنه ابن أختها. « لقد سافر إلى بلده قبل أيام ».

- تصرف غريب ! صاحت الصديقة باستياء مصطنع. « وباعتقادي فيه شيء من عدم اللياقة ».

- كان على أي حال قرارا مفاجئا. ردت كاترينا وهي تحاول تغيير الموضوع الذي عكر صفوها. « وماذا عن ابنتك ؟ » واستطردت بابتسامة رقيقة لا تخلو من لؤم : « ألا تزال في إنجلترا ؟ ».

طرحت كاترينا سؤالها ذاك وهي تشعر بالكثير من الرضا على حضور بديهتها، إذ يقال أن ابنة مارتا التي سافرت للدراسة في إنجلترا، تعيش منذ سنوات مع شاب إنجليزي... زنجي، إلا أن مارتا كانت تحاول التكتم على الأمر، وأما هي فقد كانت تستمتع الآن بزواج ابنتها من نبيل فرنسي من عائلة كاثوليكية متدينة. ابتسمت كاترينا للفكرة وهي تتلذذ بمراقبة لون محدثتها يتغير إلى لون الخردل، ولكنها عادت لتتلقى صفعة أخرى نغصت عليها فرحتها من جهة غير متوقعة.

- وهل عرفت سر هذه الرحلة المفاجئة ؟ سأل الأب أليساندرو كاترينا بصوت عميق.

- لا.

وساد صمت مأتمي على الحديث ألقى بعتمة موحشة على المكان.

- أتمنى ألا يكون ذلك من أجل أن يتلقى أسرار الماسونية من منابعها الأصلية. وواصل الأب أليساندرو صديق عائلة كافاريلو

القديم حديثه بتوجس : « وآمل فقط ألا يعود ابن أختك هذا ليبث عقائده المسمومة بين شبابنا من خلال معارضه الفنية المريبة ». وتنهد الآن بأسف وهو يبسط يده اليمنى على قبضته اليسرى.

والواقع أن الكثيرين غير الأب أليساندرو كانوا يعتقدون بشدة بأن أسس الماسونية تعود إلى الديانة الإسلامية وبالتحديد المذهب الصوفي فيها، والذي يبشر بمستقبل عالم موحد لا تفرقه العقائد ويوحده نظام واحد. وهي الفكرة التي تقوم عليها الماسونية التي تم ربطها بالصوفية منذ أن نشأت في أواسط القرن الثامن عشر، وذلك استنادا إلى مصادر صوفية. فبحسب الكاتب إدريس شاه صاحب كتاب « المتصوفون »، فقد كانت الطريقة الصوفية القادرية وراء نشأة منظمة الصليب الوردي (روز - كروس) وهي من أهم المدارس السرية الأوروبية التي ظهرت بعد عصر النهضة، وقد أسسها شخص غامض الأصول يدعى كريستيان روسينكريوز[67] يقال أنه جال المنطقة العربية بين عامي 1393 و1407، ليعود إلى ألمانيا ويضع نصوص حركته السرية والتي تدعو إلى التأخين بين الناس من خلال استخدام الطاقة الإيجابية عند البشر، ويُعتقد أن الماسونية الحرة قد انبثقت عنها. وبحسب إدريس شاه فقد كان تنظيم الصليب الوردي وراء دفع الحاخام شبتاي تسفي لإعلان أنه المسيح المنتظر عام 1666، مثيرا عاصفة بين اليهود آنذاك. ليقوم بعدها بإعلان إسلامه ويختار اسم محمد عزيز أفندي مخيبا بذلك آمال عدد كبير من المؤمنين به، إلا أنه استطاع بعدها أن يقنع الكثيرين من أتباعه بإعلان إسلامهم، وهكذا اعتنق جمع كبير من اليهود الإسلام وأصبح يطلق عليهم اسم « الدونمة » بفضل هذا

67. Christian Rosenkreuz.

« المسيح الدجال » الذي اختلقته منظمة الصليب الوردي. وليبقى مسلمو الدونمة على علاقات وطيدة مع طرق صوفية عديدة كطريقة الدراويش التي أسسها جلال الدين الرومي بعدها.

– وهل تعتقد أن الجزائر ستكون المكان المناسب لتلقي أسرار العقيدة الماسونية أم أنه سيضطر للسفر بعدها إلى تركيا ؟ سأل المهندس دي سانتينو الأب أليساندرو باهتمام وهو من كان مقتنعا بعلاقة الصوفية بالماسونية.

– بل تكفيه الجزائر باعتقادي. أجاب أليساندرو باقتناع، « فالمحافل الماسونية هناك تمارس نشاطاتها بأريحية كبيرة دون مراقبة أحد تحت اسم الزوايا ». وصمت للحظات وواصل : « وحتى أن هناك زاوية شهيرة تقع في مدينةٍ بغرب الجزائر في شارع باسم روني غينون[68] وهو مؤسس مدرسة الماسونية الحرة التقليدية والذي اعتنق الإسلام عام 1910 بتأثير من الرسام الفرنسي السويدي إيفان غوستاف أنجيلي[69] الذي أصبح يعرف بعد إسلامه بالشيخ عبد الهادي عقيلي. أما روني غينون الذي أسس المحفل الماسوني في فرنسا عام 1948 فاختار اسم عبد الواحد يحيى، ليستقر في الجزائر عام 1917، وقد استقطب من حوله العديد من الأروبيين الذين اختاروا جميعا اعتناق الإسلام من خلال اتباع الصوفية كميشيل فالسان[70]، مارتين لينغز[71]، تيتوس بوركاردت[72]، وفريجوف شوان[73] ». وواصل أليساندرو الآن بالكثير من الأسف : « كل هؤلاء الماسونيين الذين

68. René Guénon.
69. Ivan Aguéli.
70. Michel Valsan.
71. Martin Lings.
72. Titus Burckhardt.
73. Frithjof Schuon.

ولدوا مسيحيين اعتنقوا الإسلام عن طريق الصوفية في الجزائر ».
وتنهد الأب بحزن، واستطرد الآن وهو ساهم : « كما عليك ألا تنسى أن مؤسس الدولة الجزائرية الصوفي الأميرعبد القادر يُعتقد أنه هو من أدخل الماسونية بصفتها الجديدة إلى المنطقة العربية. إذ تلقى عبد القادر الجزائري نفسه الطريقة القادرية من والده وهي الطريقة التي تعود جذورها إلى ابن عربي الماسوني الذي كان يؤمن بمبدأ « الأخوة العالمية » وهو نفسه المبدأ الذي يبشر به الماسونيون المهرطقون الآن في العالم، والذين يسعون لصنع ديانة واحدة للجميع ». وتنهد بأسف : « إنهم يريدون أن يضيّعوا أصالة الديانة المسيحية واقتلاع الشعوب الأوربية من تاريخها ». ثم توقف قليلا وتابع : « ولا غَرو أن المحفل الماسوني الفرنسي يضع القرآن إلى جانب الإنجيل ليحلف أتباعه عليه بالولاء لهذه المدرسة الشيطانية الخطيرة والتي لا زالت تنشر عقيدتها السرطانية في كل أنحاء العالم ».

– لا أصدق أننا وقفنا مكتوفي الأيدي أمام هذه المجزرة الحضارية ! قال دي سانتينو باستياء محاولا محاكاة تجهم الأب أليساندرو.

– في الواقع المخابرات البريطانية قد انتبهت لمدى تأثير هذه المدرسة في زعزعة الأسس العقائدية لأوروبا المسيحية في بداية القرن العشرين وإمكانية انقلاب مواطنيها إلى الماسونية الإسلامية بسبب جاذبية مبدأ الأخوة العالمية هذا الذي يشبه حساءً لا تعرف مكوناته لكننا على الأقل نعلم أن طباخه صوفي. قال أليساندرو بتهكم ليتابع كلامه الآن بجدية : « ولذلك ارتأت ضرورة خلق حركات مضادة للصوفية وبدأت بإرسال عملائها من أجل تدريب

زعماء محليين معادين للصوفية. فأرسلت مثلا المستشرق ويلفريد بلانت[74] ليدرب العميل البريطاني جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، مؤسسا المذهب السلفي الذي انبثق عنه الإخوان المسلمون من أجل محاربة الصوفية التي كانت جاذبيتها للغربيين تتجاوز ما يمكن أن تتقبله بريطانيا التي كانت تفضل أن يدخل مواطنوها إلى الماسونية من بوابة المسيحية مع أن النتيجة في كلا الحالتين هي الخروج من الملة الصافية ». قال أليساندرو بأسف. « والماسونيون يعلمون ذلك على أي حال، لكنهم احتلونا وانتهى الأمر ». وعض الأب أليساندرو على شفته الآن بأسى.

– نعم للأسف ! قال دي سانتينو مجاريا نبرة الأب أليساندرو التراجيدية. وقد وصلنا لزمن أصبحت أكبر دولة في العالم يحكمها : المسلم باراك حسين أوباما...!

– آه... إنه المسيح الدجال بعينه ! تنهد الأب أليساندرو بعمق، ورشق في عيني مضيفته نظرة عتاب غير مبررة.

والآن شعرت كاترينا أنها تود أن تعترف بكل شيء للأب أليساندرو، وبأنها على الأقل ستتخلص من المسيح الدجال الذي دخل عائلتها بسبب ضلال أختها عن الطريق المستقيم منذ سنوات. كانت تعلم أنها قد خالفت هي نفسها أيضا تعاليم الكنيسة بالتعامل مع القوى الشيطانية ممثلة في راكيل الوضيعة لتحقيق هدفها إلا أنها لم تكن لتقدم على ذلك سوى للتخلص من عدو المسيحية الذي لم تكن لتقبل أن يبقى فردا من عائلتها. كانت تود أن تقول له كل شيء. لكنها كانت تعلم أن عليها التريث قبل أن تعترف للأب أليساندرو بتفاصيل خطيئتها الكاملة. وقبل كل

74. Wilfrid Scawen Blunt.

ذلك أرادت أن تتلقى اتصالا من الجزائر ليؤكد لها نجاح خطتها. كما كانت تعلم أن عليها أن تختار المكان المناسب للاعتراف. كان ذلك لابد أن يتم في غرفة الاعتراف تحت حماية الكنيسة وليس أمام أنظار هذه الشمطاء ! فكرت كاترينا وهي تنظر الآن إلى مارتا بحقد وهي تتمنى أن تسمع خبر زواج ابنتها رسميا بذلك الزنجي عن قريب.

- 65 -

أغلق هاتفه النقال وهو يداعب تلك النجمة البرونزية بين أصابعه، بينما كان يفكر في لون البطاقة التي قد يمنحها لإلياس، الوافد الجديد على منظمته. وعلى الرغم من أنه كان يرغب في تقديمه كعضو قيادي واستغلال اسمه لإثراء سجل جمعيته، إلا أنه أحس أن ضيفه يوم أمس لم يكن يبدو وكأنه مستعد لتقديم فروض الولاء والطاعة له. كز شنيت على أسنانه وهو يفكر في النظرات الخاوية التي كان يسدّدها له إلياس في ذلك اللقاء ونظراته المشعة لداميا، وأخذ الآن يضغط على تلك النجمة بقوة وبدا وكأنه سيسحقها بين أصبعيه.

« عليّ ألا أخطئ مجددا التقدير مثلما أخطأت مع داميا ». وقذف الآن تلك النجمة بحقد في سلة المهملات. لكنني سأعّلمها الأدب. فكر وهو يشد على قبضته بعصبية وهو ينظر إلى بطاقتها الحمراء الملقاة على الأرض، وهي من أفسدت عليه طقسه اليومي في « التدليك الروحي » الذي أراد أن يعيشه بحسية أكبر ذلك اليوم. وتناول الآن هاتفه وهو يستعد لخطوته القادمة.

ستعرفين فعلا من أنا.

- 66 -

خرجت داميا مسرعة من مقر جمعية « أنا » وهي عازمة على كشف حقيقة شنيت للجميع. عليّ أن أفضح أمر ذلك الحقير. فكرت وهي تركض في الشارع على غير هدى. كانت تعلم أنها لا تملك أي دليل في يدها يمكن أن يدينه أمام الشرطة، إلا أنها كانت مصرة على فضحه. لم تكن تشعر في تلك اللحظة سوى أنها تكرهه.

وفكرت الآن بضرورة مقابلة إلياس قبل فوات الآوان. لن أبقى صامتة. هرولت داميا في الطريق إلى محطة الحافلات وهي تحاول أن تحبس دموعها، وأمسكت بعنقها بحركة غريزية لتمسد جيدها، واكتشفت لحظتها أن قلادتها قد سقطت منها وأن نجمتها البرونزية لم تعد موجودة في رقبتها. وشعرت الآن بغصة في صدرها. لابد أنها سقطت في ذلك المكان القذر. ولم تشعر الآن سوى بشلال من الدموع ينسكب من عينيها، وهي تهرول في الشارع دون أن تكون متأكدة تماما من وجهتها.

« بست... بست... تجي حنّونة ». همس لها أحد الشباب من سيارته التي كانت تصدح بأغنية حنان البلوندة. لتزداد دقات قلبها تسارعا. وحاولت أن تتمالك أعصابها. كانت تعلم أنه لا ينبغي لها أن تظهر بمظهر الضعيفة في ذلك المكان الموحش حيث كان الجميع

يتربص بها. مسحت دموعها المنهمرة بسرعة وبلعت ما تبقى منها في حلقها.

« وين تروحي الزينة ؟ » وصدح صوت قابض إحدى الحافلات في المحطة وهو يحاول التسلل إلى صدرها الذاوي من وراء قميصها الأبيض الفضفاض.

« أواه تجي معايا أنا... ». قال آخر وهو يلتفت وراءه حتى يتبين شكل مؤخرتها.

صعدت إلى الحافلة وهي تحاول تجاهل تلك الأعين الشرهة التي طالما حاصرتها وكأنها تريد أن تلتهمها. كم أكرهها. لم تكن تشعر سوى أنها في الحقيقة تكرهها من كل قلبها.

الجزائر يا مّا... الجزائر يا مّا... L'Algérie

لقد حصل كل ذلك بسببها هي. فكرت وهي تحاول مجددا حبس دموعها، بينما واصل زعيق تلك الأغنية يملأ سمعها. كان الجميع يعيش في تلك الأيام على وقع مشاركة الفريق الوطني في المونديال بعد عشرين سنة من الغياب.

أيا أيا يا شبان فكرونا بيامات زمان

أما فهي فلم تكن تشعر سوى بالغثيان من كل ما كان يحصل حولها...

بلومي ماجر زيدان نهار بكينا لالمان

نظرت الآن بتوجس إلى الشاب الجالس إلى جانبها والذي كان يسدّ أذنيه بسماعات الهاتف الملعلع بتلك الأغنية.

الجزائر يا مّا... الجزائر يا مّا... الجزائر يا مّا...

لم تكن متأكدة أنه في كامل قواه العقلية، وصوت الأغنية التي خرقت طبلة أذنها قد غطّى على هدير محرك تلك الحافلة المهترئة.

ان شاء الله يولو ليامات والفرحة تولي

ما الذي يوجد في رأس هذا التافه ؟...

fumigène والعلامات نزهاو نهار وليالي

وسحبت الآن الهاتف من حقيبتها، وبحثت على رقم والدتها وهي تشعر بالسخط في ذلك اليوم من الجميع، ومنها هي...

الجزائر يا مّا... الجزائر يا مّا... الجزائر يا مّا... L'Algérie

ضغطت الآن على زر الاتصال وهي تكز على رقبتها باحثة عبثا عن نجمتها. لولاها لما كانت قد تعرفت على ذلك الوغد المعتوه، وعلى أناه السقيمة...

الجـزائر يـا الـوردة * عندك تاريـخ كبـير
خيخون عليك شاهدة * فرحت كبير وصغير

وفكرت الآن أنها تريد ضرب ذلك المعتوه الذي كان يجلس بجانبها أو اقتلاع أذنيها من جذريهما.

– لقد رميت لذلك الحقير لتوي بطاقة الانخراط في جمعيته. صاحت على الهاتف بعصبية.

– لكن ما الذي حدث ؟ رد صوت متوجس على الطرف الثاني من الخط.

– الذي حدث أنه سافل ! قاطعتها داميا : « ومنحط أيضا ! » ودكت الهاتف داخل حقيبتها، بعد أن أتبعت مكالمتها هذه برسالة إلى سهيلة تُعلمها أنها آتية إلى المكتب في قضية مستعجلة.

وعلى الرغم من أن داميا كانت تعلم في قرارة نفسها أن والدتها لم تكن مسؤولة على كل ما يفعله شنيت، إلا أنها شعرت أنها تكرهها هي ولا أحد غيرها لأنها هي من أتى بها إلى « جزائرنا ». إلى ذلك المكان التعيس. والواقع أن والدة داميا نفسها لم تكن سوى عضو عادي في الجمعية مثلها مثل غيرها من حاملي البطاقات البيضاء في « Notre Algérie »، تدفع اشتراكاتها وتسمع خطب قادتها دون أن يتسنى لها على غرار الآلاف من أعضاء « أنا » حضور أي اجتماع قمة، وهي من استقطبها القادة الولائيون في العاصمة للانخراط في الجمعية كونها كانت مداومة على الأعمال التطوعية المتعلقة بالأطفال. كانت « أنا » بحاجة إلى أعضاء مثل أم داميا من أجل إعطاء البعض من المصداقية لخطب الدكتور شنيت.

والحقيقة أن أعضاء « جزائرنا » العاديين من أصحاب البطاقات البيضاء والذين كان يطلق عليهم اسم الأيدي العاملة كانوا مقسمين إلى نوعين. أياد عاملة في التصفيق وأياد عاملة في الانتاج. وقد لاحظ الدكتور أن الأيادي المصفقة في هذه الطبقة كان يتجاوز عددها الأيادي المنتجة، الأمر الذي كان من شأنه خلق لا توازن قد يؤثر على ميكانيزمات عمل الأيادي الطويلة في الجمعية والتي كانت تأتي بأنواع هي الأخرى. وبالطبع لم تكن والدة داميا على علم بهذه التصنيفات مثلها مثل غيرها من المؤمنين بـ « جزائرنا » ولم تكن حتما تدري أنها ليست سوى يدين تعمل من أجل أن يحصد غيرها ثمرة عملها من أصحاب بقية البطاقات : أصحاب الأيادي الطويلة.

والحقيقة أن أصحاب البطاقات الحمراء كانوا يتميزون عن أصحاب البطاقات الخضراء في كونهم لا يملكون أياد طويلة فقط ولكن فما كبيرا أيضا. وقد كانت ميزة فمهم الكبير هذه تجعلهم قادرين على تخدير أصحاب الأيدي العاملة من المصفقين والمنتجين وضمان بقاء أصحاب الأيادي الطويلة في مرتبتهم أطول فترة ممكنة عكس أصحاب البطاقات الخضراء الذين كان وجودهم في هذه المرتبة في جزائرنا يشوبه الكثير من عدم الاستقرار. أما أصحاب البطاقة السوداء الثلاثة فكانوا عدا عن كونهم أصحاب يد طويلة فقد كانوا يتميزون عن غيرهم في أنهم يملكون أيضا عقولا... عقولا تفكر في استمرار في أساليب جديدة ومبتكرة لاستغباء أصحاب بقية البطاقات. بما في ذلك أصحاب البطاقات الهلامية والأهم على الإطلاق في جزائرنا وهي البطاقات التي كان يعتقد شنيت أنها زرقاء والتي لم يتمكن يوما من رؤيتها، وكان أصحابها هم في الواقع أصحاب اليد الطولى في جزائرنا، ولم يكن هؤلاء يملكون بالضرورة أفواها كبيرة، حتى أن بعضهم لم يكن يُسمع صوته البتة. صوت لم يتسن للدكتور شنيت نفسه سماعه على المباشر، وهو من كان يحلم دوما بذلك، ويوهم الجميع بأنه سمعه. بل هو من كان يعتقد أنه سيدخل في يوم من الأيام إلى هذه الدائرة الزرقاء الصغيرة، كونه يتمتع بيد طويلة جدا، وأكبر فم في الجمعية أتاحت له أن يصبح رئيسها، بالإضافة إلى عقل مفكر والدليل طموحاته الكبيرة. هذا ما كان يعتقده...

لكنه أخطأ كثيرا... أخطأ في العبث معي ! فكرت داميا وهي تشد على قبضتها. ونزلت الآن من الحافلة. لن أبقى صامتة. واتجهت مباشرة إلى العمارة رقم 6 في تليملي. لقد كان عليها البدء بمقابلة إلياس لتحذيره مما يحاك له. ولكن كان عليها أن تمر أولا بسهيلة.

- 67 -

قلّب الطرد الذي وصله بالبريد المضمون، وفتحه بهدوء. وبشيء من الارتباك بدأ القراءة : « [...] لطالما وُجد الماسون الأحرار في الجزائر، وثمة وثائق أصلية تثبت ذلك بالدليل والحجة ». وواصل بالكثير من الانتباه وهو لم يكن يتوقع الوصول إلى هذه الوثيقة...

وقد تم تأسيس محفل بيليساريوس في الجزائر العاصمة في حوالي عام 1835، وهو محفل رسمي أسسه المعمرون الفرنسيون لدى قدومهم إلى هذا البلد، إلا أن الكثير من الماسونيين يؤكدون أن جذور الماسونية في الجزائر أقدم بكثير من هذا التاريخ مدللين على ذلك بالمعارف السحرية التي يتم تناقلها جيلا بعد جيل بين مختلف شرائح الشعب الجزائري والمرتبطة بالماسونية.

وتابع إيرمانو الآن وهو يبلع ريقه وقد تذكر الخرائط الجوية لمواقع استراتيجية في الجزائر والمصممة بوضوح على شكل أحد أشهر الرموز الماسونية، بينما كان ينظر من حين إلى آخر إلى الساعة وكأنه كان ينتظر شيئا ما...

وقد أكد أحد الماسونيين الأحرار والمدعو بيبسيل أنه ولدى زيارته للجنوب الشرقي الجزائري في أواسط القرن التاسع عشر اكتشف طريقة صوفية باسم « الإخوان » تمارس في إحدى الزوايا. وقد كانت أشبه بفرع من فروع المحافل الماسونية العالمية، إذ أن

طقوس التحية والمصطلحات المستخدمة بين أتباعها هي نفسها المعتمدة في الماسونية.

وواصل إيرمانو القراءة في مجلة « الماسونية الإفريقية »، التي طلبها عبر الانترنت قبل يومين، ليجد نفسه أمام مقال عن « الأمير عبد القادر الصوفي... الماسوني ». ليتابع الآن التهام تلك الصفحات وقد تذكر رمز اليد الموجود على راية مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة.

ويقول كريستيان غيغ[75] المؤرخ الماسوني المعروف أن « ثمة ماسونيون جزائريون معروفون في الوقت الحالي، إلا أنه يستحيل كشف أسمائهم ». ليواصل غيغ « وبالنسبة للمحافل قد يكون هناك بالتأكيد محافل ماسونية لكنها تعمل حتما في الخفاء ».

والآن نظر إيرمانو إلى ساعته ووضع المجلة جانبا وفتح حسابه الإلكتروني. كان لابد أن يبعث بشيء ما لإلياس قبل أن يرحل، وقد قرر أن يرسل له ملف « MANDEL » راجيا أن يساعده في مسعاه لفهم سر تلك « الرابعة ». ونظر الآن إلى ساعته التي كانت تشير إلى السادسة والنصف. كان لابد له الآن من الذهاب في زيارة مستعجلة إلى ميلانو، وفكر وهو يشعر بشيء من الذنب. ربما لم يكن عليّ فعل ذلك منذ البداية. وتذكر الآن معبد بومايا ولقاء إلياس بالشيخ برهان الدين. كانت تلك هي بداية النهاية.

75. Christian Guigue.

- 68 -

لم تكن سهيلة تصدق أنها تمكنت بهذه السرعة من الحصول على ثقة الدكتور شنيت. وأنه عدا عن تعهده لها بمساعدتها للحصول على التصاريح من أجل إصدار كتبها، سيمنحها البطاقة الخضراء لـ « جزائرنا ». ابتسمت وهي تمسد هاتفها النقال بينما كانت تفكر في رد فعل أخيها لدى سماعه لهذا الخبر.

لقد فُتحت لنا أبواب الجنة.

فكرت وهي تنظر إلى رقم شنيت الذي سيصبح رقم الحظ في حياتها وضغطت الآن على زر الاتصال بحمزة لتبشره أنه عدا عن أن تصاريح نشر الكتب أصبحت عمليا بجيبها. ستصبح الآن مهمة تصريف منشوراتها للوزارة مسألة تحصيل حاصل. كان يمكن لأوبتيميديا أن تحقق ثروة لا بأس بها من وراء هذه الصفقة. عدا عن كل الأفكار التي يمكن أن تطرأ على ذهن شقيقها في استغلال بطاقتها الخضراء الموعودة وعلاقتها بشنيت التي كانت تعني إلغاء جميع العقبات البيرقراطية في وجه شركتها للقيام بأي مشروع كان وفي أي اتجاه كان...

– ما الجديد ؟

– لدي خبر سار...

وفي هذه اللحظة سمعت سهيلة دقات على باب مكتبها لم تكن غريبة عنها.

- سأتصل بك لاحقا.

وأغلقت الهاتف بسرعة. كان لابد لها أولا من تسوية وضعية داميا... لقد كان ذلك شرط شنيت لمساعدتها...

- ادخل. قالت بصوتها الخالي من التعابير البشرية.

- علي أن أخبرك بموضوع هام. قالت داميا وهي تندفع إلى مكتب مديرتها وهي في حالة عصبية. نظرت سهيلة إليها بلامبالاتها المعهودة، وقبل أن ترد بأي شيء، استطردت داميا : « لكنني أريدك أولا أن تعطيني رقم هاتف إلياس ». وواصلت سهيلة النظر إلى داميا كالتمثال، وتابعت هي : « لابد أن أتحدث الآن معه قبل فوات الأوان ». أضافت بنبرة مرتعشة، بينما كانت سهيلة تنظر الآن إلى مفاتيح أوبتيميديا التي كانت تحملها داميا بين أصابعها، وفي الطريقة الفضلى لتجريدها منها...

- 69 -

حاول طرد شعور الانزعاج الذي اجتاحه وهو يثبّت لوحته في تلك الزاوية من الغرفة، والتي كان متأكدا أنها الأنسب للرسم من الوجهة التقنية البحتة، كونها تحقق أفضل انعكاس للضوء المتدفق من النافذة المقابلة لها، وذلك ليتمكن من التحكم في درجات الألوان التي من شأنه استخدامها.

كان إلياس على يقين أنه سينتهي برسمها، وقد راوده ذلك الشعور القوي لتناول ريشته مجددا، بل كان يعتقد أنه ربما في تلك الليلة سينتهي من صنع إطار وجهها. لقد كان متأكدا من ذلك مع أنه لم يكن على يقين من التفاصيل التي ستتكشّف عنها. وبالرغم من الأشكال والألوان الكثيرة والمتداخلة التي عبرت ذهنه خلال الأيام الثلاثة الأخيرة التي قضاها هنا، إلا أنه كان يعلم أن ألوان لوحته ستأتي صافية نقية لا تشوبها شائبة، وذلك على الرغم من خيبة أمله في الأيام الأخيرة من مقابلة زَمردة قبيحة مثل المدعوة صفري، أو تمثال من الصلصال مثل جارته سهيلة، أو تلك الخرقة البشرية التعيسة الملقاة على ذلك الدرج الإسمنتي الطويل. لكنه كان على أي حال سعيدا باكتشاف « نجمة »، والنظر إلى داميا، وقد بدت له تلك الفتاة حية.

وأطل الآن من النافذة وهو يحاول أخذ نفس جديد تتجدد معه أفكاره، إلى أن صفعته رائحة القمامة المنبعثة من أكوام النفايات التي كانت تحتل مكانا معتبرا من ذلك الحي. ومباشرة أغلق التفراج الخشبي وأوصد خلفه زجاج النافذة ولمزيد من التعزيزات أقفل الستائر، وهو يشعر بالضيق من آخر مشهد من ذلك اليوم المحموم، ونظر إلى لوحته العذراء من جديد وهو يجلس على المقعد بهدوء وكأنه يحاول تفادي التشويش على صوت إلهامه. وتأمل برهة بياض لوحته الناصع وشعر مجددا بتلك الرغبة العارمة في رسم ذلك الوجه، ولكن من هو ؟

– من الواضح يا بني أنك تعيش حالة استغراق.

– استغراق ؟

– إنه المرحلة التي تسبق التجلي... شيء يشبه حلم اليقظة. المرحلة التي يصل فيها الصوفي إلى ذروة الامتزاج بعالم الحقيقة ويقترب من غايته ومنتهى طلبه... المطلق، حيث النقاء والنور.

– وهل حال الصوفي من حال الفنان ؟

– الصوفي يرى الكون بعين النقص ونحن ننشد في كل لحظة من لحظات حياتنا سد نقص العالم ببلوغ عالم الكمال، تماما كما يفعل الفنان.

– لكن المشكلة أنني لست قادرا على التقاط صورتها... لست قادرا على القبض على تفاصيلها... لا أعرف لماذا... لكن...

– كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة.

ورفع إلياس عينيه الآن إلى الشيخ برهان الدين في غير تصديق وقد شعر في تلك اللحظة وكأنه وحيد معه في تلك القاعة الشاسعة التي كانت تعج بالمريدين الذين أتوا من كافة أنحاء أوروبا لمقابلته...

- لقد أخبرتني يا بني أنك من الجزائر...
- نعم...
- لا بد أنك ستجدها هناك...
- من ؟
- إنها هي
- لكن...
- اعتن بها
- ... لكن هل هي موجودة ؟
- إن كنت تريد حقا إيجادها، فلا تنكر في الأصل وجودها.
- كيف ؟!
- إنها حتما الرابعة...

عاد إلياس لتذكر تفاصيل ذلك اللقاء مع الشيخ برهان الدين الذي رافق فيها إيرمانو إلى بومايا في ضاحية بيزا بتوسكانا داخل معبد « لاما تسونغ كابا » البوذي، وهو المعبد الذي تم تأجيره للشيخ برهان الدين على مدى أسبوع كامل التقى فيه بمريدي طريقته الصوفية في إيطاليا. لقد كان إيرمانو مهتما بالاتجاهات الصوفية لمختلف الديانات والتي كان يجري أبحاثا عن تجليات رموزها على الأعمال الفنية لأتباعها. إلا أن إلياس لم يشعر يوما بأنه منجذب لأي من هذه التيارات الروحانية ولا بأوعيتها الدينية، على الرغم من أن الكثيرين كانوا يصفون أعماله بأنها ذات نكهة روحية مع أنه لم يكن يحب شخصيا أن يضع أعماله في أي إطار كان. غير أن شيئا ما في داخله كان يدفعه في تلك اللحظة لمحاولة فهم أسرار تلك الطريقة. والآن اتجه نحو حاسوبه ونقر كلمة كانت أول ما خطر على باله في تلك اللحظة : الصوفية. وتصفح أول موقع اقترحه

عليه غوغل باللغة الإيطالية صفحة صفحة. لتقع عيناه من داخله على صورة بالأبيض والأسود لامرأة ترتدي ثيابا كان يرتديها الرجال في بداية القرن العشرين، لم تكن تلك امرأة ذات ملامح تتفجر أنوثة إلا أنه كان من الواضح أنها امرأة. Isabelle Eberhardt من تكون ؟ ونظر إليها وهو يشعر أنه قد بدأ يلمس ملامح اللوحة التي كان يحاول منذ سنوات رسمها.

وفي هذه اللحظات سمع أصوات زعيق تصدر من أسفل العمارة، تقترب من باب منزله أكثر وأكثر. ودبّ الرعب في نفسه وهو ينظر إلى الباب الذي بدا وكأنه سيتهاوى من وقع الدقات العنيفة عليه والتي أتت مصحوبة بأصوات غريبة بدا وكأنها ولولات مستوردة من طقوس إفريقية بائدة... لم يكن ذلك حتما رجلا واحدا يدق بابه في تلك اللحظات لكن على الأقل ثلاثة أو أربعة، كما لم يكن ذلك طرقا اعتياديا على أي باب، بل محاولة اقتحام واضحة...

- 70 -

خرجت داميا بسرعة من المكتب وقد فهمت أن مديرتها السابقة الآن قد اختارت بشكل واضح معسكرها. كانت مقتنعة أن سهيلة مستعدة لمراوغتها لشهرين قادمين وليس لساعتين فقط كما فعلت لتوها. لكنها ارتأت أن ترمي لها مفاتيح مكتبها تماما كما رمت لشنيت بطاقة عضويته الحمراء قبلها، وصعدت بسرعة سلالم العمارة ولكنها لم تكن متأكدة لأي طابق كانت وجهتها. كانت تشعر أنها مستعدة أن تدق على جميع الأبواب حتى يخرج لها إلياس وتخبره بالحقيقة. كان يجب أن تحذره. والآن توقفت في الطابق الأول وسمعت فجأة أصوات صياح غريبة كانت تصدر من الطابق الأخير. سحقا ! ونظرت الآن إلى ساعتها التي كانت تشير إلى السابعة. ربما فات الأوان ! فكرت وهي غير متأكدة من خطوتها القادمة، لكنها كانت تعلم أن عليها أن تفعل شيئا ما... أي شيء عدا أن تبقى صامتة.

- 71 -

الزمان 21 أكتوبر 1904. المكان الجنوب الجزائري. الحامية العسكرية لعين الصفراء. آخر معاقل الإدارة الكولونيالية للفيلق الأجنبي الفرنسي على الحدود المغربية. المياه تغمر على حين غرة أكواخ الطين المبنية على سفح وادي الصفراء. شلال من المياه يندفع من الجبل جارفا معه المنازل والأنعام والشجر والبشر. أما هي فكانت تقف مبتسمة من على شرفتها الصغيرة الآيلة للسقوط تراقب المد الرهيب للمياه والذي كان يحمل معه كل شيء. بقيت ساكنة، لم تهرب، لم تحاول بأي طريقة النجاة بنفسها. لتقتلعها موجة من مكانها. وتفارق الحياة هكذا في سن الـ 27.

إنها إيزابيل إيبرهاردت.

وقرأ مجددا تلك الجملة وقد تلحفه شعور خاص بالخجل.

« أما هي فكانت تقف مبتسمة من على شرفتها الصغيرة الآيلة للسقوط [...] بقيت ساكنة، لم تهرب، لم تحاول بأي طريقة النجاة بنفسها. لتقتلعها موجة من مكانها ».

أما هو فكان قلبه يكاد أن ينقلع من صدره لمجرد سماع طرق على الباب تصاحبه هتافات أنصار الكرة الحماسية. وقبلها فزعه من طرق جديدة أخذه عبرها سائق الأجرة، وبعدها صوت خطوات منهكة لعجوز على سلالم العمارة، ثم تحية حمزة التي أوقعته

مغشيا عليه. والآن لم يكن أولئك سوى أبناء « يمّا مريم » يدعونه لمشاهدة مقابلة الجزائر - إنجلترا بعد حوالي الساعة. لكنه لم يكن من محبي الكرة، وفضل متابعة القراءة :

> في وقت كانت فيه حياة المرأة تخضع لمسارات إلزامية، كانت إيزابيل امرأة وكاتبة خارجة عن المألوف. جعلت من الإسلام دينها ومن الصحراء بيتها : كانت تلك طريقا طويلة عريضة سارتها على صهوة حصان مع حقيبة مليئة بالكتب، والثياب التي كانت عليها. عاشت فقرا مدقعا كبدوية مثل جميع البدو، فقاسمتهم متاعبهم، وأمراضهم، نائية بنفسها عن كل افتتان بالمشرق والذي كان رائجا في زمنها.
>
> كانت متدينة بعمق، ولكنها كانت أيضا متهورة. فحرقت سنينها بلا هوادة [...] مكروهة أم محبوبة، لم يكن هناك حل وسط لمن كان يعرفها. وبعد وفاتها أصبحت في فرنسا أسطورة، حيث نُشرت كتاباتها من طرف فيكتور باريكون من أجل تأجيج أسطورة النساء الرحالات وسط أدغال الرمال : زنمردة الصحراء. وبعيدة عن الهالة الأسطورية التي تم إضفاؤها على شخصها، لم يكن من الممكن مقاومة سحر هذه المرأة لدى قراءة السير الذاتية المتعددة لها [...] سحر امرأة لم تكن جميلة. بل كانت صاحبة جبهة محدبة، وعينين سوداوين وأنف أفطس وصوت أنفي مزعج. المرأة التي ترقد منذ حوالي المائة عام في مقبرة المسلمين بعين الصفراء...

ولم يقاوم إلياس قراءة السيرة الذاتية الكاملة لهذه المرأة الملغزة وضغط على الرابط الموجود على الموقع الصوفي، ليواصل التهام السيرة المفصلة التي كتبتها فرانتشيسكا بيتيني[76] عن هذه الشخصية الآسرة :

76. Francesca Bettini.

كانت حاجتها إلى الترحال تزداد إلحاحا يوما بعد يوم [...] في جويلية 1899 سافرت إلى الجزائر [...] وصلت إلى بجاية، ثم الخروب وبعدها بسكرة [...] في أوت قررت الانطلاق إلى واحة الواد [...] وفي كتابها « بلد الرمال » استعادت تلك اللحظة : [...] كانت لحظة قدومي إلى الواد لحظة اكتشاف كاملة، ونهائية لهذا البلد الرائع.

وتذكر إلياس الآن كلمات الشيخ برهان الدين :

- لا بد أنك ستجدها هناك...

- من ؟

- إنها...

إنها ليست بالضرورة العاصمة. فكر وهو ينظر إلى « نجمة » على غلاف رواية كاتب ياسين والتي كانت لا تزال فاتحة ذراعيها كالمصلوبة تنتظر من يغمرها. فكر مبتهجا وهو يفتح الآن بريده الإلكتروني فقد كان لابد له من إخبار إيرمانو بأنه أخيرا اكتشف مكانها. سيبحث عنها في الصحراء، في الهضاب، في الساحل، في الشرق، في الغرب، في الجهات الأربعة، لكنه لن يبقى بالضرورة في العاصمة...

« هذا كتاب لغاربييلي مانديل[77]. قد تجد فيه تفسيرا لـ « الرابعة ». أما أنا فهذه الأمسية سأكون في ميلانو ».

قرأ إلياس بتوجس رسالة إيرمانو المقتضبة والتي بدت من خلالها نبرة صديقه جدية على نحو مريب. وفتح الآن الملف.

---

77. Gabriele Mandel.

الفن الاسلامي

الرمز، الرقم، الهندسة

وشرع مباشرة في قراءة ما كتبه غابرييلي مانديل أستاذ الفن في جامعة ميلانو عن الرقم 4.

أربعة (4) : الرقم 4 في الهندسة الساكنة يمثل المربع، أما في الهندسة الديناميكية فهو الصليب. أربعة نقاط في الفضاء يعطون لدى ربطهم ببعضهم البعض الشكل الحجمي الأول. وعليه فهو يمثل بعد النقطة، والخط، والمثلث (المساحة) الحجم. ويمثل الرقم أربعة في الماكروسكوم المادة (الأصلية، الفيزيائية، الكونية، المعقدة). أما في الميكروسكوم فيمثل الأمزجة الأربعة (البلغم، الدم، المرة الصفراء، المرة السوداء). وفي التوزيع الوظيفي الظواهراتي للكائن البشري فيمثل هذا الرقم المحيط، الربع المكون للإنسان. وكمؤشر رياضي يرمز « أربعة » للاستقرار. إنه الرقم المربع الأول. والمربع في الواقع يمثل المادة حيث يرمز إلى الجهات الأربعة : الشمال، الشرق، الجنوب والغرب...

وهبط الآن إلياس بعجلة إلى بقية الصفحة، وما هي إلى دقائق حتى شعر أنه لا يصدق فعلا ما يقرؤه. جحظت عيناه بحركة لا إرادية في لوحته البيضاء... وتأكد أنه أخيرا وجدها.

- 72 -

خرجت داميا من العمارة وهي لا تكاد ترى شيئا أمامها، حتى أنها لم تتفاد الوطء على تلك الفوطة الصحية المستعملة، وبقايا الطعام النتنة، وقاذورات المنازل المتناثرة أمام مدخل العمارة. وواصلت سيرها كالمخدرة على طول الشارع المؤدي إلى درج الأموات، وهي تفكر الآن في إلياس من دون أن تدير ظهرها إلى العمارة. لم يكن من المعقول أن تطرق على جميع الأبواب لتسأل عنه. ما الذي كان سيقوله عنها سكانها ؟

« أنصحك بألا تطلعي أحدا على ما حصل معك مع شنيت ».

وتذكرت الآن كلمات سهيلة الباردة. لم تعلم في تلك اللحظة إن كانت هي الضحية أم المجرمة، لكنها فهمت على الأقل أن سهيلة قد اختارت معسكرها. وفكرت في الاتصال بإسماعيل ليعطيها رقم إلياس حتى تحذره من شنيت... من سهيلة... لكنها تذكرت أن إسماعيل يكرهها، وهي من كانت ترطن مع سهيلة بلغة لم يكن يفهمها. كان لابد أنه يشعر طيلة الوقت بالغباء بينهما. لتشعر هي الآن بالغباء بينهما. إذ كان من الواضح أنها لا تفهم هي الأخرى لغة كان الجميع يتقنها : شنيت، سهيلة وإسماعيل، أما هي... فكيف أمكن للجميع أن يأخذ رقم إلياس ما عداها هي ؟ كيف لم تفكر باستغلال معرفتها به بشكل أو بآخر مثلما فعل غيرها ؟

هل كانت فعلا تنتمي إلى هذا المكان أم أنها كانت دخيلة ؟ وتذكرت الآن والدتها. لم تكن تدري لمَ كانت تعمل دون مقابل هي الأخرى. لقد كانت تقول أنها تسعى لمساعدة غيرها. وماذا لو كان غيرها لا يسعى سوى لاستغلالها ؟ لقد كانت أمها حتما هي أصل تعاستها. لم تكن تدري لمَ أتت بها إلى عالم لا تعرفه... عالم لا يعترف بها. وتذكرت الآن أستاذتها في الجامعة التي أعطتها أقل علامة على مذكرة تخرجها قبل أيام، على الرغم من أنها اعتقدت للحظات أنها كانت فخورة بعملها. لم تعد تفهم الآن شيئا. وتذكرت لحظتها بانغلوس ولايبنتز و« الانسجام الأزلي »... يبدو أنها هي الساذجة التي كانت تؤمن في سرها بنظرية كانت تشذ عن قاعدتها، وليس ربة عملها التي عرفت جيدا كيف تستغلها، وأستاذتها التي أبدعت في تحطيمها، ليختم ذلك السياسي النذل المشهد بمحاولة اغتصابها.

ووقفت الآن على رأس درج الأموات. وقد تجرأت للمرأة الأولى على النظر إلى ذلك الجسم التعيس المكوّم أبدا على السلالم القذرة، والمتكئ جنبا إلى جنب مع نفايات صاحب المخبزة على جدار الجامعة. هل ولدت صاحبة الحايك هذه هكذا يا ترى ؟ أم أنه كان عليها أن تلتقي بكل دنيئي هذا المكان هي الأخرى قبل أن تتحول إلى خرقة بشرية قذرة لا تجذب إليها سوى ذباب المقابر النتنة. وهل سأنتهي مثلها ؟

فكرت داميا وهي تنظر الآن إلى أسفل ذلك الدرج الطويل والمؤدي إلى شارع منزلها. لم تكن تدري إن كانت ترغب في تلك اللحظة في العودة للوقوف على شرفة بيتها المطلة على تلك الأقنعة المعمارية المروعة التي لم تكن تدري لمَ لم يحملها أصحابها معهم

عند مغادرتهم بلدها، أم أنهم تركوا تعويذاتهم هنا حتى ينغّصوا عليها أفقها ؟ لم تكن متأكدة أنها كانت ترغب في العودة للوقوف أمام تلك الشرفة، ولا تخييب أمل والدها الذي لم يكن يتوقف من تحذيرها من كل شيء وأي شيء هنا. لقد كان حتما محقا، والدليل كل ما حصل معها. وقد كان ذلك يعني أنه لا يوجد ما هو أفضل من الرحيل... من العدم. وشعرت بالدوار وهي تتذكر كل ما كان عليها أن تمر به هنا... في الهاوية. نظرت إلى قعر الدرج... كانت تود أن تقذف كل شيء من أسوار ذاكرتها... ودست نظرها الآن في ذلك الحايك القذر، وأغمضت عينيها...

لم يبق شيء أمامها

لم يبق شيء...

سوى البياض.

- 73 -

بدا إلياس غارقا في ذلك العالم الجديد الذي لم يكن منتبها لوجوده من قبل، والذي انفتح عليه من خلال هذا الكتاب العجيب الذي أرسله له لتوه صديقه إيرمانو. لقد كان ذلك عالما محفوفا بالأسرار لم يكن يتعاطاه سوى المعلمون الصوفيون، وكان يجدر بمن يود سبر أغواره والاطلاع على المفاهيم الأساسية التي تحكمه سلوك طريق صوفي تدرجي، لا يستقيم سوى بالمرور على درجات سبعة متصاعدة.

« الدرجة الأولى وتتطابق مع مصفوفة الجسد، وهي المصفوفة الجنينية التي تحتوي على جوهر غير مادي. إنها الروح، والجسد هنا يمثله آدم ».

ونظر إلياس الآن إلى تلك اللوحات التي رسمها في سنوات مضت لأرواح كان يحاول التقاط صورتها بعد خروجها من سجن الجسد...

« الدرجة الثانية (الحس الحياتي) وترتبط بالروح الحيوانية أو النفس، وهي ساحة صراع اختبرها نوح مع قومه...

وتذكر الأيام التي قضاها في العاصمة يتصارع فيها مع نظرات الناس وإيماءاتهم وحركاتهم وثيابهم وطريقة قيادتهم وأكلهم...

« الدرجة الثالثة (القلب) ويتعلق بالقلب الروحاني، ويتمثل في فهم الذات الحقيقية وتمييزها عن الحالة الجنينية. إنها حالة روحية يمثلها إبراهيم خليل الله.

وفكر الآن في تجربته الروحية هذه وكيف قرر أخيرا الغوص في دواخل نفسه الغائرة...

« الدرجة الرابعة (الحد بين اللاشعور وتجاوز حالة الشعور الاعتيادية، وبلوغ مرتبة التلقي، والحدس) إنها السر، نقطة اللاشعور، وتتجلى في حوارات نفسية روحية يمثلها موسى.

ولم يشعر إلياس في هذه اللحظة بنفسه إلا وهو ينهض ويوقع لوحته... وعاد للنظر الآن إلى عنوان الفصل : « الفن الإسلامي : الدرس الأول ». لقد كانت لا تزال أمامه طريق طويلة...

« الدرجة الخامسة (النفس) إنها البلوغ النبيل للروحانية، للآخروية الإلهية، إنها داوود المرء.

وتنهد وهو يتذكر صديقه إيرمانو، واهتماماته الروحانية التي لم يشعر هو يوما بالانجذاب لها...

« الدرجة السادسة (الإلهام) إنها تجسيد الإلهام في داخلك ويمثلها المسيح. ولذلك فقد كان هو الكلمة.

وابتسم وهو يفكر كيف كان عليه أن يكتشف كل هذا عن طريقه هو...

« الدرجة السابعة (الحقيقة) إنه الحلقة الرقيقة الأخيرة التي نجدها في آخر الطريق والتي ترتبط بالمركز الإلهي للإنسان. بالخاتم السرمدي. بالواقع المتسامي والمنبثق من كل مرء، ويمثلها النبي محمد. فكان هو خاتم الأنبياء.

لقد كان لابد من أن إيرمانو الآن في ميلانو يحضر جلساته المعتادة...

« وكل واحدة من هذه الدرجات السبع من الرحلة لها لون معين، يرتبط بالضوء الذي يراه أحيانا المتصوف أثناء الذكر.

لقد كان صديقه الإيطالي يداوم على حضور جلسات الذكر في جمعية مانديل الصوفية التي لم يذهب هو يوما إليها...

« والألوان السبعة هي بشكلها التصاعدي : الأسود الرمادي (الدرجة الأولى)، الأزرق (الدرجة الثانية)، الأحمر (الدرجة الثالثة)، الأبيض (الدرجة الرابعة)، الـ..

ونظر الآن إلى لوحته البيضاء وهو يشعر بالكثير من الرضا.

إنها الرابعة...

وفكر الآن أنه لابد من أن يتقاسم أيضا مع غيره لحظات الذروة هذه التي احتاج إلى كل تلك السنين في مسيرته الفنية ليكتشفها، وهذه التجربة الإنسانية الكثيفة ليفك أسرارها. وبحث بسرعة عن اسم إسماعيل في قائمة هاتفه وهو الذي تعرف عليه في مكتب جارته سهيلة، وتبادل معه رقم هاتفه وبريده الإلكتروني، ليخبره في تلك المقابلة الخاطفة أنه أتى هنا للبحث عن ملهمته. لقد كان ذلك فنانا مثله ولا بد أنه كان سيستفيد من هذه التجربة.

« هذه محاضرات لغابرييلي مانديل، فنان وأكاديمي إيطالي.

حاول أن تترجمها. ولن تندم على قراءتها ».

والآن حمل لوحته بهدوء واستقر على السرير القديم الذي كان ينام عليه جده المتوفى، « بُنك القبة ». وسمع الآن حشرجة خفيفة على الباب لكنه لم يبال بها، فقد كانت تراوده رغبة شديدة في الانخراط ببياض تلك اللوحة المكتمل والتوحد ببساطة سرها. لقد كان يراوده شعور غريب بالسكينة.

- 74 -

« جلس على طرف القارب وهو يتحاشى النظر خلفه. كانت تلك ليلة صماء... ظلماء... ولم يكن باستطاعته حتى رؤية ما هو أمامه. سينطلق القارب بعد قليل وسوف يتخلص عن قريب من حياته. حياته البائسة التي لم يكن نادما على تركها خلفه. حياة كان يترك معها أيضا شمسه، بحره، وسماءه... سيترك أمه. سيتركها لهم... لإخوته.

مسح دموعه وهو ينظر إلى صفحة الماء الهائج، وقاربه يتزعزع كلعبة بائسة وقعت بين يدي طفلة نزقة قررت تحطيم عظامها. يا يماً ! صرخ على نحو غريزي، ثم عاد لهدوئه وهو يحاول مسح آخر كلمة له من على شفتيه، لا بل من كامل كيانه. أين هي أمه ؟ بدا كطفل تائه... فلطالما كانوا هم أبناء أمه المفضلين. أما هو فكان ابنها وكفى. وكان يحبها حبا غير مشروط لأنها كانت أمه وكفى. لكن ما الذي عساه أن يفعل إن كانت أمه أما لثلاثين مليون غيره من الاستغلاليين والوصوليين والوزراء والمسؤولين والمتزلفين والعسكريين والمجاهدين وأبناء الشهداء والمزورين والفاسدين والنصابين ؟ أي مكان كان يمكن ليحظى به مع كل هؤلاء وأبنائهم وأبناء أقاربهم وأصدقائهم وأصدقاء معارفهم ؟ أين كان هو من كل هؤلاء، وهل كانت أمه تعرفه ؟ هل كانت تسمع بوجوده ؟ هل كانت تسمع

آهاته وتشعر بمعاناته ؟ والواقع أنها لم تكن تفهم صوته... والحقيقة أنها لم تكن تفهم سوى صوت الخشب الأجوف المتعفن الذي كانت تلهج به ألسنة إخوته. أنا الذي ضحيت بنفسي من أجلك، ألا أستحق منحة مجاهد ؟ وكانت تغرقه بالمال. وأنا ابن ابنك الذي مات مقتولا فوق ترابك، ألا أستحق العون والمناصب ؟ وكانت تغدق عليه بالخيرات. وأنا ابن الجبال الشامخات الشاهقات، هل أستوي أنا وغيري بمنحة مجاهد ؟ وكانت تتركه يغرف من الثروات. وأنا ابن الجنوب المقدام، ألا يوجد مكان لي مع المقربين الكرام ؟ وكانت تهديهم الدواوين والوزارات. وأنا ابن الشرق الهمام... وأنا ابن الغرب المقدام... وأنا... وأنا... وأنا... جهات جهات جهات... أما هو فكان يبدو أنه قد ضيّع بوصلته. ولم يكن يعرف سوى أنه ابنها وكفى... وأنها أمه وكفى. وقد قرر الآن أن يرحل، قرر أن يغادر...

« لأنك أمي تفضلين إخوتي عليّ »

وشعر إسحاق الآن بالوحشة الشديدة قبالة ذلك الشاطئ، وغصّ وهو يتذكر آخر سطر من القصة. كمش ورقته ودس القلم في جيبه. وقفل عائدا إلى المنزل. قطع شارع كيتاني بينما كانت كل طرقات باب الواد خالية. كان الجميع الآن يشاهد مباراة الجزائر إنجلترا، ولم يكن هو يبدو مهتما كغيره بتأهل الجزائر إلى المونديال. لم يكن إسحاق يحب فعلا الكرة. كان يحب القراءة. كان يحب الكتابة. وتنهد وهو يتذكر تلك السحلية التي ترك بسببها الدراسة. نظر إلى هاتفه النقال. كانت الساعة تشير إلى حوالي الثامنة. توقف قليلا وهو يتأكد أنه فعلا تلقى أكثر من خمسة عشر اتصالا من والده، وكز على ورقته الآن بقوة.

لم تكن « الزلمومية » هي من عرقل فقط حياة إسحاق باعتقاده، بل والده الذي كان يمنعه من تقديم طلب التأشيرة من أجل الهجرة. لابد أنه يود أن يوبخني على عدم قدومي للمحل طيلة اليوم. وقرر عدم معاودة الاتصال بوالده وترك الهاتف صامتا مثلما يحبه وهو منخرط في الكتابة ودخل إلى أقرب مقهى. كان الجميع يشاهد المباراة ولم يكن عليه هو أن يشذ عن القاعدة. فكر وهو يدس بأسى قصته الكئيبة في جيبه ومعها هاتفه الصامت. لم يكن يود أن يسمع صوت والده في تلك اللحظة. لقد كان كل ما يود القيام به هو الانخراط مع الجميع في هتافاتهم المجنونة...

- 75 -

الجزائر العاصمة

2012 - 7 - 5

انغلق وجه خير الدين وهو يرى صورة صفري مطبوعة على الصفحة الأولى من الجريدة لنهار ذلك اليوم مرفوقة بخبر عن الميزانية الضخمة التي رصدتها الوزارة التي استلمتها المديرة السابقة لمعهد الأبحاث في التراث العربي، في آخر تعديل وزاري، وذلك من أجل تنظيم احتفالات ضخمة هذا العام بمناسبة عيد الاستقلال.

تذكر مساعد المحقق قضية مقتل إلياس التي تم إقفالها منذ عامين وألقى الآن بامتعاض الصحيفة، وهاجس تلك الجريمة لم يفارقه منذ ذلك الوقت. صحيح أن اسم صفري قد ظهر في التحقيقات بسبب اتصال المجني عليه بالوزيرة الحالية يوما واحدا قبل مقتله، إلا أنه قد ثبت أن صفري لم تكن متورطة بأي شكل من الأشكال في هذه القضية، وهي التي كانت أثناء الجريمة تستقبل ابنتها المقيمة في باريس في مطار العاصمة لتتوجه بعدها مباشرة إلى الشيراتون لحضور عشاء أقيم على شرفها مع أصدقائها وأساتذة من المعهد التي كانت تديره وشخصيات نافذة. إلا أن خير الدين بقي مقتنعا أن النتيجة التي خلصت لها التحقيقات غير مرضية.

« انتحار الفنان إلياس ماضي في منزل جده في العاصمة طعنا بالسكين »

هكذا عنونت الجرائد خبر مقتل إلياس بعد أن عجزت الشرطة عن إيجاد أي دليل قد يشير إلى هوية القاتل. أو أي خيط من شأنه أن يوصل إلى المجرم.

« كانت كل الخيوط تبدو مقطوعة ». غمغم بأسف. إلا أن ذلك لم يكن يعني أن إلياس انتحر بالضرورة. فكر وهو يخفي الآن وجهه بيديه بالكثير من الحسرة، ليعود ذلك الصوت المتسلل من ذكريات التحقيق البائد ليخرق طبلة أذنه بلا رحمة...

يمّا ماتت...

يمّا ماتت...

- 76 -

الجزائر العميقة

2012 - 7 - 5

« حقارة... حقارة... حقارين قاع كيما راهم ! ». صاح إسماعيل بحقد وهو يمسح الرسوم التي كان يحتفظ بها على حاسوبه، بعد أن أحرق ما أحرق من أعماله الورقية، وقد عزم على إعدام كل ما رسمه طيلة حياته. لقد كان غاضبا... ولم يكن يشعر منذ أكثر من عامين سوى بالغضب وهو من لم يتمكن من الحصول على أي وظيفة بعد عودته من العاصمة. وبدأ الآن بمسح الرسوم التي عمل عليها خلال فترة عمله في أوبتيميديا ، الواحدة تلو الأخرى.

كانت تلك شرائط مصورة تتجاوز الثلاثين صفحة، عدا عن الإعلانات والتصميمات التي نفذها بأمر من حمزة ولم يأخذ أي مقابل عليها. والآن توقف أمام ملف أرسله له إلياس دقائق قبل مقتله، والذي تم على أساسه التحقيق معه لتَبيُّن علاقته بالمجني عليه :

MANDEL Gabriele, Arte Sacra Orientale, Otto lezioni all'Accademia di Brera Arte islamica, Arte Buddhista, Arte dell'Africa nera. 2007. Milano. Arcipelago Edizioni[78]

---

78. مانديل غابرييلي، الفن الشرقي المقدس. ثمانية دروس من أكاديمية بريرا. الفن الإسلامي. الفن البوذي. فن إفريقيا السوداء. 2007. ميلانو. منشورات أرتشيبيلاغو.

وكبس الآن على زر الإلغاء.

كانت تريد أن تشغّل ذلك المنتحر الكافر بدلا عني ! وشد إسماعيل على قبضته وهو يتذكر سهيلة... حقارة ! تمتم وهو يكاد يختنق... حقارين ! واسترجع الآن إفادته أمام الشرطة في قضية إلياس .لقد أخبرهم أنه عمل مع سهيلة ولم يتقاض منها أي أجر لكنهم لم يفعلوا شيئا حيالها. وحتى بعد محاولته استكمال عمله معها متبعا أساليبها النفاقية إلا أنه لم يتمكن من الإيقاع بها ودس الآن وجهه بين كفيه وحاول منع نفسه من البكاء، وقد انتهى لتوه من إعدام كل رسوماته.

- عليك أن تجد عملا آخر غير الرسم.

- ولكن لمَ ؟ سأل إسماعيل صديقه الجديد باستغراب.

- الله لم يبارك لك في عملك لأن الفن حرام.

وأجهش الآن بالبكاء وهو يتذكر هذه الكلمات .لم يكن إسماعيل متأكدا من أنه يحسن شيئا آخر غير الرسم .كان يتمنى في تلك اللحظة لو أنه يستطيع اقتلاع يده من جذورها وفعل ما فعله إلياس تماما بنفسه منذ سنتين والتخلص من حياته لكنه... لكنه لم يكن يعلم لم كان إلياس بحاجة لفعل ذلك ؟ لماذا عاد أصلا لهذا البلد... لماذا انتحر ؟ وواصل إسماعيل البكاء على رسومه... على نفسه... على طفولته التي ضاعت في سنوات الإرهاب... وعلى حاضره الذي ضاع في سنوات الفساد... على أمه الميّتة... وعلى مستقبله الذي لم يكن يرى فيه أي بصيص أمل... لتخضب دموعه الآن اللحية التي بدأ بتربيتها...

لم يكن يرى أمامه سوى الدهمة

لم يكن يرى أمامه سوى السواد...

- 77 -

أوبتيميديا

2012 - 7 - 5

نظرت سهيلة إلى الموظفين الذين كانوا يملؤون مكتبها وهي غير متأكدة أنها قد وجدت فعلا أحدا يشبه داميا في كفاءته ليتسرب الآن شيء من الحزن إلى صدرها. لكن لا يهم. واستدركت مباشرة وهي مقتنعة أن المهم هو أنها لم تعد مضطرة لاختلاق حجج بعدم الدفع لأحد. وتذكرت مرحلة إسماعيل وما قبل إسماعيل، وقد يكون ذلك هو الشيء الإيجابي الوحيد الذي كسبته من وراء تعاملها مع شنيت.

والحقيقة أن سهيلة ومنذ أن اختارت معسكرها قبل سنتين إلى جانبه على حساب داميا مقابل الحصول على التصاريح لإصدار سلسلة كتبها وبطاقة الانخراط في الجمعية، لم تكن تعلم أن تصاريح النشر كانت تعني بالنسبة لشنيت النشر تحت مظلة « أنا » وهو ما جعل رئيسها يسلب منها كل الأرباح التي حققتها السلسلة التي عملت عليها داميا وإسماعيل وسي عبد الله. الأمر الذي تسبب لها في مشاكل مع شنيت أدت إلى سحب تلك البطاقة الخضراء التي لم تستفد يوما منها، إلا أنها على الأقل تعلمت منه عدم دفع

أجور العمال بطريقة قانونية. إذ علمت سهيلة أن كل المتسكعات في مبنى « جزائرنا » يتقاضين أموالا من خزينة الدولة في إطار عقود توظيف الشباب حيث تدفع الدولة للموظف على مدى عام كامل، وبمجرد أن يقترب تاريخ تثبيته في الوظيفة كان د. شنيت يقوم بالتخلي عنه ليعوضه بموظف آخر وهكذا لم يكن مضطرا للدفع لأحد، كما كان يضمن له هذا تجديد المجموعة النسائية التي كانت تحيط به كل فترة.

والحال أن هذه الآلية في التوظيف كان يبدو أنها مستوحاة من أسلوب سهيلة نفسه وغيرها من صغار النصابين في القطاع الخاص الذين لا يحتاجون لموظفين ذوي كفاءات خاصة، فكانوا يعتمدون على خدمات هؤلاء خلال مدة الاختبار الذي يمنحه قانون العمل لأرباب الشركات من دون الدفع لهم، ليقوموا باستبدالهم دون أن يدفعوا راتب أحد كل مرة. وهذا ما فعلته سهيلة مع إسماعيل وداميا وقبلهما الكثيرون ممن مر على أوبتيميديا. والواقع أن التخلص من إسماعيل أتى بشكل أوتوماتيكي لأنه كان عليه أن يعود إلى بلدته بينما كان التخلص من زميلته العاصمية أقسى نوعا ما. وتنهدت الآن سهيلة وهي تتذكر آخر لقاء لها بداميا، والتي حذرتها فيه من التعامل مع شنيت وأرادت تحذير إلياس من ذلك. كانت تشعر بالذنب لأنها كانت السبب وراء تعرفهما عليه. لكن سهيلة كانت قد اختارت معسكرها. صحيح أنها اكتشفت أنه لم يكن اختيارا صائبا في النهاية، إلا أنها كانت مضطرة لتحمل تبعات هذا الخيار طيلة حياتها. وتذكرت الآن شهادتها أمام الشرطة بوجود علاقة بين إلياس وداميا، والتي روجت لها إحدى الصحف الكبرى.

« وبسبب تأثيره عليها بأفكاره الشاذة وترددها الدائم على منزله حيث كانا يمارسان طقوسا غريبة مستمدة من أفكار وفلسفات دينية مشبوهة أدى ذلك إلى اختيارهما الانتحار كل على طريقته ».

والواقع أن داميا لم تكن تملك رقم إلياس ولم تكن تعرف حتى باب بيته، لكن سهيلة كانت مضطرة أن تقول للشرطة غير ذلك. كانت تعلم أن إسماعيل يود أن يورطها في القضية بأي شكل حتى ينتقم منها ويثبت أنها تلاعبت به، وهي من كان يجب أن تصر على عدم معرفتها بإلياس وعدم نيتها بتشغيله عندها.

كانت علاقة المجني عليه مع داميا التي كانت موظفة عندها وليس معها. هذا ما كانت تصر على قوله للمحققين. هي لم تكن لها نية التعامل معه. هذا ما كانت تكرره. كان كل همها في تلك القضية منصبًا على عدم توريط نفسها باعترافات تثبت أنها كانت تحتال فيها على موظفيها وعلى إسماعيل وأنها كانت تبحث له عن بديل. لم يكن يبدو أن الشرطة مقتنعة بأقوالها، لكن المهم في كل هذا أنها تمكنت من إثبات أنها كانت في منزلها في زرالدة هي وشقيقها وقت الجريمة. عدا عن أنه لم يكن هناك أي دافع لها لقتله. والأهم من كل شيء الآن أنها تواصل عملها. لم تكن متأكدة أنها ستحقق الثروة التي كانت تطمح لها، لكنها كانت متأكدة من مسألة واحدة : أنها مازالت تعمل رغم كل تجاوزاتها... وأن إلياس لم ينتحر تلك الليلة. فكرت وهي تتذكر ردة فعل جارها وهي تعرض عليه العمل معها بإيعاز من شقيقها. لم يكن هناك أي شيء يطفو على سطح وجهه ذلك اليوم يشير أنه يعتزم الانتحار بعدها. إلياس لم ينتحر حتما تلك الليلة.

- 78 -

أعالي العاصمة

2012 - 7 - 5

نظر شنيت إلى البطاقة الخضراء لعضو « أنا » الجديدة وهو يمسد بشبق صورة الفتاة الصهباء التي كانت مطبوعة عليها وسرعان ما ذكّره شعرها الأحمر المصبوغ بشعر داميا، ليدكّ بانزعاج تلك البطاقة في الدرج، ويعود ليبتسم الآن بكلبية وهو يتذكر آخر لقاء جمعه بها.

أحسن شيء قامت به تلك الكلبة هو الانتحار. فكر وهو يكز على أسنانه وكأنه يشعر أن موت داميا لم يشف غليله فيها ولا حتى أقواله أمام الشرطة بأنه طردها من جمعيته بعد اكتشاف علاقة غير أخلاقية تجمعها مع الفنان الذي عرّفته عليه من أجل أن يجد له منصب عمل في منظمته غير الحكومية الكبيرة. صحيح أنه اضطر لتبرير الرسالة التي بعثها لإلياس قبل ساعات من وفاته بأنه لم يكن قد عرف بعد بعلاقتهما غير الأخلاقية. إلا أن عرْض بطاقة داميا على المحققين كان دليلا كافيا أن العضوية قد سحبت فعلا منها، حتى من دون مرورها بمجلس تأديب بحسب القانون الداخلي للجمعية.

« لم أكن أود أن أفضحها أمام بقية الأعضاء لأن الله قد أمرنا بالستر ». قال شنيت بهدوء. « ولأن هذه المسألة كانت حساسة دعوتها لاجتماع خاص قبل أن أسحب منها العضوية وأخبرتها بأن تذهب لتخبر عشيقها أنني أعدت النظر في انتسابه إلى منظمتنا المحترمة، فأنا لم أكن لأقبل بوجود أي شخص من شأنه أن يسيء بسلوكه المشين والخارج عن قيم مجتمعنا لسمعة « جزائرنا » بأي شكل من الأشكال أو العمل على إشاعة الفاحشة. ولم أتواصل لاحقا مع إلياس ماضي، وبالطبع هو أيضا لم يتجرأ على الاتصال بي بعدها ».

تذكر شنيت أقواله أمام المحققين بالكثير من الفخر، وهو الذي كان يسعده دوما استعراض قدراته في فن الخطابة. وعلى الرغم من أن المحققين لم يبدوا مقتنعين بنظرية السمعة هذه، إلا أن الأمر لم يكن يعني له شيئا. والمهم أن داميا لم تتجرأ قبل انتحارها أن تبلّغ عن محاولة اغتصابها منه في ذلك اليوم، والأهم أن إلياس قد انتحر قبل أن يشنقه هو بيديه، وهو الذي بدا من خلال نظراته أنه كان معجبا بداميا. الأمر الذي لم يكن ليرضى به شنيت وهو من لم يكن يحب أن يتعدى أحد على ما يعتقد أنه ملكيته الخاصة.

وأخذ الآن شنيت نفسا عميقا وهو يمسد شاربيه بشيء من اللعاب قبل أن يخرج للمشاركة باحتفالات يوم الاستقلال مع العضوين الآخرين اللذين كانا يحملان البطاقة السوداء في جزائرهم : شنيت « المجاهد »، الذي انعطب أثناء الثورة وهو يتلصص على نساء الدوار من خلال رصاصة طائشة، وابنه الذي سيرث « أناه » عنه لاحقا كما ورثها هو عن والده. لقد كانت « جزائرنا » في الواقع ملكية خاصة لهذه العائلة. وقد كان ذلك هو الدستور السري الذي لم يكن أحد مطلعًا عليه في « جزائرنا »...

- 79 -

مطار ليوناردو دافينتشي روما

2012 - 7 - 5

أخيرا شعر أنه يستطيع القدوم إلى هذا البلد دون أن ينغّص على ذهنه فكرة أنه يتقاسم الهواء مع بائس كان يطمع في الالتحاق بأكاديميته، وقد نكّد عليه عيشته لمدة عامين، ولكنه أخيرا تخلص منه. فكر موسيو أمزيان وهو يمر عبر محلات البضائع الفاخرة في مطار فيوميتشينو روما الدولي، وكان ذلك هو حتما المطار المفضل لديه من بين كل المطارات التي حط بها في مختلف أنحاء العالم، حيث كان يضطر المسافرون لعبور مئات الأمتار من السوق الحرة للوصول إلى بوابات سفرهم المختلفة، ويستحيل ألا يقع أحدهم في حبائل مغريات واجهات محلات مختلف الماركات الشهيرة. بينما كان هو يتلذذ في التجول بينها واقتناء آخر موديلات ربطات العنق والعطور منها.

دخل أمزيان إلى مقهى مرسيدس أمام البوابة رقم 18 ووضع بعناية كيس مقتنياته لربطات العنق لذلك اليوم، حيث اشترى أربع ربطات متنوعة في تلك الصبيحة، لكنه لم يكن متأكدا أيا منها سيختار لحضور حفل السفارة اليوم بمناسبة عيد الاستقلال. وأخذ

الآن يرتشف بهدوء الكابوتشينو وهو يحرص على عدم تلطيخ شاربيه المهذبين برغوته الغنية. وشرق غبة عميقة من شرابه الساخن وهو يتابع باهتمام الإعلانات التي كانت تبثها قناة « كلاس » من داخل المطار. فعلا قناة مميزة. فكر وقد أعجب باسم المحطة الإيطالية، ثم أخرج هاتفه النقال من جيبه، واستعد للاتصال بالسفارة لإبلاغها بوصوله بعد تسجيل تأخير في موعد الرحلة حتى ترسل له السيارة لتقله من المطار كما كان متفقا عليه. وسرعان ما اقتحمت ذهنه في هذه اللحظة أصوات منفرة عكرت عليه هناء أفكاره. لقد كان ذلك هدير شابين أسمرين دبقين مرا من أمامه قاطعين عليه اندماجه السريالي في أجواء مرسيديس وكلاس الفخمة.

– أنا نقلك حاجة... أنا هنا والله واحد ما يهدر معايا. زعق أحدهم بلهجةٍ لم يتمكن أمزيان من تحديد موطنها أكانت من غرب الجزائر أو من المغرب الأقصى.

– عندك الصح أصاحبي... رانا هنا بكواغطنا ! أجاب الآخر وهو يسحب قدميه على أرضية المطار الملساء مرتديا شحاطة بلاستيكية خضراء غطى صخب خطواتها على هرج التروليات المسحوبة في كل الاتجاهات والأحاديث الجانبية بكل اللغات وإعلانات المطار الروبوتيكية.

تبا ! تمتم أمزيان باشمئزاز وهو يحوّل نظره عن هذين الشابين، وقد غير وضعية كرسيه بما من شأنه طرد ذينك الكائنين الحيين اللذين بديا له لزجين على نحو يدعو للقيء من مجاله البصري كليا. ومسح يديه بحركة لا إرادية وقد انكمشت تقاسيم وجهه. الحثالة يلاحقونني في كل مكان. وتذكر الآن طلبة أكاديمية الفنون الجميلة الآتين من المدن الداخلية والذين كان يضطر لرؤية بعضهم كل يوم وهو يلتحق بمكتبه، على الرغم من تفاديه تسليط نظره على

أي منهم حتى لا يفسدوا عليه بهاء يومه أو يشوشوا على زجاج نظاراته « الراي بان » التي لم يتسن لأغلبهم رؤية زوج أصلي منها على المباشر إلا من خلال شخصه الرفيع. وتنهد وهو يشعر بالشفقة على ابنته التي قد تضطر للتعامل مع هؤلاء في السفارة. ونفث بحنق وهو لا يكاد يصدق أن ليندته المدللة قد تضطر لمخاطبة أمثال هؤلاء في عملها الجديد. تأسف موسيو أمزيان وهو يتخيل الأمر وهو من اضطر للعق أحذية كثيرة للظفر لها بهذا المنصب... أحذية متنوعة الأشكال والأحجام... أحذية بكعب وأخرى مسطحة... أحذية عسكرية وأخرى مدنية... أحذية كثيرة ومتعددة بموديلات وتفاصيل وقياسات مختلفة... لايهم شكلها ولا عددها... المهم أنه كان متأكدا أنها جميعها أحذية من ماركات غالية وذات جودة عالية، وكان على يقين أنه لم يلعق يوما قلشينا. والآن فكر مشمئزا من الفكرة وصوت ذلك المست الأخضر لا يزال يرنرن في أذنيه. « لا أعرف لمَ يمنحون وثائق الإقامة لهؤلاء ؟ ». تمتم بسخط وهو ينتظر بنفاد صبر على الخط...

- انتهيت من التسوق أحضروا لي السائق. قال بعصبية واضحة.

وسرعان ما تذكر الآن إلياس وهو يفك ربطة عنقه التي بدا وكأنه سيختنق بها.

للصراحة لم يكن يبدو بهذه القذارة ! ونظر مجددا إلى الشابين بينما استحضر صورة إلياس في تلك المرة الوحيدة التي رآه فيها في مكتبه ولم يعد بعدها. وفكر الآن ساهما وهو يشعر بالاستغراب من رواية انتحاره التي تبنتها الشرطة. لم يكن يبدو لي مضطربا إلى هذه الدرجة. وخرج الآن من بوابة المطار وهو يتنشق هواء روما.

« المهم أنه لم يعد هناك من يهدد منصبي... أيا كان قاتله ». وصعد الآن في سيارة السفارة.

- 80 -

تورينو

2012 - 7 - 5

« وتستمر قوارب المهاجرين في التدفق على السواحل الإيطالية... ».

دعس إيرمانو بقوة على دواسة البنزين حتى يتمكن من اللحاق باللون البرتقالي وهو على بعد حوالي العشرين مترا من الإشارة المرورية قبل أن يتحول إلى الأحمر...

« وقد وصل أمس ما يقارب المائة مهاجر من مختلف الجنسيات... ».

زاد الآن من صوت المذياع على نحو هستيري كأنه كان يستمع إلى أغنية ميتال...

« وفي هذا السياق أكد ماسيمو بيانكي من حزب « كلنا إيطاليا » على ضرورة الوقوف في وجه هذه الظاهرة... »

لم يكن متأكدا من الوجهة التي كان يقصدها ، لكنه كان متأكدا أنه لم يعد يقصد ميلانو كما كان يفعل سابقا وذلك بعد أن رحل غابرييلي مانديل قبل عامين...

« لقد وصلت درجة البطالة بين الإيطاليين درجة لا يمكن السكوت عنها... ».

وانحرف عن الطريق الذي كان يسلكه بحركة مباغتة، وقد تذكر يوم زيارته لهذا العلامة الإيطالي ذي الأصول التركية الأفغانية، في المستشفى بعد إصابته بأزمة قلبية أحد أيام جوان من عام 2010.

« بينما إيطاليا تتكبد الكثير من الخسائر بسبب المهاجرين... »

وقد كان ذلك يوم رحيل صديقه إلياس، ليلحق به مانديل ويغادر العالم في أول أيام جويلية من عام 2010.

« المهاجرون في الواقع يشكلون عبئا على إيطا... »

والآن أقفل المذياع... ولم يجد نفسه إلا وهو يركن السيارة وينزل بهدوء منها متجها إلى تلك الساحة. ما الذي يمكن أن يكون أكثر مأتمية في تلك اللحظات من زيارة بياتزا ستاتوتو ؟ لم يكن يدري تماما ما كان يفكر به في تلك الأثناء. ها هو يقطع الشارع دون أن يلتفت من حوله وكأنه كان تحت تأثير إبرة مخدرة. وتوقف فجأة قبالة نافورة ديل فريجوس يتأمل التماثيل البيضاء للعمالقة من أصحاب الأرواح المعذبة وهم يحاولون تسلق صخور النافورة المستعصية. لم يكن يفهم يوما وهو يتأمل ذلك التمثال سبب رغبة هذه المخلوقات البيضاء للوصول إلى قمة الهرم حيث كان ينتظرهم ذلك الملاك الأسود ذي الملامح الجنائزية. لابد أن القاع هناك كان حتما مظلما... بائسا... مهينا... وربما كان يحتوي أيضا على مخلوقات شنيعة... لقد كانت تعابير وجوه أولئك المغامرين بأرواحهم على صخور النافورة تشي بأنهم كانوا يفرون من موت أبشع من موت السقوط من فوق تلك الصخور المتراكبة والغرق في مياه النافورة السحيقة.

لقد كانت الأسطورة التورينية تقول أن باب جهنم موجود في تلك الساحة بالقرب من هذه النافورة بالذات، لكنه الآن غدا مقتنعا أنها موجودة بلا شك وراء الماء... في الهاوية. هاوية كان يفر منها حتى أشد المخلوقات قوة مفضلين تسليم أرواحهم لذلك الملاك الأسود المجنح الذي كان يقف على القمة ينتظر قدوم الفارين من الموت لحملهم إلى موت من نوع آخر، وهو الذي كانت تزين رأسه تلك النجمة الخماسية الملغزة والتي كانت مثبتة على رأسه بزاوية مائلة. فكّر إيرمانو وهو يتأمل التمثال الذي صممه رئيس أكاديمية ألبيرتينا الكونت مارتشيلو بانيسيرا دي فيليو[79] في القرن التاسع عشر، وكأنما كان يراه للمرة الأولى. لكن أين هي النجمة ؟؟ وركز نظره في التمثال وقد تأكد أنه لا يرى الآن فوقه تلك النجمة الشهيرة والتي تظهر في جميع البطاقات التذكارية الخاصة بالمدينة والمخلدة لهذا المعلم. ولكن أين هي ؟؟؟ وصدح صراخ أخرس في رأسه كان يدور في خلده منذ عامين تمنى لو أنه يستطيع أخيرا قذفه من دماغه. وفجأة تذكر أن تلك النجمة الشهيرة قد سُرقت منذ سنوات من فوق التمثال الذي صُنع تخليدا لأرواح العمال الذين قضوا أثناء أدائهم العمل... العمل ! « إيطاليا دولة قائمة على العمل ». كانت تلك هي المادة الأولى من الدستور الإيطالي. غمغم وغرق في هدوئه المريب مجددا. وعاد لينظر إلى رأس ذلك التمثال الذي غابت عنه نجمته... نجمة قد تكون سُرقت لأداء طقس سحري ما. فكر وقد سقطت عيناه على واجهة محل في إحدى المباني المقابلة للساحة كان يبدو من لافتته أنه يعرض خدمات من نوع خاص على زبائنه : « عمل... حب... حظ راكيل تساعدك على معرفة مستقبلك، بل وتعمل على توجيه قوى الخير لمساعدتك ». فكر بيأس وهو ينظر

79. Marcello Panissera di Veglio.

من حوله ونجمة الجمهورية الإيطالية ترتسم أمام ناظريه. وسرعان ما انتبه أن النجمة الخماسية المائلة لملاك النافورة التي تمت سرقتها ذات عام من سبعينات القرن الماضي لم تكن على أي حال تشبه نجمة إيطاليا التي كانت تقف على شعبتين، وفجأة تذكر نجمة الجزائر المائلة والتي طالما حيرته وضعيتها. إنها هي نفسها نجمة نافورة ديل فريجوس وقد كانتا تشتركان بذات درجة الميلان، والفرق أن نجمة النافورة المنحوسة قد سُرقت، أما الأولى فلا تزال ملتصقة على تلك الراية. ليتذكر إيرمانو الآن صديقه الراحل الذي لا يزال ملتصقا هو الآخر في ذاكرته وهو يحدثه عن أمه البيولوجية التي سُرقت منه هي الأخرى في سبيعينات القرن الماضي. واستحضر آخر رواية قرأها : نجمة. وأطبق جفنيه وهو يتذكر كيف أن إلياس قد سُرق منه هو الآخر في ذات جزائر... في ذات « نجمة ».

لقد كان على يقين تام بعد عامين من مقتله أنه... لم ينتحر.

- 81 -

ساحة سان كارلو تورينو

2012 - 7 - 5

خرجت كاترينا من الكنيسة بعد أن أدت صلاتها المعتادة، واتجهت بزهو إلى شقة والدها في فيا روما التي تمكنت من استرجاعها أخيرا بعد وفاة ابن أختها. لقد خرج اليوم منها آخر مستأجر لها وكانت تود أن تمضي يوما فيها قبل أن يدخل المستأجر الجديد حتى تستذكر أيام شبابها. لكن سرعان ما داهمها شعور الخجل وهي تستعيد زياراتها إلى بياتزا ستاتوتو عند البصارة راكيل قبل سنوات، وذلك على الرغم من أن الأب أليساندرو قد أكد لها أن الله سيغفر خطيئتها، إلا أنها كانت تشعر أنها لن تستطيع يوما أن تسامح نفسها. فإلياس رحل... رحل ليس كما كانت تعتقد بفضل طقوس المشعوذة المهاجرة القذرة كما هُيء لها. بل بفضل تضرعها لله طيلة الفترة الممتدة من 23 أفريل إلى 10 ماي من عام 2010 أمام كفن يسوع التي تحتفظ به مدينتها بكل فخر.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يُعرض فيها الكفن للمؤمنين بعد عشر سنوات من آخر عرض له، وكان تضرعها لله أمام الكفن المقدس وهي تنظر إلى وجه المسيح المطبوع بدمائه فوقه هو ما حقق

لها أمنيتها وليس طقوس راكيل الملعونة. كان ذلك هو ما أكده لها الأب أليساندرو. ودخلت الآن المبنى الأنيق في شارع روما، وهي تفكر أنها أخيرا تخلصت من إلياس الذي كانت متأكدة أنه انتحر لأنه صاحب روح ممسوخة. ودلفت إلى المصعد ليلحق بها زوج رجال كان يمسك كل واحد منهما بيد الآخر. شعرت كاترينا بالاشمئزاز من هذا المشهد وأدارت رأسها بقرف وهي تغمغم في سرها. مثله مثل صديقه غريب الأطوار إيرمانو الذي لم يكن يُعرف له دين ولا ملة ! وأعقبت فكرتها تلك بصلاة صادقة : « كثيرة هي الأشياء التي ينبغي أن نحاربها في هذا العالم يا إلهي، شواذ ومهرطقون ومسلمون. ارحمنا يارب برحمتك الواسعة ! »

- 82 -

ساحة أودان الجزائر العاصمة

2012 - 7 - 5

جلس سي بن هارون على مقعده الخفيض من أمام محله وهو يترقب عودة إسحاق، بينما كان المذياع مطفآ على غير عادته إلا أن صوت الهاشمي ڤروابي كان يرنرن في أذنيه بكلمات تلك الأغنية من دون أن يشعر بطعمها، وهو من فقد متعة التلذذ بالحياة منذ أن فقد داميا...

واغصاني من فراق لحباب ذبالوا
غابو عني ولا خبر عنهم يثبات
يـا من درا كيـف نسال يسـالوا

تنهد سي بن هارون بعمق، ثم قام من مكانه وأخذ يتجول على غير هدى داخل محله. ونظر إلى صينيته الصدئة التي كانت تتوسطها نجمة سداسية، وتذكر شرح إسحاق لتاريخها : « إنها الرمز الديني الأقدم على الأرض. وأول وجود لها كان مع الهندوسية حيث يطلقون عليها إسمها شاتكونا وهي أحد رموز اليانترا، وترمز لاتحاد الذكر والأنثى ». وابتسم وهو يفكر في ابنه الذي نادرا

ماكان يراه دون رفقة كتاب ما. وأطلق زفرة عميقة متأسفا على تركه المدرسة. وتأمل الآن ورود الصحراء ونعال البابوش ولوحات القصبة، ليغزوه فجأة شعور مفجع بالوحدة...

وحداني غريب أنا عايش... وحداني غريب
كلم لي الوطن الحبيب... الحبيب... الحبيب

ونظر الآن إلى ساعته، وفكر بالاتصال بابنه للاطمئنان عليه، ثم عدل عن الفكرة وقرر ألا يزعجه. لقد كان ذلك موعد سحب إسحاق لجواز سفره والذي قد يأتي محملا بالتأشيرة لأوروبا. غرغرت عيناه بالدموع وقد غزاه شعور عميق بالذنب لأنه لم يسمح لابنه باتخاذ هذه الخطوة سابقا. لكنه قرر أخيرا مساعدته وهو الذي لم يكن ليسمح أن يحصل معه ما حصل مع داميا. وسقطت الآن دمعتان ضاعتا بين تجاعيد وجهه الغائرة. ابنته التي رحلت قبل سنتين والروايات المشينة تلاحقها. وتذكر سي بن هارون بأسى كل ما قيل عن ابنته بعد وفاتها... لم تكن داميا كافرة ولم تكن تنتمي إلى منظمات مشبوهة، لا الماسونية ولاغيرها، ولم تكن تمارس شعائر شيطانية. وكل ما كانت تعرفه هو جزائرنا! لم يكن يعلم من أين أتى الجميع بكل هذه الروايات عن ابنته، وهل كان سؤال إسحاق ذات يوم لأستاذته في الثانوية يستحق أن يلحق وصمة الكفر بالعائلة ؟

وحمل الآن مفاتيح المحلّ، وقرر إغلاقه مبكرا ذلك اليوم. لم يكن يستطيع انتظار إسحاق أكثر، وقد يكون هناك شيء ما قد عطله عن العودة، كما لم يكن عليه هو تضييع صلاة الجنازة...

جزاير زينة البلدان
جزاير زينة البلدان
جزاير زينة البلدا...

وطرد تلك الأغنية من رأسه. وتوجه الآن إلى مسجد الحي حيث كان عليه أن يودع اليوم صديق عمره : سي عبد الله. ومسح دموعه وهو يسحب قدميه على الأرضية الإسفلتية لشارع ديدوش مراد الموجعة. سي عبد الله الذي بقي طريح الفراش عامين كاملين واختفى هو وطربوشه عن شوارع العاصمة دون أن ينتبه أحد لغيابه مع أنه كان موسوعة العاصمة المتحركة. وتنهد الآن وهو يرجو أن يحصل ابنه على التأشيرة. لم يكن يهمه الآن فكرة أن يهاجر ابنه وأن يلتقي بأجنبية قد لا تقوم بواجبها بإنجاب أبناء لتخليد اسم العائلة، واستحضر نصيحة والده له بعدم الاقتران بتلك الشابة الأوروبية التي أحبها في شبابه، ليتذكر الآن كاترينا. كان لابد أنها في عمر كوليت التي أحبها.

خلع نعليه في مدخل المسجد وصدره يعتمل بالأسى. كان كل ما كان يفكر فيه في تلك اللحظة أنه لا يريد لابنه أن يحصل له ما حصل لصديقه عبد الله وهما اللذان كانا يشتركان في حبهما للقراءة... في حبهما للكتابة... في حبهما للتفكير... لم يكن يريد لابنه أن يموت مقهورا... أن يموت منسيا مثل سي عبد الله. واستحضر الآن داميا التي لا تزال ابتسامتها حية في ذاكرته، وسمح لدموعه أن تخضب لحيته البيضاء الخفيفة. لم تكن ابنته تستحق تلك الميتة. وشهق ألما وهو يستدعي ملامح وجهها. لم يكن أحد يستحق الموت ملطخا بأكاذيب قذرة. وها هو الآن لا يريد سوى لابنه أن يحيا... كان يتمنى لابنه أن يحصل على التأشيرة... كان يريد له أن يحيا.

- 83 -

تليملي الجزائر العاصمة

2012 - 7 - 5

انتهت « يمّا مريم » من تفوير الكسكسي الذي فتلته بيديها من أجل هذه المناسبة بينما كانت تتهيأ لاستقبال الضيوف والفرحة لا تكاد تسعها. كان ذلك هو يوم « فطور العروسة »، أول عروس تدخل بيتها بعد أن نجحت أخيرا من تزويج أكبر أبنائها، وها هي تتذوق أول فرحة لها بعد أن فكت أخيرا عقدة الزواج لدى أولادها. تنهدت « يمّا مريم » بزهو وهي تفرك بخفة الكسكسي بين كفيها، وابتسمت لفكرة أن عدد من حضر زفاف ابنها قد تجاوز عدد هذه الحبات الناصعة وهم من أتوا من كل حدب وصوب لمشاطرتها لحظات سعادتها، كيف لا وهي « يمّا مريم » التي كان يحلف الجميع بحياتها، ويتقرب الجميع منها ناشدا رضاها متبركا بدعواتها. كيف لا وقد كانت هي أم الصغير والكبير في ذلك الحي والمعروفة بين جيرانها وأقاربها بلطفها وكرمها وطيبتها، وهي من كانت التجاعيد قد غزت وجهها وأضاف ذلك الخمار الأبيض الكثير من الطهارة على شكلها لتحصل عن جدارة واستحقاق على لقب : يمّا.

غرزت الآن « يمّا مريم » سكينها في قطعة لحم لتتأكد من نضوجها، وسرعان ما انغلقت ملامح وجهها وقد عادت إلى ذهنها صورة إلياس. إلياس الذي تمت تداول أخبار بعد مقتله أنه كان ينتمي لمنظمات يهودية ويمارس طقوسا شيطانية، وأنه كان كافرا... ماسونيا... مسيحيا... لم تعد تذكر لكنها لا تزال تتذكر ملامح وجهه البريئة، ونظراته الخجلة، وحركاته الساكنة، وكيف دخل آخر مرة منزلها وأكل خبزها وأخبرها أنه كان ينوي الاستقرار في منزل جده لأجل غير مسمى. وها هي تسترجع تلك الليلة بتفاصيلها.

- ادعيلنا يمّا مريم...
- ان شاء الله تربحوا يا ولادي...
- الله يحفظك لينا يمّا مريم...
- مربوحين دنيا وآخرة...
- ادعيلنا دزاير تربح يمّا مريم...
- بربي ان شاء الله بربي.

كان الكل في شقتها. الكثير من أبناء الحي مع أبنائها يشاهدون المقابلة. وكانت هي تحضّر لهم الشاي، وتدعو لهم بين الفينة والأخرى. كان يبدو أن الجميع مخدّر بأطوار مباراة الجزائر إنجلترا. اتجهت هي بهدوء إلى الشقة المجاورة. كان إلياس مستلقيا على « سرير القبة » الذي أحضرته جدته معها من بيتها القديم في القصبة. كان يبدو نائما بعينين مفتوحتين. مازالت تذكر ابتسامته لها وهو ينظر إليها وهي تقترب منه الهوينا. لم يكن يبدو مذعورا، وقد تعوّد على منظر السكين التي كانت تحملها دوما في يدها. كما أنها في النهاية يمّا مريم... يمّا... لتغرز الآن السكين في صدره مرة، مرتين ثلاثة وأربعة... ولم يقدم هو على أي محاولة للمقاومة.

شعرت بالفزع من لحظات سكينته غير المبررة، ونظرت لتلك اللوحة المرعبة التي كانت قابعة أمامه وطعنتها هي الأخرى. كان لونها يذكرها على نحو ما بلون حايك عجوز الدرج الملعونة... لون جدران المدينة القذرة... ومنازل القصبة وذكرياتها الآيلة للسقوط. والآن أخذت نفسا عميقا وقد تذكرت وصفات فضة المسخوطة، لتنخرط في محاولة قص يد إلياس بتلك السكين المسنونة، لكنها شعرت بالفزع من صوت زعيق مدوّ هز كامل البناية. كانت تلك فرصة ضائعة للتهديف اندمج الجميع معها. فكرت أنه لابد من العودة إل المنزل حتى لا ينتبه أحد لغيابها. وقبل أن تذهب حرصت على تنظيف المكان من أي أثر قد تكون تركته وراءها. لم تنس أنها خادمة سابقة لم يكن يسمح لها أن تخرج من أي شقة دون أن تتركها تلمع من ورائها. وضعت السكين في يد إلياس. وعادت الآن بهدوء إلى منزلها.

« تربحو تربحو يا ولادي تربحو... »

والحال أن يمّا مريم لم تتمكن يوما من فهم قرار عودة إلياس إلى الجزائر وهو من كان يتمتع بحياة رغدة في أوروبا ليزاحم أبناءها على ذلك المنزل... المنزل الذي كانت تنتظر وفاة عمي علي منذ سنين حتى تسترجع مفتاحه الذي بقي على اسم زوجها بعد أن حجزه لصديقه مباشرة بعد خروج المعمرين منه، وقد اضطرت بعد أن مات زوجها وكبر أبناؤها لانتظار وفاته عشرين سنة. عشرون سنة من الترقب والصبر على حق الجيرة، لكن مريم لم تكن لتستطيع أن تصبر عشرين سنة أخرى لاسترجاع الشقة من إلياس الذي عاد لاحتلال ما كان يعتقد أنه بيته، فكان عليها أن تتدخل بنفسها.

وتنهدت الآن بأسف وهي تضع الطعام في الجفنة. كانت تتمنى

لو أنها تمكنت من قطع يد إلياس حتى تستعملها لفتل الكسكسي وإطعامه اليوم لضيوفها. كان ذلك ليكون له مفعول السيطرة الدائمة على كنتها. كانت مريم تتذكر دوما وصفات عديدة يتم تناقلها عن لالّة فضة المسخوطة.

« يويويويويو يي... ».

وانطلقت الآن الزغاريد التي تشبه النداءات البدائية، والتي كان لها مفعول إبعاد العين بحسب التقاليد الشعبية. ودخل الآن أهل العروسة وهم يحملون الحلوى، وفخذ اللحم الأحمر القاني المذبوح بالمناسبة.

« مرحبا بيكم ». قالت يما مريم، وهي لا تفكر في تلك اللحظة سوى بفرحتها، وفرحة ابنها. أما إلياس فلم يكن يعنيها، بل كانت تشعر أن الله قد أرسلها له من أجل التخلص من إبليس الذي دخل عمارتها وهو الذي أشيعت عنه أخبار أنه يهودي... كافر... مسيحي... ماسوني... لم تكن تفهم معنى آخر كلمة لكنها كانت سعيدة لأنها خلصت الحي منه حتى قبل أن تعرف حقيقته، وقد يعود ذلك لصفاء سريرتها. تنهدت بارتياح للفكرة، لكنها سرعان ما شعرت بالامتعاض وهي تنظر إلى والدة العروس التي أتت متلحفة « حائك مرمة ». وتذكرت لوحة إلياس التي كانت آخر ما حط عليه نظره بينما كانت هي تغرز في بطنه سكينها. ودعت الله في سرها أن يخلصها أيضا من عجوز درج تليملي المشؤومة التي لم يعجبها يوم قدومها إلى حيها... العجوز التي رفضت أن تأكل في يوم من الأيام « الباغيت » التي أرادت أن تتصدق بها عليها.

- 84 -

الجزائر

2012 - 7 - 5

كانت تبادل الجميع النظرات من وراء حايكها... كانت تعلم أنها ترى، لكنها لم تكن متأكدة أنها موجودة. خرساء... عرجاء... عجوز... مجنونة... حية أم ميتة... لم تكن تدري من هي. هل كانت وهما أم حقيقة ؟ هل كانت أما... عذراء... امرأة... أمْ طفلة ؟ أم كانت هي العدم ؟ وأين هي ؟!

هل كانت تلك هي المقبرة ؟ وأين وجهها ؟ لم تكن تعرف وجهها... لكنها كانت تعرف أنها قد تجاوزت الخمسين من عمرها، ولم تكن تود أن تعرف ما الذي حل بوجهها... أيعقل أنها ليست سوى حفرة سوداء تلبس حائكا مهترئا ؟! أم أنها كانت تعرف وجهها وكان مشهد القمامة ذلك هو مرآتها ؟

ولماذا يضع هؤلاء بعض الدنانير أمامي، والخبز من حين لآخر ؟ لماذا يتصدقون عليّ ؟ هل هؤلاء هم الملائكة ؟!

بل كان هناك أيضا من يضع أمامي ورودا... هل هذه هي الجنة ؟!

هل صعدت روحي إلى بارئها ؟... ومن ذا الذي كان يتذكرني بالورود ؟!...

كانت هناك احتفالات صاخبة...

أم كان ذلك هو يوم القيامة ؟!...

ومن تلك التي ماتت أمامي ولم أهب لنجدتها ؟ لم تكن تدري ما الذي كان يجري حولها... فقدت توازنها... لم تشعر بنفسها إلا وهي تسقط من على رأس تلك السلالم... تدحرجت على الدرج بقوة... ارتطم رأسها بحاوية النفايات المقلوبة.

لفظت أنفاسها.

***

يمّا ماتت... يمّا ماتت.

كانت هناك...

« نجمة ».

مباشرة بعد عودة الرسام العالمي إلياس ماضي إلى مسقط رأسه بالجزائر، بإيعاز من شيخ صوفي التقاه في أحد المعابد البوذية، بحثا عن دلالة رمز قديم مطبوع على ختم الجمهورية الجزائرية من شأنه مساعدته على حلّ أحجية امرأة مجهولة. يتم العثور عليه مقتولا في شقة جده بتليملي في ظروف غامضة...

ما علاقة الإشارات الماسونية التي وجدها صديقه أستاذ الفن المقدس بتورينو مع الجريمة التي حصلت في العاصمة الجزائرية و صلاتها بالصوفية، و هل لطرائق الكبالا اليهودية التي لجأ إليها لفك طلاسم هذه الرحلة

و معها الأسرار السحريّة للحضارات الشرقية صلة بتفسير الشّفرة الفنية لشعار الجمهورية الجزائرية ومن ورائها خيوط الجريمة، أم أن للقضية أبعاد أكثر سوداوية ؟

أمل بوشارب تحملنا من خلال رواية نقف من خلالها على علاقات انسانية مريبة إلى عالم محفوف بالألغاز الدفينة يتشابك فيها التاريخي بالاجتماعي والفني مع الديني لتتفتّح فيه أعيننا على : سكرات نجمة...

أمل بوشارب كاتبة جزائرية من مواليد 1984 بدمشق ـ سوريا، **سكرات نجمة** هي روايتها الأولى بعد مجموعتها القصصية عليها ثلاثة عشر الصادرة عن منشورات الشهاب عام 2014 .

مكتبة نوميديا

صورة الغلاف : قيس جيلالي.

9 789947 391457

CHIHAB